

اصوات

فري الثقافة السودانية

محمدي أبو قريش





DAWAYA
SUDANESE BOOKS

اصوات

في الثقافة السودانية

مكتبة أبو قريظ

سيف

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

مكي أبو قريجة/صحفي وكاتب من مواليد مدينة كوستي بالسودان
وتلقى دراسته الأولية والوسطى في مدارسها ثم المؤتمر الثانوية بأم
درمان. تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة - فرع الخرطوم. وصدر
له «اليهود في السودان» (طبعتان)، «أصوات في الثقافة السودانية»
(طبعتان)، «الأمل والقنوط في بلاد الأرنؤوط»، «صولة بني عثمان في
ملاحم الثورة المهدية». وله مجموعة شعرية تحت الطبع.

أصوات في الثقافة السودانية

مكي أبو قريجة

الطبعة الثانية يناير 2015

رقم الإيداع: 2014/25316

الترقيم الدولي: 978-977-5154-34-7

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية،
فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء
من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا
بإذن كتابي.

No part of this book may be
reproduced or utilized in any
form or by means, electronic
or mechanical including
photocopying, recording or by any
information storage and retrieval
system, without prior permission in
writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلبي

إخراج فني
علاء النويهي

الأوامر الواردة في هذا الكتاب لا تميّز بالضرورة
عن رأي دار المنصافة.



دار المنصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى من ش المنشية الجيزة ج م ع.

أصوات

في الثقافة السودانية

الفهرس

8	الإهداء
9	مقدمة الطبعة الاولى
11	مقدمة الطبعة الثانية
12	عبدالله الطيب
16	شيء من تكرياته في زمن الطلب
22	صومعته.. كلية غردون
26	رحيله.. حريق مكتبة الاسكندرية
30	الطيب صالح وحظاياه الملوك
34	ذاكرة السودان المتقلبة
39	الواقعي يتجاوز المتخيل
44	المجذوب في مزرعة الحرية
50	رسائله إلى ديزي الأمير
55	جمال محمد أحمد
60	التاريخ السوداني في نصوص بورخيس
66	ما بين لوركا والخليل
71	صلاح أحمد إبراهيم
74	بين شاعرين زقودة وود العادح
80	تحريض على الكتابة والإبداع
85	حمزة الملك طميل
91	محمد الحكي إبراهيم بين الشعر والنثر
97	شابو- الشاعر ذو القلب الرنان
102	كمال الجزولي.. قمع الكلام
106	عرفات.. المنقلب المرفف والكاتب الطليعي
118	الطبقات.. بين غرابة الوقائع وعذوبة النص
124	إسماعيل الدقلاشي
129	عثمان حسن أحمد
135	قصص ونواير.. مع « أصوات وحناجر»
141	الدكتور أحمد الطيب
145	صلاح بشري وكمال عبدالحليم
151	محمد أحمد مجذوب

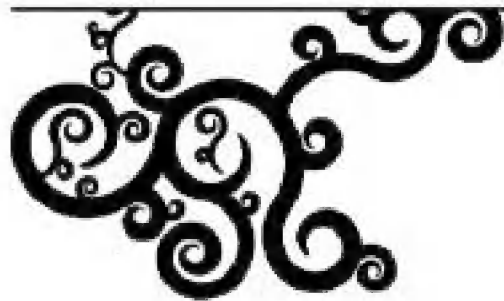
156	«موت دنيا».. جدلية الحب والمعرفة
162	عمامة تحت عمامة
168	جوزيفينا بخينة
173	الفتى الذي فقدناه في ناشفيل
177	مدرسة رمبيك
183	موت حلم
188	يوسفات ازماي توماس في السودان
193	فيليبيا.. ممرضة بريطانية زوجة لأول رئيس سوداني
197	واقفا تحت جبل المشنقة
203	الفتى ضمير المدينة
211	اميراطورية رايح فضل الله
215	إبراهيم زكريا.. زعيما لعمال العالم
221	إحسان عباس.. مدرسا بجامعة الخرطوم
226	ابن عمر التونسي.. وتاريخ دارفور
232	نعوم شقير.. كما رآه أبو سليم
238	يوسف ميخائيل.. مؤرخا بمحض الصدفة
243	ملساة مؤرخ.. الفرستة الذئاب
249	مذكرات يوسف بدري
255	أم درمان.. صبية بين المدائن
260	أم درمان.. صبية بين المدائن -2
265	ملساة الفتح
270	عطيرة مدينة الحديد والنار
274	منهج الطفلة اللئيم
278	أحمد خير المحامي.. «كفاح جيل»
284	البارية ورثة الحضارة السودانية القديمة
289	عبدالرحمن عباد.. الشفافية ونفاس الحكمة
295	السودان.. حروب الموارد والهوية
300	حروب الموارد.. المؤلف
304	براميل.. المستقبل العادل
308	الأميرة نصرة وحوريات مارتجان
313	الكارب.. وقصة مشروع الجزيرة
319	مامون بحيري والخدمة المدنية

325	عبدالرحمن علي طه .. التربوي المؤسس
330	إبراهيم أحمد .. عفة اليد واللسان
336	الطهطاوي في السودان
342	إبراهيم أحمد عبدالكريم .. الرحيل الميألت
345	عبدالله رجب .. العصامية والمثابرة
351	محمود حاج الشيخ عمر
355	القدال رئيسا لحكومة حضر موت
361	التجاني الماحي .. النطاسي البارغ والعلم الموسوعي
366	مكتبة التجاني الماحي
371	المرأة السودانية .. تاريخ طويل وتجربة خصبة
378	د. فاطمة بابكر محمود
380	الإتحاد النسائي السوداني
387	صورتان للملكة آمنه
396	الحاجة ست البنات أم سيف
400	موت رائع لامرأة شجاعة
405	أنفاس البسار في أحداث 1924
409	حيوية الحزب العشائري
414	رؤى جديدة حول مسألة الهوية
418	في كون الشلاقة عاقلة
424	رواج الثقافي وتلاشي السياسي
428	البعام في مملكة الحيوان
434	صالح مؤمن .. أوروبي لا تخطئه العين
438	هوجكن في وثائق من التاريخ السوداني المعاصر
444	شيكاز .. المعركة الأسطورية
450	سجناء الضمير من أنصار الثورة المهدية
456	بدايات الحركة المسرحية في السودان
461	حسين شريف .. البدايات الأولى للصحافة السودانية
467	الخرطوم في القرن التاسع عشر
473	الثقافة في مواجهة التسلط والقهر السياسي
478	معاوية نور .. صورة وخبر
482	الاستعماري النبيل وضمير المثلث
487	لقاء في بحر المانش



إهداء

إلى والدي
اللذين ربّاني وأحسنّا إليّ
وأودعا بين جوانحي حب الوطن
عليهما رحمة الله ورضوانه ۞



متدنة الطبعة الأولى

قطرات من بحر النيل

الثقافة السودانية غورها عميق وروافدها متعددة وأناقها مشابهة. فسماتها تشكلت عبر آلاف السنين. شاركت في صنع الحضارة الإنسانية - إن لم تكن ينبوعها الأول - ثم لم تلبث أن ران عليها النقطاع. لسنا بصدد الإحاطة بكل ذلك، وما كنا عليه عاكفين. ولكن حاولنا تقصي بعض تجلياتها من خلال رؤى سمرت بعد قراءات ومشاهدات ومسامرات واستعراض عميق لموروثنا من الحكايات والروايات المتصلة بخصائص تلك الثقافة ومظاهرها المتنوعة.

نفعل ذلك في دُجى لنا هذا الطويل، فنستدعي بمحبة واحتفاء وجوهاً عزيزة لنفر كريم من مبدعينا، أدباء وفنانين ومؤرخين ومعلمين ومناضلين ونقابيين ومتصوفة وقديسين، رجالاً ونساءً وأشخاص عاديين من غمار الناس - ملح الأرض - مروا سراعاً كأنفاس الصباح إلا أن آثارهم بقيت كعظمة الإماتونج ورسوخ جبل مرة وكبرياء الداير. نستدعي أيضاً بعضاً من أيام أمتنا الولود - معاركها وبطولاتها وانتصاراتها، وانكساراتها.. أيامها النضرات ومواقفها المشرفات وأعيادها المشرقات.

وفي اعتقادنا الجازم أن ما يحقق الآن بوطننا من محن وأزمات ما هو إلا تعبير عن قصور وعينا بتاريخنا وثقافتنا. وما السياسة - في أرقى خطاباتها - إلا تجلي الوعي بالذات والعمل من أجل حياة غنية مشمرة زاخرة بالنشاط الإنساني الخلاق.

هذه الكتابات نشرتها صحيفة «الإتحاد» بأبوظبي على مدى خمس سنوات (2000-2004) كما أعادت نشرها صحف عربية وسودانية. أردنا بها أن نقدم

نماذج من الثقافة السودانية لأجيال منقطع بها.. حجبتها الظروف السياسية الماحقة عن رؤية ذاتها وتجاذبتها المهاجر والمنافي - ما أبقت لها ظهراً. أردنا أن نشد من أزر تلك الأجيال ونقول إن لها تاريخاً مجيداً وحضارة حاذقة ثرية ووطناً جديراً بالانتماء إليه وقد سرت هذه الكتابات كثيراً من القراء فأعربوا عن سعادة غامرة وفخر مشبوب ولولا ذلك لما أقدمنا على جمعها في كتاب. أما أصدقاءنا المثقفون الحادبون الغارقون في هوى الوطن وهمومه فقد أبدوا حماساً فائقاً منذ الوهلة الأولى.. ظلوا مثابرين على الاتصال والتتويه عقب كل مقال.. وجدوا فيها تعبيراً عن صورة ذلك الوطن السعيد.. وكثير منهم ساهم بشكل إيجابي في إثراء تلك الكتابات مزوداً بالكتب النادرة والمعلومات المفيدة والنصائح الغالية وفي مقدمتهم العالم الكدود الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه الذي أشرح قلمه - دون من وادعاء - يقف مناقحاً عن تاريخ أمته وحقوقها ومصالحها وحدودها السياسية ومياه نيلها وموروثها من القيم الأخلاقية الباهرة.. ولا غرو فهو الليث من ذاك الأسد. كما لا يفوتنا أن نذكر بالخير الأستاذ الكريم راعي الثقافة السودانية محمود صالح عثمان صالح لإهتمامه ومتابعته وتشجيعه الدؤوب والتزامه بطبع الكتاب من خلال مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي. والشكر للصدیق الشاعر راشد سيد أحمد الذي زودنا بالصور النادرة من العاصمة البريطانية. ونسوق الشناء أيضاً للأصدقاء الأستاذين الفنانين التشكيليين مهاب لبيب ويوسف شعبان وكل من الأساتذة عبدالجبار عبدالله وحلمي مصطفى وجلال بشري وعلي الطيب والأئمة رحاب محمد عبدالله وغيرهم من الفضلاء الكرام الذين طوقوا عنقي بما قدموا من ضروب التعاون الصادق بكل تجرد وسماحة.

مكي أبوقرعة

أبوظبي 2005

mekkihas@hotmail.com



مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب بأبو ظبي عام 2005 من مؤسسة الإمارات للإعلام، حيث كنت أعمل محرراً سياسياً وأحياناً ثقافياً بصحيفة «الاتحاد» إلى أن تم إنهاء خدماتي في تلك المؤسسة بعد أكثر من ثمانية عشر عاماً.

عدت إلى السودان وشاروا في أمر توزيع الكتاب وأخفقت وحدة النشر التابعة لها وتوقف نشاطها. وقد تم توزيع أقل من ثلاثمائة نسخة فقط من الكتاب بالسودان. وعندما وصلت نسخة منه طرف الصديق الدكتور محمود صالح عثمان صالح راعي الثقافة السودانية قرر على الفور طبع ألفي نسخة وتوزيعها من خلال مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي. وحالت دون ذلك أسباب تقع مسؤوليتها على عاتقي. ولا أرى من الضروري الخوض فيها. والآن تصدر الطبعة الثانية كما كانت الأولى إلا من تنقيح خفيف وإدخال مفاالتين في الكتاب «ألفتي ضمير المدينة» و«صورتان للملكة أمنة». وما زالت الظروف التي ظللت هذه المقالات كما هي لا تبرح مكانها والأزمات السياسية والاقتصادية والأخلاقية تأخذ بتلابيب البلد. وما زلنا نؤكد أن مخرجنا هو الإهتمام بثقافتنا وتاريخنا لشحن الوعي السياسي لهذا الجيل حتى يتمكن من الإمساك بمصيره ويصنع مستقبلاً يكون جديراً بهذا الشعب العظيم.

المؤلف

17 مايو 2014م

متابطة التراث... مستشرقاً الحدائق

عبد الله الطيب



في ذلك المساء البعيد من عام 1945 كان مسرح معهد التربية بجامعة لندن يحتشد بجمع غفير حين اعتلى الخشبة شابان أسمران نحيلان دقيقا الملامح - أحدهما مفصود الخدين - وأخذوا ينشدان ويرجعان قصيدة جميلة ذات رنين صاوح. كانت القصيدة من تأليف أحدهما وهو عبد الله الطيب وترجمها الآخر - أحمد الطيب - وكانا آنذاك مبعوثين إلى إنجلترا. وبعد أن فرغا من ذلك الإنشاد العذب تدافعت نحوهما العذارى والتفنن حولهما يطلبين توقيعهما على النسخة الإنجليزية التي تم طبعها بالرونيو وتوزيعها على الحضور. جاء في القصيدة التي نخلد فيها عبد الله الطيب العاصمة البريطانية كما لم يستطع أبلاغ شعرائها أن يفعل:

حياتك (لندن) ريحان له أرج من الرياض النصيرات المأنيف

ما أن يجف إذا جف الربيع ولا يمسى بصوحه مر المهاييف

صوب العقول حياه فهو مكتهل ريان بالزهر ذو وشي الفاويف

ولا أذهب بعيداً إذا زعمت أن قصيدة أخرى لعبد الله الطيب كتبها في أبريل 1946 وعنوانها «الكأس التي تحطمت» ما كانت تصور إلا صهوة من صهوات الصبا في لندن شاركه فيها صديقه أحمد الطيب.. والعجيب في أمر هذه القصيدة الجميلة أنها تعتبر من الشعر الحر الذي ناصبه الدكتور عبد الله الطيب عداً لم يخف أواره إلا أخيراً. حتى هذه القصيدة التي سبقت في الزمان قصيدتي «كوليرا» لتنازك الملائكة و«بلوتولاند» للدكتور لويس عوض لم يحاول الشاعر من خلالها أن يزعم ريادة تلك الحداثة الباكورة حتى حينما حاول بعض النقاد إثبات ذلك وقال إنها مجرد محاكاة لنفس شاعر إنجليزي أشار إليه. غير أنني أرى أن القصيدة الرائعة للشاعر محمد المكي إبراهيم «هايدي» فيها نفس عميق من «الكأس التي تحطمت».

والدكتور عبد الله الطيب هو أحد أبرز العلماء والمثقفين السودانيين الذين انتفعت بهم بلادهم. وقف مستيقناً عاماً في قاعات الدرس يعلم ويحاضر ويكتب ويؤلف ويضع المناهج والمقرارات ما وهن عزمه وما كل مساعدته وما خيب أملاً لأمته - لا تأمر عليها ولا شارك في وأد حريتها ولا ركض وراء الاستوزار يطلب جاهاً. وما نتج عن خصوماته في جامعة الخرطوم بشأن منصب المدير سوى الشعر العظيم. ولا عجب في ذلك فالرجل يتحدر من عترة كريمة جعلت من العلم حياة لها. فالمجاذيب دورهم لا يخفى على أحد؛ علماء وشعراء وأدباء وثواراً رفعوا شعلة العلم الوقادة في الدامر وامتشقوا السيوف ذوداً عن الوطن أنصاراً للإمام المهدي في الشمال والشرق واحتسبوا عدداً من الشهداء. ذلك غير ما قدموه في انتفاضة السودانيين ضد الأتراك في عشرينات القرن التاسع عشر.

بعد تخرجه في كلية غردون التذكارية عمل عبد الله الطيب في التدريس بالمدارس الوسطى بأم درمان الأهلية وروى لي زميله العم الأستاذ مبارك بابكر البشير - عليه رحمة الله - أنهما كانا يدرسان اللغة الإنجليزية للصف الرابع - وكان فصلين - وحدث أن تفوق فصل الأستاذ مبارك على تلاميذ عبد الله

الطيب، وفُسِّر لي العم مبارك السبب - ضاحكاً - أنه كان يلتزم بالمقرَّر ويجوده أما عبد الله الطيب فكان يخلق بهم في سماوات أخرى من المعرفة ويتشعب في الحديث فيتخذ مارب شتى.

وتجد تلك العادة مستقرة لدى الدكتور عبد الله في الحديث وفي الكتابة. فإذا استمعت إليه يشجيك بصوته المديد وأحاديثه الطلية المتنوعة ويقودك إلى عوالم ساحرة في اللغة والمعرفة وإذا قرأت نشره يأخذ بلبك ويمشي بك في دروب التاريخ والسَّير والخرافات والناس بمختلف أنماطهم فتقلب بين نعيم المعرفة وطرافة الحديث.

كانت حياته الأكاديمية والفكرية زاخرة حيث عاد للتدريس في كلية الخرطوم الجامعية واستمر معاصراً أطوارها المختلفة حتى إكتملت في طورها الحالي جامعة من أكثر نظيراتها عراقية في العالم. وتولى عمادة كلية الآداب بجامعة الخرطوم ردها من الزمان نعم فيها طلابه الذين كثيراً ما كان يشي عليهم ويرعاهم ويشمن مجهوداتهم بفيض علومه الزاخر وحضور شخصيته الطاعني. ثم أصبح مديراً للجامعة لمدة عام ومديراً لجامعة جوبا عاماً آخر. صدرت له عدة دواوين من الشعر الرصين منها أصدقاء النيل وبنات رامة وأغاني الأصيل. واهتم بالمسرح فألف مسرحية زواج السمير وغيرها. أما كتابه المرشد لفهم أشعار العرب فقد ظل مرجعاً نقدياً عميقاً يلتزم فيه بالمنهج العلمي متناولاً قوافي الشعر وأوزانه تناول المجد القادر على هضم التراث.

ظلَّ عبد الله الطيب عضواً بمجمع اللغة العربية في مصر منذ عام 1961 وقام بتأسيس جامعة بابيرو في كاتو بنيجيريا، كما عمل أستاذاً للغة العربية في كلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبد الله في المغرب، وقضى فترة يدرس في معهد بخت الرضا لتدريب المعلمين وإعدادهم في الدويم وساهم بجهد مقدر في إعداد المناهج. وكثيرون ممن عاصروه من المعلمين يذكرون خلافاته مع

مستر قريش الذي أسس المعهد.... فأوسعه سباً ولجأ إلى سلاح الشعر الذي يلوذ به كلما أحس بضيق.

وعهد بخت الرضا لما تحيقنا ثافي
وكان صغيراً تالها صلفاً
والفت كتب الأطفال طائفة
من الأعاجم فينا كيهم كفافاً

وما زلنا نذكر كتب المطالعة للمرحلة الوسطى التي قام بتأليفها بلغة جزلة سائغة سببت عقولنا الغضة في تلك الأيام وأسعدتنا حكايات «السندباد والرخ» و«مسرحة» «عمرو بن يربوع» اللتين صاغهما شعراً ومسرحة «أبو الحسن وهارون الرشيد» وغيرها.. وما زال كتاب «الأحاجي» الذي ضم مجموعة طريفة من القصص والأساطير السودانية يعاد طبعه للأطفال عاماً بعد عام فيشجذ خيالهم وينمي عادة القراءة فيهم.

أما كتابه من «نافذة القطار» فيظل من أمتع ما قرأت من النثر الحديث - ولا ألتبس له نظيراً من جنسه الأدبي غير أنه أقرب إلى الهايكو الياباني - وهو ضرب من الشعر يكفي بيت منه للتعبير عما تأتي به قصيدة كاملة. ففي ذلك النثر لكل كلمة صداها - سفرأ ماتعاً بالقطار يطوف بك على المعارف والنوادر والحكم ويتنقل فتحتويك الدهشة والأعجاب.

حملت إلينا الأنباء أخيراً أن الدكتور عبد الله الطيب الذي وصل إلى إنجلترا في إجازته السنوية كمعادته في كل صيف ألم به عارض زائل - بإذن الله - وألزمه سرير المستشفى فوجفت القلوب - إلا أن ما تواتر من أنباء بعد ذلك أفاد بتحسن صحته واستقرارها ولا نملك إلا أن نرفع الأكف بالضراعة للعلي القدير أن يمن على ذلك العالم الموسوعي الكبير بالصحة ويمتعه بالعافية فالدنيا في غياب أمثاله ماسخة عجوز وعاطل جيدها عن كل حلية.

22 يونيو 2000

شيء من ذكرياته في زمن الطلب

عبد الله الطيب

في الشهر الماضي شاهدت حلقة تلفزيونية أحسبها ضمن برنامج «من الأمس» إستضيف فيها الشاعر الراحل إبراهيم العبادي وآخر لم يوفق مقدم البرنامج في إبراز اسمه.. كما لم يوفق في كل ما فعل.. أخال أن ذلك التسجيل جرى في أوائل سنوات الثمانين.. كان المقدم جهماً غليظ الحس ومحدود القدرات حتى أنه لم يكن يعي دوره- فلن أنه هو محور الحلقة وتصرّف على هذا الأساس- إلا أنك تكاد لا تخطيء إشراقات العبادي وطرافة ذكرياته. كان في تمام كيفه ورغبته في الحديث لو لا تسلط مضيقه وجهله بقيمة ما يختزنه من معارف.

تحدث العبادي عن الحردلو ود أبوسن في مشهد أمام الخليفة عبدالله يستسمح فيه بشأن الخليفة شريف ويحاول رأب الصدع في الخلاف الذي نشأ بين أهل النيل والخليفة. ولقد كان ظني أن الحردلو لم يستمع الخليفة إلا بشأن ابن عمه عمارة ود أبوسن. كنت تواقاً لأن أسمع المزيد من تلك الأخبار، ولكن الأخ الإعلامي الخطير حرمني والمشاهدين عمداً. وتحدث العبادي عن شاعر يدعي كباسة تبارى مع نظير له أمام الشيخ العبيد ود بدر الذي أجاز كل واحد منهما بناقة. الحديث كان طلياً ونادراً- لولاه سامحه الله. والظريف في الأمر أن كباسة ذلك هو صاحب المثل الذي سارت به الركبان «عمى كباسة». وأوضح العبادي أن كباسة ولد أكمها بلا عيين إلا موضعهما. أسوق ذلك بمناسبة ما يضيّع منا من معلومات تتعلق بتاريخنا الاجتماعي وثقافتنا الوطنية.

أضرت بنا الشفاهية.. وحتى هي لم نستفد منها بالتسجيل والتوثيق. فأسلافنا

الذين يغيبهم الردى واحداً تلو الآخر ممن كانوا جزءاً مشاركاً في ذلك التاريخ بمثابة مکتبات تحترق - كما عبر المستشرق الفرنسي جاك بيرك. ولكني أرى الآن وميضاً من أمل أخذاً في الإنتشار في مجال الكتابة وخاصة المذكرات التي طالما ألفت أضواء ساطعة على التاريخ الاجتماعي للأمم. فاجأ الدكتور موسى عبدالله حامد المهتمين بكتابة إبداعية حقيقية حين كتب عن ذكريات الطقولة وأيام الطلب في مدرستي أم درمان الأميرية الوسطى وخور طقت الثانوية. رصد تلك الأيام بذكرة فوتوغرافية متوقفة، حصّة بعد حصّة وحدثاً تلو حدث بلغة رصينة أخاذة. كان ذلك آخر المساهمات في هذا الإتجاه وإن لم أحظ بقراءة الجزء الأخير منها حتى الآن.

ولكن تبقى ذكريات الدكتور عبدالله الطيب التي ضمنها مجموعتيه النشيتين «من نافذة القطار» و«من حقبة الذكريات» وغيرهما أعمالاً مدهشة تكتسب الطابع الروائي الملحمي لما فيها من غنى في اللغة والمضامين ومن عرض للشراء الذي تميّز به ذلك الزمن الإستثنائي. كتب الرجل مخلصاً ما غادر شاردة ولا واردة مما مرّ عليه من أحداث.. لم يخضع لترتيب أو تكنيك شأن معمار الرواية الحديثة التي غلبت ألباب النقاد. يتناول حكايات ويربط بينها وبين ما يناسبها من أشعار وأخبار تاريخية وأدبية فتنشعب الشجون وهو ممسك بخيوطها شأن الحاذق الماهر الدؤوب. تكاد تجد فيما يقول بعضاً من ذاك أيام الدراسة وإن اختلفت الأحوال بتقدم الأيام والتبدلات التي طرأت.

التعليم عندنا حتى نهاية المهديّة كان دينياً إلا أنه كان لا يقل مستوى عن أي مكان آخر في العالم الإسلامي، بما في ذلك الأزهر والزيتونة، وعندما هم الإمام المهدي في أيام الطلب بالتوجه إلى مصر نصحه بعض شيخوخه بأن مالمقه في بلاده من علوم لن يزيد عليه هناك والخير في أن يظل مقيماً. وتجلى ذلك الرعم حينما حاوره الأب أهروفلدر القس الألماني الأسير والذي ألف كتاباً طفق بالحقق والبغضاء

«عشرة أعوام في الأسره، إلا أنه اعترف بأنه حين حاور المهدي وتحدث معه في شؤون اللاهوت وجد «بحراً لا يسير له غور».

في بداية القرن العشرين أعاد العهد الجديد المدارس الابتدائية التي كانت قائمة في العهد التركي وأنشأ كلية غردون وهي التي عُرفت بالكلية القديمة في الأوقات اللاحقة. كثير من رؤادنا الأوائل في التعليم والفكر والسياسية والثقافة والصحافة والطب تخرجوا من تلك الكلية.. وكثير منهم أيضاً تجاوزها مستوى بعد ذلك ليلتحق بالجامعات المصرية أو جامعة بيروت الأمريكية أو جامعات بريطانيا. إلا أنهم ظلوا يتذكرون الكلية كأنهم ما قرأوا بعدها.

لما استعد عبدالله الطيب لأداء الامتحانات لدخول الكلية في ديسمبر عام 1935 كانت هناك بضع عشر من المدارس الوسطى، لم تكن كلية غردون مدرسة ثانوية حقاً، كانت مدرسة إعدادية للتوظيف.. كانت «التجهيزي»، ثم صارت ثانوية فيما بعد حين أدخل في نظام التعليم امتحان شهادة كيمبردج وقامت المدارس العليا التي إنتقل إليها اسم كلية غردون ومهدت لقيام جامعة الخرطوم. وعندما التحق عبدالله الطيب بالتجهيزي كان يستطيع أن يحدد الدراسة التي يرغب فيها. وكان القضاء الشرعي طموح الجميع ووفقاً على التلاميذ الأذكى - وكان هو في مقدمتهم - إلا أن إختيار هؤلاء كان يتم كل خمس سنوات، وما كان صاحبنا يميل كثيراً للقضاء، بل كان إلى التدريس أقرب، يستعجل السنوات ليتوظف بسرعة بسبب ظروفه العائلية. لم يستجب لدعوات معلميه في الالتحاق بالقضاء لذا كانت خيبة أمل مستر سكوت كبيرة.. ولهذا الخواجة فضل كبير على التعليم في السودان. فعندما إلتقاه بعد سنوات وهو يدرس في معهد بخت الرضا قال له متحسراً «إنك كنت أذكى تلميذ مرّ على الكلية»، وقيل إن مستر سكوت زار السودان بعد ذلك عام 1967.. كدأبه من وقت لآخر في فصل الشتاء، وكان قد أسن وجعل ينتابه بعض النسيان. جمعتهم مائدة إفطار عامرة في شهر رمضان أقامها الزعيم إسماعيل الأزهرى للمضيف

الزائر. وكان الأزهرى قد درّس عبدالله الطيب الرياضيات في الكلية عام 1939 وظلّ يُدرّس إلى ما بعد منتصف عام 1945 ليتقاعد متفرغاً للعمل الوطني.

عندما دخل عبدالله الطيب الكلية كان الدكتور أحمد الطيب قد تخرّج فيها إلاّ أنه اتخذ نفس عنبره سكناً له - عنبر أولاد مدرسة بربر - ألغى ذكراً حية عطرة تتداولها الألسن حيث كان قد نظم قصيدة هزلية طالب فيها «زين العابدين أفندي» ضابط الغداءات للداخليات بزيادة سكر شاي الصباح بنصف قطعة حيث كان المقرّر قطعتين ونصفاً. ولم يستجب الرجل طبعاً وظلّ الحال كما هو إلاّ أن صيت القصيدة تجاوز جدران الكلية حتّى أن محلات «جولدنبرج» للساعات والنظارات بالخرطوم أجازت أحمد عليها بساعة منه.

كان عبدالله الطيب يعرف شكل الكلية حيث زارها مرّة عام 1931 مع والده - الذي كان مدرّساً أيضاً - وأبلغه أنّه سيلتحق بها يوماً ما وسيخلق شعرة «كاريه» وسيذهب إلى أوروبا، ويقول الدكتور عبدالله إنّ والده عرف ذلك عن طريق الكشف.. حيث كان الرجل صالحاً.. إتفق حوله جماعة من الفقراء. تحدّث عبدالله الطيب عن الداخليات وقال إنّ أغلبية أولاد العاصمة كانوا يحتلون «كتشنر» و«كرري» وأولاد «ستاك» من أولاد بربر والدامر وعطبرة وشندي وسائر الشمال وأولاد الغرب يسكنون في داخلية «مفي». وكان من بين داخليتي «ونجت» و«آرثر» تنافراً على الرغم من أنّ معظم طلابهما من بيئات ريفية مُعنة في البداوة. وكان أولاد «ونجت» ينظرون إلى مستقبل الوظيفة بجد وصرامة، وكانوا «كبابين» في نظر سائر التلاميذ، أما أولاد «آرثر» فلا يعترفون لأنفسهم ببداوة، وكانوا يحاولون تحدي أولاد العاصمة بإبراز خصائصهم الريفية كنوع من الأصالة، إلى درجة أنّ بعضهم ربما جاء معه بدهن «الكركار» ليمسح به جسمه إمعاناً في إبراز خصوصيته. إلاّ أنّ وصفه لطابور الصباح بظلّ الأطراف حيث يأتي رئيس الرؤساء بتيه كالمطاروس يرتدي جلابية من سكرونة، أو بوبلين أو تيل هزاز وفوق رأسه طاقية حرير حمراء وفي قدميه

أصوات

شبيب من جلد النمر، يمشي في خيلاء كسائر رؤساء الداخليات، يمشون في خيلاء كالعمد ونظار القبائل في إحتفال 17 يناير، ذلك الإحتفال الذي كان يقام في عواصم المديرية لتجديد ذكرى زيارة الملك جورج الخامس إمبراطور الهند وملك بريطانيا لعيناء بورتسودان عام 1912 في طريقه إلى الهند.

لَمْ يكن الجمباز مرحاً خفيف الظل كما كان في المرحلتين السابقتين - الأولى والوسطى - كان ثقيلاً على النفس بسبب العنت ويراد به الإخضاع والضعف - وقد ذاق منه صاحبنا فيما يبدو الأمرين. فقد كان مشرف الداخلية الإنجليزي يأتي بصحبة كلبه يرتدي الشورت والجوارب الطويلة الثخينة. وكان الشورت لباس المكاتب أيضاً يبدو وكأنه يحض على التشمير وروح الجد التي أشاعها الحكام البريطانيون بين الناس.

لَمْ ينس عبدالله الطيب أن يلاحظ رجلاً شيخاً كان يجلس تحت شجيرات ليمون ظليلات أمام فصول السنة الأولى الخمسة.. وكان الطلاب يرددون أن هذه الأرض كانت جروف والده قبل أن تستولى عليها الحكومة وزعموا أنه كان يبيع السجائر للتلاميذ الذين يدخونها. كانت السجائر ممنوعة في الكلية إلا أنهم سمحوا بها في فصول الامتحان في المدارس العليا. كما لَمْ ينس «مستورة» التي كانت تبيع الفول بالقرب من مقهى الطلاب «كان قولها جيداً ذهبي الحبات، كامل الاستواء، ومعه سلطة فلفلية متوقدة وزيت مستجاد، كما كان رغيفها بلدياً شمسياً حسناً».

تلك الذكريات التي صاغها عبدالله الطيب بحبة واثقان جدية بالقراءة وخليقة أيضاً بأن تغري الآخرين ليكتبوا عما رأوا وأحسوا لترسي تقليداً إيجابياً مبيقتنا إليه الأمم الحاذقة.

19 يونيو 2001م



الجميل بالجبة والقطنان

صومعته.. كلية غردون

عبد الله الطيب

كان لحقتل الجنرال تشارلس غردون حكامدار السودان في 26 يناير 1885 رنة حزن وأسى عميقين في أوساط الشعب البريطاني الذي رأى فيه رمزاً متألقاً في ذلك العهد الفيكتوري، المزهو بانتصاراته وعظمته.. إعتبروه قديساً وقف وقفته الأخيرة يصارع الهمجية من أجل نشر المدنية والإستنارة!.. ما رأوه دخيلاً غاصباً كما رآه الثوار صبيحة اقتحامهم لقصره وقتله أمام شاطئ النيل بالخرطوم.. والصينيون لا يزالون ينظرون بإكبار لذلك الشعب الذي ثار لهم من غردون الذي عرفوه مستبداً غاشماً إنان مهمة له في الصين. كانت الرغبة في الانتقام تعمل في نفوس الضباط الإنجليز حين كروا فاتحين.. كانوا معبئين بالضغينة والبارود فمشوا فوق أجساد عشرة آلاف من المقاومين الشهداء في طريقهم إلى الخرطوم عبر معركة أم درمان.. وحين عاد قائد الفتح الجنرال كتشنر إلى بريطانيا مُدلاً بنصره اقترح إنشاء مدرسة كلية في الخرطوم إحياء لذكرى غردون فتحمس له الشعب البريطاني وتداعى للإكتتاب في حملة عاطفية نادرة الحدوث. وقبلت الملكة فيكتوريا رعاية تلك المؤسسة وكانت أول المنبرعين عيناً ونقداً؛ أما رئيس وزرائها اللورد سالسبوري فقد وصف المشروع بأنه «إلتزام إمبراطوري لإزالة ما بين الشعوب من حواجز وإقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الإنسانية». ما أراد بذلك إلا التفاق المحض فأبى ثقافة إنسانية تلك التي تفرضها مدافع المكسيم لإخضاع شعب وانتزاع حريته. أرادت السياسة البريطانية للكلية التي تم افتتاحها في أكتوبر عام 1903 أن تكون مؤسسة لإعداد موظفين صغار - أفندية لا حملة لهم - لإدارة دولا ب العمل في دواوين الحكومة.. إلا أن طلابها كسروا الطوق وقاوموا العزلة وتطلعوا إلى المعارف ووسعوا مداركهم ليصبحوا مناط الأمل لأمتهم.

كان لمصر نصيب لا ينسى في تأسيس الكلية وأصبح أحمد هدايت بك أول ناظر لها تحت إشراف جيمس كري مدير مصلحة المعارف .. هدايت هذا كان أحد خريجي كلية برا رود وبقي في الكلية حتى عام 1911. وضمت الكلية عدداً من الأساتذة والملساء المصريين الأفذاذ أمثال عبد الرؤوف سلام ومحمد الخضري ومحمد أبو المجد وعبد الوهاب النجار ومحمد ماضي أبو العزائم وغيرهم من الذين عرفتهم الجامعات المصرية والمحافل الأدبية والعلمية. ذلك إلى جانب عدد من الأساتذة السوريين أبرزهم الشاعر فؤاد الخطيب، الذي كان أستاذاً للأدب العربي.

قبل أن يشتد ساعد الحركة الوطنية وتسفر عن وجهها السياسي استخدمت الأدب وسيلة لاستنهاض الهمم والتبشير بالقيم النبيلة وماضي البطولات وساهمت الكلية بأبرز شعراء تلك الفترة من طلابها وخريجياتها ومنهم عبدالله محمد عمر البنا وعبدالله عبدالرحمن الأمين ومحمد الأمين القرشي وأحمد المرضي ومدثر البوشي.. وهؤلاء تخرجوا في قسمي اللغة العربية والقضاة الشرعيين. أما أبرز الشعراء الذين تخرجوا في قسم اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة فممنهم أحمد محمد صالح وعبدالقادر إبراهيم، ومن قسم الهندسة الشعراء علي نور وعبدالرحمن شوقي ويوسف مصطفى التتي ومحمد أحمد محبوب الذي استأثر بالكتابة النقدية إلى جانب الناقد محمد عشري الصديق. ومعظم هؤلاء لعبوا دوراً أساسياً في النهضة الأدبية الحديثة والحركة الوطنية وتسلم بعضهم مناصب قيادية عليا بعد نيل الإستقلال.

وعندما تشكلت الجمعيات السياسية السرية في سنوات العشرين وأفصححت عن هوية متصلة بالكفاح المشترك لوادي النيل كان من أهدافها العمل على رفع مستوى بعض الطلاب وإرسالهم إلى مصر للدراسة الجامعية، فهرب إلى القاهرة في عام 1923 الطالبان توفيق أحمد البكري وبشير عبدالرحمن ثم لحق بهما بعد

أصوات

عام الدرديري أحمد إسماعيل.. كانت تجربة جريئة أزعجت الإدارة البريطانية فضيقت عليهم الخناق ومنعت أهلكهم من تقديم المساعدات إليهم وحرمهم من العودة إلى السودان فلاقوا مشقة وعنتاً لولا عطف وأريحية الأمير عمر طوسون الذي أجرى عليهم إعانات شهرية مكنتهم من الاستمرار بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) والتخرج فيها.

بعد تلك التجربة سمحت السلطات البريطانية لبعض الطلاب بالسفر إلى لبنان للدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت ومنهم معاوية محمد نور وعبدالله عشري الصديق، ثم أوفدت بعدهم عبدالفتاح المغربي ومحجوب الضوي وعبيد عبدالنور وإسماعيل الأزهرى.

بعد الانتفاضة العسكرية العنيفة التي قادها ضباط سودانيون ضد الجيش البريطاني في عام 1924 ران على البلاد جو خائف من الكبت والإرهاب والملاحقات البوليسية واتخذت السلطات إجراءات قاسية لكسر الإرادة الوطنية فأغلقت الكلية الحربية وبرز اتجاه لإغلاق كلية غردون أيضاً.. إلا أن ذلك استبدل بممارسات قمعية ضد الطلاب أفلح محمد أحمد محجوب في وصفها في موموت دنياه.

وفي عام 1931 والأزمة الاقتصادية العالمية في عنفوانها إرثت الحكومة تخفيض مرتبات خريجي الكلية في إطار برنامج تقشفي لتجاوز الأزمة فسعت بذلك دون أن تدري إلى إذكاء ما كان يستعر من الغضب المكبوت فنقد طلاب الكلية إضراباً هز المجتمع العاصمي واستمر حتى تدخل الوسطاء وتنازلت السلطات جزئياً عن موقفها. أدى ذلك الإضراب إلى كسر الجمود السياسي وتجاوز آثار ثورة 1924 ووضع المتعلمين أمام مسؤولية تنظيم أنفسهم لمواجهة المصير فاستمر المختاض أليماً حتى برز مؤتمر الخريجين العام في أواخر أعوام الثلاثين.

كما كان ذلك الإضراب خطوة أولية نحو تغيير برامج الدراسة الثانوية لتتنجح نحو الثقافة العامة وإعداد الطلاب للدراسات الجامعية وتزويدهم بالمعرفة التي تثري الروح وتشحذ القدرات.. وإن كان عبدالله الطيب قد وصف تلك الدراسة بأنها كانت جوفاء لا تنفذ إلى القلوب. على الرغم من أنه أشار إلى أن الطلاب كانوا يناقشون قضايا فلسفية في غاية العمق كالشك والقدر وحرية الإرادة والمعري ومساجلات طه حسين والرافعي عن كفر بشار ومجون أبي نواس ومقالة الحلاج يوما في الجبة إلا الله، وتحدث عن أساتذة بريطانيين كانوا يتدخلون على استحياء فيما يتعلق بالأفكار التي كان يتداولها الطلاب كمستر سكوت الذي أتاح فرصة الكتابة والنقد للطلاب.. الأمر الذي قابله البعض بالريبة والتوجس. كما تحدث عن أساتذة سودانيين بحثوا أمثال عوض ساني والنصري حمزة وإسماعيل الأزهرى.

وفي أوائل عام 1939 تم افتتاح المدارس العليا.. وكانت فوق المستوى الأكاديمي لكلية غردون - وهي مدارس الهندسة والبيطرة والزراعة والعلوم ثم الآداب فالحقوق. وكانت قد أنشئت في وقت سابق لذلك مدرسة كتشنر الطبية في 28 فبراير 1924 كأول مدرسة عليا بالسودان. وفي عام 1940 تم نقل كلية غردون التذكارية من الخرطوم إلى أم درمان وخصصت مبانيها لقوات الحلفاء في الحرب الثانية واحتفظت باسمها حتى عام 1945 حين سُميت مدرسة أم درمان التي انقسمت بدورها إلى المدرستين الشهيرتين وادي سيدنا وحتنوب. وكانت المدارس العليا قد أطلق عليها اسم الكلية القديمة ثم أصبحت كلية جامعية ترتبط أكاديمياً بجامعة لندن، وفي يوليو 1956 أصبحت جامعة الخرطوم.

10 أكتوبر 2000م

رحيله.. حريق مكتبة الإسكندرية

عبد الله الطيب

كان يرى اللغة العربية في فصاحة السودانين، ولا يستكثر عليهم ذلك - كمستعربين ومعتناء- وإنما يحدق في التاريخ ملياً ويقول إنه يرى جزءاً عزيزاً من السودان والجزيرة العربية كانا رتقا واحداً قبل أن ينفجر الأخدود الأفريقي العظيم وينبجس بحر القلزم. لم يحدث ذلك في أزمان غابرة بعيدة.. ولكن حتى وقت قريب- نسبياً في التاريخ- كان البحر ممراً مائياً ضيقاً يتراءى شاطئاه ويتنادى من الضفتين قبيل. ويقول إنه قرأ في كتاب هيرودوتس «التاريخ» إن عرباً من البلاد الواقعة جنوب مصر قاتلوا إلى جانب دارا إمبراطور الفرس في القرن الرابع قبل الميلاد وما تلك البلاد التي أشار إليها إلا السودان.

مثل عبدالله الطيب النموذج الأسمى للمثقف السوداني الذي جمع بيرة نادرة ما بين موروثة الثقافي الضارب في القدم، وبين ما اكتسبه من وعي وإدراك من تيارات الحداثة الغربية. حسبته وُلد ونشأ في المنطقة نفسها التي يقال إنها كانت مهد الإنسان في طفولته الأولى، ومسرح إبداعه الحضاري الذي أهده للبشرية الغافية في تلك العصور السحيقة.

تفتحت عيناه في خلاوي آباءه المجاذيب، الغر الميامين، الأتقياء الثقات.. أهل العهد والصدق، الذين ما تراجعوا أمام عدو غاصب وما انشوا.. قاوموا الأتراك الغزاة.. وشهدوا مقتلة سليمان الزبير في بحر الغزال، وخرج بعضهم مع رابع فضل الله إلى غرب أفريقيا رافضين الخضوع، وسارعوا يمشقون الحسام، ينتصرون لدعوة الإمام المهدي حين أعلن الجهاد.

تدرج في مراحل التعليم الزمني متفوقاً في كل عام، وأبدى ضرورياً من النجاة

والحزم، حتّى ولج كلية غردون التذكارية، وكانت أملاً عزيز المنال. وهناك تجلّت قرائحه وازدادت معارفه حتّى تخرّج معلماً في المدارس الوسطى. بات أديباً مرموقاً ولا يزال طالباً في الكلية، توجّه إليه الدعوات لحاضر في المنتديات العامة، حول الأدب والثقافة والتاريخ، وهو دون العشرين. ظلّ معلماً طوال حياته لا يريم بالمدارس الوسطى ويخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية فالجامعة.. قدّم للأجيال بغير منّ ولا ادعاء، وساهم في تأليف المناهج شعراً ونثراً وفي تدريب المعلمين وإغناء التجربة التعليمية إلى جانب رفاقه المعلمين الأفاضل الذين يدين لهم الوطن لكلّ ما قدموه لأبنائه من فضل جزيل، هاجر إلى أوروبا في منتصف سنوات الأربعين فأكمل دراسته الجامعية وواصل من بعد دراساته العليا حتّى ظفر بالدكتوراه.

ظلّ أحد الأعلام البارزين والأكاديميين المرموقين على مستوى القارة الأفريقية والعالم العربي في مجال الأدب واللغة العربية، وأدهش مؤلفه «المرشد إلى فهم أشعار العرب ومضامنها» الأدباء العرب في سنوات الخمسين. وقد قام بتأليفه ولم يكن قد تجاوز الثلاثين بكثير، قدّم له صديقه وخدنه في مجمع اللغة العربية الدكتور طه حسين الذي ما انفك يرأسه طوال حياته، ويشركه في كلّ ما يتصل بشؤون العربية والأدب.

يتحدّث عن كبار شعراء الإنجليز شكسبير وبايرون وشيلي وتي. اس. إليوت وأودن وسبنسر.. ينتقد ويترجم بعض أعمالهم ويجاريها أحياناً. وما قصيدته «الكأس التي تحطمت» إلا مجازاة رائعة لأحدهم.. كتبها في أبريل عام 1946. وحين حاول بعض النقاد إسناد فضل ريادة الحداثة الشعرية إليه بسببها رفض تلك السانحة وتمسك بموقفه التقليدي الراض لل تجديد في الشعر.

كتب شعراً كثيراً - وله دواوين عديدة - إلا أنّ بعضاً من الناس رآه متحفياً لا يعبر عن الإنسان المعاصر وانصرفوا عنه. لكنّ ذلك لا يعني خلوه من الصور

الجمالية الإبداعية اللغوية والعاطفة الفياضة. وقد أعجبتني كثير من قصائده، أعود إليها من وقت لآخر متذوقاً مستعذباً، وخاصة مرثيته المترعة باللوعة الإنسانية والحزن النبيل.

أما في كتابة النثر فلا ينبغي لمصاولته كاتب فقد إمتلك ناصية اللغة فانقادت إليه سلسلة مطواعة. جمع وحرر عدداً من الأحاجي السودانية للأطفال ولكن «من نافذة القطارة» وحقيبة الذكريات» من بين أعماله النثرية تمثلان عندي ذروة القصص والتداعي في الحكى مع عمق التجربة وتنوعها.. كلما قرأتها إزدادت نضارة وإشراقاً وأسهمت في انفعالك الروحي وثرأ وجدانك.. أوغل بهما أبعد مما يعرف الآن بالواقعية السحرية. لغة رصينة جادة ومفردات شاردات عابثات ضاحكات، ومواقف عادية مشحونة بالدلالات والرؤى يتعالى ضجيجها الإنساني ليشكل جنساً روائياً غير مسبوق.

لَمْ يكن عبدالله الطيب رجلاً سلس القياد يؤثر السلامة ويتفادى الزحام وإنما كان يدافع بضراوة دون ما يراه الحق، وما موقفه من إعدام الأستاذ محمود محمد طه إلا مثال واحد لوقفات جهيرة، كتب قصيدة شجيرة مؤثرة يرثى فيها المفكر الشجاع ويعدد مناقبه واصفاً إياه بالشهيد لا المارق كما جاز للجهلاء أن يقولوا.

كان يطل على أبناء شعبه من خلال البرامج الإذاعية يفسر القرآن الكريم فيجذب إهتمام العامة والخاصة، ويحدث أثراً طيباً في النفوس.. وفي البرامج التلفزيونية - في أوقات لاحقة- كان يحدثهم بعذوبة المحب وترفق العارف المجود.. يتناول شتى أنواع المعارف والتراث.. يشقق الحديث ويتنوع فلا يزداد إلا روعة وجمالاً.. يكاد يفهم قوله الجميع.. فلا غموض ولا تنطع ولا زيف ولا ادعاء.

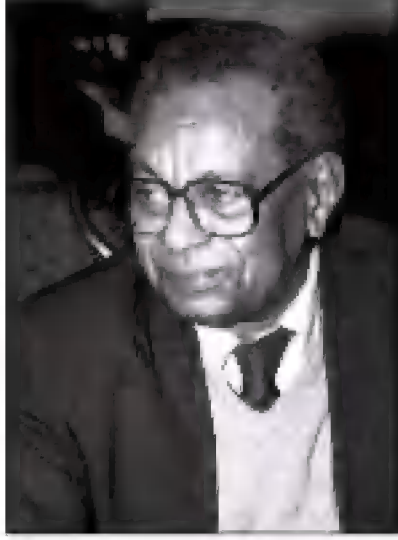
كان حين يتحدث يستدعي الزمان والمكان والشعراء والأدباء والمحدثين والعلماء والملوك والسلاطين فتراهم أمامك شاخصين. يتكلم فيتمثل بالشعر

والحديث المأثور فتعطر بعض غوامض اللغة فيعود للشرح والتفسير شأن المعلم الحاذق والمربي الرؤوف.

وُلد البروفيسور عبدالله الطيب في الدامر عام 1921 وتزوج الفنانة التشكيلية البريطانية جريلزدا الطيب في عام 1949 في لندن التي أحبها. وحضر حفل الزفاف جميع المبعوثين وسهروا في «بيت السودان» يستمعون للأغاني التي رُدّها الأستاذ إدريس البناء. وبأ للحنين. وفي مساء الخميس الماضي شيعت العاصمة السودانية العلامة الكبير بعد مرض أدخله في غيبوبة طويلة.. أمطرت قبره صحائب الرحمة والرفضان، وأحرّ التعازي لآل المجذوب الكرام.

24 يونيو 2003م.

سمح السجايا وعبقري الرواية الطيب صالح وحلفاية الملوك



الطيب صالح عبقري الرواية العربية - كما وصفه النقاد - تجده أحياناً برماً - بصورة يغلب عليها حياؤه المعهود - بتلهف محاوريه من الصحافيين على توقع المزيد من إبداعه الروائي - يرون أنه قد توقف طويلاً ولم يتحف معجبيه بجديد يتوج عمله الملحمي - يرد عليهم .. يكاد يقول لهم « يا جماعة لست ترزياً أفصل ما تريدون ولكنني أشاهد وأحتشد وأكتب ما أراه ملائماً وليس شرطاً أن يكون رواية ». والمتابع لكتابات المتناثرة في الصحف والمجلات يجد كثيراً من نفسه الإبداعي العميق الذي لم ينقطع .. بلخص تجاربه في السفر والقراءة ويكتب أشياء ممتعة بروح شفاقة تستبطن المشاهدات لانفوته شاردة ولا واردة.

بالأمس القريب كان في زيارة لنيويورك فكتب عن تلك الرحلة في عموده بالملحق الثقافي في صحيفة «الاتحاد» كلمات نصرات إحتفى فيها بالمحتفين

به. وكان مغموراً بسعادة لا توصف. فحكى عن أمسية نادرة قضاها بمنزل صديقه الدبلوماسي السوداني الفاتح إبراهيم حمد مدير اليونسكو في نيويورك. أعجبه لقاءه بأصهار الفاتح من أهل حلفاية العلوك، المدينة التي كانت عاصمة لمملكة العبدلاب في أزمان غابرة- والتي استوطن فيها الشابية في أوقات لاحقة للغزو التركي في عشرينات القرن التاسع عشر. وهي لا تزال رابضة على الضفة اليمنى لنهر النيل على بعد أميال شمال الخرطوم كأنها تتوثب لاستعادة أمجاد أفلة. تحسر الكاتب عليها وعلى بعض أهلها الذين هجروا منازلهم التي كانت أهلة بهم حتى وقت قريب قبل أن تسفوها الرياح الغادرة. وأخذوا يتوجهون نحو المهاجر البعيدة طلباً للأمان والعيش الهنيء- وكأنما لسان حالهم يقول «حيث يكون الخبز وتكون الحرية يكون وطننا هناك». إحتزل الطيب صالح ذلك المشهد المأساوي في تجربة السيدة ستنا شقيقة كل من الموسيقار المعروف بشير عباس والسيدة إقبال قرينة صاحب الدار فوصفها بالنموذج الأكمل للمرأة السودانية في زمانها الذي خلدها فيه شعراء الحقيبة.

لا بد أن الكاتب الروائي قد قرأ عن سلف لها حملت اسمها- هي الملكة ستنا ملكة شندي التي ذكرها رحالة أوروبيون زاروا السودان في القرن السابع عشر.. قالوا إنهم رأوا ملكة يحفها الجلال والكمال.. جميلة كأن وجهها صحيفة من ذهب، رغم أنها كانت تلقاهم من وراء حجاب- الملكة ستنا هذه كانت إمتداداً لملكات مروي- الكنداكات- اللاتي رعين حضارة مروي في نفس المنطقة قبل وبعد الميلاد، وجئن بالمسيحية قبل كل مكان حين كانت العيون لا تزال بليلة بالدمع غداة صلب السيد المسيح. حضارة لا تزال آثارها شاخصة للعيان تذهل علماء الآثار في فجر كل يوم جديد. كانت موطناً لتعدين الحديد حتى أطلق عليها المؤرخون المحدثون وصف بيرمنجهام أفريقيا. السيدة ستنا المعاصرة تسمى الآن للحاق بشقيقتها في كندا هرباً من عنت الأيام وفشل السياسيين الجوف في الخرطوم.

أهاجت تلك المشاهدات في أشجاناً هاجمة.. فصاحب الدار الفاتح من أهل مدينتي - كوستي - ألا سقياً ورعياً لأيامها الزاهرات.. كان يقطن في طفولته في حيننا يسبقنا بسنوات قليلة في الدراسة. كنّا نراه تلميذاً مشاغباً - ذلك الشغب الذي يستحق الإعجاب - حتى إنتقلت عائلته إلى أم درمان. إلتقيت به قبل سنوات ضيفاً في دار صديقي الأستاذ معاوية الطاهر المحامي في البحرين، حيث كان مديراً إقليمياً لليونسكو مقيماً بالدوحة.. وتحدثنا طويلاً عن تلك الأيام التي ذهب ولن تعود.

في صيف العام الماضي قُدر لي أن أزور العاصمة البريطانية لأول مرة تلبية لدعوة كريمة من صديقي الشاعر راشد سيد أحمد الذي غمرنا هو وأصدقائه بكرمهم الفياض وأريحيتهم الفضة وقضينا أمسيات سعيدة في دورهم العامرة، الدكتور محمد سليمان محمد العالم الكدود والأديب المبدع والمترجم الألمعي، والدكتور أحمد الطيب فرح مستشار الطب النفسي العارف بالشعر والراوي للنكات والملح. وكثيراً ما جلسنا نستمع للدكتور محمد سليمان يقرأ لنا أشعار الألمانى «برنولت برشت» التي قام بترجمتها على نحو عز نظيره في تاريخ الترجمة إلى العربية. أضاف إليها بألقه الفنان وطاقته الروحية التي لا تنضب، كان قد أبلى من مرض خوّون قاومه بعزمته الجيابة وحب أصدقائه الذين أحاطوا به كالسوار بالمعصم - ما فارقه لحظة حتى انتزعوه من برائن الموت.

أما ليلة الحلفاية فقد قضيناها في دار الصديق كمال سوار الذهب في كينجز ستون حيث جمعنا بأصدقاء فارقتناهم منذ سنين وفي مقدمتهم الدكتور حمودة فتح الرحمن الطيب وداعية حقوق الإنسان - خدين الطفولة والصبا - وأخوه إبراهيم وعائلته الصغيرة وأستاذنا الصحفي المعروف محبوب عثمان.

ما كان يدور في خلدي أننا بننا أسرى حلفاية الملوك كما حدث للأستاذ

الطيب صالح يومذاك - وباله من أسر نسيجه من توهج الروح الإنسانية وعذوبة السلوك - حيث وقف الجميع صاحب الدار وأفراد أسرته يكرمون وفادتنا في كل لحظة ما انشغلوا بأنفسهم ولا ببعضهم قط.. كانت تجربة جديرة بالاحتفاء في زمن تشابكت فيه الأمور.

في تلك اللحظات وصل بعض أهلهم من باريس - أسرة كاملة معظمها من النساء. كن سيدات مثقفات لسنات وخبرات. فازدانت الدار بهن وامتد بُعد آخر من الحديث تناول أحوال الوطن وأخباره التي لا تنفي تحبب الأمل، إلا أن ذلك الحضور الرائع أضاء شمعة في الدجّة الخالكة وأفسح حيزاً لأن نتوق إلى فجر جديد. وهكذا تقاربت تجربة الروائي الطيب صالح بما لقيناه من أهل تلك القلدة من كبد الوطن.

13 يونيو 2000م

ذاكرة السودان المتنقلة

الطيب صالح

كتب محمد بن عيسى المثقف والوزير المغربي كلمات طيبات حانيات معجبات عن صديقه الكاتب الروائي السوداني الطيب صالح فقال: «سيدي الطيب هو ذاكرة السودان المتنقلة، يحفظ لكتابه وشعرائه - زجاليه على الأخص - يحن لوطنه الأم ويحس بأحشائه تتمزق وهو يتحدث عن السودان، مجالسه التي يستحليها هي مجالسه مع السودانيين، من خيرة مفكرها وعلمائها معني عرفت، ولكن الطيب صالح هو إنسان كل الدنيا، يستيع الثقافات، ويقرأ لكل الكبار وفي مقدمتهم الإنجليز. سيدي الطيب يحدثك عن أي أمر، إلا عن نفسه وأعماله، ويحدثني عن كل الأمور بما في ذلك نفسه وأعماله، تحدثنا مرات هاتفياً بين واشنطن ولندن للتخضير لحفل تكريمه في أصيلة، شيء لا يصدق، في كل مناسبة كنت أشعر بأن الطيب صالح كان يتهرب في عذوبة الطفل أو إمتعاض العذراء، لم يستعِ قط فكرة تكريمه، «لا يراجل والله لا استحق التكريم، هناك غيري من يستحقونه»، كان يردّد لي ذلك كلما فاتحته في الموضوع حتّى أحسست فعلاً أنّه لا يرغب وأنّه فعلاً غير قادر على الرّفص، وصارحته بذلك واعترف، وأخيراً رضخ».

لخص محمد بن عيسى رأيه في ذلك الرجل بقوله «هكذا هو سيدي الطيب.. الحشوم الوفور المتواضع المتقشف، البسيط، الإنسان المسالم بقلبه ووجدانه وعقله وتصرفاته وقلمه»، لا جدال فيما كتب هذا المثقف المغربي.. فالطيب صالح هكذا ويزيد..

صلاح أحمد محمد صالح الشاعر والدبلوماسي السوداني المعروف زامل

الطيب صالح في المرحلة الثانوية بوادي سيدنا إلا أنه لم يتصل به عن كذب. وفي لندن إلتفيا حيث عملا معاً في هيئة الإذاعة البريطانية. توجس صلاح في بداية أمره من قدرات ذلك الفنى الرفي القادم لثوبه من الخطوط وخاف على سمعة السودان إلا أنه بات يدهشه في كل يوم بجديد وبشر إعجابه، فقد حقق في إذاعة لندن ما لم يبلغه سوى قلة من النوايع. فقد كان المذيع اللامع ذا الصوت الدافئ الودود والذي يشد الأذن والقلب معاً، حين يقرأ حديثاً تشعر وكأنك تستمع إلى صديق نأس إليه، يحدثك من مقعد مريح مقابل وأنتما تجلسان حول مائدة.. وحين يدير حواراً يسحر ضيفه بقدر ما يسحر المستمع!.

نال الطيب صالح مكانة إجتماعية وأدبية سامية في مجتمع الإذاعة وأروقتهها ومنتدياتها، ويذكر صلاح أنهم اعتادوا الجلوس خلال ساعات العمل في كافيتريا الإذاعة وكان يدور نقاش جدي يتناول مواضيع سياسية وأدبية في شتى القضايا يشارك فيه عرب من جنسيات مختلفة وبريطانيون وآخرون. وكان أكثر ما يبهرهم وهم يستمعون إليه بلاغته وتمكنه من الكلمات عربية كانت أم إنجليزية وعمق ثقافته وسعة إطلاعه، كان يحاور البريطانيين في أدب شكسبير وتينيسون ولورد بايرون وفيتز جرالذ وأوزبورن ويحاور العرب بالعمق والتمكن ذاتهما في الأدب العربي من عصور ذي الرمة وأبي نواس وابن الرومي والمعتبي مروراً بشوقي وحافظ وطه حسين إلى عصر نجيب محفوظ ويوسف إدريس ونزار قباني وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ويطوف معهم في بساطين يرم التونسي وصلاح جاهين وفؤاد حداد والحردلو والعبادي وود الرضي.. ويحفظ من أقوال هؤلاء وأشعارهم الكثير. يفعل كل ذلك بتواضع ووقاره المطبوع.

أما الدكتور عبدالواحد عبدالله يوسف فقد رأى الطيب صالح إنساناً زكي الفؤاد واسع الصدر، عزيز النفس، معتدل المزاج والتفكير لا يجنح شرقاً أو غرباً، يتحدث ببساطة وعمق في آن واحد وفي أدب جم ودمائة خلق أشبه بسلوك

الصالحين، فيه من تصوف ابن عربي وحذق الغزالي الشيء الكثير. وفيه من المتنبي وشمسه وجراته وقدرته على الإبداع الشيء الكثير أيضاً. كان المتنبي لا يزال من أحب الشعراء إلى نفسه، ولكن الطيب بعيد عن صلف المتنبي وطموحه إلى السلطة والجاه، الطيب إنسان بسيط غاية في التواضع».

في كتاباته غير الروائية - بالمعنى المحدد للرواية- إستحدث الطيب صالح جنساً أدبياً تجد صعوبة في تصنيفه فحين يكتب عن ذكريات أو تجارب أو آراء حول الناس والأشياء تجد متعة كأنها مزيج من تذوق الشعر العظيم والنثر الفخيم والحكي البارع المشوق. كأن ما تقرأه ليس واقعاً، أهى الواقعية السحرية كما يتحدث النقاد؟- تلك قصة أخرى.

يصف زميلته في الإذاعة ليلى طنوس فيقول «مسيحية كالمسلمين، عربية كالأوروبيين، ارمستقراطية كبنات البلد. تشربت حب اللغة العربية من الجامعة الأمريكية في بيروت، ومن البستاني والعلايلي ومارون عبود. فيها من رومانسية جبران وجاذبية لبنان. تتلمس الكلمات العربية وهي تنطقها كأنها قطع من عملة أجنبية نادرة». وتحدث عن آخر يدعى صباح محيي الدين فقال: «كان من دمشق أو من حلب، جاءنا يحمل درجة الدكتوراه من السوربون وزوجته فرنسية، كان حجة في نوادر الرفث عن العرب، يحفظ منها قدراً هائلاً، شعراً ونثراً، تعود العيش مع الفرنسيين. فما رافته الحياة في لندن. كان يكره الإذاعة ويحتقر الأوروبيين عموماً. كل الجهود لتعليمه الإذاعة باءت بالفشل، مات بعد ذلك في حادث سير في الكويت. ويصف موسى المسعودي «عله كان أحسن قارىء أخبار.. جاء من القدس.. كريم متلاف صريع غوان له مطلب واحد يحصل عليه دون مشقة. كان مزيجاً عجيباً من الفارس والصعلوك» قابلناه في جنيف عام 1973، عبدالرحيم الرفاعي وأنا. وكان قد طلق زوجته الإنجليزية وتزوج هولندية، وحصل على درجة الدكتوراه وأصبح أستاذاً في جامعة ليدز. نظرنا إليه فلم نعرفه

لأول وهلة، فقد فعل فيه الزمن فعله، إلا أطلال وسامته اللافتة للنظر، وأصداء بعيدة من صوته الجميل». ووصف مدير الإذاعة العربية مستر جوردون ووترفيلد بأنه «كان رجلاً ضخماً بجميع المعاني، جسمانياً، وعقلياً وروحياً، فيه ترفع الأرستقراط وتسامح الفنان ورحابة صدر المؤرخ. كان يستحق أن يكون مديراً عاماً لهيئة الإذاعة البريطانية بأسرها أو نائباً في البرلمان أو سفيراً أو وزيراً، لكنه لم يكن طموحاً ولم يكن بيالي. وكان يصرف شؤون القسم العربي الكبير بلا كبير جهد. ويهرع إلى قلعته في إيطاليا خلال أشهر الصيف يقرأ ويكتب. وكان مع وقاره ضحوكاً يعجبه مزاح عبدالرحيم الرفاعي لأنه مصري، ومزاحي لأنه يعاملني كزميل له في مهنة الكتابة، فقد كانت بعض تراجم كتاباتي بدأت تظهر في لندن تلك الأيام. وكان يعجبه قول عبدالرحيم الرفاعي أن بريطانيا وطنه القومي، ساخراً بذلك من الزعم اليهودي بأن فلسطين هي الوطن القومي لليهود.

فالطبيب صالح فاجأ القراء العرب والمثقفين المتابعين بصورة خاصة مفاجأة أذهلتهم في أواخر سنوات الستين الماضية حين صدرت أعماله وانتشرت وما فتئت حديث كل لسان وبغية كل قلم. وهكذا ملأ الدنيا وشغل الناس، فأعماله قرئت في عشرين لغة حية. وإلى جانب العربية تُرجمت أعماله إلى تسعة عشرة لغة هي الإنجليزية والفرنسية، والألمانية، والصينية، واليابانية، والروسية، الإيطالية، الإسبانية، والهولندية، والتركية، والبولندية، والنرويجية، والبلغارية، والسلافية، والشيكية، والمجرية، والدنماركية، والكورية، والعبرية، وتناولت إبداعه الأوساط الأدبية العربية والأجنبية بالدرس والتحليل واحتفت به أيما حفاوة. كما كانت أعماله الروائية مادة للدراسة والأطروحات الجامعية لنيل درجات الماجستير والدكتوراه، حيث بلغ عددها ثمانتي أطروحات لدرجة الماجستير وعشرات الأطروحات لدرجة الدكتوراه بالعربية والإنجليزية والفرنسية والمجرية، وهكذا تربح الطبيب صالح بفنه الأصيل في قمة العالمية حيث اخترق بجدارته هذا الكم الهائل من لغات البشر.

لا يزال أستاذنا الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه يتحفنا بكل ما يصل إليه من إصدارات جديدة.. يسعده إطلاع القراء على مستجدات الفكر السوداني ومتابعة الحركة الثقافية، ولا غرو فهو أحد مدتها البارزين.. يحتفي بها ويقدرها بمستوى علمه فقد أشركنا في التمتع بالسفر الرائع الذي حرره صديقه الدكتور حسن أبشر الطيب وأصدره في مجلد جد فخر أئيق.. يليق بجلال المناسبة وبمستوى ما خطه كبار الكتاب والأدباء، أصدقاء الطيب صالح وعارفو فضله بمناسبة بلوغه السبعين.

كتبوا كثيراً عن الطيب الإنسان وسجاياه. عن نبيله ومروءته وشجاعته وكرمه الفياض، عن تواضعه وبساطته، وعن دعاياته وروحه المرحية. وتضمن الكتاب أيضاً لقاءين مع الكاتب ومقالات نقدية في غاية العمق والتنوع والموضوعية شارك فيها نقاد عرب وأجانب.

الواقعي يتجاوز المتخيل

الطيب صالح

حين أضرت إلى الجنس الأدبي الذي برع فيه الطيب صالح بكتابته عن شخصية واقعية صحبته زماناً وتوثقت علاقته بها في مقال سابق - عمل لا هو روائي ولا من جنس التراجم - كتابة مباشرة حبة عن شخصية واقعية. فعلت ذلك وما كنت أحسب أنني أعود وشيكاً لأقرأ ذلك النص وأغوص في أغواره المغامرة. فالطيب الروائي الموهوب لم يجد كبير عناء في الكتابة عن المنسي. كان في معماره كمن يتناول مادته من قريب.. لا يتلفت كثيراً ولا يتعمّل ولا يستدعي خياله.. فكل مواقف البطل كان شاهداً عليها بل ومشاركاً فيها. ويبدو أن الطيب كان أيضاً يتسلى بنزوات ذلك الرجل الغريب ويستمتع بتصرفاته الشاذة، وذلك بطبيعة الفنان الذي يسعده الخروج عن المألوف. حين كتب الطيب صالح رائعته «موسم الهجرة إلى الشمال» ظن كثير من النقاد العرب أن مصطفى سعيد هو الكاتب نفسه يروي تجربته في ذلك القالب الروائي الفريد.. والمثقفون السودانيون حسبوا البطل أحد أوائل الطلاب الذين ابتعثوا إلى إنجلترا وركزوا بصفة خاصة على الدكتور أحمد الطيب.. فتجربته غير بعيدة عن قصة مصطفى سعيد المثقف السوداني الموسيم الذي يتزوج من بريطانية تدينه الولايات - مثلما فعلت جين مورس - تتلاعب بعواطفه وتفشل في التعامل مع عبقريته وتبالغ في الانتقام من هفواته الصغيرة. وفي مقابلات صحفية كثيرة نفى الطيب صالح أن يكون الأمر كذلك. فالإبداع ليس صورة فوتوغرافية من الواقع... ومصطفى سعيد جمع في ذاته ملامح بعض الشخصيات - ربما يكون أحمد الطيب أحدهم حتى أنبرى أخيراً الأستاذ على

أبوسن فأعلن أنه هو مصطفى سعيد لا غيره.

كان المنسي أغرب من الواقع بكثير ومهما شطّ بك الخيال وجمع لا يمكن أن تتصور شخصاً واحداً يمكن أن يتميز بكلّ هذا النشاط والحركة والحيوية والتنوع. ويبدو أن الطيب صالح لم يفكر في الكتابة عنه إلا حينما مات بصورة مفاجئة بسرطان الكبد مثلما اختفى مصطفى سعيد فجأة مختلفا التساؤلات حول حقيقة مصيره. وعندما كتب قال «في مثل هذا الوقت من العام الماضي توفي رجل لم يكن مهماً بموازين الدنيا، ولكنه كان مهماً في عُرف ناس قليلين، مثلي، قبلوه على عواهنه، وأحبوه على علاقته، رجل قطع رحلة الحياة القصيرة وثباً وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له، وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه ضوضاء عظيمة، حمل عدة أسماء، أحمد منسي يوسف، منسي يوسف بسطاووروس، مايكل جوزيف، ومثل على مسرح الحياة عدة أدوار، حملاً وممرضاً ومدرساً وممثلاً ومترجماً وكاتباً وأستاذاً جامعياً ورجل أعمال ومهرجاً. ولد على ملة ومات على ملة. ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا، وقصراً ذا أجنحة، وحمام سباحة وأسطبلات خيل، وسيارات رولز رويس وكاديلاك ومرسيدس وجاغوار وماركات أخرى، وخلف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية فرجينيا بالولايات المتحدة وبيتاً في واشنطن ومطعماً وشركة «سباحة». هذه هي الصورة التي ابتدر بها الطيب صالح قصة المنسي، وهي رواية واقعية من أجمل ما قرأت. بطلها قبطي مصري جاء بتعاون مع قسم الدراما في هيئة الإذاعة البريطانية، حيث كان يعمل الروائي السوداني، التقى به وتوثقت بينهما العلاقات رغم الاختلاف الكبير بين شخصيهما. فالطيب طبعاً رجل شديد الحياء، جَمّ التواضع، بسيط وزاهد كصوفي لا يسعى للظفر بالدنيا ولا يبحث عن الأضواء ومواقع الحظوة - مثلما كان مصطفى سعيد - والمنسي شخصية ديناميكية جريئة لاتبالي مفعمة بالحياة. جاء إلى لندن في عام 1952 لا يملك غير معرفته باللغة

الإنجليزية.. يستخدمها ببراعة في مختلف المواقف وينال بها ما يريه ويحقق أهدافه. غامر وتلاعب واستخدم «الأوطنة» و«الفهلوة» حتى استطاع الولوج إلى جامعة ليفربول ومن ثم انطلق في المجتمع البريطاني كواحد من أفرادها.

وصف الطبيب صالح صديقه المنسي بأنه كان مترهلاً بكرش ضخمة ومؤخرة بارزة- كأنه كرة شقت إلى نصفين- إلا أن وجهه كان يكسوه شيء من الوسامة، فلم يعدم نساء يحبينه، «بعضهن كن جميلات فارعات الطول، يبدو قزما إلى جانب الواحدة منهن» تزوج فتاة من أسرة إنجليزية عريقة ينحدر أسلافها من سلالة سير توماس مور، الوزير الأول للملك هنري الثامن. فأقام الدنيا ولم يقعدا بالتباهي والافتخار بأصهاره هؤلاء. إقترح دارهم الوسيعة المكوّنة من طابقين فاستولى على الطابق العلوي.. «طالعا نازلا أمرا ناهيا» وقلب تلك الدار رأسا على عقب، يستضيف أصنافا من البشر، ما كان يخطر على بال النبلاء الأرايب الرافدين في قبورهم الفخمة في أطراف إنجلترا أن يروا أمثالهم. وحين يفتح لك الباب تركمك روائح الملوخية والكمونية والكوراع والمسقعة. لم يكتف بذلك حين أحس بقوة مركزه الاجتماعي فصاهر أسرة عربية موسرة أسبغت عليه كثيرا من نعمائها وخرج مستفيدا من تلك التجربة.

مصطفى سعيد كان عبقرى نابغا منذ طفولته.. ففر مراحل التعليم قفزا.. كلية غردون بالقاهرة وأخيرا أوكسفورد، منذ البدايات الأولى كانت لغته الإنجليزية معجزة.. بهرت أقرانه ومعلميه فلقبوه بالإنجليزي الأسود. أصبح أستاذا في جامعة أوكسفورد ولا يزال في الرابعة والعشرين. فتح له المجتمع الإنجليزي أبوابه فلم يفكر في المال والجاه، بل أخذ يسعى نحو الجنس الذي ملأ عليه أقطار نفسه. كان يغشى حانات تشلسي وأندية هامبستد ومنتديات بلومزبري.. يقرأ الشعر ويتحدث في الدين والفلسفة وروحانيات الشرق وينقد الرسم. يفعل كل شيء في سبيل إصطياد امرأة. ثم لا يلبث أن يسرح بعيره باحثا عن أخرى من بين فتيات جيش

أصوات

الخلاص وجمعيات الكويكرز، ومجتمعات الفايين واجتماعات أحزاب الأحرار أو العمال أو المحافظين أو الشيوعيين. ينتحل في كل مرة اسما مختلفا، مرة حسن وتشارلز وأمين ومصطفى وريتشارد. وحين عاد إلى السودان بعد قضاء عقوبة السجن لقتله جين مورس تسلل إلى قرية منسية في الشمال وتزوج من فلاحه بسيطة ذلك بعد أن خلف وراءه أسطورة الرجل الوسيم الأسود المدلل في الأوساط البوهيمية. قال عنه ذلك الاقتصادي الإنجليزي الذي يبدو أنه كان يمجته «إنه كان واجهة يعرضها أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين كانوا في سنوات العشرين وأوائل الثلاثين يتظاهرون بالتححرر. ويقال إنه كان صديقا للورد فلان ولورد علان وكان أيضا من الأثريين عند اليسار الإنجليزي. كأنهم يريدون أن يقولوا: أنظروا كم نحن متسامحون ومتحررون.. فهذا الرجل الإفريقي كأنه واحد منا تزوج ابنتنا ويعمل معنا على قدم المساواة»

تعرف المنسي على مجتمعات الأدب والفن مستخدما صديقه الطيب صالح تارة، وأحيانا كان يقنحم الميدان وحده مستعينا بجرأته ولغته الإنجليزية المطواعة وسكنه في شارع معروف في حي عريق ترفده المظلة التاريخية لأصهار النبلاء. ولم تعوزه الحيلة للوصول إلى عالم صموئيل بيكيت المغلق. تعرف عليه وصادقه وأصبح يدلله ويناديه بـ «سام».

جاء المنسي مرة للطيب صالح وقال «أصلهم ناويين ينتجوا فيلم عن «لورنس» تعرف مين حيمثل دور لورنس؟ إلك غنس في دور لعربي شاب، أما دور لورنس بيفكروا في عمر الشريف، وأنا ناوي ألطش الدور. المخرج حيكون ديفيد أخو تانغي، وتانغي وعدني يكلم أخوه «هكذا بكل بساطة وعفوية كان المنسي يتصرف، إلا أن الطيب صالح قال إنه بقدر ما كان ممثلا بارعا في الحياة كان يفشل في الأدوار السينمائية التي غالبا ما يكون فيها «كومبارس» يستغرق دوره دقيقة أو دقيقتين، جرسون أو خادم، أو سائق تاكسي في القاهرة. وكان رئيس قسم الدراما في الإذاعة

البريطانية يحبه ويعطيه دوراً في أي تمثيلية يخرجها.. يستمتع بمعايشته وشتمه ويصرخ فيه «يا واد يا ابن.. أنت طول الوقت عمال تننط وتترقص وأول ما يولع النور الأحمر ويبدأ التسجيل تتهمد. الله يخرب بيتك ما تحط شوية من الأونطة دي في الشغل».

إلا أن المغامرة الكبرى التي خاضها المنسي كانت حين إستضاف مجلس العموم البريطاني في لندن المؤتمر الدوري لبرلمانات العالم. فاتصل بالوفد المصري مقدماً خدماته، حجز فنادق ونسوق وعيادات أطباء حتى بات بالفعل عضواً في الوفد.. توجه إليه الدعوات بهذه الصفة. وحين غاب رئيس الوفد لأسباب طارئة حل مكانه بطريقته.. واستأجر بدلة السهرة أو استعارها. وتقدم ليحيى الملكة في صف طويل يقف وراءه محمد أحمد محبوب بقمته المديدة وسمته المهيّب وقدراته الغدة وثقته المفرطة. أخذ المنسي يتحدث إلى الملكة ويتحدث حول مهامها وحياتها العائلية وتربيتها لأطفالها. استغرقت المحادثة وقتاً استرعى الإنتباه فتحرك دوق أدنبره وجذبه من ذراعه برفق. ثم تمر المسألة كما إعتاد المنسي أن يخرج من المأزق كالشعرة من العجين. وفي أول صباح بعد المحادثة أحاط به رجال الأمن مزودين بكل صغيرة وكبيرة عنه واهتموه بأنه عميل للمخابرات المصرية.. بينما اتهمه الجانب المصري بأنه عميل لبريطانيا. وبعد تحقيقات واسعة إتضح أن هذا الشخص إما أحمق أو مجنون لا يدري ماذا يفعل.

مصطفى سعيد العجيل ظل أنطوائياً يشغله نشاطه العاطفي والمنسي الشخصية الواقعية إستخدم كل ملكاته وأساليبه ليصل إلى أهدافه، قال عنه الطبيب صالح إنه كان ضيقاً دائماً على مائدة الحياة». وحين التقى به لأول مرة حاول أن يرشوه بجوارب من نوع رخيص. لقد إستطاع الكاتب بقدراته الغدة أن يضم المنسي إلى عالمه الإيداعي الفريد.

6 نوفمبر 2001م

المجذوب.. يلوذ بمزرعة الحرية



عشر المجذوب على فردوسه الأرضي في طفولته حين عاش فترة منها في مزرعة على شاطئ النيل ظلت تلازمه تجربتها طوال حياته بعد أن تركت فيها أثراً لا يزول. وجد فيها حرته التي لم تلبث أن ضاعت وتبددت لدى التحاقه بمؤسسات التعسف والتضييق.. الزجر والأوامر.. والنظام والانضباط. دخل الخطوة حزينا باكياً وحين حاول الشيخ تألفه بتمرات رماها به.. إلا أنه لم يلبث أن استكان حين رأى حواراً مقيداً يقسوة وقعت عيناه على عصا السلم المخيفة. لم يجد مغراً من الحفظ والمواظبة وأطياف المزرعة لا تفتأ تداعب خياله وتشير فيه

حناناً دافقاً.. بهرته الخضرة والحصاد وجمال الحيوان وحرية الطير.. وتلك الأعشاش المتقنة الصنعة.. وأصوات الليل.. عاش مع أقاربه هؤلاء الذين وصفهم بأنهم لم يكونوا يعرفون إلا الأرض.. والكد والضحك والبساطة.. وقال إن ذلك كان عمراً حقيقياً له.. حيث كانوا أحراراً وتعلم منهم الحرية.. وقد نشأت معهم تولوا تربيتي وخدمتي ولن أنسى حيواني صافي النية وأخاها الضور.. والصبر وفرح الله ممن كانوا يلوذون بذلك المزرعة».

خلبت ليه الخرطوم حين إنتقل إليها صغيراً وأحس بجاذبية لها شديدة القسوة.. وعندما تدرج في المراحل الدراسية شهد في كلية غردون التذكارية لوحات على جدران الفصول.. ذكر من بينها لوحة الموناليزا. وذكر مستر لين، الذي أنشأ أول جمعية للفنون شارك فيها مبارك زروق الذي كان يرسم وجوهاً حسناً بقلم الرصاص والخير هاشم الذي كان يستخدم الأقلام الملونة والألوان المائية، وقد أحب مستر لين هذا ووصفه بالإنجليزي الفاضل لإنسانيته ولين عريكته. كان المجدوب يتمنى لو كان رساماً.. وقد بذل جهوداً جبارة لتحقيق هذه الأمنية، حيث أنه التحق بعد فترة طويلة - وقد تقدّم به العمر- بالمعهد الفني.. ثم عاد والتحق بقسم الدراسات الإضافية.. حيث تلقى دروساً في الرسم على يد السيدتين جريلزدا الطيب وفاطمة عبدالفتاح، وحضر محاضرات في التذوق الفني قدمها الدكتور أحمد الزين صغبيرون. وتحدث المجدوب عن أول معرض أقيم في السودان. أقامه مستر لين عام 1926. وقد رسم هو لوحات لحسنات أهداها لبعض أصدقائه الذين زينوا بها منازلهم، إلا أن أفضل مشهد فني رآه وأعجبه في ذلك الزمن البعيد فقد حدث أمام الحفانية «دار القضاء الآن» حيث وقف رجل «يرتدي جلابية دبلان لها ياقة كجلاليب الختمية» ويلبس عمامة مضمّنة لا حدلقة فيها، أميل للبدانة، مجتمع الجسم، لو قلت إن لونه بني لما كنت دقيقاً.. كان أخضر فاتح الخضرة. نصب خشبة مربعة لها قوائم

فرش عليها ورقة بيضاء ثقيلة، ثبتها بدبابيس صفر، يرسم بقلم الرصاص امرأة واسعة العينين، مشلخة، وممتلئة وممشطة.. تتكىء على منعدة، وتلتحف فركة، خصرها نحيل وردفها ثقيل.. «أدهشتني قدرة الرجل في ذلك الزمن البعيد البعيد».. كان اسم ذلك الفنان علي عثمان أو عثمان علي - لم يقطع المجذوب الشك - إلا أنه كان مشهوراً وقتذاك.. يقول إنه كان يعمل في مصلحة السكة الحديد. وقد انتشرت أعماله الملونة ملأت جدران المقاهي، «كان يرسم شيئاً حفظه حقاً.. فهو يسجله تسجيلاً دقيقاً.. كان رسمه كشعر «الحقيقية» يجسم المرأة المحجوبة ويركز على مواضع بعينها، ويرى المرأة ولا يراها.. ويتحدث عن العفاف والصون والكتمان.. فإذا جاءت الحرب صارت المرأة قائداً للأسطول.. أو عنياً من الشام.. ومن الغريب أن يستمر بعض الشعراء في هذا حتى الآن».

كان الفنان جمعا بأم درمان يفعل مثل ذلك.. وقد اهتم برسم المرأة بشكلها التقليدي التاريخي. ذلك الذي يوحي إليك كأنها إحدى الكنداكات بشلوخها وخصائرها وجمال تقاطيعها وامتلائها.

كان الشاعر محمد المهدي المجذوب يتحدث إلى الشاعر عبدالرحيم أبوذكرى في حوارية ثرية نشرتها الصحف في إحدى سنوات السبعين من القرن الماضي. نجد فيها قدرات المجذوب في التعامل مع النشر. وأظن ذلك الحديث كان مسجلاً- أي بلغة الكلام وليس بلغة الكتابة - وكُنّا قبل ذلك مفتونين بمقدمة ديوان «نار المجاذيب». ثم بمقدمة «الشرافة والهجرة». ولما كنت قد سهرت تلك الليلة مع ملفات المرحوم عثمان حسن أحمد فقد عثرت على ملف يحتوي على بعض قصائد الشاعر ومجموعة من مقالات وكتابات ثرية. فدخلت في عالمه النثري رغم محدوديته حيث لم يتجاوز بضع مقالات ومقدمات لدواوين شعرية.

ومن أفضل ما جاء في تلك الحوارية رأيه النقدي في الشعراء التجاني يوسف

بشير، والناصر قريب الله، وذلك حين سأله أبو ذكري عن الأساس الموضوعي لتفضيله الناصر على التجاني. فجاءت إجابته بسيطة وسهلة، أقرب إلى الملاحظات العابرة من النقد الصارم المحدد.. إلا أنها مشحونة بالدلالات والفهم العميق للجمالية الشعرية وحساسيتها. فقال «التجاني شاعر عظيم خالد، وقد كنت ذكرت في مقالة سابقة أنه لم يكن متصوفاً بل شاعراً حسيّاً.. ولكن ثقافته ونشأته في أسرة دينية أملت عليه مظاهر صوفية انعكست على شعره. وحين حاول الخروج على مستوى شعري آخر رماه النقاد بالغموض. ولقد كان يجيد ما يعرف بإجادة متفردة.. لقد حاول الصورة الشعرية ولم يستطع الإمساك بها.. كان يخاف من الحياة.. ومن الذي لا يخاف من العجز والضرورة.. خصوصاً إذا كان عاري الأعصاب كشاعرنا العظيم التجاني.. مليئاً بالمرارة، عالماً بأنه عبقرى ضائع. وقد كتب شعراً يخصه.. لا يضارعه فيه أحد.. وشعره الذي تنعكس فيه ثقافته الدينية كان حديث حيران مع نفسه. يريد أن يعرف موقعه في العالم ومصيره.. كان يغوص في أعماق نفسه ويستجلي خواطره ويتأمل عزله في ثقافته ويتشهى.. أما الناصر فكان يجيل عينيه حواليه في شجاعة من لا يبالي بالعواقب، ويعبر في جرأة وسماحة.. وقد شهدته في أيامه الأخيرة فلم أر أشجع منه ولا أكثر تفاؤلاً وإيماناً بالحياة.. ولك أن تقارن بين الشاعرين العظميين في شعر الطبيعة. وهذا باب له خطره في الشعر التصويري.. نعم أرجو أن تقارن بين قصيدة التجاني في توتي وشعر الناصر في طبيعة غرب السودان سوف يتبين لك أن التجاني كان ذكياً بليغاً والناصر فتناً ذا قدرة على الخلق. وكان التجاني شديد الاهتمام بشعره عاكفاً عليه عارفاً بقيمته مدافعاً عنه متحرشاً بأدعياء الشعر.. ولم يكن الناصر هكذا.. فقد كان الشعر عنده لحظات يعيشها حقاً ويمتزج فيها بالطبيعة والناس.. ولم يتفرغ للشعر.. وكان صوته ناصعاً مليئاً بالوداعة والعدوبة والغضب والفرح أيضاً. وكان التجاني هادئاً صافي الأسلوب في شعره.. متفرداً في هذه الناحية مع تأثره بشوقي، وليس هذا عيباً.. وغيره من الشعراء كان

كذلك، خصوصاً حمزة الملك طمبل وصاحب «الشاطيء» الصخري^١ وقد اشتهر التجاني في مصر أولاً.. ولعل قلة إلمام إخواننا المصريين بالشعر السوداني في ذلك الزمان كان سبباً في دهشتهم أن يكون مثل هذا الشعر قاله شاب سوداني من أم درمان. ومازلنا نؤمن بالشهادات من الخارج ولا أدري متى يزول هذا ونتولى أمر أدبنا بأنفسنا حتى نعرف سادتنا المبدعين حق المعرفة.

«لقد تأخر نشر ديوان الناصر - وهو معاصر للتجاني - ولم يتأمله القراء كما ينبغي ولذلك أنكروا قوله إنه أشعر من التجاني وأعرف نفراً يشيدون بشهرة شاعر على السماع قبل أن يقرأوه. لقد إمتاز الناصر في جملته باستقلاله وعجلته في كتابة القصيدة.. وإمتاز التجاني بتصفية أسلوبه الصافي في أبيات معدودات.. إني أحب التجاني حباً لا يوصف.. مع الاشفاق عليه والبكاء والاحترام والتوقير، كما أحب الناصر الذي صاحبه فترة غير قصيرة وأعيد نفسي من التحيز لأنه لا ينفعني.. وللناس رأي والتحيز غير مقبول في أمر فني.. والحقيقة أن الشاعر نفسه هو الذي يحدد موقفه. لقد رأيت رأياً رفضه الكثيرون قبل أن يقرأوا الناصر قراءة حقة.. ولا عجب فقد هاجم أشيخنا- حماة اللغة- حمزة الملك طمبل قبل أن يفهموا قضيتة».

في محاضرة قدمها ناقد سوداني مفراح قبل أشهر قليلة بالمجمع الثقافي بأبوظبي وصف الشاعر المعجذب بالمجون. وبقيني أنه قد تجني عليه وأفرط،

فالرجل كان محباً للحياة مقبلاً عليها.. شديد الصراحة والسخرية من نفسه ومن الآخرين..وقد رأي البعض أيضاً أنه قد أسرف في حسيته عندما وصف تجربته في الجنوب في قصيدة «انطلاق». فإذا قرأنا ما قاله عن نفسه يزول كثير من الالتباس «هل أنا متصوف؟» لا أعرف كيف خلعت الصوفية عليّ، قال الأستاذ عبدالمجيد عابدين إنني شاعر التأمل الحسي. وأنت ذكرت الوثنية.. أما

١ - حين منصور الشاعر المصري الذي أقام بالسودان مدرساً

قضية القضايا عندي فهي البحث عن إنسان سوي.. أما الحسية في قصيدة «الانطلاق».. فقد قلت لك إنني عشت في مزرعة على شاطئ النيل قبل دخولي إلى الخلوة الصارمة- المطهرة..

وعندما نقلت إلى الجنوب استعدت حريتي الأولى تلك.. لست صوفياً وطريقة مشايخي هي الشاذلية ولا يعهدون بها إلا لحافظ مستقيم عفيف.. ولكنني كنت أميل إلى حلقة القادرية ذات الطبول والنوبات.. نقاقيرهم ورقصهم وهو بعينه إيقاع حلقة الذكر والكثير في الجزيرة.. وعجبت كيف طال بحثنا عن أمر العنج وأثارهم باقية في هذا الرقص والإيقاع.. وتعرف انتشار القادرية في الصعيد، ولعلك شهدت حلقاتهم هناك.. دراويشهم يلبسون الودع والجلود.. وقد نفيت في قصيدتي «انطلاق» نفسي من العرب شغفاً بجمال الجنوب وبساطته وقوته وعلمه المباشر بالحياة.. وقد عدني أحد النقاد المصريين من الشعبويين والأمر لله من قبل ومن بعد..

26 مارس 2002م.

رسائله إلى ديزي الأمير

محمد المهدي المجذوب

تحدث الفتاة الإنجليزية روزماري عن الشاعر السوداني محمد المهدي مجذوب قائلة «إنك لا تعرف مدى تأثير هذا الرجل عليّ.. إنه امتلك جوانحي واستلب عقلي.. لقد قتلتني وأنا أخشى أن أركع أمامه حين ألقاه فهو أشبه بالقدسين.. لكن في داخله بركان، ورغم أن صورته حلوة هادئة، لكن ابتسامته ساحرة. لقد أبلغتني أنه تعلم بالسودان.. ولكن يبدو لي وكأنه يحتوي العالم بين يديه.. إنه قوة جارفة.. ماذا أفعل؟ كانت تلك الفتاة لم تلتق بالمجذوب بعد إلا عن طريق رسائل حارة ملتهبة محتشدة بالمعرفة والتأمل والفكر العميق.

كان المجذوب قد كتب إلى صديقه علي أبوسن يطلب منه أن يختار له امرأة تكاتبه «أريد امرأة تكتب إلي.. بين الثلاثين والأربعين.. تكون أماً وحبيبة.. عرفها بأحوالي جميعاً. والأمر جد ولا يحتاج إلى مزيد من الشرح ويحسن أن تكون وحيدة مخزونة مثلي.. (تصوراً) تحسن الكتابة والوضوح والصراحة، وتكون ذات فهم عميق.. عسى أن ينفعني ذلك في تنظيم نفسي.. أحذرك أن تكون قبيحة أو سمينة أو عجوزاً وإلا فالويل لك، أريدها ممشوقة خفيفة الوزن رؤوماً وسأكتب إليها لن أخفي عنها شيئاً.. ألا ترى في خطابي إنني في حالة سيئة جداً. أخذ المجذوب يكتب بانتظام إلى الأنسة روزماري في لندن بلغته الإنجليزية الفخمة حول الأدب والفن والفلسفة والأخلاق وعن سيرته الذاتية وإنطباعاته العابرة.. جاداً ومزاحاً.. ساخراً ومتهرباً.. لا ينتظر ردودها غير المنتظمة إلا أنه بات يتدخل ذاتها وينمو في شرايينها بطريقة أودت بها إلى نهاية مأساوية.

كتبت ديزي الأمير الكاتبة والقاصة العراقية في مجلة «الناقد» العدد (78) الصادر في في ديسمبر 1994 تشكو بمرارة من تصرف الناقد المصري رجاء النقاش فيما يتعلق باستيلائه على مجموعة هائلة من الرسائل ظل يبعث بها المجذوب إلى ديزي - طيلة سنوات- إحتشدت بكل تجاربه وملاحظاته في مختلف مجالات المعرفة وتأملاته وآرائه في الحياة في الناس بلغته الشعرية الأسرة.

كانت ديزي الأمير قد إلتقت بالمجذوب في بيروت حينما كان عائداً من مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في القاهرة في عام 1964، وكان ذلك أثناء مأدبة عشاء أقامها الملحق الثقافي السوداني المتميز ضرار صالح ضرار لعدد من الأدباء. كان المجذوب- والذي كان أميناً عاماً لإتحاد الأدباء السودانيين وقتذاك- نجم تلك الليلة بلا منازع بلطفه الذي شمل كل الحاضرين وبحديثه الشيق وثقافته الواسعة ولباقته المعهودة.

ومن جانبها وجهت ديزي الأمير - التي كانت تعمل بالسفارة العراقية في بيروت- دعوة أيضاً لعدد من الأدباء من بينهم ضرار والمجذوب الذي مدد فترة مكوثه بالعاصمة اللبنانية.

بعد عودته إلى الخرطوم بدأ المجذوب يبعث بالرسائل إلى ديزي الأمير التي لم تشأ أن ترد عليها لإعتبارات كانت تراها، منها سلوكها المحافظ المتمزمت الذي يرى في الكتابة إلى الرجال خروجاً عن مألوف التقاليد، إلا أنه التقى بها في القاهرة عام 1968 خلال انعقاد مؤتمر الأدباء وعاتبها بمودة ولطف وتواضع، ومن ثم ظنت أن سيل الرسائل سينقطع إلا أنه اندفع بأقوى مما كان. وفي العام التالي إنعقدت أعمال المؤتمر في بغداد.. وكان ناجحاً جداً أضفى عليه الربيع رونقاً بالإضافة إلى كرم الضيافة العراقية الذي أتاح لمن أراد من الأدباء البقاء في بغداد لفترات طويلة. وظلت أحداث ذلك المؤتمر مادة دسمة لرسائل المجذوب بعد عودته إلى السودان. فكان يكتب إليها عن الأدباء الذين راقوا له

أصوات

والذين لم يعجب بهم بأسلوب راق ومهذب. كما كان يكتب عن تجارب طفولته وشبابه ونضاله السياسي منتقداً بمرارة الجوانب السلبية في وطنه.

ثم لم يلبث أن بدأ يكتب إليها عن حياته الخاصة وعائلته وصيقه وتبرمه بتقاليد إجتماعية لا يؤمن بها. أدركت ديزي الأمير عمق شاعرية المجذوب وصدق تجربته وروح الصداقة التي يتحلى بها.. إلا أنها كانت تتساءل عن سبب إختياره لها لينفص عن همومه الذاتية والعامة، وما يحتلج في أعماقه من إهتمامات سياسية عالمية ومحلية وتراثية وشخصية وعاطفية. وعندما علمت أن بعض صديقاتها يتلقين رسائل مماثلة من المجذوب تخففت قليلاً من إحساسها بالجمود.

كانت ديزي الأمير قد تعرّفت على الناقد المصري رجاء النقاش ونشأت علاقة وثيقة بين عائلتيهما. والمعروف عن النقاش أنه كثير الإهتمام بالحياة الخاصة للأدباء وخاصة أولئك الذين يرغب في الكتابة عنهم. وكان يلح عليها أن تطلعه على أي رسائل تلقنها منهم. وكانت لا تلبى رغبته تلك حتى لا تكون طرفاً مع من يتناول سيرته، وفي ذات مرة طالباها بالتحديد برسائل المجذوب وألح عليها حتى رضخت على مضض بعد أن تحدّث عن الظلم الذي حاق بالشاعر ولم يجد من يكتب عنه ما هو جدير به. كانت ديزي الأمير تخشى أن يتعامل النقاش مع رسائل المجذوب كما فعل مع رسائل أنور المعداوي الناقد المصري الراحل التي سلمتها إليه الشاعرة الفلسطينية فدوى طوفان، ويبدو أنه كان قد علّق على رسائل المعداوي بصورة لم تسر الكثيرين بمن فيهم ديزي الأمير.

استمرت رسائل المجذوب تترى على الكاتبة العراقية حتى رأت أخيراً أن ترد برسالة قصيرة مقنضبة للشاعر تشكره على ثقته بها وتزجي بحياتها لزوجته وأولاده الأمر الذي أثار حفيظة المجذوب واعتبرها إهانة وواصل كتاباته المكثفة متناولاً هذا الموقف.

بعد وفاة المجذوب استأنف النقاش اتصالاته البريدية والهاتفية يطلب بالرسائل التي باتت تخشى عليها ديزي الأمير من الضياع في البريد إبان الحرب الأهلية اللبنانية. وأخيراً استطاع الشاعر بلند الحيدري، أن يقنع ديزي الأمير - بعد أن سخر من مخاوفها - بشحن تلك الرسائل إلى رجاء النقاش عن طريق العاصمة البريطانية لندن. تسلم النقاش الرسائل وكتب يشكر الكاتبة العراقية إلا أنه ظل يحتفظ بها منذ ذلك الوقت الذي امتد حتى الآن إلى أكثر من ربع قرن دون أن تنشر في أي شكل من أشكال الكتابة. أصبح النقاش يتصرف بصورة غريبة منذ ذلك الحين مع ديزي الأمير التي قطع صلته معها. وروت الكاتبة أنها عندما عادت إلى بغداد في منتصف الثمانينات التقت به مصادفة في بهو فندق الرشيد وسدت عليه المنافذ حتى لم يستطع أن يتفادها. ولكنها تأدبا لم تتطرق إلى ما بدا من تصرفاته ولم تعاتبه رغم الصداقة الوطيدة التي كانت تسمح لها بذلك. ووجهت إليه دعوة لتناول الغداء أو العشاء فوعد بالاتصال لتحديد موعد في إطار برنامج زيارته.. إلا أنها فوجئت بمغادرته بغداد صباح اليوم التالي مباشرة إلى القاهرة.

أحسّت ديزي الأمير بالإحباط والندم الشديد لتفريطها في رسائل المجذوب وعدم استنساخها للاحتفاظ بالأصول لأنها أرسلت إليها هي ولم ترسل إلى رجاء النقاش الذي حنث بوعوده ولم يوظف تلك الرسائل في الكتابة عن الشاعر السوداني.. بل ظلّ يلوذ بصمت مريب محتفظاً بأشياء لا تخصه.

حين قرّرت «دار الطليعة» نشر رسائل الأدباء إلى أصدقائهم كتب الدكتور بشير الداعوق إلى ديزي الأمير يطلب منها إرسال أية مجموعة تمتلكها فأشارت إليه أن يتصل برجاء النقاش ليرسل إليه مجموعة المجذوب التي استولى عليها ولكنه رفض أن يرد على الداعوق. وظل الأمر كما هو حتى الآن.. ويبدو أن هذه الرسائل ستضيع إلى الأبد ويضيع معها تراث ثري لا يقدر بثمن من إبداع الشاعر المجذوب.

كان المجدوب يمتلك طاقة عاطفية هائلة.. وكان صديقاً وارف الظل يحيط نفسه بالأدباء والمثقفين - وخاصة الشبان منهم - يلتقي بهم في جلسات طويلة تحفل بدعاباته وتعليقاته الساخرة ومرحه الفياض. إلا أن المرء كان يلاحظ فيه حزناً دفيناً وتبرماً بالوجود - الذي كان عميق الإحساس به - تجلى ذلك في كثير مما قال في لقاءات ومقالات صحيفة.

كان يضيق ذرعاً بتردي الأوضاع السياسية وفشل الزعامات ويبدى فتوراً وبأساً مما يحيط به من تقاليد متخلفة. ويبدو أنه كان يرغب في تبديد بأسه وحزنه بالكتابة إلى بعض الذين يأنس إليهم ويهفو.

• قرأت في وقت لاحق في إحدى الصحف اليومية مقالة للكاتب النقاش حول الشاعر المجدوب

الألق الأفيقي واللغة الباهرة

جمال محمد أحمد



كتب جمال محمد أحمد بلغة ذات ألق وبهرة.. كانت مفرداته تأتي جديدة كأن لم يكن يتداولها الناس ولم تزخر بها المعاجم، كان يشحن كلماته بدلالات جديدة تحتضن في يسر أفكاره ورؤاه فيتلاشى الشكل في المحتوى ليبرز نص إبداعي محير.

جمال كان عجباً متمهلاً في كل ما تجده عنده، وصف مرة محمد إقبال الشاعر الباكستاني العظيم فقال «عدوية مصادر الهامه أعطته قدرات على اليسر، أيسر الألفاظ تأتيه طوعاً، لا يملكها إلا من نذر نفسه للحرف. في شعره وضوح وإبانة- كان يحيا رؤى التجاني، و«عبدناك يا جمال»، وكان يحيا مذاق المازني «هل حباك الإله بالحسن»، كأنه يصف نفسه حين يكتب عن إقبال بلا شك فقد كان جمال يتقرب الكلمة بيديه يتحسسها كأنما يعجن صلصالاً ويشكل. حين ترجم «أفريقيا تحت أضواء جديدة»

لبازل ديفيدسون ترجمة تجزم بأنها أغنى أسلوباً من الأصل .. أضاف بها إلى إسهاماته الكبرى في الحياة الثقافية .. تمنيت لو قرأها جميع الناس .. كتابة تثري الوجدان وتعمق الإحساس بعظمة أفريقيا. الكتاب يتناول أفريقيا جنوب الصحراء لا الشمال العربي. يجد السودان فيه نصيباً. تاريخ مروي الذي هو نقطة الانطلاق لتاريخ حضارة القارة. تقرأ وتتمنى ألا تفرغ من مطالعة ما تراه عينك، يجسد المعاني فتتفجر الكلمات لتلف الأحاسيس جميعها كأنك ترى وتلمس وتسمع وتشم الشذى والعبير لذلك الماضي الشديد.

كان صاحب وعي أفريقي مبكر. غاص في وجدان أفريقيا وكتب عنها بمحبة ووفاء. استعرض كثيراً من تاريخها ورموزها من العظماء كما لو كان ضريكام في الذي حدث. جاء من أقصى الشمال والتحق بكلية غردون وشارك في حياتها الثقافية والاجتماعية وأضحى رئيساً لرؤساء الدخليات فيها. وعندما تخرج عمل بالمدرسة الأهلية الوسطى بأم درمان واتخذ حي بيت المال سكناً.

كانت الحركة الوطنية في بواكيرها وفكرة مؤتمر الخريجين تراود المثقفين فانغمس في ذلك النشاط وشارك في إعداد التصورات الخاصة بأهداف المؤتمر وأبدى نشاطاً لفت الأنظار واستطاع أن يفوز بثقة الجميع. ولما بدأ العمل بتشكيل اللجنة التمهيدية تم اختياره مقررًا لها. كان لا يزال في الحادية والعشرين من عمره ولكنه أدى المهمة بكفاءة عالية ونال أعجاب الخريجين جميعهم وثناءهم.

كانت مدرسة أبوروف الفكرية التي تطورت فأصبحت قيادة لحزب الإتحاديين هي أقرب المدارس الفكرية إلى نفسه وقلبه فقد كان صديقاً لجميع أعضائها، يلقيهم ويشارك كثيراً في نشاطهم ولكنه لم ينتظم فيها عضواً كامل العضوية. كما أنه لم يكن عضواً في جماعة القوميين رغم ما كان يربطه من صداقة بجميع أعضائها ولم ينضم في عضوية الحزب الوطني الإتحادي. وفي الوقت نفسه لم ير بأساً في قبول وظيفة المترجم للجمعية التشريعية التي عارضها الجميع عدا جماعة الاستقلايين. كان لا

يقيم كبير وزن للظنون والأقاويل .. يفعل ما يريد بلا مجاملة ويتصرف بما يقتنع بصحته، كان يحب أن ينطلق حراً حاملاً فكره ورؤاه.

قال عنه الطيب صالح «إن حديثه كان ودوداً وطريقته عجيبة في الحديث .. ينسج غلالة رفيعة من المحبة ويخلق مناخاً من الإلفة .. يستحضر أصدقاء الغائبين ويداعب الحاضرين .. ورغم غزارة علمه وتوقد ذهنه ورحابة آفاقه الفكرية فإنه لم يكن يتحدث عن الثقافة والأدب إلا نادراً، وإذا فعل بلغني إليك بالأفكار العميقة جزافاً في ثنايا كلامه العادي. كان إنساناً جذاباً إلى الدرجة التي بات غير قليل من حواريه يقلدون طريقته في الكلام والمشي والسلوك .. كان في سلوكه على سجيته تماماً لا يفعل شيئاً لا تألفه نفسه. وحتى عندما كان سفيراً لم يكن يفعل ما يقوم به السفراء عادة، من مجاملات كاستقبال في المطار وزيارة العرضى في المستشفيات، وقد تم تعيينه في لندن ثلاث مرات، في كل مرة يحدث شيء يقطع عليه إقامته. وفي المرة الأخيرة جاء أحد الوزراء في زيارة خاصة فأرسل من يستقبله في المطار ويدير أمر إقامته بأحد الفنادق واكتفى بذلك .. ولم يزره ولم يسأل عنه. وعاد الوزير الخطير إلى الخرطوم غاضباً وأقنع الحكومة بعزل جمال من منصبه». ويستطرد الطيب صالح في حديثه الطلي عن الرجل ويقول «كان جمال نسيج وحده بأدق معاني الكلمة، في حياته وفكره، وكان أسلوبه في الكتابة من الأساليب المميزة في الأدب العربي المعاصر يمكن أن يوضع جنباً إلى جنب مع طه حسين وأحمد زكي ومصطفى صادق الرافعي والمازني والمسعدي، إذا كتب خلق عالماً طريفاً مدهشاً تتماوج فيه الأضواء والظلال والابتسام والسخرية والفكر والأحاسيس شأن كل أدب عظيم».

أما روبن هودجكن² فقد كتب مقالة جاء فيها "كيف تأتى لجمال محمد أحمد أن ينجح ككاتب للأطفال لا يشق له غبار، ودبلوماسي تاجع، ومستشار حكيم لعدد من رجال الدولة من الإنجليز والسودانيين؟ لقد كان رجلاً أنيساً ودوداً لكل من صحبه،

2. ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي. صحيفة الأحداث 13 فبراير 2011.

وراي قصص عظيم الموهبة. كان يروي القصص الممتعة والحكايات المشوقة وهو يقلد من يحكي عنهم بحركات تمثيلية تكشف عن سخافتهم وتهافتهم، وتثير عند مستمعيه ومشاهديه الضحك والسرور والتأمل أيضاً. كان لجمال أيضاً ميزة عظيمة أخرى ألا وهي قدرته الفائقة على الإحساس بالمتعة عندما يسعد الأطفال. ربما كانت تلك الصفات مخبوءة في دواخل الرجل، بيد أنني أزعج أنها نضجت تماماً في سنواته الأخيرة في إنجلترا، خاصة وهو يدرس على يدي البروفيسور السيدة تيل في جامعة إكسترا.

لقد أثرى جمال محمد أحمد الحياة الأدبية والثقافية بعدد من المؤلفات والتراجم والبحوث في مجالات الأدب والفكر والدبلوماسية ونشرت له عدة كتب منها «مطالعات في الشؤون الأفريقية» (1968)، و«سالي فوهم» (1970)، و«في المسرحية الأفريقية» (1971)، و«وجدان أفريقيا» (1972)، و«عرب وأفارقة» (1977). و«في الدبلوماسية السودانية» (1985)، و«الجذور الفكرية للقومية المصرية» - باللغة الإنجليزية - (1961). كما صدر له ضمن كتاب «بحوث أفريقية» «العنصر الديني في اليقظة الجزائرية» 1967 بكلية نغبلو / أكسفورد وبحث متميز عن العلاقات العربية الأوروبية (صدر عن مؤسسة كونراد أديناور، بون (1982))، وأضاف للمكتبة العربية عرباً «الدولة الاتحادية»، مادن وجاي وهامتلون (1959) وكتاب بازل ديفيدسون «أفريقيا تحت أضواء جديدة»، (1961) وله «ولايات النيل المتحدة والثقافة الأفريقية المعاصرة». عمل جمال سكرتيراً لدار الثقافة ومستشاراً ثقافياً لمجلة «حوار»، وعضواً بهيئة مجلة «التاريخ الأفريقي المعاصر»، وعضواً مؤسساً لمركز الدراسات للوحدة العربية ومخططاً ومشاركاً في الكتابة لمجلة «الصبيان» السودانية في الفترة ما بين (1946-1949)، وعضواً مؤسساً للموسوعة الأفريقية (1962).

وكان جمال قد تولى سكرتارية الهيئة السيتينية لمؤتمر الخريجين عام 1936. وقد تميزت مساهماته في مركز دراسات الشرق الأوسط «هارفارد» ومعهد الدراسات

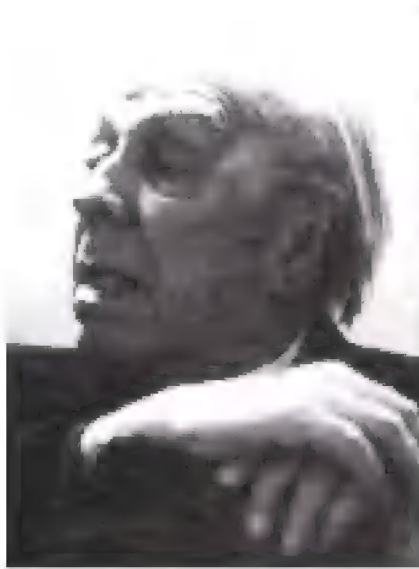
الأفريقية والأسبوية «السودان» والمعهد الدولي لدراسة اللغة العربية.

ولد جمال محمد أحمد في عام 1915 في سرة شرق - إحدى قرى وادي حلفا التي ابتلعها النيل، وقد بكى عليها كثيراً وتضجع ورثاها بحشاعر صادقة. ثم أطلق اسم قريته هذه على داره العامة بالخرطوم إحياء لذكراها.

وبعد أن أكمل تعليمه الأولي والأوسط في قريته في وادي حلفا انطلق إلى الخرطوم ليواصل تعليمه في الكلية التي تميز فيها على أقرانه بالفصاحة والخلق القويم حتى أصبح رئيساً لرؤساء الدachليات. وبعد أن أمضى فترة من الزمن بالمدارس الوسطى في أم درمان تم نقله إلى معهد التربية ببخت الرضا- الذي كان يختار النوايح للعمل فيه حيث شارك في تفجير الثورة التعليمية في سنواتها اللاحقة. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية سافر في بعثة دراسية إلى بريطانيا التي عاد إليها للمرة الثانية للدراسات العليا في جامعة أكسفورد. وعند عودته إلى السودان اختارته كلية الخرطوم الجامعية عميداً للطلاب. وفي تلك الفترة- اتسع نشاطه الثقافي والفكري فقدم المحاضرات والبحوث وأنحف الصحف السيارة بمقالاته العميقة وخاصة صحيفة «الأيام» حيث كان يمهرها بتوقيعه «عارف سعيد». وبعد إستقلال السودان وقيام وزارة الخارجية ولج أبواب الدبلوماسية فأضحى سفيراً للبلاد في العراق وسوريا ولبنان والأردن وتركيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وأثيوبيا، وبرز في تلك العواصم دبلوماسية ناجحا وأديبا معروفاً ومحدثاً مفوهاً تحنفي به الأوساط الفكرية والثقافية في حله وترحاله. وتدرج في مناصب وزارة الخارجية السودانية فأصبح وكيلاً ثم وزيراً، كما كان أول رئيس لإتحاد الكتاب السودانيين.

ظلت حياته عامرة ثرية، دافق الحيوية متوقد الذهن يقرأ ويكتب بنهم ويقبل على مسرات الحياة ويستقبل أصدقاءه ويسعدهم بغزير ثقافته وثاقب فكره وبآرائه النيرة وروحته المذبة إلى أن وافاه الأجل المحتوم في عام 1986- عليه رحمة الله.

التاريخ السوداني في نصوص بورخيس



29 مايو 2001م

يعقوب المريض، الذي كان أكثر حكام السودان قسوة قضى نحبه في قصره في اليوم الرابع عشر من قمر برمهاات عام 1842 تاركاً البلاد لضراوة جبهة الضرائب المصريين، وهناك من يرى أن عبد الرحمن المسعودي قد قتله إما بالسم أو الخنجر.. وربما قضى بصورة طبيعية حيث إنه تسمى بالمريض. وقد روى المسعودي العراف للقبطان ف. برتون عام 1853 وقائع القصة فقال «إنه نتيجة للمؤامرات التي حاكها أخي إبراهيم - مع الوعود الكاذبة بالمساندة للرؤساء السود في كردفان الذين ضللوه - قاسيت الأمرين أسيراً في قلعة يعقوب المريض».

هكذا بدأ الكاتب الأرجنتيني المعروف خورخي لويس بورخيس قصته «مرأة

الحبره التي قرأت ترجمه لها بالعربية نشرت أخيراً.

لا سبيل إلى التعامل مع هذه القصة التي يتلبسها أسلوب بورخيس المتنوع بالواقعية السحرية إلا بتجربتها من النظرة النقدية التقليدية الصارمة للنص، فالذي يدهشنا حقاً ونحن بصدد الآن ليست سحرية النص، وإنما وقائع التي جرت في منتصف القرن التاسع عشر وفي موقع جغرافي ناء لا تحيطه موسوعة بورخيس مهما بلغ مداها.

يجعلك النص تتأمل في كيفية الوصول إلى تلك المصادر العvisية حتى على الباحثين المختصين - عن تاريخ السودان - وتوظيفها في عمل إبداعى ينتجه كاتب مثل بورخيس، ما الذي دفعه إلى تلك المغامرة وهو الذي ظل يمتح من معين التراث الأمريكى اللاتينى الغارق في ثرائه الأسطوري وثقافته المتعددة.. بالإضافة إلى التاريخ الأوروبى وتناسل أحداثه في واقع الثقافة الغربية المعاصرة.

ويتداعى بورخيس في قصة ذلك العراف الذي ألفت به العقادير في قلعة يعقوب المريض بانتظار الإعدام - بعد أن قُتل أخوه في ذلك النطع الأحمر الدامى - لولا أن أسعفته الحيلة باستخدام قدراته في السحر الأسود ليلهي بها الحاكم، فجاء بقلم من القصب ودواة وكتب الرقى والعزائم (البخرات) وأحرقها مع الكزبرة واللبان الجاوي واستعمل المتدل ليرى الحاكم في دائرة الحبر التي صبها في كفه جياداً رشيقة ترعى في سهوب واسعة ومُدناً ومناخات وممالك وكنوزاً مخفية وسفنًا تجوب البحار وآلات حرب ونساء فانتات وملوكاً مدفونين في بطون الأهرامات وأشباحاً بثياب سودانية وأحياناً بيزات نظامية. وحينما رأى الطاغية في دائرة الحبر رجلاً ملثماً يقتادونه إلى الإعدام طلب من العراف أن يكشف له عن الغطاء ليتعرف على الرجل التمس، وحين فعل رأى الطاغية صورته والسيف يهوي على عنقها فأعول ثم سقط صريعاً.

أصوات

لا بد أن بورخيس - القارئ الأسطوري والذي تخيل الفردوس في طفولته مكتبة ضخمة - قد قرأ كثيراً من النصوص والتقارير التي كتبها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا السودان خلال حقبة تاريخية متعاقبة، وفي ظني أن الطاغية يعقوب ما هو إلا حاكم دار السودان أحمد باشا أبو ودان، الذي مات في الخرطوم في عام 1842 ودفن في إحدى القباب التي مازالت شاخصة في وسط العاصمة قرب شارع القصر.

كان أبو ودان شخصية طموحة حدثته نفسه بالاستقلال عن محمد علي والي مصر والاتجاه إلى السلطان العثماني يستمد منه شرعيته، ذلك بعد أن وطّد صلاته مع السودانيين، وقيل إنه بدأ بالفعل في مراسلة الباب العالي لتنفيذ خطته لولا أن عاجله الموت، الذي لم يكن طبيعياً فيما ذكرت المصادر.. فيد الوالي كانت الأسرع بطشاً.

استخدام بورخيس ظلالاً مما قرأ في إنتاجه للنص، لم يفرق في تفاصيل التاريخ ولم يتحرر دقته.. فذاك أمر لم يكن بعينه. ترك الأسلوبية والمناخات العامة تسيطر على قصته. إلا أنك تكاد لا تخطئ نوعية تلك المناخات.. أساليب العرافين وكتابة «البخرات» وصناعة المنديل فتبرز صور في غاية الروعة والغرابة حتى النهاية الدامية للطاغية.

الواقعية السحرية مصطلح شاع في سنوات الثمانين من القرن العشرين وارتبط بشكل عام بالإبداع الروائي لكتاب أميركا اللاتينية، وخاصة بورخيس والكلولومبي جارميا ماركيز، وقد تجلّت بصورة عميقة في قصة بورخيس «كتاب الأمل» واتسمت بها معظم أعمال ماركيز، وقدم كل من الألماني جوتتر جراس والإنجليزي جون فاويز والإيطالي إيطالو كالفينو تجربته الخاصة في تلك الواقعية التي تميّز سحربتها كل نص عن الآخر.

وُلد لويس خورخي بورخيس عام 1899 في بوينس آيرس، وقد هاجرت أسرته في طفولته إلى إيطاليا ودرس في سويسرا وأتقن عدّة لغات وأبدى عبقرية باكرة منذ بفاعته. وفي مرحلته الأولى تأثر بالشاعر الإنساني الأمريكي وولت ويتمان مع اطلاع عميق على مختلف الاتجاهات الأدبية السائدة في الأدب الإسباني والأوروبي بصفة عامة. كتب شعراً بديعاً أخذاً وبات أحد الوجوه الإبداعية اللامعة بعد عودته إلى بلاده. نشر نصوصه الإبداعية في الشعر والرواية وأخذ يلهم أجيالاً من الكتاب والأدباء في جميع أنحاء العالم بإعتباره مثلاً فريداً للإنسان الذي تصنعه الثقافة الواسعة. والتف حوله النقاد بعناية وإهتمام واعتبروه أسطورة إبداعية تزين وجه القرن العشرين. وقد صدر أول كتاب مهم يؤرخ لمرحلته الإبداعية الأولى عام 1954 بعنوان «بورخيس والجيل الجديد». ثم صدر «الخيال الضائع» في العام نفسه. أصبح بورخيس أستاذاً في الأدب الإنجليزي في كلية الفلسفة بجامعة بوينس آيرس. وفي عام 1956 حصل على جائزة الدولة وأخذ بصره في الضعف والتلاشي حتّى أطبق عليه العمى الكامل في عام 1960. ولم يعد قادراً على الكتابة والقراءة لولا أمه التي أنبرت لهاتين المهمتين ليدخل منعطفاً جديداً في تجربته الإبداعية.

شجّد العمى رؤيته وشفافيته وقدرته على الغوص في أعماق الأشياء وشكّل بدايته الحقيقية مما دعا صديقه الأديب الفرنسي جان بيير برنس لأن يقول «في نهاية الخمسينات بلغ بورخيس أوج نضجه الأدبي بفعل حياته القاسية واللحظات الصعبة التي سببها له العمى، إلا أن الطريف حقاً أن ذهاب البصر هيأ له مستوى جديداً من الكتابة وسلك بأسلوب جديد درياً آخر أكثر حيوية، وذلك حين استخدم اللغة الشفافية». وقد مال إلى البساطة ورسم صوراً بتعبيرات وألوان من الحياة العادية البسيطة، وكأنه يستسلم لتسجيل ملامح واقع رتيب هادئ وشفاف لدرجة يبدو فيها النص أحياناً ضرباً من الوصف الخارجي المحايد والبريء.

أصوات

والمفعم بالسلامة.

سبق بورخيس في تناول التاريخ السوداني كمادة للإبداع الروائي جورجى زيدان الذي خاض تجربة ثرية جدية بالإعجاب حين قام بتوظيف التراث الإسلامى فى إثنين وعشرين عملاً روائياً ألهمت خيالنا فى مرحلة الطفولة وعبأت شعور ووجدان أجيال من الأطفال العرب خلال العقود المتتالية للقرن العشرين، وقربت إلى الأذهان أحداث التاريخ الإسلامى الممتدة من فرغانة بأفغانستان إلى القيروان فى الشمال الأفريقى فالأندلس. وكان نصيب السودان منها روايتين هما «المملوك الشارد» و«أسير المتمهدين»، والأولى دارت أحداثها ما بين مصر وبلاد الشام والسودان. فبعد مذبحة القلعة التى قضى فيها الوالى محمد على باشا على معظم المماليك وفرَّ بعضهم إلى السودان سُرَّ حملته بقيادة ابنه إسماعيل لفتح وللمطاردة فلولهم. كانت الرواية العربية فى طفولتها وقتذاك مجرد بناء سردي وحبكة تعتمد على العقدة التى تنفك عن نهاية سعيدة. لا شك أن الكاتب قد اعتمد على الروايات الشفاهية عن تلك الحوادث وبعض التقارير المبتورة الضعيفة الصياغة التى كانت تأتى فى شكل رسائل من السودان إلى مصر. فالصحف لم تكن قد برزت إلى الوجود فى القاهرة بعد، والأخطاء التاريخية كانت قاذحة وذلك حين تناول فى نصه حادثة اغتيال إسماعيل باشا فى شندي، فقد كان يظن أن الملك نمر هو زعيم الشايكية.. وجعله يقيم فى قصر ويرندي ثياباً وصفها، فهى غير تلك التى كان يرتديها شيوخ العرب السودانىون فى أيامه.

أما روايته الأخرى «أسير المتمهدين» فقد جاءت نصاً متماسكاً توزعت الأحداث فيه ما بين مصر والسودان حول الثورتين العرابية والمهدية، ويبدو أنه قد توفرت لدى الكاتب المصادر والروايات الشفاهية والصحف التى رصدت الأحداث الأمر الذى جعل منها رواية كلاسيكية تتقيد بوقائع التاريخ.. إلا من

هناك صغيرة في ترتيب الأحداث والطريف أن أحد أبطالها كان هو حسن حبشي الذي عمل كاتباً للأمير عبدالحليم مساعد. ويبدو أنه كان موظفاً مصرياً في ديوان المديرية بمدينة الأبيض.. وذلك قبيل اندلاع الثورة المهدية. والواضح أن جورجى زيدان وجد في شخصية حسن حبشي - الذي قرأ إلى مصر بعد موقعة توشكي - منجماً غنياً لرواية الأحداث. كما أنه قرأت مرة أن جورجى زيدان عمل أيضاً في مخابرات الجيش البريطاني مثلما كان نعوم شقير، وقد صاحب حملة الإنقاذ أيضاً التي عادت خائبة بعد أن تأكد لها سقوط الخرطوم في يد الثوار في صبيحة 26 يناير 1885. وهكذا نسنى له معرفة الكثير عن تفاصيل الثورة المهدية وقائدها وقدم وصفاً تفصيلياً لبعض الأحداث تكاد لا تجده في معظم المصادر التاريخية، الأمر الذي يمكن أن يشكل مادة مهمة للمؤرخين.

كتب جورجى زيدان كثيراً حول الأدب وتاريخ الإسلام بالإضافة إلى هذه المجموعة الروائية.. إلا أنه لم يسلم من سهام الناقدين الذين رأوا في تلك المجموعة افتراءات على الإسلام والمسلمين، ثم ينطلق هؤلاء النقاد من وجهات النظر الأدبية وهامش الكاتب في الحرية لتطويع الأحداث حسب مجريات القصص، إلا أنني لا أرى فيها ما يشكل إساءة للمعتقدات والدليل على ذلك صدور طبعاتها عشرات المرات ولا تزال تحتل مكانها في جميع المعارض بمختلف العواصم العربية. والمعروف أن الرجل أصدر مجلة «الهلal» في مصر عام 1892، ومازالت تواصل الصدور، عاش جورجى زيدان - وهو لبناني الأصل - في الفترة ما بين (1861 - 1914).

مابين لوركا والخليل



في المكان الذي احتلته عمارة مرهج بالخرطوم في وقت لاحق كان للخواجة السوري شيخ أمين مطعم و«كُلب» يتكون من غرفة وصالة وحديقة داخلية صغيرة. كان هذا هو المكان الوحيد الذي يستقبل المثقفين السودانيين لقضاء سهراتهم في عشرينات القرن المنصرم. فقد كانت مثل تلك الأماكن تقتصر على الأجانب فقط. وفي هذا «الكُلب» كان النادل اليوناني بني شناكة خفيف الظل، عذب الصوت ينغم نداءاته لطلبات الزبائن بالحنان شجية أسرة انحدر بها من بلاد الإغريق لا ريب. وفي سنوات منتصف القرن وما بعدها بقليل عرف الناس مقهى شناكة مكاناً يرتاده المثقفون والأدباء والصحافيون وطلاب الجامعات.

وكان أبرز رؤاد «كُلب» الشيخ أمين الشاعر والفنان خليل فرح الذي كان

منغمساً حتى مشاش العظم في الشعر والغناء والموسيقى والعمل الوطني..
يشارك بحماس في تأسيس رؤية جديدة لوطن يزرع تحت وطأة الاحتلال. كان
عبقريّة فذة بكلّ المعاييس. جاء إلى الخرطوم من قرينته دبروسة في الشمال وهو
في غصارة الصبا بل لم يبرح مدارج الطفولة بعد شاعراً ينظم بلغته النوبية في
البدائيات. وحينما ولج كلية غردون التذكارية بقسم ورش البرادين بلغ صيته
مدينة أم درمان فتحرك شعراؤها لسر غور تلك الموهبة فاخبروه - وهو لما يزل
تلميذاً بالكلية - كما درجوا على ذلك كلما سمعوا بموهبة شعرية جديدة -
فاعترفوا بقدراته المتجاوزة.

لم تكن ألحان بني شناكة تمرّ على الخليل دون أن تؤرق مضجعه وتشكل له
هاجساً مستمراً.. فقد كان يرى ويسمع مالا يتسنى للآخرين، فعبر عن ذلك
بقوله:

يا بني يا بلبل أمين

صداح حميتني النوم يمين

فالخليل تميّز بحساسية شعرية وفنية عالية وكيمياء تحوّل المعادن الخسيسة
إلى ذهب.. تجسّد ذلك في سائر أعماله الإبداعية التي لا تزال نكتنفها عوالم
من السحر والدهشة المستمرة والنساؤل المشروع عن أسرار تلك الإمكانيات
التي لا حدود لها. وما كان لحن أغنية «عزة» التي أصبحت كنشيد «المارسييز»
للأمة السودانية إلا نتاجاً للحن المارش العسكري المعروف.

ود الشريف رأيه كمل

جيبوا ليه شالايته من دار قمر.

إستمع إليه الخليل مصادفة في القاهرة حيث كانت تؤديه فرقة للكشافات تابعة

للجالية السودانية. ومثلما كان يفعل فيدريكو جارسيا لوركا الشاعر الإسباني.. يستلهم أغاني العجر في أشعاره ومسرحياته التي أدهشت العالم إستطاع الخليل - الذي زامنه ورحل مبكراً مثله - أن يفترق من مختلف الينابيع ليؤسس إتجاهات جديدة ويحدث تحولات عميقة في الفن السوداني.

أكثر ما يدهش المرء جرأة الخليل في كتابة الشعر بتراكيب جديدة ومفردات عجيبة وبسهولة لفظية وصور «سوربالية» لا تفتأ تصبح جزءاً من الروح الشعبية ووجدان الناس.

زاره يوماً الزعيم الوطني علي عبداللطيف يصحبه رفيقه الشاعر صالح عبدالقادر. وكان عبداللطيف قد أفرج عنه لنوه من السجن فباغته الخليل بتلقائية مدهشة.

مالك غلطان.. ده هوى الأوطان.

وما لبثت هذه الكلمات أن أصبحت مطلعاً لقصيدة تحوّلت إلى أغنية ثورية إتخذها طلاب المدارس الحربية نشيداً خلال تظاهرتهم المسلحة التي طافوا بها شوارع العاصمة متحدثين قوى الإحتلال البريطاني في عام 1924م.

شارك الخليل في تكوين الجمعيات السياسية السرية منذ بواكيرها وبات أحد أبرز ناشطيها.. يكتب الأشعار الوطنية ويتحدى السلطة في مواجهات شجاعة لم يكن يبالي بنتائجها.

وعندما تفجرت أحداث ثورة 1924 واجهتها قوات الإحتلال بقسوة وشراسة وأعدمت قادتها العسكريين وأودعت الزعماء السياسيين السجن والمنافي.. لم يستسلم الخليل ولم يؤثر الصمت فاستخدم أشعاره وأغانيه في المقاومة.. وكانت أغنية «أذكر بقعة أم درمان» شرارة أشعلت حماس الناس فأخذوا يرددونها في

بيوتهم ومناسباتهم الخاصة. وذكر الشاعر حدياي عبد المطلب في شهادة له تضمنها كتاب أصدره ابن الخليل مؤخراً بعنوان «مجنون عزّة» أن رهطاً من حسان أم درمان هرعن مشياً على الأقدام يقصدون منزل الخليل بالخرطوم - في حالة نادرة الحدوث آنذاك - ليستمعن إلى القصيدة من الشاعر نفسه ويستوثقن من كلماتها لأنها تنوّه بأسلاف لهن كان لهم دور في الوطنية.

أما قصيدته «نحن الشرف الباذخ» فقد كانت مانيفستو سياسياً رغم غنائيتها واعتبارها تحولاً نوعياً في اللحن والموسيقى والأداء.. إنشغلت السلطات الأمنية بأمرها - لا تنشرها في أوساط العاصمة.. وكان صموئيل عطية - اللبناني الجنسية - مسؤولاً في قلم المخابرات إلا أنه كان مُحِبّاً للأدب والفن وصديقاً لعدد من المثقفين السودانيين. وجّه عطية الدعوة لأصدقائه لحضور ليلة ساهرة في داره ودعا الخليل أيضاً ليقدّم بعضاً من أغانيه.

فطن الخليل لتحدي مسؤول الأمن وقرّر منازلته في داره وأبلغ أصدقاءه أن سهرته الليلة في «عرين الأسد». ومنذ اللحظة الأولى إحتضن مزهره وأخذ يشدو بالأغنية التي أفرغت سلطات الإحتلال «نحن ونحن الشرف الباذخ». فكان موضع إعجاب الجميع لجسارته وجراته وأدائه الرائع الذي تجاوز روح القمع والتسلط.

لَمْ تمهله ذات الرئة طويلاً رغم تنقله بين الخرطوم والقاهرة طلباً للعلاج.. فغيبه الردي في العشرين من يونيو عام 1932 - وهو في شرح الشباب - فارتفعت البلاد لغيبه الفاجع. وأقام أصدقاؤه الأدباء والشعراء والمثقفون حفلاً تأبينياً في اليوم الأربعين لوفاته وقف فيه عرفات محمد عبدالله خطيباً معدداً سجايا ومناقب الشاعر الراحل فقال: «كان الخليل شهماً هماماً كريماً متلاًفاً يؤثر على نفسه لا يخشى الناس ولا الأيام والليالي، صريحاً لا يدس ولا يكيد، يترفع عن السفساف فما سمعته ولا رأيت من ذللاً ولا متملقاً، عزيزاً في ضعفه وقوته».

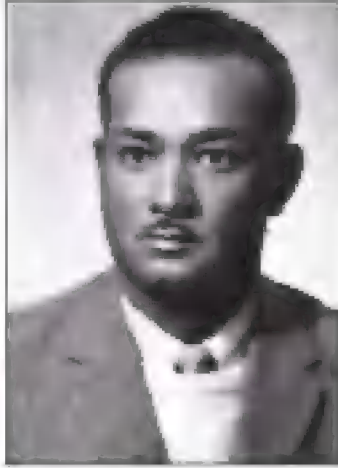
ووصف عرفات قدرات صديقه الشاعر الذي لم يكن يغني إلا للصفوة من أصدقائه وقال «وفاتكم إن الخليل إذا جلس بين أصحاب أصفاء في هدوء الليل وأرسل في جوفه نغمة متموجة، ترسل في جوم السامعين قشعريرة خفيفة ويكون قد نسي العالم الذي حوله غير متكلف ولا متصنع يخرج نغماً لا يشبهه صوت المزمار ولا أنين القيثارة، بل كان شيئاً لا يقاس بغيره قائماً بذاته لا يدركه إلا من دق حسه وصقل ذوقه». أما محمد أحمد محبوب فقد رثاه بقصيدة بعنوان «ماتم الفن» ومطلعها:

غاب في الرمن خليل واستتر شاعر فذ وفنان أغر

ومازال الخليل يحيا في وجدان أمته وما زالت أشعاره تتوهج في كل يوم جديد: «عزة في هوائك» و «وفي الضواحي وطرف المدائن، و«فلق الصباح»، و«يانيلنا يا نيل الحيا»، و«جناب الشاطئ»، و«ما هو عارف» و«تم دور وادور»، وغيرها.

المواقف الجهيرة

صلاح أحمد إبراهيم



لَمْ يكنَ مَذِيقُ اللِّسَانِ.. يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ.. كَمَا عَبَّرَ ابْنُ الْأَحْنَفِ.. بَلْ كَانَ قَوْلًا فَعَالًا صَعِبَ المَرْتَفِي مُتَقَلِّبُ الهَوَى - شَأْنُ الشُعْرَاءِ المَفْرُطِي الحَسَّاسِيَّة- وَكَانَ وَاضِحًا كَالشَّمْسِ فِي رَأْدِ الضَّحَى.. وَصَفَ شَعْبَهُ مَرَّةً بِالجَمَلِ البَشَارِيِّ الَّذِي يَقُودُهُ الصَّغِيرُ بِالمَعْرُوفِ.. إِمَّا اِهْتِاجَ دَقِّ العُنُقَا فَكَأَنَّهُ هُوَ مَا تَجَاوَزَ وَصَفَ ذَاتَهُ فِي ذَلِكَ.. وَكُتِبَ مَرَّةً عَنِ المَثَقَفِ فَقَالَ.. الَّذِي لَمْ يَفْتَحْ مَعَ الظُّلَمِ حِسَابًا مُشْتَرَكًا.. وَالَّذِي لَمْ يَسْمَعْ حِينَ جَاعَ أَهْلُهُ.. لَا رَأْيَ وَلَا امْتَلَكَ.. وَلَعَمْرِي كَانَ ذَلِكَ مِنْهَجَهُ فِي الحَيَاةِ.. فَحَيَاتِهِ كَانَتْ تَحْدِيًا مُتَصِلًا رَغْمَ هَدَوْنِهِ الجَلِيلِ وَصَمْتِهِ المَتَسَامِي.. أَرَادَ لِحَيَاتِهِ هَذِهِ أَنَّ تَكُونَ ثَوْرَةٌ لَا تَهْدَأُ مِنْذُ غَضَارَةِ الصَّبَا وَحَتَّى غِيَابِهِ المَفَاجِعِ.

حين جئمت دكتاتورية عسكرية قاهرة على وطنه كان قد تخرج لتوه في جامعة الخرطوم متطلعاً للالتحاق بالسلك الدبلوماسي.. يملك كافة مؤهلاته ويزيد.. فحدث أن تأمرت دول الغرب على الكونغو وزعيمه باتريس لوممبا.. استكثرت عليه إسقاطه والتمتع بخيراته.. وأحاطت به من كل جانب - إحاطة السوار بالمعصم- تريد السلطة لأعوانها لضمان استمرار تدفق الثروة نحو عواصمها وأراد صلاح لحكومة بلاده أنذاك موقفاً مشرفاً يكمل موقف عبد الناصر الذي وقف إلى جانب لوممبا لا يحيد.. ولما أعياء السبيل كتب شعراً قادحاً مرأً كالحنظل ما ترك لوزير الخارجية جنباً يرقد عليه.. أتخنه بالجراح، وكان يدرك ألا مطمع لديه بالانتظام بالسلك الدبلوماسي، بعد أن قال «والنعام الدبلوماسي الأثيق.. يدفن الهامة في كوم من اللفظ رشيق».

وحين إنتصف له الوطنيون واختاروه سفيراً بالخارجية - وهو الذي تجاوز لماعات الدنيا من مال وجاه وبات أكبر من ذلك - «يحتوي على الجسوع» كما يقول وولت ويتمان لم يغره المنصب ولم يقف حائلاً بينه وبين مواقفه الجهرية فتصدى لأكبر رأس في البلد-عندما جناح الرأس في حديث أدلى به لإحدى المجلات- فأوسعه سباً وتقريعاً وترك سفارته وتوجه إلى باريس ليعمل موظفاً صغيراً في إحدى السفارات العربية. وكأني به كالشاعر بابلو فيرودا عندما أغلق قنصلية تشيلي في مدريد وحمل البندقية ليقا تل في صفوف الجمهوريين في الحرب الأهلية الأسبانية.

تمثل صلاح بكل سجايا ومناقب أمته فاتصف بالأريحية ولين العريكة والبذل والتضحية والفداء وحب الآخرين والغضب العادل المشروع، وأصبح نموذجاً ساطعاً في النقاء والوفاء، وكان لا يفتأ يردد اسم الشاعر المرحوم شيبون -الذي زامله في ثانوية حنتوب، ووصفه بقوله.. شيبون حنجرة الشعب وصوت بلادي المثير.. وقفا هما الاثنان لمستر براون - ناظر المدرسة الإنجليزي- كشوك

الحوت في الحلق- في أوائل الخمسينيات والإستعمار البريطاني في حشرة الروح ففصلهما عن الدراسة- أيام كانت مثل هذه التضحيات تعد ضرباً من الجنون- ولكنهما انتصرا عليه عندما جلسا لامتحان الشهادة من المدارس الأهلية ونجحا في الالتحاق بالجامعة.

كان من الطبيعي أن يفيض صلاح بالمعرفة، وأن يكتب الشعر منذ نعومة الأظفار، حيث نشأ في بيت يعج بالعلماء والمؤرخين والمثقفين الأفاضل- وعندما تخرج في الجامعة صدر ديوانه الأول، وشغل حيزاً مهماً في الشعر السوداني.

وكان صلاح كثيراً ما يردد قول الناقد السوداني الأمين علي مدني « الشعر الجديد يتطلب ناقدًا جيدًا، وذلك عندما يفاجئ المتلقين بشعر جديد ولغة جديدة، مغترفاً من المعين الثرار للعربية الدارجة في السودان فيقبح المعاني، بما هو خليق بإبداع الشاعر المتفرد.. ويقول شعري خشن كالخيش.. ربما لا يعجب بعض المنتظمين من النقاد.. ولكني لا أبالي.. أما في الكتابة النثرية فقد عالج صلاح القصة القصيرة باقتدار.. ومازلت أذكر قصته «وهكذا يا أستاذ» التي هزتنا حتى الأعماق عندما قرأناها في عهد الطلب.. وله مجموعة قصص صدرت في مؤلف مشترك مع صديقه الأديب المبدع البروفيسور علي الملك الذي سبقه إلى الدار الباقية.. وعنوانها «البرجوازية الصغيرة» وكانا لا يزالان طالبين بالجامعة، أما مقالاته التي عبر فيها عن خصوماته الفكرية والسياسية والأدبية فجديرة بأن تحتل مكانها بين عيون النثر العربي الرفيع. وقد قدم الشاعر للقراء «غابة الأبنوس» و«غضبة الهبياي» و«محاكمة الشاعر للمسلطان الجائر». فضلاً عن ترجمة «الأرض الأثمة» للمناضل الأفريقي باتريك فان روزنبرج.

نشر هذا المقال في «الاتحاد» في يونيو 1993 غداة وفاة الشاعر

1 أكتوبر 2002م

بين شاعرين: زقودة وود المادح



محمود الفكي و عبد الحليم علي طه

أطلق محمود الفكي على صديقه اللدود عبد الحليم علي طه لقب «ود المادح»، وذلك لأن شقيقه عبد الرحمن الفكي الذي كان يعمل ضابطاً في قوة دفاع السودان مع عبدالله خليل وعبد الرزاق علي طه وقيمون معا في حامية شندي كان يلاحظ أن أهل وأقارب عبد الرزاق علي طه من قري منطقة شندي كانوا يزورونه بالحامية وكثيراً ما يحملون بين أمتعتهم طاراً. ولم يكن المتاع سوى مخلاية أو مخلايتين حيث لم تكن حقائب السفر معروفة في ذلك الوقت، ولم يتوان عبد الرحمن الفكي في نقل تلك الملاحظة إلى شقيقه الذي سرعان ما استخدمها في هجاء عبد الحليم:

تاريخنا بين طابية ومطار
وخلافنا مخلايتين وطار

وقال أيضاً:

نقرات طار أبوك بتصمم الإصنين
نقراتو الثقول عنز الخلا أب قرنين
حاييم بين رفاعة وطيبة والكاملين
وايراد ليلتو قط ما زاد على القرشين

يعني أن والد عبد الحليم كان مادحاً منجولاً بين قرى الجزيرة.

ويبدو أن الفريقين من آل علي طه والفكي إحتكما إلى عبدالله خليل في هذا الشأن بإعتباره شاهداً على الواقعة فرد بحزبه وصراسته المعهودة «مخلية شفت.. لكن طار ما أعرفش». إما عبد الحليم علي طه فقد لقب غريمه محمود الفكي بـ «زقوده» و«الحفيد» يشير إلى أنه من الحلب ومن أحفاد جنكيز خان.

ويقول معاصروهم إن هذه الألقاب كانت شائعة في أوساط الخريجين وكان ينادونهما بها بلا حرج. كما أن الصحف في ذلك العهد كانت تتداول ألقاب الشعارين دون أن يشير ذلك أي نوع من الغضب أو العتاب في أوساط العائلتين اللتين تقبلتا ما كان يرد في قصائدهما من هجاء لاذع وسخرية عندما يتعرضان للأنساب والأصول.

وبعد قيام مؤتمر الخريجين وبروز التكتلات السياسية انحاز عبد الحليم علي طه إلى معسكر الاستقلاليين بينما وقف محمود إلى جانب المعسكر الاتحادي، ولكن من الناحية الحزبية البحتة يقول بعض معاصري محمود إن عواطفه الحزبية البحتة كانت تتأرجح بين الاتحاديين بحكم الجوار والسكن في «أبوروف» وحزب الأشقاء بحكم علاقة الصداقة. وكان المعسكران يتقبلان إخوانيات محمود وعبد الحليم السياسية بروح متسامحة تفهم المُلح والطرائف وتستمتع بالفكاهة والدعابة بل إنهم كانوا دائمى التطلع للمجديد من قصائدهما لتبديد الملل

وأشاعة روح التسامح. وفي إحدى المناسبات دعا عبد الحليم الإتحاديين بقوله:

ربات الخدور في جمالها ما بنغيها
كنج كونج إنقبض والنار وقع في لها
والزول الثقيل بنقلبو فيها قلبيه
والحلبى المقرش سولي هو زريبه
واللاسلكي هين بلقى فيهو ضربيه
طيبز إنقرع أبقالننا داب السيبه
ودحامد وقع والقاضي حالته صعبيه

وقد قصد الشاعر بكنج كونج إسماعيل الأزهرى وبالزول الثقيل يحيى الفضلي
وبالحلبى المقرش أمين زيدان وباللاسلكي إبراهيم جبريل لطول قامته وبالسببه
محمود الفضلي. والسببه هي ثلاثة عصي تعلق عليها قربة الماء. أما ود حامد فهو
علي حامد ويعتقد أن طيبز هو بابكر القباني والقاضي هو محمد أحمد المرضي.
أما محمود الفكي فقد أوسع الاستقلايين سبباً لموافقته على التطور الدستوري
ومشاركته في الجمعية التشريعية:

سلسلة السوداني الحاوية البعيد والداني
أهل الجبة المتروزة اللجنتهم منبوذة
هجرو الورد والبوزه وشراهم الكازوزة
رئيس الجميع شنيطي ونائب الرئيس حمريطي
فيها العريان والميطي وقلبوا الحكم برنيطي
أهل اللباس البوجه الماعومو عكس الموجه
ما بهيجوا ساعة الهوجه وجون بول باقي ليهم خوجه
شيخنا الكبير مادبو وود الأمير الجنبو
الحكم الثنائي بيعبو ومايرضي شيتا يقلبو

وعندما نقل ثانوي كلية غردون في النصف الأول من الأربعينات من الخرطوم إلى أم درمان منحت الفرصة لمحمود الفكي بأن يراقب أوضاع الأستاذ عبدالحليم علي طه المادية والمعيشية عن كثب ليستفيد من ذلك في قصائده الساخرة.. فقد لاحظ أن عبدالحليم خلافاً لزملائه المدرسين كإسماعيل الأزهرى وأبوبكر عثمان وغيرهما لم يكن يملك سيارة صالون بل كان يستخدم دراجة في ذهابه إلى المدرسة وإيابه، كما لاحظ أنه يسكن بالإيجار ويتنقل من مسكن إلى آخر فخطبه بهذه الأبيات:

الناس ركبو الصوالين والجيب فرقاره
وات لابس رديك البشبه الشمساره
تقذل وتنفع في البسكليت أب طاره
في البقعة الوسيعة اللامة كل الأمه
لألفيت ليك مكان ولا جحير تتلمه

وجاء في أشهر قصائد عبدالحليم التي هجا فيها محمود الفكي:

في وصف الحفيد قالوا الحفيد اتمادي
في الفتي والضلال رخص فتحلو عياده
راسمالو القرد خمران عليهو قلاده
دريكة وطبل زمبارة جايه هـواده
ما بشكر عليك صمنعة جـودودو أجـاداد
فتح الحله سمع تحت كـدرو سـداده
جاب المويه جاب الرمله جابلو رمادا
أدى المحيط جيهنو تحت إيـدو وسـاده
سكسك في النحاس غنى العنب يا سـاده

كان الشاعران موظفين مرموقين المكانة في الخدمة المدنية.. فالأستاذ عبدالحليم علي طه عمل مدرساً بكلية غردون ثم المدارس الثانوية ثم ملحقاً ثقافياً بسفارة السودان بالمملكة المتحدة. وتدرّج في الوظائف حتى شغل منصب الوكيل

أصوات

لوزارة التربية والتعليم، أما السيد محمود الفكي فقد عمل محاسباً بمصلحة المالية ثم مديراً للإذاعة السودانية بعيد الاستقلال، وقد عاش حياة ثرية وأمتعاً الناس. ولا يزال من بقي من معاصريهما يرددون في حبور تلك القصائد الساخرة وتلك الأجواء التي كانت تعطر أماسي العاصمة في تلك الأيام، خالية من الضغائن وملئية بالروح العذبة والأخلاق السودانية الأصيلة السمحة.

لم يكن عبدالحليم ومحمود وحدهما في تلك الساحة، فقد عرف الناس «شعراء الكتيبة» وكان من أعضائها البارزين محمد المهدي مجذوب ومحمد عبدالقادر كرف وإمام دوليب والخزرجي وأحمد علي طه - شقيق عبدالحليم - ومنير صالح عبدالقادر.

وكانوا يجتمعون في مكتبة حسن بدري بأم درمان حيث كان يحتفظ بإنتاج الجماعة في درج بالمكتبة سموه «درج السفاسف»، وأما إمارة الكتيبة فقد كان يتنافس عليها شعراً حسن بدري والنور إبراهيم. وقد أثبت الدكتور عبده بدوي في كتابه (الشعر في السودان) إخوانيات شعراء الكتيبة فذكر أن دستور الكتيبة ينص على أن عضوية الجمعية يستحقها من هجا أكبر عدد من الشعراء المؤسسين للكتيبة، وأن القادم والمسافر يجب أن يقال فيهما شعر، وأن التقرير السنوي للكتيبة يجب أن يكون شعراً. وفي مقدمة ديوان «الكتيبة» للشاعر النور إبراهيم، كتب منير صالح عبدالقادر يقول: «إنهم كان يعيشون عصر فساد سياسي، وأن أحلامهم في حياة فاضلة لم تتحقق فراحوا يتهاجون لينفوسوا عن أنفسهم متخذين الرمز في الهجاء سبباً من أسباب الراحة النفسية».

صدر في مارس الماضي كتاب (بين شاعرين، مع إخوانيات عبدالحليم علي طه ومحمود الفكي)، لمؤلفه الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه، حيث قام بنشره مركز عبدالكليم ميرغني الثقافي بأم درمان، وقامت بالإشراف على توزيعه شركة رياض الريس للكتاب والنشر ببيروت. والدكتور فيصل عبدالرحمن كاتب غني

عن التعريف ظلُّ يرفد المكتبة السودانية بمساهماته المتميزة في السياسة والتاريخ والقانون. والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات قام المؤلف بنشرها في صحيفة «الخرطوم» التي كانت تصدر في القاهرة - قبل أن تنتقل إلى الخرطوم - في الفترة ما بين 1999 و2000. وعبدالحليم علي طه هو عم المؤلف، حيث استطاع من خلال هذه العلاقة أن يعثر على معظم شعره إلا أنه لم يعثر إلا على قدر محدود من أشعار محمود الفكي.

1 مايو 2001 م

27

تحريض على الكتابة والإبداع



بدور عبد المنعم

تلقيت بكلّ ترحيب وامتنان آخر إصدارات مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي بام درمان «ذكريات وخواطر» تضمن عدداً من المقالات بقلم الكاتبة السودانية السيدة بدور عبد المنعم عبد اللطيف سبق نشرها في صحيفتي «الإتحاد» بأبوظبي و«الخرطوم» حين كانت تصدر في القاهرة. وذلك خلال فترة إمتدت منذ أواخر سنوات الثمانين حتى أواخر سنوات التسعين الماضية. كتبت عن تجاربها وذكرياتها وما عَنَ لها من خواطر، ما وضعت الكتاب جانباً حتى التهمت صفحاته التي تجاوزت التسعين.. فأدهشني تماسك النص واكتنازه وثراء اللغة وبذخها بلا تعمد أو تنطع وانتابني إحساس غامر بأن معظم هذه المقالات كان يمكن أن تكون أساساً لعمل إبداعي متميز. في مقال بعنوان «أيام في الخرطوم» وردت صور تعبر عن واقع اجتماعي جديد بتشكيل.

«مجموعة فتيات يتحدثن: بكرة عرس فلانة... انتم عارفين العريس ألماني؟.. أنفوس في الوجوه الشابة علني ألمح دهشة أو استنكار..... يخرق أذني صوت

المغامرة الباكرة في التجديد الشعري

حمزة الملك طمبل



«محببة أمينة، مقدسة للشاعر..»

من خبرها ينبثق عالم»

«كفافي»

لَمْ يحظ الشاعر والناقد حمزة الملك طمبل بكثير إهتمام يناسب فضل ريادته وسبقه في محاولات التجديد الإبداعي كما أن النقاد والمؤرخين لَمْ يبرزوا دوره كما ينبغي ويكاد اسمه الآن يتوارى في سجل التوثيق الأدبي. وقد ظل هذا الشاعر الناقد يكتب منذ بدايات القرن العشرين وحتى سنوات الخمسين. وصدر «ديوان الطبيعة» في طبعته الأولى في أبريل 1931. ويبدو أنه صدر مرة أخرى مع مقالاته النقدية في

معجون بالكأبة والقنوط: « والله بختها لقت ليها واحد يمرقها من الحفرة دي ».

« في معرض حديثها عن زواج ابنتها في الخرطوم قالت لي «أول حاجة عملتها جيت لي ثلاث بنات من جامعة أم درمان الأهلية عملن لي البتي فور والكعك بتاع العرس لأنني بيني وبينك ما يقدر على حق الخرفان و الطباخين البجيبهم للنسوان البجن للخدمة من الأهل والأصحاب».

« أخرى كانت عاملة حنة جميلة في يديها وقدميها.. قالت رسمتها لها طالبة في جامعة الخرطوم .. ذكرت أن مواعيد الطالبة «الحانة» مرهونة بجدول محاضراتها.. يا لها من صورة جميلة رائعة لطالبات يكافحن لانتزاع التعليم ويناضلن من أجل لقمة العيش في ظل هذا الغلاء الطاحن.. ما أروعهن وهن يقلن لا للإنحراف.. ولكن ماذا تفعل الأخريات لحل هذه المعادلة الصعبة.

« الساعة الثانية عشر ظهراً يدخل أحد الأعمام وهو يتصبب عرقاً من الحر «طلعت من سوبا من الساعة الثامنة بالباس، واحد من الركاب قال نشلوا منه ثلاثة ملايين..أخذو الباص كله للقسم.. أخيراً لقوا القروش واحد داسيها جوة بطيخة مقورها من جوة».. يا لها من عبقرية في فن النشل تلك التي تفننت في ظل التوجّه الحضاري.

« في الصيدلية كنت أشتري دواء رطوبة للوالدة دخل واحد اشترى حبة ضغط واحدة.. قذفها في حلقه.. لاحظ دهشتي .. قال أعمل شنو؟ الحبوب ثمنها غالي كلما أحسّ بالتعب بشتري واحدة. وهم يتشدقون عبر القنوات الفضائية أن الخدمات الصحية وصلت إلى أرقى مستوى وأن الدواء في متناول الجميع».

تمثل تلك الصور رسداً لتحولات عميقة في المجتمع السوداني لا تخفى على أحد مثلما يحدث في كثير من الأماكن في أزمان الحروب الطاحنة

والأزمات الحادة المستمرة سياسية أو إقتصادية.. النص الإبداعي الذي يحملها يكون أبلغ وأبعد أثراً من البيان السياسي أو التحقيق الصحفي. فحين قرّر البلاشفة القيام بالثورة السوفيتية وإحداث التحول الاجتماعي العنيف في روسيا لم يكتفوا بالأدب السياسي والبيانات التحريضية بل طلبوا من الكاتب الروائي مكسيم جوركي أن يسعفهم برواية على عجل تناسب تطوّرات الأحداث فكانت «الأم» التي احتلت مكاناً بارزاً في تاريخ الأدب السوفيتي. وما استطاعت الكتب ولا المقالات الصحفية ولا البيانات السياسية الغاضبة ولا شهود الأحداث التي أعقبت إنقلاب بينوشيه على الليندي في تشيلي وإرهاب الدولة والرعب الذي كاد أن يختلط بالهواء وينمط في الشوارع أن يعكس بالضبط ما وقع في تلك الأيام مثلما فعلت رواية «بيت الأرواح» للكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي.. فقد تناولت الأحداث وتابعت القص من خلال تجربتها الشخصية.. بما هو أشبه بالواقعية السحرية، ليست واقعية ماركيز كما يرى بعض النقاد.. بل واقعية هي التي جسّدتها بإمكانياتها وبوعيتها الخاص الذي تفجر في تلك الأيام.. ثم أعقبتها برواية «الحب والظلال» التي صوّرت فيها تداعيات الحدث بانتصار الديكتاتورية على الديمقراطية والتصفيات الدموية الواسعة النطاق ومطاردة المثقفين والسياسيين المعارضين الذين أرغم الأحياء منهم على التسلسل خارج الحدود.

برزت الليندي فجأة ككاتبة ذات إبداع مدهش لتحتل مكاناً مريحاً إلى جانب كتاب أميركا اللاتينية العظام أمثال جورج أمادو وجابرييل جارسيا ماركيز.... لا تقل عنهم روعة ولا إمكاناً. لم يكن أحد قد سمع عنها قبل سنوات قليلة لأنها باختصار ما كتبت الرواية إلا حين تقدّم بها العمر. ولكنها قبل ذلك كانت صحافية ذات نجارب واسعة ومتنوّعة عاصرت مأساة قريبها الرئيس الليندي وشهدت مصرعه. كما كان منزل أسرتهما يستقبل المثقفين الكبار والشعراء

أمثال بابلو نيرودا إلا أنها ما كتبت الرواية إلا في وقت متأخر. وفي ردها طرقة حين سئلت عن ذلك وقالت إنها لم تفكر في الأمر إلا في زمان باتت فيه خياراتها تنحصر إما في رفو جوارب أحفادها أو الخوض في تجربة الكتابة.. وقد كان الخيار الثاني حيث حققت نجاحاً منقطع النظير وترجمت رواياتها إلى معظم اللغات وأفرغت مخزون العمر الذي عاشته بصدق وانفعال.

في الأسبوع الماضي كنت قد كتبت عن «يوميات في السودان» للسيدة البريطانية آزماي توماس.. وعلى الرغم من أن زوجها جراهام كتب «موت حلم» عن مشاهدته وتجاربه في السودان إلا أنها تناولت ما ارتأته هي لا زوجها.. فسجلت ما هو جدير بالقراءة سواء أكانت صورة إيجابية أم سلبية. والكتابة بدور عهد المنعم نفسها تناولت تجارب سيدات بريطانيات أقمن في السودان مع أزواجهن في أيام احتلالهم للسودان. وكتبن إنطباعاتهن حيث أتيت لهن فرصة الوقت في أماكن يسودها السكون والهدوء. الناس في الدول المتقدمة - كما ظل دأبهم - يقرأون كثيراً ويكتبون أيضاً.. يسجلون تجاربهم وخواطرهم.. ففي داخل كل إنسان مبدع قابع.

يأتي هذا الحديث تحريضاً لكتابنا ومبدعينا الذين لا يواصلون كدحهم في اتجاه تعميق رؤاهم لا رتياد مناخات جديدة للإبداع وأحياناً يكتبون بالقدر القليل من الإنتاج ويتوقفون وهم في تمام النضج والقدرات. فالروائي المبدع الطيب صالح أدهش الناس في الداخل والخارج برواياته وقصصه ذات الزخم الإنساني الرفيع.. ووصفه بعض الأذكياء بأنه كان أقدر وأنفع من جميع إمكانيات إعلامنا منذ الاستقلال حيث لفت الأنظار لبلاده وجلب لها كثيراً من الاحترام. الطيب صالح بات يتضابق كثيراً حينما يشير النقاد إلى توقفه عن كتابة الرواية. ويقول إنه يستعيز عن ذلك بأجناس أخرى من الإبداع كالمقالة.

ومثله أيضاً الشاعر محمد المكي إبراهيم - الذي أعده أحد أفضل شعراء

العربية في زمننا هذا - يقول أيضاً إنه تحول إلى كتابة المقالة شأن آخرين كثيرين
وينتهي نهاية موسم عطائك الشعري ولا يرى داعياً للمكابرة.. ماذا نقول إزاء هذا
الإعلان الذي يحبط محبيه الذين ظلوا يتوقون رغم الشعر العظيم الذي كتبه،
إلى مزيد من الأعمال الأكثر روعة وإبهاراً.. وخاصة عندما يتحدث عن آرثر رامبو
الشاعر الفرنسي الذي توقف عن الشعر وهو دون العشرين - وظل أفضل
الشعراء الذين قدمتهم البشرية في تاريخها الطويل. لا يزال مركز عبدالكريم
ميرغني يفاجئنا بعطائه وإغداقه بنشر النصوص الجديدة بالقراءة والحفاوة، وذلك
في إطار محاولاته الجادة والمسؤولة لتوثيق الفكر السوداني وإشاعة المعرفة
وترسيخ الوعي الخاص بالذات القومية وخصائصها.

25 سبتمبر 2001

فتعكس إن أشرقت شمسه
بأعيننا ماله من صور
أم المرء إن أشرقت نفسه يرى
الكون كالسوءم فيها ظهر

«غير أنه لا يصيب في الإجابة على مثل هذه الأسئلة حتى ولا أولئك الذين صفت نفوسهم وشعروا بمثل ما شعرت به أنت». ويسترسل ذلك الناقد البارع المجهول في تناوله لأشعار حمزة فيقول «لقد كنت شديد الوطأة على الشيخ والأفندي.. ولا سيما في قصيدتك (ذهب الوفاء) وإن كنت لم تغل إلا حقاً، وإني أعلم أن شعورك فيها عام يتناول الطبقتين - المشائخ والأفندية - في كل بلد إسلامي، كما أعلم أن مبعث هذا السخط في نفسك هو ضياع مجد الإسلام والمسلمين الأخلاقي. إن قصيدة (الأصوات والصور) بل وقصيدة (المعاني والأشكال) ضرب من الفلسفة سفته إلينا في أبسط الأساليب ولا يستكثر هذا على من يأخذ المعاني عن الجبال والأطلال والأرواح والأشكال. إن غزلك حار لطيف ولكنه صريح نوعاً ولا بأس بهذا ما دمت نقي الصحيفة فلا أقل للشباب من أن يتغزل. ومراثيك بليغة مؤثرة، وقد يشتم منها بعض الناس عدم الرضا عن هذا النظام الإلهي الذي استجوب ظلام العدم بعد نور الحياة، ولكنني على يقين من حسن يقينك، وأعتقد أن الحيرة وفرط الحسرة هو الذي جمع بك إلى هذا الجانب. قلت: إنك لا تقصد أن تنتقم لنفسك بقصيدتك في الدويم ممن أساءوا إليك فيها وما كنت محتاجاً إلى هذه الملاحظة لأن ذلك واضح في قولك:

كربة في النفس قد فرجتها بكلام فيه للنفس شفاء

وأني للشاعر الأديب أن يسري عن نفسه بغير كظم غيظة أو سكب شعوره على الورق ولعن تسنى له بث حزنه وهو يكاد يكون وحيداً بين هذه الأوساط الموبوءة.

وقت لاحق في مجلد واحد بعنوان «الأدب السوداني وما يجب أن يكون عليه وديوان الطبيعة». والديوان اشتمل على قصائد كتبت في الفترة ما بين 1916 و1930. تعددت أغراضها من وصف للطبيعة والغزل والإخوانيات والمراثي والهجاء، وأغراض أخرى لم يتناولها إلا المحدثون في أشعارهم، فقد كانت بعيدة عن فضاء القصيدة التقليدية. كان شاعرها مدرّكاً لتجاوز الأسلوب الشعري الذي كان سائداً كما كان مدرّكاً أيضاً أن الذائقة الشعرية للمتلقين عهد ذاك كانت تنتصر لمحمد سعيد العباسي وعبد الله محمد عمر البنا وعبد الله عبد الرحمن الأمين وأضرابهم. لذا فقد جاء في مقدمته للديوان أنه كتب ذلك الشعر تعبيراً عن أحاسيسه الذاتية وفق ما يتمنى أن يكون عليه الشعر في المستقبل. وأفصح عن رؤيته الإبداعية الجديدة يائساً بقوله «وطالما ترددت في طبعه ونشره على الناس الذين لا ينقصهم من أمره شيء، وإن عصبهم لن يقرأوه، وإن قرأوه فلن يفهموه، وإن فهموه فلن يعنوا به، وإن عنوا به فلن يقدروه، وإن قدروه فلن يحرك نفوسهم، وإن حركها فلسيء ربما لا ترضاه نفسي، ومع ذلك فأني أطبعه وأوزعه عليهم بدافع طبيعي خفي ينطوي تحت سر ارتباط الفرد بالمجموع» وأعلن حمزة في مقدمته تلك أنه خالف اللغة في ذلك الديوان، وكشف عن ديوان له سابق «نظمته مقلداً بدافع شعوري الخفي بجمال الشعر ثم حذفته جملة لخلوه من التجديد، غير أنني نشرت بعضاً من قصائده في أول هذا الديوان للذكرى فقط».

يبدو أن الإحساس بضرورة التجديد في الشعر والأدب كان هاجس عدد من الأدباء والكتاب في سنوات العشرين، وإن لم يُعبر عنه بصورة واضحة وملحة غير حمزة الملك طمبل - ذلك قبل صدور مجلتي «النهضة» و«الفجر» اللتين اضطلعتا بمهمة التركيز على الأجناس الأدبية المختلفة وعكسنا رؤى وأفكار المبدعين الجدد. فالطبعة الأولى لديوان حمزة تضمنت ثلاث مقدمات، أولها بحث تحليلي كتبه الناقد الإنجليزي ماثيو أرنولد عن الشعر - ترجمته مجلة مصرية - واحتوى على خلاصة الرؤية النقدية الجديدة التي برزت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

وقال الشاعر: إن هذا البحث يتفق مع نظرتي للشعر. وذلك يعني أن حمزة الملك طمبل ظل يكتب الشعر وعينه على التيارات النقدية العالمية الحديثة التي ظلت تغذي شعوره بضرورة الخروج بالشعر من قوالبه التقليدية وأغراضه التي ما عادت تنماهي مع التغيرات العميقة التي بات يشهدها ذلك القرن.

أما المقدمة الثانية فقد كتبها أديب سوداني -لَمْ يَشَأْ أَنْ يفصح عن اسمه- وكتب بعنوان: «كلمة أخ في موضوع الديوان» ووقع في ختام مقدمته بكلمة «أخوك». لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أخفي دهشتي وإعجابي بتلك القدرة النقدية التي عبرت عن رؤية متجاوزة وأدوات لَمْ تكن لتتوفر في ذلك الزمان الباكر -قبل سبعين عاماً- والأدب العربي كان لا يزال يحاول الفكك من أنماطه التقليدية. كما أن قواعد النقد الأوروبي الحديث لَمْ تعرف على نطاق واسع وَلَمْ تستخدم بعد.. إلا أن الأصوات الشعرية والأدبية العربية التي هاجرت إلى الأمريكتين وتأثرت بالثقافة الغربية كانت تجد طريقها إلى بعض العواصم العربية. والواضح أن محاولات الشاعر الكاتب عباس محمود العقاد ومدرسة الديوان كانت تستأثر بقدر كبير من الإهتمام. وقد ذكر ذلك الأديب السوداني -الذي ضن علينا بمعرفة اسمه- أنه حين قرأ أشعار حمزة فوجئ بمثل ذلك الشعر البديع الذي إعتبره -رغم كثرة إطلاعه- جديداً في لفظه ومعناه. وأشار إلى عدد من القصائد التي رأى فيها عناوين جديدة في الشعر تدل على اتصال الشاعر بالطبيعة اتصال المفكر المتأمل. ولذا فهو جدير بحمل لقب شاعر الطبيعة. وأعجبته قصيدة «شيخوخة شجرة» فقال: «كلنا نرى الأشجار الشائخة-مثلاً- وَلَمْ نَزِدْ ملاحظة الأغلبية منا على أنها تصلح خشباً، أما أنت فقد استخلصت منها عبرة أي عبرة -كذلك كان الحال في غيرها من قصائدك.. ضرب من أعمق ضروب الإحساس ذلك الذي دفعك إلى الاستفهام في قصيدة «منظر» بالأبيات الآتية:

هل الكون وهم يكاد الدجى
يعفي على حاله من أنسر

الآن كاتب مقالة وهذا أمر حدث قبلي لكثيرين. لقد انتهى موسم عطائي الشعري ولا داعي للمكابرة. فالشعراء لهم موسم للعطاء ومواسم للبيات الشتوي ومواسم للموت ومواسم لتكرار أنفسهم، وهو نوع آخر من الموت. كان إليوت يقول إن الشاعر الحقيقي هو الذي يستمر في الكتابة حتى ما بعد الخامسة والعشرين. ولكن لم يقل لنا ما عمره الحقيقي؟ رامبو هجر الشعر قبل سن العشرين ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون شاعراً عظيماً. ولكن روبرت فروست ظل يكتب إلى سن الثمانين، وكلما تقدّم في العمر كلما أنتج شعراً أفضل كالنبيذ الذي يتعقّ بمروور الزمن».

كان صديقنا إسحاق القرشي يسألني كثيراً عن محمد المكي - الذي لم يكن قد التقى به - بلازمة طريفة بلهجة ناس بحر أزرق «هذا الشاعر عامل في عمل» ولا يفتأ يكرر قصة قصيدة «أيها الوالغ في جرح الكركدن». التي ربما يكون قد كتبها محمد المكي وهو بالصف الثالث أو الرابع بمدرسة خورطقت الثانوية. عثر عليها إسحاق داخل كتاب مدرسي حين نقل إلى الصف. وكان الكتاب يخص الشاعر الذي إنتقل وقتذاك إلى الدراسة في جامعة الخرطوم. كان إسحاق يقول بدهشته الهازلة تلك هذه القصيدة كتبها فتى صغير كان يرتدي «الشورت» الخاكي والقميص البويلين بكمين قصيرين ومازلت أحتفظ بها.. يرجوني أن أحدثه عن ذلك.

وحين تحدث عن بداياته في الكتابة قال محمد المكي: «وبعد أن تشبعت بسيرة شبخوف وجوته في كتيبات سلسلة أقرأ رحت أحلم بأن أكون كاتباً في يوم من الأيام، فأحسست أنني اقتربت من تحقيق ذلك الحلم يوم نشرت لي الصباح الجديد (مجلة كان يصدرها الأستاذ حسين عثمان منصور) قصة قصيرة. ثم نشرت صحيفة الطليعة (لسان حال إتحاد العمال في السودان) قصيدة صغيرة كانت السبب في تعرفي على الأديب الفيلسوف عيد السلام نور الدين».

إستطاع ذلك الناقد أن يمس شعرية حمزة الملك طمبل مساً شفيفاً.. نفذ إلى جوهرها واستكنه جديدها.. إلا أنه لم يستخدم قواعد نقدية صارمة.. إشتعان بثقافته وحساسيته إزاء الإبداع.. فكأنه في ذلك كان إنطباعياً ولكن بصورة مدركة لا تخطئها العين.. أحس بإرتباط الشاعر العميق بالطبيعة، وأشار بنفس لطيف إلى مواضع العظمة الشعرية في قصائده.. كما أحس بتأملاته الفلسفية وانسيابها في نسيجه الشعري.

من الواضح أن الطابع العام لشعرية حمزة الملك طمبل رومانسي -شأن زمانه- واستخدمه للغة واستدعاء الصور والأخيلة أقرب إلى الواقعية فصوره حالمة ومفرداته مباشرة وعارية من أساليب البلاغة. وظل يصبو في قصائده لأن يتعرف عليه المتلقون من خلال مذهبه في التجديد، كما تمنى لو يفرضه عليهم ذائقة علمة.

وبما أنني لا أنحو منحى نقدياً في تناولي لشخصية الشاعر حمزة الملك طمبل ولا أتقيد إلا بما أحسبه يضيء بعض جوانب تجربته وشعره، أجد نفسي مدفوعاً لإستشراق بعضاً من عالمه الذي ظل مجهولاً. وما كنت أجرو على هذه المحاولة لو لا أن أتاح لي رؤية الديوان بأريحيته المعهودة الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه. وكنت قبل أن أطلع على الديوان لا أعرف عن حمزة الملك طمبل سوى أن أباءه هم ملوك أرقو، الذين حكموا منطقتها عقوداً من الزمن -وأنه عمل بالإدارة البريطانية ردحاً من الزمن.

لم يهتم حمزة بشعر الوطنية ولم تجد السياسة هوى في نفسه.. رغم أن قصائد الديوان هذه كتبت في أوج العنفوان الثوري الذي امتد من بداية تكوين الجمعيات السياسية وحتى هزيمة ثورة 1924 وما صاحب ذلك من أحداث دامية مأساوية تركت أثرها في معظم المثقفين السودانيين. والأكثر من ذلك أن الديوان تضمن مديحاً للإنجليز بصورة سافرة ومباشرة.. لم يحاول أن يخفي كلفه وهيامه بذوي العيون الخضراء. فقد استقبل المندوب السامي اللورد اللنبي بقصيدة عصماء لدى زيارته

أصوات

للدويم وكال له المديح وخاطبه بفاتح القدس.

وتبدو المفارقة فادحة أن يكون الشاعر توفيق صالح جبريل -الذي ينحدر من نفس الأرومة الملكية- قد استقبل النبي بشعر غاضب مجلجل تداولته الألسن وتناضى توفيق ثمنه عسفاً وتضييقاً وظل قابلاً في وظيفة نائب المأمور، الأمر الذي ظل مصدراً لتندرته وسخريته طوال حياته.

وحمزة الشاعر الملك كان يرى للإنجليز فضلاً على أسرته -التي ظلت من أبرز بيوتات الإدارة الأهلية- وقد نوه بذلك الفضل في قصيدته «على قبر» التي يرثي فيها أباه الملك طمبل حمد فيقول:

بيتك السمار في حرز حريز
فهو يرعاه كرام الإنجليز
قد أجازونا كما كنت تجيز
لم تزل أنت على الناس عزيز

لم يكن حمزة وحده الذي نأى بنفسه عن الحركة الوطنية وهام حباً بالمستعمرين.. كثيرون مثله من المتعلمين وأوا في قادة الجمعيات السياسية والحركة الثورية الوليدة غوغاء وسوقه.. وظنوا الإنجليز مخلصين جديرين بالوفاء.

وليس عذيراً لحمزة أنه كان أرستقراطياً يفيض إحساساً بمحتده النبيل ودمائه الملكية مترفعاً عن الشأن العام.. إلا أن ذلك الإحساس لا بد أن يكون قد شكّل نظرتة للأمور ودفع به لاتخاذ مثل هذا الموقف.. ويبقى من حمزة -مع ذلك- الشاعر الذي خاص مغامرة مبكرة في سبيل تأسيس فضاء شعري جديد. ولد حمزة في عام 1893 وتوفي في عام 1960 -عليه رحمة الله.

بين الشعر والنثر

محمد المكي إبراهيم



صديقنا الشاعر محمد المكي إبراهيم بقدر ما هو شاعر ضخم فريد فهو أيضاً كاتب ناثر مختلف.. إذا نشر قلّه أسلوب ليس لغيره منه نصيب. يطرح أكثر القضايا تعقيداً في الفكر والسياسة والأدب بأفخم الألفاظ وأيسرها ولا تخفى عليك مخبرته الذكية اللاذعة العميقة. كتب لي مرة إبان الجولة الأولى للمفاوضات بين حكومة الخرطوم وحركة قرنق.. كان يذكرني بأيام مضت والزمان لم يذهب بالناس كما فعل الآن.. ذكريات مضي عليها أكثر من عشرين عاماً، وكنا عهد ذاك في ميعة الصبا الوفادة. جمعتنا أمسية نادرة تحت سماء الخرطوم بحري الصافية العميقة، في حديقة البلدية، مع مجموعة من الأصدقاء الشعراء.. رسم صورة أخاذة لذلك اللقاء، فقال: أذكر تلك الليلة القمراء في حديقة البلدية حيث وجدتمكم أنت وشابو وراشد. جلسنا تحت قمر وهاج يحفنا نخيل غامض النوايا ويتلامع من حولنا نيل صامت رايع في حال سيلو. طعمنا وشربنا وتلذذنا بالشعر وهنالك رددت أنت أبياتاً استحوذت على روحي ردحاً من الزمان.. هل تذكرها فإني قد أنسيتها وما أنسانيها إلا الشيطان (الذي يكمن هذه الأيام في

أصوات

تفاصيل ماشاكوس). لك أن تستمتع بسخريته هذه العابثة الجميلة أو تتعجب من ذاكرته الفوتوغرافية المدهشة.. فرغم مرور تلك السنين وحياته المحافلة المليئة ظل يذكر قصيدة قيلت مرة واحدة في أمسية مباغته عابرة. لولا ذلك لما كان محمد المكي المثقف الموسوعي الممتلئ الوجدان، والمترع الخاطر والفيض الإبداع.

نحن الآن نتابع مقالاته السياسية حول الأزمة السودانية والقضايا العربية ونلاحظها.. فهي محتشدة بالمعلومات والمشاهد التاريخية والتناول الخلاق.. اللغة الجامعة والنفس الطويل والسخرية التي لا تخلو من غضب الشاعر وانفعالاته. وهو يقول إن الكاتب في داخلي ظل يناضل ولكن دون حرص على الظهور - وهي عادة لم أتخلص منها إلا يوم طلقت الدبلوماسية.. وتحت ظلال التعديل الدستوري الثاني (المادة التي تضمن حرية الكلام لكل سكان الولايات المتحدة وضيوفها) لم يعد هنالك من مبرر للإنزواء. وتجذني الآن أكتب في صحف عربية كثيرة ومن حين لآخر أناوش الصحف الأمريكية برسالة أو مقالة.. في حياتي لم أعش خصوبة قلمية كذلك التي أعيشها الآن ولذلك أسباب كثيرة بينها قضية الوطن التي صارت تورق الكهل والشيخ والوليد. جاء حديثه هذا في حوار ممتع أجرته معه مجلة «كتابات سودانية» قبل حوالي عامين.. لخص فيه تجربته في القراءة والتكوين وفي الكتابة.

طبعاً محمد المكي كتب شعراً جميلاً ولا ريب.. منذ بداياته الباكرة كان له صوته المنفرد المجلجل، لذا أدهش الناس وعبأ جيلنا بالفخر والإعتداد.. كان شاعر أكتوبر بلا منازع. حين كتب شعره ذاك لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين بكثير. ولا تزال تلك القصائد تكتسب جدة وعنفواناً.. نلوذ بها كلما ألمت بنا جائحة وتراءى لنا الخطر..

ما ترك الشعر مخصصاً فهو لا يزال يكتبه متألقاً متجاوزاً ولكنه بات مقلّاً «إني

جئت مصباحاً وسلوى
ها هنا السجاد وبالرحب تفضل
أنت شجرت السماء.

شاعر كالرمح جسماً وروحاً.. حاد الإنباء.. ولوع بالحديث إلا أنه يجيد
الإصغاء بروح الحكماء.. كلماته تصل صليل الأجراس وشعره يتفاقم في
المكان فيستحيل سحراً وأسطورة وشجناً دؤوباً يأخذ بمجامع القلوب. شاعر
بفوص في أحزان وجودية لا سبيل إلى الإفصاح عنها ولا الفكاك.. يستعين
عليها بالضحك والابتسام الدائم لتنتال وتنسرب في السديم، ثم لا تلبث أن
تعود.. عيناه تبرقان في شراسة الصقر وداعة اليمام. يحدثك فيمعن في الكرم
وروح المعاملة. لا تستطيع وصفه بالأريحية أو لين العريكة فهو أكثر. كان كثيراً
ما يقول لي إن «الحساسية هي داؤنا القديم» كأنها قد أذابت شحمه وأنت على
لحمه فاستحال طيفاً نحيلاً كشجر السيسبان في يفاعته.. شفيفاً كسحابة صيف
عابرة. يحدثك عن معارف لا حدود لها ويحذق في عينيك كأنما يعتذر عن علمه
الوفير. لا يفضل وإنما يعطي ويمنح، لا يمتن ولكنه يتعطف. لا يبحث عن ضوء
ولا شهرة إلا إذا كانت النجوم تسعى لذلك.

كتب شعراً جميلاً منذ سنوات صباه وصدر له ديوانان «أغنية لإنسان القرن
الحادي والعشرين»، في القاهرة عام 1968، و«حاطب الليل» في الخرطوم عام
1988. ويعتبر من جيل الستينات والرعييل الذي أسس مدرسة «أبادماك». نشرت
له الصحف والمجلات داخل السودان وخارجه.

صحبه خلال سنوات ممرعة خصيبة.. وما كان أسعدنا - نحن المتلقين -
نجلس بين يديه كل مساء ونصغي لتلك العذوبة المنهمرة - كما عبّر محمد
المكي - فاجأنا ذات أمسية وهو يقرأ شعراً باللغة الإسبانية.. كان من ديوان لشاعر

يا ترى هل كانت هي القصيدة التي تحدث عنها إسحاق؟

والدكتور إسحاق محمد الأمين القرشي كان شاعراً وسليلاً لدوحة شعر - كما كان ناقداً وكاتباً ومحدثاً بارعاً سطع كالشهاب في فضاء الثقافة وكان لا يزال بالجامعة ولكنه أثر الإترواء وكف عن الكتابة وقيل إنه تصوف. نتسقط أخباره لنطمئن عليه ولا نظفر بطائل يروي الظمأ.. فالرجل كان نسبياً مختلفاً. وهو يشغل الآن بين الجامعات الأوروبية والعربية فما زايله قلقه القديم - أكاديمياً وعالمياً لغوياً يدرس فقه اللغة العربية؟

تنطوي نفس شاعرنا محمد المكي على حبٍ عظيم للوطن أفصح عنه بروائعه الخالدات.. «أمتي» شعر لا يتكرر. مازلنا نحفظ منه الكثير ونراجعه في كل حين. هذه ليست نظرات نقدية بقدر ما هي تجديد للاحتفاء بما صنع الشاعر لأمته ولما يكتنه لها من حب. أعجبنى كثيراً حديثه في ذلك الحوار الجميل عن كردفان والأبيض التي شهدت طفولته ويفاعته المفعمة بالذكريات... وهذا جزء من نشره الفخيم، قال: يوما ما ستجد نفسك منجذب إلى الماضي باستمرار وأن الطفولة والصبا هي عماد حياتك وأنا الآن في نفس المرحلة.. تطفر كردفان إلى ذهني وقلمي كل يوم.. السودان القديم الذي عشته هو إلى حد كبير كردفان وخرطوم الستينات.. منزلنا هناك تحول إلى أطلال وفكر إخوتي في ترميمه ثم وجدوا أن فصول مدرسة القبة التي انهارت أهم منه.. ذلك عمل من أعمال أهل الجنة أسأل الله أن يثيبهم عنه أحسن الثواب وهو فعلاً مُقدّم على ترميم بيت الطفولة. ولكنني سأكمل ذلك المشروع ذات يوم وأذهب لأعيش جزءاً من زماني مع أولاد الحلة.. النور صالح حميدة ومكي المساعد وباسين صقر، وكل ذلك تحت ظلال شيخنا ورئيس سجادتنا الولي العارف السيد البكري تاج الأصفياء.. سبقني خدن الروح قضيلي جماع وعاش في حي القبة وكتب فيه قصيدته الباهرة «شارع في القبة».. ولكن ذلك كان في زمن راح وهذا زمن آخر.. فقد عدت إلى

مدينة الطفولة قبل أن أعادر السودان فأكرمتها نكراناً شديداً.. كل ما فيها تغير للأسوأ وأيام زيارتي كان جلاوزة موفق الخيرية (وهي واجهة أمنية) بصطادون طلابنا من الشوارع ويأخذونهم إلى مشارف المدينة حيث يعذبونهم ويتركونهم على قارعة الطريق إنتقاماً من تظاهراتهم التي أحرقت لهم بنكهم الإسلامي (منذ متى كان للإسلام بنوك؟). هنالك مشاريع عملية أحلم بها للمدينة العمر الجميل لاستعادة بيتها التي ضاعت وإيصال الماء إليها من صاحبها العائمة في حوض جوفي، وكل ذلك رهن برحيل الإخشيديين فيدونه تظل كل السكك مقطوعة والمستقبل مرتهن.

آخر رسالة تلقيتها من صديقي الشاعر محمد المكي إبراهيم بالبريد الإلكتروني كانت في غاية الطرافة والإيهار.. «انجلو- أراب» عبارات بالعربية والإنجليزية واستخدام ذكي للفتين.. تضحكك وتسعدك وتفصح عن إمكانيات الشاعر المدهشة وعبه المشاغب وتدقق الإبداع في كل ما يقول ويفعل.. لقد انشغلت في الأيام الماضية وسافرت وأخشى ألا أكون قد قمت بالرد عليها.. وأنا أطمح أن تكون هذه الكلمات رداً مفتوحاً (على الهواء مباشرة كما يقولون) عليها تشفع لي تقصيري في حق الشاعر العظيم.

بعد أن من الله بالشفاء على الفنان الكبير محمد وردي وتكملت العملية الجراحية الصعبة بالنجاح في الدوحة كتب إليه صديقه محمد المكي من واشنطن تهنئة جميلة جديدة بأن يقرأها الناس.. البساطة المعتمدة بالمعاني.. كتب يقول: إلى حنجرة الشعب السوداني المججلة، أخي الحبيب محمد الوردي، والحاجة والأنجال والأحفاد - شكراً لك على هذه السعادة الكبرى التي أدخلتها على قلب أخيك وقلوب محبيك في كل مكان باستجابتك الطبية للعلاج وتقبل بدنك لهذه الهدية المقدمة إليك من فؤاد سليم ونية خالصة. أنهض سالماً معافى فالكل بانتظار إبداعك الناضج الجميل.. كتب الله لك عمراً

أصوات

جديداً ولا شك أنه سيتمخض عن فن جديد أجمل وأحلى من كل الجمال
والعذوبة التي صنعتها في الأيام الأولى. تقبل التهاني مني ومن أفراد عائلتي
وكافة أصدقائي. ودمت في نعمة ورضى لأخيك. محمد المكي إبراهيم-
واشنطن.

حمل إلى صديق للطرفين وهو صديق أيضاً لوردي هذه الكلمات التي أرسلت
إلى الفنان الكبير. وكتب هو أيضاً كلمات لا تقل روعة وجمالاً وطلب مني أن
أفعل مثلما فعلاً حتى نسعد الفنان في فترة نقاهته، ولكنني ترددت فكلما
ستغدو خرقاً بالية إزاء ما صنعاه من كلمات.

الشاعر، ذو القلب الرنان الأجراس،

شابو



حين إستفسر عن أحواله محمد المكي إبراهيم في إحدى رسائله الخاصة كتبت إليه أقول «أما شابو فأشاهده في برامج ثقافية تلفزيونية.. انظر إليه باشفاق يجلس وسط أناس ملتحين لا يعرفونه - كمن حلت عليه لعنة الهدد - يتحدثون بلغة محمد فريد أبوحديد وعلي الجارم وعبدالعزیز جاویش.. لا يتجاوزون مقررات اللغة العربية في المدارس.. يحاول شابو أن يحلق بهم فيقعدونه بنظراتهم البلهاء وروح التعالي الأجوف.. علمت أن أموره مستقرة نسبياً حيث يعمل بالتدريس في معهد لتعليم اللغات.

كان شابو ولا يزال يكن إعجاباً كبيراً ومودة خالصة لصديقه الشاعر، ففي قصيدته «أغنية لمكي إبراهيم» يقول عنه:

صرت إمكناً خرافياً وثوقاً

أه يا طيفاً كما لمح الفجاءة

جثت ليلي

كمال الجزولي..

قمح الكلام ونيل المرام



«يجب على الشاعر أن يكون أفع من أي شخص في فيلند»

بول إيلوار

«لا ينقص من قيمة الجمال أن يخلع الحرية وأن يعمل على تحسين الجموع البشرية، إنَّ الشعب المعاصر ليس قافية رديئة، والفائدة الوطنية أو الثورية لا تشرع شيئاً من الشعر».

فيكتور هيغو

الشاعر كمال الجزولي، نضج قمح الكلام في بيادره واستوي خبزاً.. وامتدت كرمته وتعرشت ظلاً وريفاً.. وغدت دنا معتقة شفيفة.. رفع عقيرته بالغناء والنشيد العذب.. واشتار من عيون ما قال فأهدي للمبدعين الراحلين المجذوب وأبو ذكري وعلي عبد القيوم وغيرهم. كان يرمي بشغايا صندل الشعر في الجمر قبضة فقبضة حتّى قف شعر المكان واعتبق.. وتمايلت السدوف غبطةً وثناءً وامتناناً.. وتجاوبت أصداء أنفاس الشعب وأنساق وجده ووعيه.. أنفاسه الكامنة تحرك أوراق العشب

شيلي بابلو نيرودا.. عقدت الدهشة ألسنتنا.. ثم لم يلبث أن إنعطف مترجماً للشعر فوراً بلغته العربية الصفيقة ومفرداته الفتانة.. كان يترجم بلا توقف وكُنّا نتلهف ونود أن نتخطف الكلمات والدهشة تتضاعف.. وبعد أن أفقنا حدثنا عن صفقة عقدها مع القس الإيطالي راعي الكنيسة الكاثوليكية بالمدينة «كوستي» أن يعلم كل واحد منهما الآخر - العربية والإسبانية.. إتخذ أحد فصول المدرسة الفنية العليا - حيث كان شابو مديراً - مكاناً للقاء التعليمي.. وبعد مضي ستة أشهر كان شابو يكرر بالحضور ويملاً السبورة بأشعار لوركا ونيرودا وعقنطقات من الأدب الإسباني، ذلك قبل أن يأتي صديقه القس فاغراً فمه من الدهشة حيث كان لا يزال هو في مرحلة «حمد والولد والجميل».. ثم لم يرح «قام سافر تاه».

عاش الشاعر عبدالله إبراهيم محمد موسى (شابو) أياماً قصيرة في مدينة كوستي في سنوات السبعين من القرن الماضي، كان يتلقانا في داره مرحباً منتهللاً، ويجلس إلينا موفور الشباب.. رائع المحيا، بهي السميت، طلي الحديث إلا أنه يغيب أحياناً ليختلي بصديقه الشاعر عبدالعزيز سيد أحمد.. وكان يلقيه به بحر العلوم.. كان يقيم غير بعيد عن داره ويعمل مهندساً في مشروع سكر عسلاية. يختليان فيتناجيان ويرصدان المعجرات ويتحدثان في المعارف والعلوم والشعر والأدب والتاريخ مرابط خيولهما الرامحة في براري الإبداع. يقول إن نديمه ذاك كان يخبره في ما يكون عليه الحديث ذاك المساء.. عن بنات نعش الكبرى أو درب التبانة؟ أم عن حضارة الإنكا، أم إكتشاف الحديد وعن صهره حتى يشف كالبلور؟ كان شديد الإعجاب بصديقه الشاعر عبدالعزيز سيد أحمد وكانت تروقه غرابة أطواره. كان يحكي قصة إكرامه لأصهاره فرسان الرزيقات حين جاء والزيارته في الخرطوم، ورأى الذبائح لاتفي بالمطلوب فعمد لشراء أكبر بقرة سمك من جهة خزان جبل أولياء.. تزن ثلاثين كيلوجراماً أو تزيد.. وأمر أن توضع على المائدة كما هي محشوة بالخضروات والتوابل.. فامتدت بطول

المائدة تعبر عن رغبته العارمة في إكرام الضيف.

ولد شابو بمدينة الكوة في النيل الأبيض، وظلّ ولوعاً بها كلغاً مشوقاً. وحين كتبت مرة عن الدكتور التجاني الماحي، كان لا بدّ لي أن ابندر الكلام بشابو الذي يكنّ تقديراً عظيماً لقريبه العالم الموسوعي. وتحدثت عن الكوة أيضاً من خلال محبة شابو لها فأعجب المقال أهل المدينة وأسعدهم وأبلغني شابو فسرني ذلك.. فهم بعض أهلنا وبيننا وبينهم صلات واشجة.

عاش شابو في مصر ذلك المخاض العظيم الذي أعقب ثورة يوليو وتأميم القناة والعدوان الثلاثي وحركة التحرير الأفريقية في إبانها.. فالتصل بالحركة السياسية والثقافية وعاصر جيلي عبدالرحمن وتاج السر الحسن ومحيي الدين فارس ومحمد مفتاح الفيتوري، ورأى كيف كان عبدالوهاب البياتي يتعاضى المجالس.. راغباً في رؤية القليل ممن يحب وينتفي في مقهى ريش.. سلوك الشاعر الجامح والمتشائي عن العادي والمألوف... تلك الفترة تركت بصماتها واضحة في تجربة شابو.. وكان لا يفتأ يردد:

(إثنان ما لاقيت أحسى منهما

شمس الضحى والشاعر الحاس)

وعندما عاد من بعثته الدراسية في الولايات المتحدة كان قد إكتسب تجربة جديدة باتصاله بذلك المجتمع وقراءاته للأدب الأمريكي عن كتب فالتمس بغيته في وولت وبتمان وريتشارد رايت وجيمس بلدوين وغيرهم.

عاد ليعمل معلماً بالكلية المهنية العليا ويتألق في مجال الأدب والشعر في سنوات الستين.

في الشهر الماضي إلتقينا بعد سنوات في الخرطوم بمكتب صديقنا وتلميذنا الأديب الدكتور أحمد الصادق أحمد مدير معهد اللغات. «سيلتي»، كان شابو

قد أنفق تسع سنوات يدرس الإنجليزية في ذلك المعهد بعد أن تقاعد عن العمل بوزارة التربية، فقضينا نهراً وضيئاً طيباً ودارت بيننا أحاديث الذكريات، فأتحفنا بطيب حديثه الذي تخللته قراءات شعرية. كان يتكلم عن الشعر وعروضه ويربط ذلك بالحنان "الجابودي" في بادية السودان فأسمعنا كل جديد ومثير. وطلب منه الدكتور أحمد الصادق أن يقرأ قصيدة «حجر» التي يقول فيها:

ماذا عليك إذا ابتعدت

ماذا عليك إذا انقضى زمن الغناء

وصوحت أمجاد عمرك في الربيع

حجراً تكشف ثم أقعى في طريق السابلة

ماذا يفيد الناس من حزن الغريق

فالمشب ينمو فوق ظهر الناقلة

والشمس تشرق دائماً في الشرق

تشرق دائماً

وتلون الأفاق بالبهج العتيق

مازال شابو يتربع على عرشه الشعري ويتألق في مجالات الثقافة ويتمتع بصلات واسعة مع المبدعين شباناً ومخضرمين، ويعرفه جميع العاملين بالصحف اليومية، يوقرونه ويمحضونه كثيراً من الود والإخلاص، ومازال قلبه كما قال:

في قلبي هذا الرنان الأجراس

تحنان يشعلني حياً كالبحر

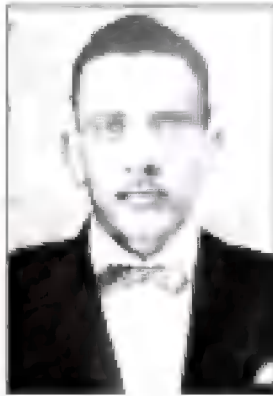
ويقتلني مقتاً

ضاعفت الأحزان الوقت

ضاعفت الأحزان الوقت

عرفات..

المثقف المرفه والكاتب الطليعي



عرفات محمد عبدالله

شهدت سنوات الثلاثين من القرن الماضي في السودان غياب ثلاثة من أبرز رموزه في الإبداع والفكر والسياسة.. فقد غيب الردي خلالها الشاعر الفذ وفنان الوطنية خليل فرح والشاعر العبقرى التجاني يوسف بشير والكاتب الطليعى عرفات محمد عبدالله، قضوا ثلاثتهم ومازالوا في شرح الشباب.. يشاركون بوعي في التأسيس الفكرى والإبداعى لأمتهم.. يشقون جهامة ليل طويل ما كان يلوح في أفقه صباح. كتب محمد أحمد محبوب مقالاً مطولاً يتحدث فيه عن الراحل عرفات في مجلة «الفجر» في 16 مارس 1937 فقال أتذكر يوم أن مات عرفات فخرجت العاصمة المثقلة جميعها تشيعه إلى مقره الأخير باكية حزينة.. ألم تقل يومذاك إنه انتصار لدعوتنا، وإن الذين كان يهدمون عرفات وأنصاره ويقتلون من قيمة ما يدعون إليه ويكيلون النهم، كانوا في ذلك اليوم أول الباكين وفي طليعة المشيعين؟ ألم تقل يومذاك إنها الخطوة الأولى التي خطاها السودانيون نحو القومية السودانية؟.. وها هي الأيام تمضي سراعاً، وها نحن مازلنا نكافح ونجالد، وها هي مبادئ عرفات تزدد كل يوم رسوخاً في الأذهان،

كالريح الفجرية فتكتسح الركافة والبذاءة والغثاء وما ران من تنطع وفجاجة.

جاء كمال الجزولي إلى دولة الإمارات بدعوة كريمة من القائمين على جوائز سلطان العويس الأدبية، لحضور حفل توزيعها.. فاستضافه المجمع الثقافي في أبوظبي بالتعاون مع الجمعية الثقافية السودانية التي قدمته فقرأ شعراً جديداً ناضجاً، ناضجاً بالحكمة والمعرفة.. مزناً بتجربة خصوصية قليل من الشعراء من تعرض لها.. حيث واجه السجن والمعتقلات والتهديدات المستمرة بالتصفية الجسدية.. ذلك ما عبر عنه في قصيدته «هيس»:

ليس القتل ما أخافه،

ليس الميتة المفجعة،

ليس انفجار هذا الباب فجأة

أو دخولهم - عند منتصف الليل -

بالأسلحة المشرعة

لا.. ليس دمي الذي يسبح في قبحه

ولا جمجمتي التي تتشظى على الجدار

لكنما أخوف ما أخافه

هو الخوف ذاته

ذاك الذي إذا غفلت عنه لحظة سرى إلى مسام الروح،

ناقلاً وسائس المعاذير المنمنمات

في هيس الانكسار.

في مرثية للشاعر القنيل فيديريكو جارسيا لوركا قال شاعرنا محمد المكي إبراهيم، في ذروة عطائه وكدحه الخلاق، «لا يقتل الشاعر في أسبانيا وإنما يمقي ويستتاب».. لا أدري حتى الآن ماذا وراء هذه الكلمات في القصيدة، ولكنني أذكر أنها أعجبتنا وقتذاك ومازالت.. فشعر ود المكي يظل دائماً كالحليب سائغاً

للشاربين في مراحل العمر المختلفة مهما تغيرت كيمياء الجسد وتبدلت، الشاعر والحقيقة صنوان.. والحقيقة ملك الشعب وروحه.. والإعتداء عليه محاولة لوأد نلك الروح وقتلها.

ولوركا شاعر إسباني استطاع أن يمسك بكلتا يديه بالروح الأندلسية ويعمد تجربته بينابيعها وريفيها وغجرها وتاريخها العابق بالأمشاج الثقافية العربية. كتب الشعر والمسرحية بابتكار وجدة وعفوية فأدهش العالم الذي لا يزال يتعامل مع إبداعه بكثير من التقدير والإكبار. وحين أردت قوات الفالانج السوداء في أخريات الحرب الأهلية أن تصيب إسبانيا في كبدها وتفقد روح المقاومة لاحقت الشاعر بيتاً بيتاً حتى اقتادته إلى ساحة القتل كالتائر المقرور لتقع المأساة التي لا يزال هولها ماثلاً.

وكمال الجزولي هو ابن الشعب.. ولد بأم درمان في وقت كانت في قمة مزاجها الثوري تنهياً للمخاض العظيم.. ونشأ فيها وتلقى تعليمه في مراحل الأولى بمدارسها ثم هاجر إلى كييف لدراسة القانون. ومنذ ميلاد قصيدته «أم درمان تأتي في قطار الثامنة» بات أحد الشعراء السودانيين المعروفين وكان لا يزال طالباً بالجامعة.

كان لتجربته في الاتحاد السوفييتي أثرها حيث تعرف على كتاب وشعراء مختلفين قادمين من أصقاع الأرض البعيدة. وعاصر مبدعين سودانيين كانوا مقيمين ودارسين في موسكو أمثال الشاعرين جبلي عبدالرحمن وعبدالرحيم أحمد عبدالرحيم «أبوذكري» والقاص مصطفى مبارك مصطفى، وكان بينهم صداقة وود. وظل هو وأبوذكري يتزاوران متنقلين ما بين موسكو وكييف. وقد تابع كمال التجربة العساوية لصديقنا أبوذكري التي قادت في النهاية إلى موته.

ومن عجب أنني كنت أفكر في الكتابة عنه هذا الأسبوع عندما عثرت بين أوراق

على حوار أجراه أبودكري مع المجذوب في أوائل سنوات الثمانين الماضية ونشرته إحدى الصحف السودانية. أدخلني ذلك الحوار في العالم الثري للشاعر المجذوب الذي شاقني تناوله للغة واستخدامه للمفردة، كنت أنهيها للكتابة عن ذلك لولا أن فاجأنا كمال الجزولي بزيارته المباغتة.

قبل سنوات نشرت صحيفة "الاتحاد" الطيبانية للشاعر كمال كتابته الثائلة عن صديقه أبودكري.. كان ذاهلاً وحاضراً عندما كتب، وكان ماثلاً لديه ذلك النبوغ الشعري والمبقرية الفذة، فتفجع راصداً تلك اللحظات الأليمة والتحوّلات المعربة التي كانت تحاصر روح الشاعر وتسوقه إلى مشارف الردى.

بعد سهرة عامرة بالود والمشاعر الفياضة جمعت عدداً من الأصدقاء بمنزل صديقنا المبدع عثمان حامد سليمان، إحتفاءً بالشاعر الزائر، عدت مغتبطاً أتأبط مجموعة من الأعمال الأدبية والفكرية من إنتاجه الأخير، ولم يهدأ لي خاطر حتى تصفحت كثيراً مما تضمنته فأطربتني أيما طرب وملأت جوانحي بالرضا والعرفان.

فكمال ليس شاعراً مجيداً فحسب وإنما كاتب أيضاً واع بدوره ومسؤوليته كمثقف وطني قبل كل شيء.. كتب مقالات ثرية بصرامة الأكاديمي وعذوبة الشاعر.. واستدعى كثيراً من المراجع.. الشهمها بأناة وتبصر.. عكف عليها مثابراً، جاداً ودوياً.. متمكناً من أدواته الإبداعية في الروية والإمعان.. لم تفته روح الفكاهة والمسامرة رغم ما احتوته تلك النصوص من فضل الريادة الفكرية المبكر لقضايانا الشائكة المعقدة.. تشعر كأنك تفتح عالمًا فكرياً جديداً.. وأنا لا أريد أن أفسد على القارئ متعته قبل نشرها واستعجل فرحاً مجزوءاً.. وإنما سأعمل على إتاحتها للجميع في موعد جد قريب.

19 أكتوبر 2002

فكتب عنه يقول «إن رجلاً يدرك للحياة أسمى معانيها.. ذا عقل تفأذ وفكاهة حاضرة، شاعراً سواء أنظم الشعر أو دبح النثر، أو غنى بآثار المتقدمين أو المتأخرين، فناناً سواء أكان عازفاً على آلة أو مغنياً، أو رساماً، أو عاشقاً لهذا أو ذاك من ضروب الفن سيجد عيشنا الذي نحن فيه جَدْ ممل وعقيم، فإذا به يقرر أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا كنّا نحن محرومين من الكثير من مباحح الحياة ومقوماتها فلا أقلّ من أن نعني بما يخفف بعض الشيء من مرارة الحرمان، وإذا لم يكن في ميسورنا أن ننشيء «نادي الفنون والآداب»، نظراً لقلّة الذين سيقبلون على الانتساب إليه، ولأن يثبتنا لم تنته بعد إلى هذا اللون من اللذات المعنوية، ولا بدّ لنا من نشر الدعوة الأدبية وتهذيب الأذواق، وترويض الناس على تذوق الفن، فلتبدأ بجماعة صغيرة للفنون والآداب يقوم أعضاؤها بمهمة الرّواد في هذا الميدان.

صدر كتاب «موت دنيا» لمؤلفيه محمد أحمد محجوب وعبدالحليم محمد في عام 1946، ولكن الواضح أنه كتب قبل ذلك، فالتجارب المتعلقة بسنوات الثلاثين وبداية تكوين الجمعيات الثقافية بدت حارة متدفقة بحيوية التجربة وعنفوانها.

واقفت تلك المجموعة على إقتراح عرفات الذي وجد هوى في نفوسهم المتعطشة للمعرفة والبحث الجديد في تلك الأيام المفقرة، وشرعوا في تكوين جماعة للفنون والآداب فقدموا المحاضرات لتأكيد دور الثقافة في حياة الناس، إلا أن هذه التجربة لم تعمر طويلاً حيث تعرّضت المجموعة لضغوط عزاها المحجوب لجهات وصفها بالرجعية عملت على الكيد لهم ونجحت في مسعاها بتخليدهم عن الماضي قديماً، ولكن يبدو أنهم انزروا إلى حين ثم لم يلبثوا أن أعادوا الكرة بإحياء جمعيتهم التي عرفت بمجموعة الهاشعب والتي قدّر لها أن

وتزداد القلوب بها إيماناً، ولكن هل أدركت يا أخي أن المسؤولية قد تضاعفت وأن العبء قد ثقل. وأنا قد بدأنا مرحلة جديدة من مراحل الجهاد، لقد تطور الأمر، فبعد أن كان محصوراً في دائرة جماعة تدعو إليه أصبح اليوم جهاد أمة.

يبدو أن عرفات لم يكمل دراسته في كلية غردون.. إخطرت ظروف ما لم يفصح عنها أحد إلى هجر مقعده وهو في الصف الثالث.. وذلك رغم نبوغه ومن ثم التحق بمصلحة البريد والبرق كاتباً ومترجماً.. وكانت تلك المصلحة تغص بشباب متوثب عالي الهمم، كانوا يقرأون بنهم شديد ويتقارضون الشعر ويبحثون الأدب، وأصبح عرفات ربحانة المجالس وقطب الرحى في حلقات الأوس والنقاش.

وقد ساهمت هذه المصلحة بعدد وافر من الموظفين الذين شاركوا في أحداث ثورة 1924 وفي مقدمتهم عبيد حاج الأمين، وصالح عبد القادر.

ولمّا بات عضواً في قيادة جمعية اللواء الأبيض، التي تبلورت أهدافها واشتد ساعدها خلال عامين أو ثلاثة من تأسيسها، رأت الجمعية أن تبحث بعرفات إلى مصر كممثل لها هناك.. حيث معقل النهضة ليصطلي بالأوار الذي خلفته ثورة 1919 وليؤسس منبراً للجهر بحقوق الإنسان في السودان.

ترك عرفات الوظيفة ملبياً نداء الوطن، كما ترك عائلته الصغيرة، زوجته وطفليه- في وقت كان يعتبر فيه مثل هذا السلوك ضرباً من ضروب المغامرة. وقد أعلن لدى وصوله إلى القاهرة قوله «ما جئت إلى مصر طالب مال ولا باحثاً عن عمل ولكني جئت أعرض مطالب شعب وأدافع عن قضية أمة».

وفي 26 يونيو 1924 حين احتدمت الانتفاضة المعادية للإحتلال البريطاني في الخرطوم والمدن السودانية الكبرى وانطلقت التظاهرات وجّهت جمعية اللواء الأبيض «نداء السودان إلى الأمة البريطانية». وقد ترجم عرفات النداء إلى اللغة

الإنجليزية ونشرته صحيفة «النايمز»، كما نشرت «الأهرام» نصه باللغة العربية.. كان الهدف من النداء طرح القضية السودانية أمام الرأي العام البريطاني وليقف على حقيقة جمعية «اللواء الأبيض» وأهدافها، ورفض النداء الإدعاء بأن السودانيين راضون عن الإدارة البريطانية وانتقد أداء الحكومة في الخرطوم في مجال الاقتصاد والتعليم واعتبر مشروع الجزيرة مزرعة خلفية لمصانع لانشكير لإمدادها بحاجتها من الأقطان بأبخس الأثمان.

وفي تلك الأيام التي حفلت بالضجيج والحركة في مصر والسودان اغتيل السير لي ستاك سردار الجيش المصري في شوارع القاهرة فاعتقل عرفات ومجموعة من رفاقه السودانيين متهمين بالتورط في حادث الاغتيال، ورحل في السجن سبعة أشهر أمضاها متدرباً بالصبر ومثالاً للثبات.

ولما أفرج عنه ألقى الجو ملبداً بالغيوم والأمور قد تغيرت والتزم الكثيرون دورهم تفادياً لحملات القمع والإرهاب فاضطرته الظروف لأن يفتح حانوتاً للبقالة ليسد رمقه هو وبعض من الطلاب السودانيين الذين هربوا إلى مصر طلباً للعلم، ثم لم يلبث أن توجه إلى سيناء ليعمل في شركة إنجليزية للتعدين حوالي العام، ومن هناك رحل إلى جدة والتحق بالعمل موظفاً في شركة القناة للسيارات، وكان يجد في أوقات فراغه متسعاً لتقديم دروس في اللغتين العربية والإنجليزية لبعض الراغبين وأصبحت داره قبلة لزوار جدة من السودانيين والمصريين من الحجاج وغيرهم.

بعد اغتراب دام أكثر من خمسة أعوام عاد عرفات إلى السودان، والظروف كما هي.. عصف وتضيق. فكتب إلى أستاذه المستر هيلسون مساعد السكرتير الإداري في الشؤون الأهلية يطلب منه أن يسهل له سبل العودة إلى الخرطوم متعهداً بالمحافظة على الأمن العام لمدة عامين.

وهيللسون هذا مستشرق معروف عمل مدرساً في كلية غردون التذكارية، وتقلب في وظائف إدارية مختلفة، وجاء في رسالته لهيللسون «لقد اشتركت فيمن اشترك في حركة سنة 1924 تدفعني إلى ذلك وطنيتي، ولما فشلت في مهمتي أريد العودة اليوم إلى بلادي ولا أقطع على نفسي عهداً بأنني إذا دعيت ظروف الخدمة العامة في بلادي سأحجم عن ذلك»، عاد عرفات إلى الخرطوم لا ليقيم في داره وإنما ليتسلل إلى المجتمعات ولينعرف على الأوساط التي طال عهد به، ووجد في نادي الخرجين ضالته فشارك في المسرح، وشهد الناس مُخرجاً وممثلاً جيداً يؤدي دور مجنون ليلي فينتزع الإعجاب والتعظيم. وذلك في سبيل دعم المشروعات الشعبية كالمدرسة الأهلية والأحفاد وملجأ القرش، فعل ذلك دون أن يجرفه التحزب أو الانتماء لغير ما هو قومي. كان نشاطه ذلك وصلاً لما انقطع بسفره خارج السودان، فقد كان يشارك في الليالي المسرحية التي شهدتها عام 1924 ووجدت إهتماماً وإقبالاً عظيمين للإجادة التي تميزت بها تلك الجماعة المسرحية من شباب الموظفين والطلاب وفي مقدمتهم صديق فريد وعرفات محمد عبدالله وعبدالرحمن علي طه.

حين عاد عرفات مكتسباً خبرات وتجارب جيدة خاصة خلال فترة وجوده في مصر، أبدى إهتماماً واضحاً بالثقافة، فتلقف فكرة محمد عباس أبو الريش لإنشاء مجلة «النهضة» وبذل وقته وقلمه في حماس أدهش الجميع وحين احتجبت بموت صاحبها أبدى حزناً وأسفاً شديدين. كان واضحاً إهتمام عرفات بدور المثقفين كنخبة قادرة على الاضطلاع بمهمة النهوض بالوطن.

كتب المحجوب في «موت دنيا» أن عرفات - الذي التفاهم بعد عودته من الخارج وكانوا فتية أيفاعاً - كان يحدثهم عن تجربة سنوات مضت «كانت مُفعمة بالشعر والفن و بالأدب والجمال» جمعته ومهتمين آخرين، ومن المؤكد أنه كان يحثهم على خوض تلك التجربة ليشكلوا جمعيات ثقافية تلعب دوراً في بلورة

والإصرار وأعلن عرفات أن المجلة ستركز اهتمامها على الفنون والآداب والثقافة. وأكد أنها لن تكون ساحة لتصفية الخلافات أو الإنحياز لنصرة حزب على الآخر. لم تكن الأحزاب السياسية قد برزت بعد. وبقي لها عقد كامل من السنوات حتى تتبلور الاتجاهات ويتم تأسيسها، إلا أن الخلافات بين «الشوقية» و«الفيلبية» على زعامة نادي الخريجين كانت تخيم على أجواء العاصمة.

وبعد عام من صدور ما خطت «الفجر» خطوة جديدة بإعلانها الإهتمام بالحياة السياسية والاجتماعية في إطار ما وصفته بالتجديد الإصلاحي الرشيد. وفي محاولاتها بخلق شعور قومي وتأكيد الهوية السودانية دعت جماعة «الفجر» إلى التأسيس الفكري والإيداعي القومي الذي يتماشى مع خصوصية الشخصية السودانية ومكوناتها الثقافية.

كانت تلك الجماعة قد قرأت الأدب الغربي بصفة عامة والإنجليزي على وجه الخصوص خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والأدب العربي قديمه وحديثه وتوقرت على معارف شتى.

وعندما صدرت صحيفة «النهضة» وتلتها «الفجر» باتت تلك المجموعة مواجهة بإبداع سوداني يرتبط بحياة الإنسان في بلادهم.. ومن وضع للأسس النقدية وكتابة للقصة والأجناس الأدبية الأخرى «في بلد إنعدم فيه الفن وخلت مجالسه من المرح» كما عبّر محمد أحمد محبوب الذي أكد بأن العدد الأول لـ «الفجر» ازدهى بما بين دفتيه من بحوث أدبية، وشعر جميل، ونقد اجتماعي أشبه بمبضع الجراح الذي يعرف مكان الداء فيقتلعه معجلاً بالشفاء، وما كنا ننظر المدح والثناء بقدر ما كنا ننظر النقد والتجريح. ولم يخيب الناس ظناً بهم، فلم يعجب بعضهم بحث صديق أديب عن «سافو» شاعرة لسبوس اليونانية المبدعة، ولم تعجب البعض الآخر نقداً «الرفيب» في صدى المجتمع. ولكننا لم نصق ذرعاً بذلك، بل مضينا في سبيلنا، وإذا بصحيفة يونانية تصدر في الخرطوم تحيي

تلعب دوراً أساسياً في التأسيس الفكري وترسي تجارب عميقة متصلة بالثقافة السودانية. وقد شاركت تلك النخبة بحماس في قيادة الحركة الفكرية والثقافية التي انتهت بقيام مؤتمر الخريجين العام، وسعت تلك المجموعة إلى تكوين ذاتها بالقراءة المتصلة والمناقشات المستفيضة وألّمت إماماً عميقاً باللغتين العربية والإنجليزية وتابعت التيارات الفكرية والثقافية السائدة وقتذاك حتى توفّرت على ثقافة موسوعية.

وعندما أصدر عرفات مجلة «الفجر» كان أفراد المجموعة هم كتابها وشعراؤها.. برزت ناضجة نافست مثيلاتها من المجلات العربية كـ «البلاغ»، و «الرسالة» و «السياسة».

واستطاعت منذ ميلادها أن تستقطب قراء كثيرين كانوا يتسابقون لاقتنائها. وقد كتب الأستاذ عبد القادر حمزة - الكاتب المصري - في مجلة «البلاغ» الصادرة في الخامس من نوفمبر 1934 يقول «تصل إليّ في أوائل كل شهر مجلة سودانية تصدر باللغة العربية اسمها «الفجر»، وهي من المجلات العربية القليلة التي أقبل على مطالعتها بعناية زائدة ويشغف غير قليل لأسباب عديدة منها طرافة ما يعالجه كتابها من موضوعات وجودة اللغة التي يكتبون بها وجزالة الأساليب وغير ذلك مما لانجده في مجلات كثيرة تصدر في بعض بلاد الشرق العربي، وتدعي التفوق والتزعم في الأدب الحديث.

تحدث السكرتير الإداري لحكومة السودان جيمس روبرتسون عن شعار «السودان للسودانيين» في عام 1945، وقال إنه بوفاة حسين الخطيفة شريف في عام 1928 تفرقت جماعة هذا الشعار، إلا أنه ظلّ يعمل في نفوس بعض الموظفين والضباط حتى عاد للظهور مجدداً بعد بضع سنوات كمصدر إلهام لجماعة من الشباب المثقفين يعرفون باسم «جماعة الفجر» كان يقودهم عرفات

أصوات

محمد عبدالله الذي لعب دوراً بارزاً في اضطرابات عام 1924، ولم تعد لديه أوهام بشأن مصر.

كان حسين الخليفة شريف قد كتب في صحيفة «الحضارة» خلال شهري أغسطس وسبتمبر 1920 أربع مقالات بعنوان «السودان ومصر أو المسألة السودانية» تصدى فيها لمطالبات مصر الملكية والباشوات الإقطاعيين الذين أخذوا يتحدثون بصوت عال عن حقوق تاريخية في السودان.. حقوق الفتح والسيادة! وذلك في أعقاب ثورة 1919.

جند حسين شريف موقفه في شعار «السودان للسودانيين». وفي أوقات لاحقه تراجع عن موقفه المتشدد إزاء مصر ورأى «ضرورة إقامة نوع من الاتحاد بين مصر والسودان للحفاظ على الروابط التاريخية للبلدين».

كان عرفات أحد قادة حركة اللواء الأبيض قد عاد من مصر بعد سجنه في أحداث إغتيال السير لي ستاك وبعد خروج الجيش المصري من السودان إثر تلك الأحداث العاصفة التي بلغت ذروتها باصطدام فرقة عسكرية سودانية بالجيش البريطاني. وكان قد تردد أن هناك اتفاقاً جرى بين قائد الجيش المصري أحمد رفعت ومجموعة من الضباط السودانيين الذين قادوا الانتفاضة المسلحة. إلا أن رفعت تراجع عن الدخول في معركة إلى جانب السودانيين ضد الإنجليز وانصاع لأوامر الملك فؤاد بمغادرة الخرطوم قوياً. كان عرفات واحداً من بين عدد من المثقفين السودانيين الذين أحبطهم هذا الموقف ودفعهم للبحث عن دروب أخرى للتصال من أجل قضية السودان. وكان أبرز هؤلاء إلى جانب عرفات، صالح عبدالقادر، وعبدالله خليل.

كان كل ما يملكه عرفات حين تقدم هو ورفاقه لاستصدار رخصة مجلة «الفجر» جنياً مصرياً واحداً، فصدر العدد الأول في الثاني من يونيو عام 1934 بالعزم

«أيها الناس إننا نحترم العقائد والمبادئ والأراء ونرى في اختلافها ظاهرة طبيعية بل محمودة، وليس من رأينا أن نقول للغير طلقوا عقولكم ولا نطلب إلى أحد أن يقيد نفسه برأي غيره، بل إذا رأينا الأمر قد جاز حدوده المعقولة وأفسد على الناس تفكيرهم فإننا نقول.. تعالوا إلى كلمة سواء». «إننا نفهم، لو كان للفهم قيمة أن الحزبين المحترمين يضم كل منهما جماعة من «المجددين» إلى أفراد من «المحافظين» أو من يسمون كذلك ولم نسمع مطلقاً بأن الحزبين يمثل أحدهما «الشباب المجدد» والآخر «الكهولة المحافظة» فكيف إذن بربك نوفق بين هذا وبين التفسير الذي أقحم على مقال الأديب «س..» ما لم تكلف أنفسنا من الشطط ما كنا في غنى عنه. إن هذا يذكرني بتلك القصص الظريفة التي جرت مجرى المثل بين العوام عن «البغل في الأبريق» والجمل الذي طلع النخلة والوزة التي هي عنز ولو طارت». «إن رأينا في «الحزبية» قد طرحناه للملأ قبل اليوم. وهو أننا نستنكرها ونرتقب اليوم الذي لا نرى فيه إلا بنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً. وقد يسر المرء إذ يرى نيران الحرب الحزبية تخمد بعض الشيء ويرى الناس كل يسير في عمله، ويمضي في سبيله لا شغب ولا لجب». هذا نموذج من كتابة عرفات وأرائه الحكيمة وسعيه لوحدة كلمة الأمة. وقد شملت كتاباته السياسة والأدب والاجتماع والصحافة والمسرح والاقتصاد والتعليم والفلسفة واللغة.

إستطاعت «الفجر» أن تصدر بصورة منتظمة حتى توقفت مؤقتاً لإصابة عرفات بذات الرئة وصراعه مع المرض حتى توفي في عام 1936 ولم يبلغ الأربعين من عمره. كانت جرأة عرفات وشجاعته وريادته هو وأصدقائه الكتاب الذين لم يتقاضوا أجراً قط سبباً في تحقيق تلك التجربة الثرية.

كان إلى جانب عرفات من الكتاب الذين ساهموا بأقلامهم في مجلة «الفجر» محمد أحمد محجوب ويوسف مصطفى النني، والتجاني يوسف بشير، ومرضي

مجلتنا أحسن تحية. وما صدر عدد من أعداد «الفجر» إلا وأعقبته ضجة في دور الحكومة وفي المجتمع. فالحكومة غير راضية عن اتجاهاتنا، ضائقة ذرعاً بما نوجهه من نقد لسياساتها. والمجتمع شاك في أمرنا لأنه لم يتعود مثل تلك الصراحة في النقد ومجابهة الحاكمين. ولا يزال يشكو من العقد النفسية.. عقد الخوف وروح الخنوع، ولهذا أصبحنا في حال لانحسار عليها، لأن الحكومة تعتبرنا معادين لها، والمجتمع يحسبنا مماثلين للحكومة وإلا لما سكنت عنا. وكم مرّت بنا من ظروف أطبقت علينا الحيرة نطاقاً قاتماً، إذا حاولنا نقد المجتمع والأفراد وجدناهم ضيقى الصدر لا يرحبون بالنقد وإن كان للمصالح العام. والحكومة كصاحب البيت المبنى من الزجاج ما رأت حجراً مطوحاً في الفضاء إلا ظنّه موجّهاً إلى داره بقوض أركانها. وكثيراً ما فكّر بعضنا أن يحطم القلم ويهجر القرطاس ويطلق الأعمال العامة، فأنها لا تورث صاحبها في ذلك الجو البغيض إلا الاتهام والحسرة والألم.

هؤلاء كانوا يؤسسون ويدفعون ضريبة الريادة واقتحام المجهول، إلا أنهم أكدوا أن عرفات كان أكثرهم احتمالاً للأذى، وكان يشجعهم على المضي قدماً في ذلك المشروع التأسيسي ويطالبهم بعدم الإهتمام بالنقد وعدم الاحتفال بالثناء والتقدير. وقد تميّز عرفات بالمرونة والحكمة. فكان يهدىء من ثورة الشباب إذا اشتعلت وتبدّى ضرامها ولكنه يذكي لهيبها إذا ما رأى الجمر يوشك أن يصير رماداً. وكانت إدارة الأمن العام تتابع باهتمام بالغ ما تناوله المجلة ولا يكف جرس الهاتف عن الرنين مهددين نارة ومتوعدين أخرى، وعرفات ماض بجرائه غير عابئ حتى حسبهم البعض على صلة بالسلطة خاصة بسبب علاقاتهم بإدوارد عطية الذي كان مدرساً بكلية غردون، وهو لبناني ماروني كان عمه صموئيل عطية يعمل في قلم المخابرات. وإدوارد هذا عُرف بعلاقاته الواسعة بالمتقنين السودانيين وقد ألف كتاباً بعنوان «عربي يروي قصته» أورد فيه تجربة

معاوية محمد نور ومشاهد من المجتمع السوداني في ذلك الوقت.

طالب المحجوب علي صفحات «الفجر» بالتعبئة القومية لتحقيق الإستقلال الذاتي على الأقل إن لم يكن هناك نصيب من إستقلال سياسي. وحددت المجلة الخطوات الأولى للحكم الذاتي بتوفير الوظائف ذات المسؤولية للخريجين حتى يتمكنوا من الإلمام بقضايا الحكم ومشكلات البلاد ومن ثم المشاركة بفاعلية في تقرير مصيرهم.

وهاجمت «الفجر» توجه حكومة الإحتلال للإعتماد على الإدارة الأهلية، وأبدت إهتماماً عميقاً بالتعليم ودعت إلى رفع مستواه ومراجعة المقررات المدرسية لتلبي الاحتياجات التعليمية والثقافية في المستقبل. وطالبت بتوفير التعليم العالي ليجد الفرد السوداني فرصاً أفضل في نيل الوظائف والترقي. كما إقترحت ألا يتلزم التعليم مع احتياجات الحكومة للموظفين وإنما يكون ضرورة من أجل ذاته، «لتخريج جيل مفيد حقاً وإعداد سودانيين راقين لا أشباه أفرنج». كانت الفترة التي صدرت فيها مجلة «الفجر» من أكثر المنعطفات حدة في تاريخ السودان المعاصر، حيث أعقبت أحداثاً مهمة وقعت في عام 1924 تمخضت عنها نتائج ظلت تؤثر بشكل مستمر في رؤى وأفكار الخريجين، وأضحت تلك المجلة المنبر الوحيد الذي إلتف حوله المثقفون كتاباً وقراء حيث أتاح لهم الفرصة لبلورة آرائهم ومواقفهم ومقترحاتهم الخاصة بتنظيم أنفسهم لمواجهة قضاياهم والتعامل مع سلطات الإحتلال.

وعندما أعلنت فكرة مؤتمر الخريجين تبنتها «الفجر» وأخذت تعبر عنها وتتابع وقائعها وأخبارها حتى قيام المؤتمر ليتوج مشروعاتها الفكرية والسياسية. وظل عرفات يبذل جهوده لتوحيد كلمة الخريجين وتنسيق مواقفهم. وكان كثيراً ما يكتب ناصحاً وموضحاً كيفية الحوار وإدارته واحترام وجهات النظر المختلفة. كتب مرة مقالاً حول ذلك جاء فيه:

عاماً يصحبه جماعة من الفقراء، وهناك أبدي ضروباً من الكرامات كشفاء المرضى وقضاء حوائج الناس.. كان يرفع يديه فتسقط فيهما الدنانير فيوزعها لطلاليها. ولكن حدث أن رجلاً من الأشراف في مكة دعاه ليستعين به في شفاء أمه ولما رأى خوارقه حاول أن يسلبه مكنونه.. ولما أن أعينته الحيلة وصف له كنزا في السودان ليقتنه بالدنيا. ولما عاد إلتمس الكنز فوجده ومن ثم إتسع رزقه.. فكثر مواشيه وكلف بها خمسمائة من مريديه يركبون الخيل ويحملون السيوف المزينة بالفضة ويقيمون في قرى منفصلة لكثرتهم.. وشيد زويتين للماشية ليذبح منها للأضياف في كل صباح إلا أنهما لا تفتان تمنلثان كما كانتا.

ذكر الشيخ عبدالصديق ولد حسين أنه حدث أن زار الشيخ حسن في بلدته.. إلا أنه لم يجده حيث كان يتعبد في الخلأ، فلما انتظره لأيام سمع ذات صباح هرجاً ومرجاً والنساء يزغردن، خرج الجميع يشاهدون عودة ذلك الشيخ الذي وصفه بأن كان قصير القامة، أصلع، إلا أن له ذوايات من الشعر مضفورة.. يرتدي ثوباً من الدمور ويحمل عصا في يده. رآه يشق الجمع حتى يلج الحوش. وفي أول المساء ضربت الطبول.. وفرشت سجادة رومية على الدكة أمام الديوان.. وخرج إلى الناس يسلم عليهم ويقضي حوائج المحتاجين منهم. وفي ذلك المجلس عرضت عليه فتاة مريضة فطلب أوقية من الذهب مقابل شفائها.. ولما جرى بها طلب من أمها أن تلبسها رحطها وأمرها أن تقوم فترقص وتلقى بغدائرها فوق أحد حيرانه الجالسين.. كان ذلك الشاب قد أسر قولاً في نفسه بلغ أمره الشيخ الذي رد عليه بذلك وأشفعه قولاً يؤكد حظوته عند الله.. حتى أحجل الشاب. وفي ذلك المشهد أيضاً طلب من رعاة الضأن العاملين معه أن يطلقوا الحملان ترضع ما تشاء.. ومن ثم ينهضون للحليب، وبعد ذلك تبقى من اللبن بعد اكتفاء صغار الضأن ما يبلغ ثمانية عشرة وبيبة- وأظنها القرعة الكبيرة أو البرمة.

محمد خير (ميمان) والأخوان محمد وعبدالله عشري الصديق والسيد الفيل
وجمال توفيق بدوي، وصالح عبدالقادر والهادي العمرابي وغيرهم.

4 ديسمبر 2001م.



سير لي ستاك (إلى اليمين)

الطبقات..

بين غرابة الوقائع وعذوبة النص

«قال: ياكوفي أنا في الخلوة راقد، رأيت نجمة كبيرة في السماء تعلقت بها روحي وخرجت من جسمي، فطار، فخرقت السموات السبع، فسمعت صرير الأقلام، فلو كان ياكوفي بعد محمد نبي تنبأت، ثم رجعت فوقعت في جزيرة من جزائر المالخ فجاءني رجل لابس كساين من صوف فلقنني اسمي ومشى معي خطوتين وجابني في قوز الصغبيوناب فوجدت الشيخ الزين في الدرس ومعه ثمانية طلاب فلما قابلتهم رطنت رطانة عجمية.. فتركوا القراءة، ثم رجعت فوجدت رواسي عنده مركب، فأدخلني فيها، فجلست طالبا خلوتي فوجدت أبي في ساقيته فخاطبني، أقعد يا فقير لامن تنزلك.. الخلوة فيها فقير مختل بنفسه.. قد خلت خلوتي فوجدت ياكوفي جثتي في الحجة إن تشروها بالمناشير ما تتحرك فماعت لها روحي قد خلت فيها».

هذه التجربة الباطنية الغرائبية الفذة وهذه اللغة البديعة الفخمة التي انسقت مع محتواها وتجوهرت في نصها خطها الشيخ محمد النور ضيف الله قبل قرنين كاملين من الزمان وصف بها تجربة الشيخ حسن ودحسونة ضمن مؤلفه الباذخ كتاب «الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان».

بعد فراغه من خلوته إرتدى الشيخ حسن ثيابه الخشنة المصنوعة من لحاء العشر والتي أدمت إهابه وتركته فيه أثرها من القروح. حجَّ الشيخ حسن إلى بيت الله الحرام وساح في الأرض من الحجاز إلى مصر والشام حوالي إثني عشر

وقد سلحهم بالبنادق.

هذا الكتاب رغم أن تأليفه تم قبل مائتي عام.. وتناول أحداثاً تواترت عبر الروايات الشفهية وحدثت قبل كتابتها بمائتي عام أيضاً.. ورغم أنه اشتمل على كثير من المبالغات.. إلا أنه يكشف عن معلومات ثرية ومهمة عن حياة السودانيين الدينية والعلمية والأدبية والسياسية والاقتصادية.. ويقدم المؤثرات الحقيقية التي أسهمت في تكوين الشخصية السودانية المعاصرة.

تغلبت اللهجة العامية على الفصحى في كتابته، إلا أنها لغة حبة وغنية ومشحونة بالدلالات الموحية. وعلى الرغم من إكتشاف بعض الوثائق والمؤلفات التي أرخت لعهد القونج.. وهي الفترة التي تناولها الكتاب - فإن «الطبقات» ظل يجسد الأسس المعرفية الحقيقية التي لا يستطيع الباحثون تجاوزها. وكان أول من أرشد إلى قيمة كتاب «الطبقات» واعتمد عليه هو الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي، كاتب الشونة، ومؤلف كتاب «تاريخ ملوك السودان» أو «مخطوطة كاتب الشونة»، وقد حظي هذا المؤلف باهتمام عدد كبير من الباحثين والناشرين أمثال ماكمايكل، وهيلسون، وسليمان داوود منديل، وعلي عبد الرحمن الأمين وعبد العزيز أمين عبد المجيد، ومكي شبيكة، وعبد المجيد عابدين، وهولت، وعلي محمد علي، ومحمد محبوب مالك، وحسن الفاتح قريب الله.

وتعكس مادة «الطبقات» أن مؤلفه ود ضيف الله رغم ثقافته الواسعة لم يكن مؤرخاً بالمعنى الدقيق المعاصر، إلا أنه كان مرآة صادقة وسجلاً حافلاً لما حدث في عصره من أخبار وأحوال راوياً أميناً لكل ذلك.. وكان دافعه لتأليف هذا الكتاب دعوة من بعض زملائه طلبوا منه أن يؤرخ لملك السودان وأن يذكر مناقب الأولياء والأعيان.. فأثر أن يقتدي بمن سبقه من المحدثين والفقهاء والمؤرخين ممن تناولوا هذا المجال وأنفوا في التأريخ والمناقب أمثال عبد الغافر التيسابوري، والسيوطي، وابن حجر العسقلاني، والشيخ أحمد المقرئ، ولا

وفي مشهد آخر رواه الفقيه عبدالصادق أيضاً يصف إحدى أماسي شهر رمضان في حضرة الشيخ حسن ودحسونة.. وكأنه يصف إحدى لبالي ألف ليلة وليلة، قال إن مئة وعشرين جارية جئن يلبسن أفخر الثياب ويحملن أقذاح طعام. كانت كل واحدة منهن تلبس سواراً من العاج يحيط به سواران من الفضة، وكل جارية تتبعها أخرى صغيرة في أذنيها قرطان وترتدي ثوباً «دردبيسي» وتحمل صحناً، وكل جارية تمشي وراءها أخرى وفي معصمها سوار من الفضة وترتدي فردة منير وتحمل قرعة. وجلس هذا الجمع الغفير من الفتيات أمامه وأخذ يوزع الطعام على الناس، فتنهض كل جارية تحمل إناءها وتقدمه للضيوف حتى فرغ من الجميع. بقيت جارية واحدة قامت بوضع قدح وصحن وقرعة أمام الراوي ولد حسيب.. ولما كشفت أعطيتها وجدوا فيها ديكين وفرخي حمام وعصفورين. وقال الشيخ حسن «إن فطورنا هذا المساء كله دجاج مربوط على الزبدة لمدة تسعين يوماً». ولما جيء بفطور الشيخ نفسه رأى الناس طستاً ملأاً بماء (القرض) وطبقاً يحتوي على مطالة «خبيزة» مصنوعة في الرماد الساخن «الملالة» فنفض عنها الرماد وشرب ماء (القرض) وأخذ طرفاً من المطالة فته في (القرض) وأكله ثم تمضمض وقام للصلاة.

هذه الصورة النادرة ليست من نسج الخيال وإنما كانت جزءاً من الواقع الاجتماعي الذي عاشه السودانيون في حوالي القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. كان هؤلاء الشيوخ أعمدة الحياة الاجتماعية وأمرائها غير المتوجين وكان بعضهم قد حاز ثراء واسعاً.. كثيرون لم يفتنهم ذلك الثراء، وإنما كانوا واحات يهوي إليها الضيوف والغرباء.. كان الملوك يحدونهم على تلك المكانة ولا يجرؤون على مسهم حتى لا يعطبوا.

وورد في سيرته تلك تصوير مدهش لموكب له توجه إلى ستار تلبية لدعوة من الملك بادى ولد رباط ليعالج أخاه ناصر الذي أصيب بنوع من الشلل «ماسكاه

غزاًلاً عاجزاً» يخالطه نوع من الجنون، فتأهب للسفر يصحبه أناس كثيرون.. بعضهم مظالم وأخرون مطلوبون للمعداة. كان الموكب مهيباً حيث تقدمت أمامه ثلاثة وأربعون من الخيل العتاق مطهمة ومسرجة بأفضل أنواع المروج وليس على ظهورها فرسان.. وهو راكب جملة. ولما اقترب من سنار رآه الملك بادي فقال: إن هذا الفقيه أخذ ملكنا، ولما علم الشيخ حسن بذلك طلب أن يبلغوه بأن ملكه هذا عرض عليه فلم يقبله. ولما أقبل على مريضه خرج الناس إلا أمه وأخته.. اختبأتا في "القطيع"¹ فرأتا عجباً حيث قام الشيخ بذبحه ومن ثم شفاه وانهضه وأخذه إلى أخيه الملك وطلب منه أن يجلس للناس ثلاثة أيام يقضي حوائجهم.. وقد فعل.

عاش الشيخ حسن ودحسونة حياة ثرية مليئة بفعل الخير وهداية الناس وحل مشاكلهم.. ومن الطرائف التي أوردها كاتب الطبقات أن خادمة اسمها مهيوبة أتت إليه ليكتب لها حَتَّى تجد الحظوة والقبول لدى الناس، فكتب لها في ورقة «حموزة مهيوبة.. حمراء مقلوبة.. تلعب بها الهوبة في جزائر النوبة» فوجدت المرأة حظاً وافراً. ولما أخذتها للجلاد دفعه فضوله لقراءتها فسألها عن كاتبها فلما أبلغته قال لها إن الشيخ قد أساء اليك.. فانتقطع حظها.

كان سبب وفاته أنه حاول أن يردي تمساحاً إحتجزه في حفير ولكنه توحش وكثر ضرره.. فوجه إليه نيران بندقيته فارتد إليه البارود فقتله عليه رحمة الله تعالى. ولعل في ذلك أول إشارة لاستخدام الأسلحة النارية في السودان.. لأنها حَتَّى القرن التاسع عشر كانت قليلة العدد في أيدي بعض الناس. وحين قاوم السودانيون الغزو التركي عام 1821 كان ذلك بالأسلحة البيضاء.. ولكنها لم تلبث أن انتشرت في سنوات الحكم التركي. وقد ورد في نفس سيرة الشيخ حسن ودحسونة أنه إتخذ جنوداً من الغلمان الأحباش يصحبونه كالميليشيات

1 مخزن في المنزل يضم إحتياجات الطعام وغيرها.

الفارس الصوفي والشاعر الموسيقي

إسماعيل الدقلاشي

نصب الملك سايمين ود دكين نفسه ناقداً أدبياً حين وجّه اتهامه للشاعر الشيخ إسماعيل الدقلاشي بأنه لَحَنَ في شعره، فغضب الشيخ ورد عليه بحدة «هل أخبرك بذلك شيطانك الجالس فوق رأسك؟». واحتدم الحوار بينهما إلى الدرجة التي قرّر الملك قتل الشاعر الصوفي. وهنا إنبرى له أهله وذووه ناصحين ومنعوه من التورط في سفك دمه خوفاً من أن يجلب إليهم الخراب. فراجع الملك سايمين عن موقفه وشكاه إلى شيخه الفقيه محمد ود منوفا فاعتذر عن التحدث إليه وقال «أنا ما بقدره حافظ الكتاب وشايله الشباب». والطريف في هذه الحادثة الأدبية أن جميع أشكال الإبداع الفكري والثقافي في عصر الفوج كتبت باللغة الدارجة السودانية، فقد كانت الأداة الوحيدة للتعبير.. أي لم يكن هناك مجال لناقد يتحدث عن اللحن في اللغة.

وقراءة النماذج القليلة من أشعار الشيخ محمد ود هدوي والفقيه علي الشافعي والشيخ ود عبد الهادي والسيد ود دوليب ومكي الدقلاشي تجسّد شيوع أساليب التعبير في سودان ذلك الزمن الذي إعتمد لهجته الخاصة حتّى جاء العهد التركي فوضع نهاية لهذا الوضع. وهناك أمثال الشيخ فرح ود تكتوك - أحد معاصري الدقلاشي - وأشعاره وحكمه، وحتّى كتاب الطبقات - الذي وردت فيه سيرة الشيخ إسماعيل هذا تمت صياغتها كلها في قالب العاميّة، والأهم من ذلك كله كانت شجاعة الشاعر وجرأته في تحدي الملك.

ولد الشيخ إسماعيل في القرن السابع عشر في بلدة يجبي الواقعة بين الشفيق

شك أن المؤلف قد تأثر أيضاً بكتاب «الطبقات الكبرى» للشعراني، فقد قال عن منهجه في الكتابة.. «وأردت أن أجمع هؤلاء الأعيان في معجم واحد وأذكر العلماء على حدة، وعلماء التوحيد على حدة، وقراء القرآن على حدة، والنجباء والشعراء على حدة، وأذكر الملوك والشيوخ المعتنين بأمر الدين والأعيان المذكورين، أبينهم بحروف الهجاء».

25 ديسمبر 2001م

من قريب. وكانت تنمو حوله نباتات طويلة صلبة كأنها رماح نابتة.. تطفو التماسيح وتسبح فوق سطح الماء وتمتد على الشاطئ وكأنها جذوع أشجار ضخمة.. وأفراس البحر والجواميس تختلط أحيانا بقطعان البقر الواردة إلى المزارع.. ذلك إلى جانب الحيوانات المتوحشة الأخرى كالأسود والأفيال والذئاب والغزلان.. كانت الطبيعة بكراً وسخية.

أقامت قبيلة الشلك على الشاطئين والجزر من منطقة الدويم وحتى أعالي النيل.. كانوا سادة المنطقة بلا منازع منعوا قبائل العرب والوافدين من شمال السودان من الاقتراب من الماء إلا بحساب وظلوا كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث بدأوا في التراجع وإن بقيت بعض الجيوب حتى العقود الأولى من القرن العشرين.. وتبقى تفاصيل حادثة مقتل الشيخ إسماعيل جزءاً من أسرار التاريخ في ذلك الجزء من الوطن.

يحتوي كتاب «طبقات ود ضيف الله» على كنز زاخر بما كانت عليه الحياة السودانية طيلة عصر الفونج الذي امتد من أوائل القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أنه مكرس لرواية كرامات الأولياء والصالحين إلا أنه اشتمل على مادة خصبة عن أساليب الحكم وطرائق الحياة.. كما أنه يوضح حقائق جغرافية عن الأماكن والقرى في ذلك الزمن فضلاً عن اللغة التي كان يستخدمها الناس وقتذاك ومنها كثير من المفردات والتراكيب التي اندثرت وما عادت قيد التداول والاهتمام.

وأستطيع أن أجزم بأن هذا الكتاب يمكن أن يكون رافداً أساسياً للكتاب والمبدعين لإثراء وجدانهم والاعتراف من فيضه في أعمالهم الإبداعية. وأرى أن الكاتب الروائي الطيب صالح الذي حذق صنته على نحو مذهش استطاع

وعد الجبل شمال غرب الدويم بالنيل الأبيض.. ويجبي هذا جبل صغير ويعرف أيضاً بجبل الشيخ إسماعيل أبو رادعة.. وكان أبوه الشيخ مكي الدقلاشي شيخاً من كبار الصوفية في ذلك العهد - ترجم له ود ضيف الله في الطبقات أيضاً.. وقد خرج في سياحة له ولم يعد... كان يصحبه طفله النور الذي تمّ العثور عليه وحده بعد حين.. أما إسماعيل فقد كان لا يزال في المهد.. وأمه هي خيرة السقرنجاوية والتي كان قد بعث بها سلطان قلبي إلى الشيخ مكي لتنجب له الأولاد الخضر الصالحين.. وتلك من سمات اختلاط أعراق الامة السودانية. ولما شبَّ عن الطوق حفظ إسماعيل القرآن على الفقيه محمد ود منوفي خليفة والده.. وتعلم الفقه والتوحيد على الشيخ مختار بن جودة الله (شارح الأخضرى) وشرع في تدريس الرسالة والتوحيد والقرآن.

برز الشيخ إسماعيل في كتابة الشعر وألف قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم... كما ألف كتاباً في الطريقة وآداب الذكر.. وبالإضافة إلى ذلك له أشعار في الغزل الصريح.. تغزل في تهجة وهيبة بلغة حسية مباشرة لا يقدم عليها إلا من له قدم راسخ في علم الباطن.. وجاء في كتاب الطبقات أن زوج هيبة خاف عليها و«قتجر» بها إلى جبال قلبي.. وفتجر مفردة مندثرة تعني أنه خرج ولم يعد.. ويرى ود ضيف الله أن الشيخ إسماعيل من الملاماتية.. وهي فرقة من الصوفية تخالف الشرع ظاهراً وتبينها وهضماً للنفس. ولربما كان ذلك مثل ما فعل الشيخ محمد الهميم الذي تجاوز الأربع في الزواج الشرعي وجمع ما بين الأختين.. ورغم معارضة القاضي دشين أصرَّ على موقفه باعتباره مأذوناً له. ولا يخرج الأمر عن شطحات الصوفية في حالات جذبهم وخروجهم عن المألوف.

وتحس في أشعار الشيخ مكي إحساساً عميقاً بالطبيعة والحياة.. فتجده يحب المطر ويتوق لهطول المواصل «صب مطر الصعيد يا ليتة عايد»، ويقول «صب مطر الصعيد وصاح المغرد»... إهتم بتغريد الطيور وتغيرات الطقس وهبوب

الرياح الباردة العليلية من الجنوب .. ذلك غير ما تعكس قصائده القليلة أحوالاً مختلفة من الحياة الاجتماعية في ذلك العصر.

إلا أنه يبقى أهم ما يميّز به الشيخ إسماعيل هو قدرته العبقريّة على العزف، حتّى أطلق عليه لقب صاحب الربابة .. وهي الطمبور - وعلى الرغم من وصف «الطبقات» لقدراته هذه والذي لا يخلو من مبالغة إلا أننا لا نملك إلا أن نتوقف أمام ظاهرة موسيقية مذهشة «حينما يعزف على الربابة تصدر نغمات يفيق منها المجنون وتذهل العقول وتطرب الحيوانات والجمادات وحتّى أن الربابة حينما يضعونها تحت وهج الشمس تعزف على نغمات صوته دون أن يمسه» ونقل عن تلميذه الفقيه أبو النور الرياشي أنه كان يهتم بالرقص حينما تأتيه حالة الجذب الصوفي فيستدعي العرائس والعرسان ويعقد حلقة في فناء داره ويعزف تلك الألحان الشجية. كما أن فرسه «بنت بكر» قد تعلمت ما يشبه الرقص .. فكان حين ينشدها مرتجزاً «بلغت الحرب»: «بنت بكر المرء: سلطية العرضة». كانت تحرك جسمها وتجلس وتنهض وتقرب رأسها من رجليها الأماميتين .. وتدهش الحاضرين بتلك الحركات الإيقاعية... والواضح أن الشيخ إسماعيل كان يهتم أيضاً بمظهر السلطنة، فحواريوه يحيطون بموكبه يحملون القسي والسهام .. تكاد لا ترى فرسه من كثرتهم يهللون بأنغام جميلة ويشير الموكب حماس الجميع فيصحبونه ويرددون التهليل.

ولمّا عاد من سنار في شفاعة لدى البلاط الملكي عبر النيل الأبيض في مشرع أليس - الكوة الحالية - وثب عليه جماعة من قبيلة الشملك وقتلوه.. وكان لم يتجاوز الأربعين من عمره بكثير.. وقد اكتفى ود ضيف الله بهذا القدر من النهاية المأساوية لهذه الشخصية الأسطورية والعامرة بالمآثر الجليلة.

والنيل الأبيض كان غير النيل الذي نراه الآن .. كان بحراً عريضاً يغص بالجزر وتحيط به أدهال كثيفة وأشجار عملاقة. كان أمازوناً أفريقياً تكاد لا ترى الماء إلا

يشمئى أن يبرزهما.. وتضم المجموعة أطايب ما جادت به قرائح المبدعين السودانيين منذ السلطنة الزرقاء وحتى سنوات الثمانين من القرن العشرين، كأنها بلقات من أزاهير الربيع أو خريف كردفان في ذلك الزمان السخي السعيد.. كأنما أراد عثمان أن يوقظنا- نحن النوام- على حقيقة قدراتنا الإبداعية كأمة حيّة.. توالى الحضارات في مفاسلها وما اعتراها الآن سوى إنقطاع مؤقت ووهن عابر.. ذهابه بعد حين.

كان عثمان يكتب مجلته هذه بخط يده وأحياناً بما كينة الكتابة. يتصل بالكتاب والمبدعين يدعوهم للكتابة وإرسال كل جديد أنشأوه وينقب في التراث ويهتم بالوثائق. وحين اعتزم إصدار عدد بمناسبة عيد الإستقلال في الأول من يناير 1981 قال «ولجأت إلى المظان والمصادر بدأت بجراي- وهو كجرب الحاوي- يحتوي على بعض قصاصات ومخطوطات مما عكفت على جمعه منذ أن كنت يافعاً. وما أنفك أفعل وإن بلغت سن النبوة دون رشد! وبدأت بمخطوطات شعر المرحوم يوسف مصطفى التني.. وهي أشعاره المتأخرة والتي لم تنشر في ديوان بعد، كان ابنه الطالب الفتى- آنذاك- قد تحنن على بصور منها.. كان ذلك قبل أن يصبح الأخ أحمد رئيسي الذي به إئتمر وقراره انصاع.. فتأمل! ولا تحسبن نشر بعضها ضرباً من رشا! ف شعر التني تهتز له القلوب وتطرب.. ولم اختر شيئاً من شعره السياسي. اكتفيت بأنكم- أجمعين- تحفظون شيئاً من (في الفؤاد ترعاه العناية).

وكان قد أهداني الصديق العمرابي مخطوطة أصلية لقصيدة لعمه المرحوم الهادي العمرابي يمدح مولانا السيد علي الميرغني، وقد كتبت في عام ميلادي (١١) فاستهوانني ذلك ولا أظن أنها نشرت قط.. فرأيت إثباتها لقيمتها التاريخية، ولتعبيرها عن وجدان الناس آنذاك».

ويواصل عثمان حديثه فيقول «ثم لجأت إلى الأدب (المعلب)!! ومتى يا ترى

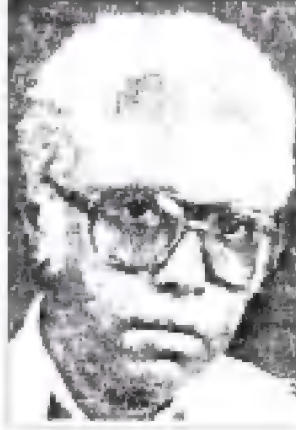
أن ينهل من معين تلك المناخات التي حفل بها الكتاب ويوظفها بشكل بارع في أعماله وخاصة في «مريود» و«بندر شاه». كما أن هناك عدداً من مبدعينا تناولوا سيرة شخصيات وردت في الكتاب وأبدعوا نصوصاً ذات إعتبار. وقد كتب الشاعر الراحل الدكتور محمد عبدالحجي شعراً جليلاً تناول فيه شخصية الشيخ إسماعيل صاحب الربابة، وحاول أن يقارب بين تجربته وأسطورة أورفيوس اليونانية.

كان الكاتب الأرجنتيني بورخيس يتحدث دائماً عن كتاب «ألف ليلة وليلة» وتأثيره عليه في الرواية الإبداعية وكتابة النص. ويعلن دائماً أنه لا يستطيع أن يحصي أو يقدر عدد المرات التي قرأ فيها الكتاب. فقد كان بالنسبة إليه كتاباً مفتوحاً يقرأه في كل حين، ثم لا يلبث أن يقرأه ويقرأه.

ومع اختلاف النوع والمقدار والجنس الأدبي لا يقل كتاب الطبقات قيمة عن «ألف ليلة وليلة» للكاتب الراغبين في تطوير رؤاهم الإبداعية، وتظل سيرة الشيخ إسماعيل صاحب الربابة الأكثر سطوعاً في هذا السفر الرائع.

سهرت معه تلك الليلة

عثمان حسن أحمد



في تلك الليلة بلغ بي السهاد مبلغاً ولجّ النوم في العناد.. فتحن معشر العاملين في مجال الصحافة يروق لنا السهر.. فحين ينقضي دوامنا في أو بعد أو قبل منتصف الليل بقليل ينتابنا إحساس التلميذ الصغير في نهاية اليوم الدراسي أو آخر الأسبوع.. إحساس بالحرية لا مثيل له.. نحس وكأن يومنا قد بدأ لتوه.. نقرأ ما فاتنا في صحف اليوم ونتابع المواضيع السياسية وربما مقالات ثقافية أو فكرية مما يكتبه أضرابنا المكتوون بلعنة الكتابة وهمومها.. فقد قيل إن الشاعر والصحافي المصري المعروف كامل الشناوي كان قليلاً ما يرى الشمس.. يغفو قبل شروقها بقليل ويخرج من منزله بعد الغروب.. وحين تمادي الأرق تناولت مجموعة «أصواء» التي كان يصدرها عثمان حسن أحمد من واشنطن حين كان يعمل مستشاراً ثقافياً لسفارة جمهورية السودان.. ظلت المجموعة تلازمي منذ أن أهداني إياها صديق الطرفين الأستاذ محمد مبرغني بركة في عام 1984. ففيها عزاء للنفس حين أتصفحها فأجد فيها إفتتاحيته المشرقة بلغة الموجزة المعبرة وكلماته المنتقاة الباذخة.. وكأنني به يجاري عبد الحميد وابن العميد..

وعندما كبرنا وشببنا عن الطوق صادقناه وأصبحنا نشفق أعذب ساعات فراغنا بصحبته هو وأستاذة لنا أجلاء آخرون.

كان عثمان حسن أحمد مبتهجاً خلال ذلك النهار الوضيء في خرطوم تلك الأيام. إستهوتني طريقته في الحديث عن «دراهمه» التي كان يودعها في شكل أسهم في تلك الشركة، كان يتقصى أرباحه.. وظلّ يمازحني حين علم أنني في زيارة لمخطوطتي التي وصفها بسلسلة الأمراء متجاهلاً أنني انحدر من نفس تلك الأرومة. ما كان يمهلني لكي اتحدث وأرد على دعاياته الساخرة.. كان يتحدث ويتحدث ويشيع مزيداً من البهجة والحبور.

نشأ عثمان في حي أبوروف وبدأ تعليمه في خلوة الشيخ سليمان، ثم التحق بمدرسة أبوروف الأولية فأبى درمان الأميركية الوسطى فمدرسة وادي سيدنا الثانوية التي فصل منها في عامه الدراسي الثالث لنشاطه السياسي، وجلس لامتحان الشهادة الثانوية من المدرسة الأهلية بأبى درمان. التحق عثمان بالعمل في وزارة المعارف معلماً بالمدارس الوسطى فبدأ بمدرسة أبوعشر ثم تم إختياره للتدريب في معهد بخت الرضا «كورس السنتين» لنيل الدبلوما وهناك التقى بأستاذه الدكتور أحمد الطيب أحمد، الذي كان في ذروة عطائه التربوي والثقافي ومحاولاته الدؤوبة لوضع اللبنات الأولى للمسرح. وكان قد عاد من لندن بعد أن نال شهادة الدكتوراه في المسرح العربي وأخذ يكتب في مختلف المعارف في الصحف السودانية ويترجم المسرحيات والأعمال الأدبية المهمة. انعقدت أواصر صلة حميمة بين التلميذ وأستاذه، وظلّ عثمان وفيّاً لذكرى الدكتور أحمد الطيب، لا يفتأ يذكره ويكتب عنه عقب وفاته الفاجعة. واستطاع بعد جهود شاقة أن يجمع أعماله في «أصوات وحناجرة» كما أسلفنا القول، ولولاه لذهبت تلك الأعمال بدداً.

عندما تم إنشاء معهد المعلمين العالي بأبى درمان لتخريج معلمين ومعلمات

يعلمون شعر الشعراء في أشرطة تباع كما تفعل الفرنجة!! وكان أستاذي وشيخي الشاعر الفحل محمد عبدالقادر كرف قد تكرم عليّ بتسجيل شيء من شعره. وهذا جزء من أفضاله الكثيرة عليّ.. فاخترت رائعته في رثاء السيد عبدالرحمن المهدي.. ثم لجأت إلى شريط رائع يحتوي على مقامات المرحوم محمد حاج حسين.. وتلك تحف وروائع، ولكن أغلبها يحتاج لحواش تشرح الأسماء والمناسبات والأحداث. فاخترت طرفاً من مقامته (المعاش الاختياري)، وكان بودي أن أنشر طرفاً من مساجلات زقودة وود المادح.. ترى هل يعرفها جيل البطولات هذا؟! وتلك أروع المعارك الأدبية في تاريخ السودان المعاصر.. هما المرحوم محمود الفكي وعبدالحليم علي طه.. وكانا يتساجلان بالشعر القومي الجيد. فزقودة بتعاطف مع (الأشقاء) والأستاذ عبدالحليم مع حزب الأمة. وكان بينهما ود يؤكد أن الخلاف لا يفسده.. ولدي قدر وفير من قصائدهما.. ولكنها تحتاج إلى جهد كبير لإعدادها وحز في نفسي ألا أوفق في نشر بعض أعمال كثير من المبدعين.. شعراء وكتاب لسبب أو آخر.. أخص المرحوم الشاعر شيبون - حنجرة الشعب - كما أسماه صلاح أحمد إبراهيم.

حديثه هذا عن محاولاته التحضير لعدد واحد خاص من مجلته «أصواء».. وهكذا كان يفعل في كل ما يحاول من عمل كجمع وثائق أو كتابة موضوع، أو كتاب مثلما فعل حين جمع وحقق كتاب «أصوات وحناجر» الذي جمع فيه معظم أعمال أستاذه المرحوم الدكتور أحمد الطيب.. ونسج قصة طريقة عن معاناته في سبيل جمع تلك المادة والتقى أشخاصاً غريب الأطوار ممن كانوا ذوي صلة بالدكتور أحمد الطيب الذي كان كلفاً بكل ما هو غريب واستثنائي.. رسم لوحات ساخرة من تلك التجربة، ستكون موضوع حلقتنا الثانية من هذا المقال في الأسبوع المقبل حتى تسعد القراء وتعكس شيئاً من الروح المرحية والفكاهة التي تميز بها عثمان.

وقد اشتهر عن عثمان إيثاره للكتاب «الدراج منه والنادر والوثائق» التي ظل يهدي دار الوثائق منها المجموعة تلو المجموعة من وثائق الحركة الوطنية وغيرها التي كان ينقب عنها ويرصدها وينفذ إليها بعشق عارم للوطن وتاريخه. وقد كرمته دار الوثائق القومية مراراً وفاء لما قدمه إليها وترأس أيضاً لجنة الوثائق الأصلية بتلك الدار.

كان ذلك منسجماً مع نشأته في بيت يفص بالكتب والمعارف والذي كان جزءاً من الحركة الوطنية والفكرية التي انتظمت البلاد بعيد أحداث ثورة 1924. فقد كان أبوه وعمه حسين «الكدة» في مقدمة المثقفين الذين أنشأوا جمعية أبوروف الأدبية الفكرية المعروفة، والتي ساهمت في ونظيرتها جمعية الهاشعب في تشكيل الوعي المعاصر.

كنت قد سمعت كثيراً عن عثمان وخفة ظله وحضوره المشرق من جمهرة الأدباء والمثقفين.. إلا أنني التقيته مرة واحدة.. وكان عائداً من إنجلترا في عام 1983، وذلك في مكاتب شركة الصمغ العربي، حيث كانت تعمل زوجتي. وكُنَّا مخطوبين وقتذاك. كانت تلك الشركة في عنفوان عزها وعافيتها يقودها مديرها الهمام.. الإداري الحاذق والرجل المثقف عثمان محمد الحسن الذي حين كان بطل بسمته الوقور وبشامته الدائمة يشيع إحساساً بأن الوطن لا يزال في خير. تعرف عليَّ عثمان في لحظات فقد كان يجمع بيننا أصدقاء مشتركين أبرزهم الأستاذ محمد ميرغني بركة الذي زامله في ثانوية وادي سيدنا والذي تشرفت بالتلمذ على يديه بمدرسة كوستي الأميرية الوسطى - رعيًا وسقياً لأيامها الناضرات الذاهبات - بدرسنا اللغة الإنجليزية، وكُنَّا جد مأخوذين بأسلوبه المختلف ومزاجه الذي كان يبدو حاداً والذي يبعث فينا شعوراً بأنه كمن يتفضل بالدروس علينا. وذلك مع قدراته الواضحة التي لم تخطئها عيوننا.. فكُنَّا نعيشه ونعبه وتنسج قصصاً طريفة حول أسلوب حياته المترف وأناقته المفرطة..

للمدارس الثانوية إلحاق به عثمان وتخرج ليعمل معلماً للغة الإنجليزية، ومن ثمّ تمّ اختياره لبعثة دراسية في إنجلترا حصل فيها على درجة الماجستير في اللغة الإنجليزية بجامعة ليدز برسالة عن أدب الروائي النيجيري أشينو أشبي. وفي أواخر سنوات السبعين تمّ اختياره ليعمل ملحفاً ثقافياً بسفارة السودان بالولايات المتحدة. ويرجع لعثمان الفضل في إنشاء جمعية الدراسات السودانية النشطة في أميركا. عاد عثمان إلى السودان في عام 1983 وانتدب سكرتيراً أكاديمياً في معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، وانتهى انتدابه في عام 1987 وعاد إلى وزارة التربية والتعليم.

وفي أثناء عمله في الملحقة الثقافية بواشنطن نشر عثمان ببلوغرافيتين.. الأولى تضمنت الرسائل الجامعية التي كتبها سودانيون أو تلك التي بحثت مسائل تتعلق بالسودان في الجامعات الأمريكية، أما الأخرى فهي عن الأفلام الوثائقية والاثنوغرافية عن السودان. ذلك بالإضافة إلى نشرته الثقافية «أصواء» التي ضمنها منتخبات من الأدب والمعارف السودانية. انتقاها بذوقه الرفيع يعينه إطلاعه الواسع العميق. كما صدر له كتاب عن الأستاذ إبراهيم أحمد، أحد أبرز المعلمين الذين درسوا في كلية غردون ثمّ كلية الخرطوم الجامعية. كما كان من أهم الشخصيات الوطنية التي ساهمت في تكوين مؤتمر الخريجين العام والذي ترأسه في عدد من الدورات. وساهم عثمان بعدد من الترجمات في مختلف المواضيع. وقد توفاه الله في عام 1988، وكان لا يزال في الثالثة والخمسين مبكراً على خلقه النبيل وشخصه الودود ووطنيته المشبوبة وشغفه بالعلم والمعرفة فله الرحمة.

قصص ونوادر مع «أصوات وحناجر»

كان الراحل الأديب عثمان حسن أحمد يمزج بين الجد والهزل في كل ما يحاول.. تحركاته الديناميكية تلك كانت تتسم بالفكاهة والعبث.. ولكن إذا علمنا أنَّ محاولاته لجمع أعمال الدكتور أحمد الطيب وترتيبها وإعادة زادت على عشر سنوات لتملئنا العجب من تلك المثابرة وذلك الإصرار.. وأخيراً نجح وصدر كتاب «أصوات وحناجر» الذي اتسم بالشراء والتنوع والمتعة الجزيلة. والكتاب مقسم إلى عشر فصول تتناول الأدب والمسرح والمجتمع والتعليم وغير ذلك. يروي عثمان أنه حين أرتأى جمع تلك الأعمال التي ضمنها الكتاب اعتزم الإتصال بكل من كان ذا صلة بالمرحوم حتى يتسنى له الحصول على أي أثر من آثاره للتعرف على حياته وإنتاجه.. فلقي من بعضهم عوناً عظيماً ومن آخرين صداً وعزوفاً.. وكان البعض يراوغ ويماطل.. والبعض الآخر يدلي بأحاديث طريفة وأخرى موعلة في الغرابة.

ولقي واحداً مرة في السوق فاستوقفه يطلب ميعاداً ليلقاه، إلا أنه انتهره قائلاً: «انت مش جاد أبداً» وانصرف عنه إلى سيارته غاضباً. واعتذر له عثمان ساخراً بأنه لا بد أن يكون محققاً فاستيقافه في الطرقات العامة أمر تنقصه اللياقة والكياسة.

ثم زار صديقاً آخر وسأله عن إنتاج أحمد فقال له: «إن أحمد لم يكتب كثيراً.. وحينما فعل كانت كتاباته مخيبة للآمال ودون ما توقع الناس.. ألا تذكر مقالاته في «الأيام» عن الخضار والكلام الفارغ». وذكر أيضاً أن أحمد كان كثير المشروعات يتحدث عنها ولا ينفذها. وضرب مثلاً بموضوع الكتابة للأطفال..

ثم قال : « وكان مزاجه غريباً .. فقد كان يصادق العامة، وأذكر مرة أنه صادق واحداً أظنه أسطى في المنطقة الصناعية. وكان أحمد يزور هذا الرجل ويأتي به أحياناً لأصدقائه، وكل ما استهواه في ذلك الرجل هو استعماله الخاطيء للغة .. حاجة غريبة .. غريبة ». وقال عثمان إنه تذكر ذلك الرجل حين لقي سر الختم الخليفة الذي حدثه كثيراً عن أحمد العليبي وروي له نادرة كان يضحك لها أحمد كثيراً فقال « من عادة بعض الإخوة الجنوبيين أن يتناولوا الجعة المحلية في أيام العطلات ثم يتوجهوا لبائع الأظلاف أو « الضلافين » فيقول الواحد منهم : بالله أديني بوت بتاع بقرة و « البوت بالإنجليزي هو نوع من الأحذية ». وظل أحمد يسمى الضلافين بوت بتاع بقرة ». وعلق سر الختم الخليفة على تلك الحادثة بأن طريقة استعمال الناس للغة كانت من إهتمامات أحمد ومصدراً لتندرته وضحكه .. يستخدمها أحياناً في كتاباته.

والتقى عثمان بالمرحوم الأستاذ محمد أحمد عمر في داره التي يصفها بأنها كانت تعج بالناس من كل ملة ودين .. وكانت ملتقى لأهل الشأن طيلة ربع قرن من الزمان .. وقد توفاه الله بعد أن عانى من المرض طويلاً ووحيداً حيث انفض ذلك السامر وذاب. فحدث عثمان بأنهما كان يجلسان في كنية واحدة في حصة الرياضيات بالكلية القديمة. وما كانت تلك المادة تروق لهما .. فما أن يبدأ المدرس بكتابة المسائل المعويصة على السبورة حتى يخرج أحمد ديوان العقاد - الذي لا يفارقه - ويتراهنا على حفظ قصائده.

أما الأستاذ بشير محمد سعيد فقد حدث عثمان بقصة لا تخلو من طرفة وقال « حين كنت في المدارس العليا كنت أستثقل أحد زملاء وأحمل عليه وأتناوله بالقدح .. فقال لي أحمد مرة : « مالك تشغل بالك بيه ؟ فلان زي ملاح أم رقيقة لا يضر ولا ينفع فما لك بيه .. ».

أما أنظر هؤلاء جميعاً - كما ذكر عثمان - فهو شاب قيل إنه من تلاميذ أحمد

الطيب الذين أحبههم، وكان هادئاً صامتاً لا يتحدث إلا قليلاً وفي صوت لا يكاد يسمع.. وكان وثيد الخطر بطيئة، يسكن في مكان بعيد.. ولكم أشقاء بملاحقته ومراوغته التي لا تنتهي. وظنه كان يضيق بيوم الجمعة فكلما لقبه سألته أن يلقاه بداره يوم الجمعة المقبل.. وعده بأشياء كثيرة من آثار المرحوم يحتفظ بها ولكنها تحتاج إلى بحث وتنقيب «حتى كأنها البترول»... وما أن يقرع الباب إلا ويدب دبيباً ثم يفتح الباب في بطاء وهدوء.. ثم يسلم عليه سلاماً طويلاً كثيراً لا حرارة فيه ولا جفوة ولكنه فاتر.. يلح عليه في الدخول ثم يصبر على تناول الفطور الذي يتأخر كثيراً كثيراً. والرجل قليل الكلام، كثير السهو، بارع في التزيغ عن الموضوع الأساسي.. الذي من أجله أتى عثمان.. متمكن من خلق المعاذير التي يرونها في قصص محبوبكة لا تمتلك إلا أن تصدقها.. يحكيها في تودة الشيوخ وصبرهم.. وينقضي يوم الجمعة دون أن ينال منه إلا وعداً صادقاً بإيفاء العهد في المرة التالية.. فشرب مقالبه وأكل فطوره جمعات.. ومن ثم أدمن زيارته حتى رحل عن الدار دون أن يحصل منه على شيء غير ورقة زعم أنها بخط الفقيد.. إلا أن عثمان أعرب عن يقين أنها مزورة. ولم يلبث أن رحل عن الدار فجأة وانقطعت صلته به.

ومن تلاميذ الدكتور أحمد الطيب واحد أنكر احتفاظه بأي أثر من أعماله، إلا أن عثمان فوجيء بأنه أعار مسرحيتين من ترجمة أحمد لطرف ثالث فأضمر خطة نفذها بحذافيرها. فلما أزمع صاحبنا السفر في بعثة قصيرة إلى الخارج أخذ عثمان إلى المطار بسيارته وودعه، ولما تأكد من مغادرته عاد إلى منزله وأبلغ زوجته أنه يبحث عن أوراق تخصه فوجد أربع مسرحيات من ترجمة الدكتور في الدرج الأسفل من خزانته وأخذها وقضى منها وطراً وأعادها وكأن شيئاً لم يكن.. حيث إنه لم يفتاحه في الأمر من بعد.. وعلق على ذلك بسخرية المريرة «فكلانا سارق وإن تعددت الدوافع».

ذكر عثمان أنه كتب لأكثر من ستين شخصاً تكريم بالرد عليه أقل من ثلثهم بقليل. وراسل مؤسستين بريطانيتين وكتب إلى أربعة من الفرنجة فردوا عليه أجمعين. ولم ينس أن يعلق ساخراً بقوله «فالحمد لله الذي جعلنا من القوم المسلمين».

ونقل عثمان أطرافاً من الرسائل التي تلقاها.. فقد كتب الأستاذ عثمان سليمان- من تلاميذ وزملاء المرحوم- يقول: «وأذكر أنه كان يحاضر في نادي الكورسات محاضراته المشهورة عن (ماهو الشاعر؟) فقال أحد الحاضرين معقياً- لقد خانتك التعبير ياكتور- فرد عليه في حياء وتواضع جم: ألسنت من البشر، فسبحان الذي وهب داوود الحكمة وفصل الخطاب».

أما السيد إبراهيم نمر - محافظ بنك السودان الأسبق- والذي عمل معلماً ببخت الرضا في وقت سابق فقد كتب يقول عن أحمد الطيب: «إن روح الدعاية والمرح كانت متمكنة منه، فمثلاً عندما أجازت الحكومة مشروع المعونة الأمريكية ووصل ذلك في نشرة رسمية علق عليها بقوله «للعلم والابتهاج». وكتب الأستاذ جمال محمد أحمد يقول: «وأعجب ما يجيء في البال وأنا أكتب لك عن أحمد، هو ماذا كان أحمد؟ كان في تقديري رسولا فاتته الرسالة، ليته كان يعرف الغضب، أذن لبقى معنا، أرأيت هذه الخلقة التي عوتب عليها بعض الرسل ممن نقدهم؟ حتى هذه كان خلوا منها».

واختار عثمان جانباً من رسالة كتبها السيد أحمد محبوب عن عجز إنجليزية توطدت صلتها به، وجاء فيها «صديقة أخرى- صاحبة المنزل الذي عاش فيه أحمد، ذهبنا أول ليلة على ميعاد لنرى الحجرة وكان مساءً كتيباً لأنه كان ممطراً وبارداً مما زاد من بشاعة هتدامنا ومظهرنا الخارجى، قابلتنا مقابلة باردة وعلى مضض أعطت أحمد الحجرة، سكن معها ونشأت بيننا جميعاً صداقة قوية ووجدت تشابهاً فكرياً بينها وبين أحمد ما زاد الود. قالت لي ذات مرة، بعد شهر

من تلك المقابلة الفاترة «إذا سئلت هل لقيت المسيح؟ لأجبت بالإيجاب أجل أنه يسكن معي في داري، ولن أغفر لنفسي مطلقاً موقفي مساء لقيتكما إذ جئتما لمشاهدة الحجرة».

ويسترسل عثمان في مقاله ويقول إن قصصه ونوادره مع كتاب «أصوات وحناجر» استمرت في المراحل التالية من طباعة ونشر وغيرها. ويؤكد أن أعمال أحمد الطيب لا تزال في أيدي الآخرين لم يتمكن من جمعها رغم المجهودات التي بذلها والمثابرة التي لم تعرف الكلل. وقد حصل على بعض المسرحيات التي ترجمها كالعاصفة، وهاملت، وروميو وجوليت، والملك لير، والأجزاء الفكاهية من مسرحية هنري الرابع وزوجات وندسور المرححات - وكلها من أعمال شكسبير - ويحتفظ شخص بمسرحية بيرناردشو، جان دارك، و«العابث في الغرب» لسنج - وقد اشترك مع جمال محمد أحمد في ترجمة هاتين المسرحيتين. وأشار عثمان إلى صديق يحتفظ بترجمة «عطيل» التي اشترك في ترجمتها مع الدكتور عبدالله الطيب. وهناك محاضرات مهمة ألقاها في مناسبات متعددة لم يعثر على أي أثر لها.. كما لم يعثر على الكراسات الصغيرة و(النوت) التي كان يلخص فيها أحمد ترجماته ويكتب فيها خواطره وآراءه حيث تداولتها أيدي أصدقائه.

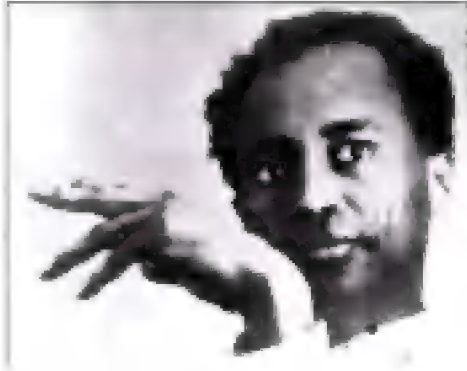
وذهبت نفس عثمان حشرات على الصحف التي كان يكتب فيها أحمد وضممت نفائس إبداعاته.. حيث تعاني دار الوثائق من نقص كبير في محفوظاتها من الصحف السودانية. وقد حاول عبثاً الحصول على صحيفة «الحادي» ومجلة «النور» التي كانت تصدرها وزارة المعارف وقتذاك، ذلك بالإضافة إلى مجلة «الصبيان» القديمة التي لم يعد مكتب النشر يحتفظ بكامل مجموعتها - حتى قبل الحريق الذي ألهم البقية من مجلداتها الحديثة -. وامتدح عثمان للباحثين - لاحظ أن ذلك حدث في يناير 1983 - الدكتور حسن مصطفى حسن، الذي

وصفه بصديق الصبيان وحامي حماها.. حيث ظلّ يسعى للحصول على مجموعة منها لتحفظ للباحثين والأجيال القادمة. وأشار عثمان للترجمة المسلسلة لكتاب الصحفي البريطاني أنتوني مان «حيث ضحك القدر» والذي تناول فيه بالقدح والسخرية الأوضاع في السودان عشية إستقلال البلاد واختفى مجلد نوفمبر 1954- الذي تضمن عدداً من تلك المقالات المترجمة- من دار الأيام منذ منتصف الستينات.. كما أنّ مجموعة دار الوثائق المركزية ناقصة.. وظلّ عثمان بعد أن صدرت المجموعة الأولى من أعمال الدكتور أحمد الطيب، يأمل في العثور على الأعمال المفقودة التي لن تجد شخصاً مهماً مثله يستطيع أن يسعى للحصول عليها.

12 مارس 2002م.

مسرح البسطاء

الدكتور أحمد الطيب



اعتادت امرأة ريفية عجوز على الحضور إلى مباني معهد التربية ببخت الرضا نهار كل خميس... تطل من نافذة غرفة مكتب واسعة تسأل بعفوية «الرسول ياعمي الليلة ما عندكم رواية؟ بضم الراء.. تقصد مسرحية يتسم الشاب الثلاثيني الجالس مستغرقا في الكتابة، يومئ برأسه إيجاباً.. كان الدكتور أحمد الطيب قد عاد لتوه- في بداية الخمسينات من إنجلترا حاملاً درجة الدكتوراه في المسرح العربي كأول عمل أكاديمي من نوعه وتدرج من رئاسة شعبة اللغة العربية ليصبح نائباً لعميد المعهد ثم عميداً له، وما كان أحمد سوى ذلك الفتى مفعود الخدين، الذي شارك عبدالله الطيب في إنشاد قصيدته - والتي ترجمها أيضاً إلى الإنجليزية في تلك الليلة اللندنية الباردة - كما ورد في حديثنا عن عبدالله الطيب - ولما كان عدد من القراء الكرام قد أبدوا رغبة في معرفة تلك الشخصية لم نجد مناصاً سوى الإذعان لتلك الرغبة.

كان الدكتور أحمد الطيب أحب الناس إلى سكان منطقة الدويم ولم يكن أحد

يرتاب في أنه درة وزارة المعارف وجوهرتها حيث لم يضع المعهد في خدمة وتدريب طلابه وحسب وإنما فتح أبوابه للبسطاء وكان سبيله إلي ذلك مسرح المعهد الذي ظل ينص بالحضور من الدويم والقرى المجاورة رجالاً ونساءً وأطفالاً مساء كل خميس - يرين عليهم سكون عظيم لدى تقديم أعماله.. لا نامة ولا صوت.

ترجم أحمد الطيب وسودن وأخرج عدداً من المسرحيات لشكسبير وشوسنج بلغة بسيطة سهلة ممتعة وبحوار قصير العبارة يميل إلى الفكاهة حتى ذورة المأساة ففي مسرحية يوليوس قيصر.. وهو في طريقه إلى مجلس الشيوخ قبيل اغتياله بقليل يلتفت إلى بعض العامة ويسأل أحدهم ماصاعتك؟ فيرد عليه مغنياً.

شدوله وركب في بعبرو أب لبده

واتحكر قعد أدى الأيار جبهه

وبردد الآخرون:

أهي الليلة العديل والزين

الليلة العديلة يا وداعة الله

وكان أحمد الطيب دائماً يدعو لمسرح لا يكلف عالاً، فالملابس تصمم من قماش الدمورية والأحذية من الورق المقوي والشخصيات ترتدي ملابس موحية، فديمونة في «عطيل» ترتدي فستاناً مزركشاً وحذاء بكعب عالٍ وشعراً مستعاراً، وهارون الرشيد في «العباسة» يتميز عن غيره بعمامة ضخمة وحزام عريض ملون كما أن المكياج بسيط للغاية يتكون من الصمغ وألوان البودرة وما نيسر لدى شعبة الفنون.

كانت تجربة الدكتور أحمد الطيب في وضع أسس المسرح المدرسي جديدة بالاهتمام وقد شملت أجيالنا في مختلف المراحل التعليمية وذلك على الرغم من أن جذور المسرح المدرسي في السودان تعود إلى أوائل القرن العشرين حين قدم تلاميذ مدرسة القطينة الأولية في عام 1908 مسرحيتين «نكتوت» و«المرشد

المدرسي» أخرجهما مأمور المركز المصري. وبعض المؤرخين يعودون بجذوره تلك إلى ستينات القرن التاسع عشر في مدرسة الخرطوم الابتدائية التي أنشأها الخديوي عباس.

روى معاصرون للدكتور أحمد الطيب أنه كان يحتفظ بدفاتر عدة بعنوانين مختلفة باللغتين العربية والإنجليزية يدون فيها ملاحظات مستمرة عن مسرح شو وبرشت ويعقوب صنوع «أبو نضارة» وزكي طليمات وجورج أبض والريحاني وصديق فريد.

بدأت حياة الدكتور أحمد الطيب بميلاده في قرية كدباس عام 1917 وتلقى تعليمه الأولي والأوسط بمدينة بربر، ثم التحق بكلية غردون وعمل محاسباً بمصلحة الزراعة لسنوات، ثم عاد للالتحاق بقسم اللغة العربية بالمدارس العليا وتخرج فيها عام 1942 واختير للعمل بمعهد التربية ببخت الرضا ثم بعث إلى إنجلترا حيث قضى عاماً بمعهد التربية بجامعة لندن وبعد أعوام عاد لنفس الجامعة ليحصل على درجة الدكتوراه من معهد الدراسات الشرقية والأفريقية.

رأه الناس في بخت الرضا رجلاً بسيطاً زاهداً وسعيداً بتلك البيئة الريفية التي كانت أقرب إلى مزاجه من الخرطوم حيث طموحات الآخرين - أيام السودنة - ومكابداتهم. وكثيراً ما كانوا يشاهدونه طلق المحيا يتأبط كتبه متجهاً نحو داخلات الطلاب ليتناول معهم وجبة الإفطار. ولأريب في أنه أخلص لوطنه فدرس في جميع المراحل بالمعهد وألف المناهج وساهم في إعداد المعلمين ومثل السودان في شتى مجالات الفكر.

كان ينشر مقالاته في صحف «الرائد» و«الأيام» و«الحياة»، ومجلة «الصبيان» و«النور»، وتفرغ فترة للعمل بدار الأيام وترجم كثيراً من المسرحيات والأعمال الأدبية أهمها «حيث ضحك القدر» للكاتب الساخر أنتوني مان وصدر له كتاب

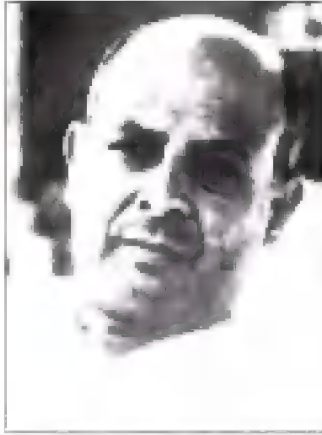
«مختارات من الشعر القصصي» ومن كتب الأطفال «مجازفات هرقل، وشمسون الجبار».

بذل تلميذه المرحوم الأستاذ عثمان حسن أحمد جهوداً جبارة لجمع أعماله المبعثرة وأودعها كتاب «أصوات وحناجر» ولا يزال لدى العديد من أصدقائه الكثير من إبداعه المنشور والمخطوط.

وبعد خمس سنوات من رحيله استكتب عثمان حسن أحمد السيدة ريموند وهي مثقفة إنجليزية عملت بمدارس البنات الثانوية بالسودان حيث التقت بالدكتور أحمد الطيب فوصفته بأنه كان غني الروح ثاقب الفكر جَمَّ الثقافة جزيل العطاء في محادثاته الشربة حتى ليبدو فقر الآخرين وإملاقهم حين يتحدث، وأضافت بحماسة «يالها من ذاكرة تستحق كل ثناء فقد كان يقتطف في حديثه من شكسبير وشيلي ووايلد وبايرون وبيرونز - أعظم شعرائنا وأدبائنا وكتاب المسرح. ولم يكن أحمد مُطلعاً على الأدب العربي فحسب وإنما كان من الراسخين في معرفته، وقد كان أطول مناً باعاً في الدراما الفرنسية على وجه الخصوص ولقد أرشدني إلى راسين وستند هول وإلى الفلاسفة المحدثين أمثال شو وبرستلي ورسل، وتحسرت السيدة ريموند على غيابه بقولها لقد ولد في وطنه قبل أوانه بمئة عام والسودان بغيره فقر فقير ولا عزاء له في فقدته».

عاش الدكتور أحمد الطيب تجربة مريّة من زواجه بفتاة إنجليزية أذاقته الويلات وتفننت في تعذيبه فكتب وصفاً لما كان يلاقيه منها في مذكرات له، كانت أشبه بجين مورس في رواية موسم الهجرة إلى الشمال بل هي.. هي حذوك النعل بالنعل «النسخة الأصلية» إلا أنه بعد فراقها اقترن بسودانية نعم معها بشيء من السعادة حتى وافاه الأجل عام 1962 وهو في الخامسة والأربعين من عمره مخلفاً طفلين أحدهما صبي من البريطانية والأخرى بنت من زواجه الثاني.

صلاح بشري وكمال عبد الحليم



كمال عبد الحليم



صلاح بشري

حملت رياح أمشير وزمهريرها القارس في في ذلك الصباح الكئيب من عام 1948 نبأً فاجعاً تسلل من السجن إلى الجامعات والمعاهد والمصانع والبيوت فارتفعت مدينة القاهرة. مات صلاح بشري الطالب السوداني في السجن ضحية التعذيب وقسوة الجلادين. كان صلاح طالباً بكلية الطب في جامعة فؤاد حين إقناده البوليس السياسي إلى الزنازين. لم يكن قائداً سياسياً ولا زعيماً طلابياً، لكنه كان واحداً من آلاف الطلاب الذين انخرطوا في النضال المشترك ضد الاستعمار وحلفائه المحليين. أدى البرد والجوع وسوء المعاملة إلى إصابة صلاح بالسل الرئوي فمنعوا عنه الدواء بينما كان يلفظ رثيته دماً نجيعاً.

كانت لائحة السجن التي وضعها المستر لوكس، أول مدير للسجون المصرية تمنع السجنين من تناول أي طعام خارج السجن حيث توفر له السلطات نصف رغيف أسود مع قليل من الملح للإفطار ورغيفاً مع شيء من الفول أو العدس -

مخلوطاً بالرمـل - للغداء ورغيفاً مع سائل لا لون ولا طعم يسمونه «اليمك» للعشاء. ويمنع تناول أي شيء يحتوي على السكر أو الحلوى. وفي ظروف ثم فيها شيء من الانفراج يروى أن سجناً رأى سجيناً يتناول قطعة من «العجوة» فصاح بأعلى صوته «دي خربت» ثم سقط مغشياً عليه. ذلك هو السجن الذي زج فيه صلاح بشرى فأصيب بالداء القاتل ثم قضى.

ردد الناعي نبأ وفاة صلاح فخرجت تظاهرة ضخمة غاضبة من الجامعة وانضم إليها عشرات الآلاف من العمال في ميدان التحرير قادمين من شبرا وحلوان والوايلي والعباسية، يهتفون ضد الاستعمار والسراي. ثم توجهوا إلى ميدان «الأوبرا» حيث أقيمت الصلاة على جثمان الشهيد في مسجد الكفخيا. كان الغضب قد إستبد بالجماهير التي أحاطت بالجثمان تتدد بالجريمة وتطالب بمحاكمة الخونة ورجال المباحث.

أعدت السلطات طائرة خاصة لنقل الجثمان من القاهرة إلى عطبرة - حيث تعيش أسرة الشهيد- وانتدبت أحد باشوات القصر ليصاحبه إلى هناك ليؤدي واجب العزاء إلى أسرته وإلى الشعب السوداني نيابة عن الملك. إلا أن الجماهير المصرية الغاضبة والطلاب فرضوا سفر أحد قادة الطلاب ليكون الممثل الشعبي لمصر في التشييع. أقلعت الطائرة وهي لا تضم سوى بضعة أفراد ممثلين لعدد من الجهات وبت رأس الوفد ذلك الباشا برأسه الضخم وطبعه المتعالي. كان يتحرك في تودة وضجر صامتاً قابضاً على سيجاره يحرك رأسه يمينا ويساراً وكأنه على وشك الاختناق تبرماً بتلك الرحلة التي فرضت عليه وبذلك المجموعة البائسة المتواضعة من الناس التي لا ترقى لمستواه.

ولم يمر وقت طويل حتى استدعى الباشا ذلك الطالب وسأله عما إذا كان مجيداً للخطابة ولما نفى له قدرته على ذلك أمره باحضار ورقة وقلم وكتابة خطبة لالفتائها على جماهير عطبرة وتتلخص في أن «الفاروق أعز الله ملكه، وحسى

عرشه، يعزي شعبه في السودان في وفاة ابنه صلاح». هبطت الطائرة في مطار عطبرة وكانت الزهور وبطاقات التحيات واتحادات المدارس والجامعات لاتزال عالقة بالصندوق الخشبي الذي حمله أربعة من الرجال حين تجاوزهم الطالب المصري خارجاً من الطائرة ليخطب في الناس بانفعال وطلاقة ثم يردد «يسقط فاروق عدو الشعب» «يسقط فاروق قاتل صلاح»، عبد الهادي كلب الوادي. وانزوى الباشا كجرذ جرفته السيول.

كانت مدينة عطبرة قد خرجت عن بكرة أبيها لاستقبال الجثمان وتشيعه فرددت التهتافات التي نددت بالقتلة والاستعمار رغم إجراءات الحظر التي حاولت السلطات البريطانية فرضها. وعاشت المدينة يوماً مشهوداً حفل بالتظاهرات والمواقف الغاضبة التي استفزها هول الجريمة.

ظل كثير من الكتاب المصريين - خاصة الذين عاشروا تلك الفترة طلاباً - يكتبون عن تلك الذكريات التي مضى عليها أكثر من نصف قرن والتي اقترنت بزملائهم السودانيين وخاصة الدكتور رفعت السعيد - الكاتب والمؤرخ المعروف، والدكتور يوسف إدريس - الروائي المبدع.. إلا أن قصيدة الشاعر محمد كمال عبد الحليم تظل النموذج الأكثر سطوعاً في الوفاء والإحساس بقضية اغتيال صلاح بشري الذي كان لا يزال في ميعة الصبا. ظلت هذه القصيدة لعقود من الزمن يرددنها الطلاب السودانيون في أماسيهم معجبين، مستهلمين صور البطولة من تلك المأساة التي هزت وجدان الشعب السوداني.

بين صخر وحديد وأعاصير وسل
وسدود وجنود قتلوا منّا بطل
حسبوه سيّاموم حينما يدنو المصير
وجدوا حراً يقاوم وهو في النزع الأخير

والشاعر المصري محمد كمال عبدالحليم - وهو قد تجاوز السبعين الآن - لا يزال حياً بيننا مؤثراً الصمت ومجلاً بالأسى رغم جلجلة صوته المذوي في سنوات الأربعين من القرن الماضي - حيث كان مجرد الهمس جريئة ونعال المستعمر فوق عنق الأمة. عثرتُ على ديوانه قبل فترة فكنت كأني قد وقعت على كنز ثمين. فأضحيت كلما طالعتّه، إزدادت شغفاً بتلك التجربة الشعرية التي لم تجد ناقداً يضعها في ما هي جديرة بها من مكانة. ولا يزال النقاد يتحاشونه كالبيت المسكون. وما أصدق الشاعر السوداني الراحل صلاح أحمد إبراهيم حين أشار إلى القمقم الموضوع على اسمه كي تكتمل مؤامرة الصمت.. «لأن ذلك الشعر يضع كل إنسان أمام ضميره أمس واليوم وغداً».

كمنت مأساة الشاعر محمد كمال عبدالحليم في أنه قرع الأجراس بعنف يقض المضاجع واستعجل الفرح بشعارات مذهبية أنس في يريفها الخلاص، ولكن جودة شعره وعنقوان صوته والإضافة الفذة لريادة الشعر الحديث ظلت باقية متقدة لا ينكرها إلا مكابر. ما كان كثيراً على كمال حليم أن يرى فيه النقاد العرب ما رآه العقل النقدي الأوروبي في الشاعر عزرا باوند الذي ارتبط اسمه بمديح الفاشية ولا الشاعر سان جون بيرس الذي كان أحد أعمدة الخارجية الفرنسية أيام الاحتلال النازي وحكومة فيشي - إبان عنقوان مقاومة باريس - لم يجد نقادنا العرب في الموقف من هذين الشاعرين المتهمين في وطنيتهما ورويتهما للحق الصريح صريعاً عذيراً في انصاف كمال حليم.

فالشاعران الغربيان رغم مواقفهما التي اصطدمت بأمانني شعوبهما احتلا مكاناً لاثقاً لقيمة الإبداع الذي قدماه - دع عنك غيرهما من عشرات المبدعين الذين انحازوا لنفس الفكر الذي ارتضاه شاعرنا - الذي كان جزاؤه النسيان والحرمان من أن يتخذ موقعه الطبيعي في ريادة الشعر العربي.

مازلت أذكر حديثاً للشاعر الفيتوري أدلى به لإحدى المجلات قبل سنوات

إخترق به جدار الصمت المضروب حول كمال ناصحاً النقاد بأن يعيدوا النظر في مسألة زيادة الشعر الحديث بصفة عامة. وانبرى ليسجل موقفاً عجز عن إتخاذه نقدة الشعر وليخرض السنة الذين يراوحوون بين إسمي نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وأحياناً لويس عوض. وأعرب عن اعتقاده جازم بأن هناك مبالغة في هذا الإدعاء باعتبار أن عبادة الشعر الحديث إنما نجحت على متوال شارك في غزله أو نسيجه ثلاثة شعراء - هم نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وكمال حليم. فنازك والسياب أعطيا الخيط والمغزل، أما كمال فقد أعطى اللون والرائحة. وأكد في حديثه الصاحب ذلك أن شعره هو الذي أعطى القصيدة العربية المعاصرة جوهرها الحقيقي.

كان كمال في غضارة الصبا حين نذر نفسه للشعر والسجون سائراً بأقدام خافية فوق الأشواك والجمر فتغنى بالفلاح والعامل والحب المصادر بكلمات متوهجة لخصتها كاتبة مصرية ذات حضور بقولها «حتى الهوى عنده لا يسلم من التوقد المشبوب.. من القوة والحيوية.. قد يرق معموده لكنه لا يتمرغ ولا يتهاون، بل يقول في تلطف القوة لاذل الضعف.. فورة.. إنطلاق.. إلتياع ولكنه عزيز».

صدر ديوانه الوحيد «إصرار» الذي صودرت طبعته الأولى والثالثة من أصل طبعاته الأربع - للمرة الأولى عام 1951 ليعتوي أشعاره التي كتبها منذ عام 1943 لتري فيها «مجلة فصول» الصادرة في يناير 1951 رؤية تجسد معاني النقد الحديث حين أشارت إلى أن «الشاعر تخير لغة معينة في البساطة لم يعدها الشعر العربي من قبل حتى ليخال القارىء أنها صادقة وطبيعية صدق الأمانة الصادرة من الملسوع. وجديد على الشعر العربي ألا يقف اللفظ سترًا يحجب المعنى. وفي كتابه «شعراء العرب المعاصرون» الصادر عام 1958 لخص الشاعر الدكتور أحمد زكي أبوشادي شعر كمال حليم في كلمات جامعة حين قال «لكننا نهتم بهذا الشعر لا لمثاليته وحسب، بل لطافته الشعرية وروحه التجديدية

أيضاً. فكلها تؤلف في نظرنا وحدة فنية جميلة خليقة بالإعزاز».

أما الدكتور الطاهر أحمد مكي إكتفى بالقول «جاءت البداية بعد شهر من إنتهاء الحرب، وبالتحديد في أول يناير من عام 1946، أبياناً من الشعر يقرؤها المثقف العربي لأول مرة في مجلة «أم درمان» التي كانت تصدر في القاهرة، ذات نغم جديد لم نعهده الأذن العربية من قبل. وكانت لشاب مصري، طالب في كلية الحقوق بالقاهرة وقعها باسمه الأول وتوجه بها للإنسان في مصر وأعطاه عنوان «إصرار».

توفي الشاعر في وقت لاحق من كتابة هذا المقال عليه رحمة الله

31 يوليو 2001م

القدرات المتعددة وروح الإبداع

محمد أحمد محجوب



توجّه المحجوب عندما كان طالباً بكلية غردون إلى مكتبة «سودان بوكشوب» ليشتري نسخة من كتاب «الشرق المتطور» الذي ألفه الكاتب الإنجليزي المعروف ج. أ. سبندر بعد رحلة قام بها إلى تركيا ومصر والهند خلال عامي 1925 - 1926. وعندما وقف أمام البائع اليوناني ليسدّد ثمن الكتاب وهو يقلب في صفحاته دخل السير هارولد مكمايكل يسأل عن نفس الكتاب فاعتذر إليه البائع في أدب جم وأبلغه أن النسخة الأخيرة اشتراها الآن ذلك الشاب الواقف، فحدّجه بنظرة حار في تفسيرها وقتذاك واستأذنه وأخذ يقلب في صفحات الكتاب ثم سأله بلهجة مأكرة مستنكرة «هل تقرأ وتفهم مثل هذا الكتاب؟» فلم يجبه المحجوب، بل أخذ كتابه وخرج في صمت.

كان المحجوب فتى غض الإهاب لم يكمل عامه العشرين بعد إلا أنه كان مولعاً بالقراءة ومتابعة ما يستجد من معارف.. وقد قرأ الكتاب وسره ما كتبه سبندر.. فالرجل كان كاتباً وشاعراً من تلك الجماعة التي أطلق عليها مجموعة كيمبريدج..

تألفت في سنوات العشرين والثلاثين من القرن الماضي. وفي كتابه ذلك أنصف زعماء الشرق الذين برزوا عهد ذاك مصطفى كمال أتاتورك وسعد زغلول والمهاتما غاندي، وأشار إلى الأدوار المهمة التي يضطلعون بها في سبيل نهضة بلادهم وتطورها.. أما مكمايكل الذي إسكثرت الكتاب على المحجوب فقد كان أحد أهم الإداريين الإنجليز الذين مروا على السودان وكان كاتباً ومؤرخاً ومدققاً متميزاً بذلك. وقد ألف كتاب «السودان الإنجليزي المصري» الذي يستعرض فيه تاريخ السودان منذ أقدم العصور وتعرض فيه لحاضر الحكم والوضع السياسي وحتى مستقبل البلاد حاول التكهن به.

ولد المحجوب بمدينة الدويم عام 1908 وتدرج في مراحل التعليم متفوقاً حتى تخرج في كلية غردون التذكارية مهندساً في أوائل عام 1929. وجاء في تقرير تضمنه ملفه في العمل أنه أكفأ وأقدر من أقرانه السودانيين الذين يسبقونه في الخدمة بخمسة عشر عاماً، وأن عقله يتميز بسرعة التفكير. وقد أنجز بعض المشروعات الهندسية خلال الفترة القصيرة التي قضاها في هذا المجال.

قرر المحجوب فجأة أن يغير مسار حياته بالتحاقه بمدرسة الحقوق في يناير 1936 ليتخرج وينتظم في سلك القضاء في نوفمبر 1938. ومنذ بداياته تلك كان مكتب الأمن العام يتابع نشاطه مع غيره ممن كانوا في عداد موظفي الدولة ويتابعون دراساتهم في كلية الحقوق. وقد لاحظ المكتب تعرده في العمل على رؤسائه وتردده على مكاتب «جريدة النيل» فاقترح إبعاده إلى الأقاليم بعد التخرج. واتضح من خلال تلك التقارير أن رؤساء البريطانيين رغم تقديرهم لكفاءته كان يضايقهم ما يعتبرونه تعالياً وإحساساً بالتفوق والاعتداد. وتضمنت التقارير أيضاً أنه شخص تتملكه روح التفوق والمعرفة وأنه معروف بأنه كاتب سياسي يبشر بأفكار متقدمة.

في عام 1941 نُقل المحجوب إلى دائرة شندي القضائية التي كانت تشمل مدينة

عطبرة.. وبرز نشاطه السياسي في هاتين المدينتين سافراً حيث ترأس مؤتمر الخريجين في شندي. وفي عطبرة إنصرف إلى إلقاء المحاضرات وعقد المؤتمرات وحلقات النقاش. وفي إحدى هذه المحاضرات طرح فكرة قيام اتحاد عام لعمال السودان ليصبح قوة مطلية وإجتماعية تخدم مصالح العمال. ضاق المحجوب بالوظيفة وأخذ يتوق إلى المحاماة ليجد هامشاً من القدرة والحركة في مجالات العمل الوطني الذي بات من الواضح أنه سيكون حياه من أجله.. وعندما تمكن من ذلك تولى سكرتارية الجبهة الإستقلالية في عام 1947- وكانت مكوّنة من حزب الأمة وبعض المتعاطفين معه- وذلك دون أن يكون عضواً في الحزب.. وقد شارك في وفود الإستقلاليين التي طافت أوروبا والولايات المتحدة. كما شارك في الجمعية التشريعية وكان من أعضائها البارزين الذين إعتد عليهم الإمام عبد الرحمن المهدي. وفي الإنتخابات الأولى - دوائر الخريجين - كان ترتيبه الثاني بعد مبارك زروق واختارته المعارضة الإستقلالية زعيماً لها في مجلس النواب حيث شارك رئيس الوزراء إسماعيل الأزهرى في رفع علم البلاد صبيحة يوم الإستقلال. ولعله من الأشياء الطريفة والمثيرة لدهشة الكثيرين أن المحجوب أنضم لحزب الأمة في ديسمبر 1956، وذكر أن سببه الرئيسي في ذلك هو « أنني كنت أمينا للجبهة الإستقلالية. وكان حزب الأمة آنذاك الوحيد الذي تتوافق سياسته مع قناعاتي السياسية ». وشارك محجوب في حكومة عبد الله خليل الأولى في يوليو 1956 خلفاً لمنافسه مبارك زروق. وبعد انقلاب نوفمبر 1958 كان في مقدمة المعارضين الذين تمّ نفيهم إلى الجنوب إلا أنه بعد ثورة أكتوبر تولى الخارجية مجدداً ثم صار رئيساً للوزراء في يونيو 1965 بعد الإنتخابات التي جرت في أبريل. وبعد انقسام حزب الأمة واتلاف جناح الصادق المهدي والحزب الإتحادي سقطت حكومته ليتولى الصادق الحكم، إلا أنه عاد إلى رئاسة الحكومة بعد سقوط هذا الائتلاف وقيام آخر بين الحزب الإتحادي وجناح الإمام الهادي في مايو 1967

وظل حتى وقوع انقلاب مايو في 25 مايو 1969.

كان المحجوب من أبرز رموز ذلك الجيل وكان موهوباً متعدد الملكات ذا نشاط دافق واعتداد بالنفس وكان يؤمن بدور الفكر والثقافة في بناء المجتمعات. وقد ساهم في النشاط الأدبي، ناقداً وكاتباً وشاعراً وفي المجال القانوني قاضياً ومحامياً وفي السياسة زعيماً ووزيراً ورئيساً للوزراء.

وقد استمد تلك القدرات من مثابته وإطلاعه الواسع ومكانته الاجتماعية المرموقة والتراث الغني لأسرته. فهو من ناحية أمه، من الهاشميات الذين شاركوا في الحياة السياسية والاجتماعية خلال عهدي المهدي والحكم الثنائي، وكان جده لأمه الأمير عبد الحليم مساعد من أبرز أمراء المهدي، وقد صاحب الأمير أبو قرجه في ملاحقة حملة هكس- والأمير عبد الرحمن التجومي في الزحف نحو مصر حيث استشهد في توشكي. وكان المحجوب معجباً بتراث أجداده هؤلاء وكثيراً ما أورد أسماءهم في كتاباته. كما كان لخاله السيد محمد عبد الحليم دور كبير في تربيته وتعليمه وتوجيهه للقراءة والإطلاع على عيون الأدب وأمّهات الكتب.

تميّزت حياة المحجوب بعبء فكري واسع فقد كان ينشر مقالاته في مجلة «النهضة» السودانية لصاحبها عباس أبو الريش ومجلة «الفجر» التي أصدرها عرفات محمد عبد الله الذي كان يعاونه المحجوب وبعض أصدقائه في تحريرها، ثمّ واصل إصدارها أحمد يوسف هاشم بعد وفاة عرفات.. وصدرت للمحجوب أيضاً كتب «نحو الغد» و«الحركة الفكرية في السودان.. إلى أين تتجه؟» و«الحكومة المحلية في السودان» و«موت دنيا» الذي كتبه بالاشتراك مع ابن خاله ورفيق عمره الدكتور عبد الحليم محمد. كما صدر آخر كتاب له بعنوان «الديموقراطية في الميزان» الذي لخص فيه تجربته السياسية وأودعه بعضاً من ذكرياته. ذلك غير الدراسات والمحاضرات التي ساهم بها في إثراء الحركة الفكرية والثقافية.

وكان المحجوب قد تصدى لتكوين جمعية القراءة بالهاشماب والتي كان من بين أعضائها عبد الحليم محمد وعرفات محمد عبد الله وأحمد يوسف هاشم ويوسف مصطفى التني وعبد الله عشري الصديق وأخوه محمد وأمين بابكر والسيد الفيل ..

نظم المحجوب الشعر منذ فترة باكراً واستمر ينظمه حتى أيامه الأخيرة. وقد صدر له ديوانه الأول «قصة قلب» في عام 1961 و «قلب وتجارب» عام 1964، و«الأندلس المفقود» وهو ديوان صغير تضمن قصيدة واحدة عام 1969، ثم الديوان الرابع والأخير «مسيحتي ودني» الذي صدر عن دار المعارف بمصر عام 1977.

كان المحجوب معجباً بشعره مدلاً به. وكان يسعده إشادة الآخرين به وإنشاده. وفي خلال زيارة المشرق الفرنسي الكبير جاك بيرك للسودان في أواخر ستينات القرن الماضي أقام له المحجوب مأدبة عشاء دعا لها عدداً من المثقفين والوزراء. وقد أنشد لهم الأستاذ مكاوي مصطفى بعضاً من أشعار المحجوب ومن بينها ذات الرداء بصوت أشجاء وأطربه فأخذ يستعيد حتى طلوع الفجر. وفي السنوات التي قضاها في لندن كان يلتقي بأصدقائه ومن بينهم الكاتب الروائي الطيب صالح والشاعر الفنان التشكيلي عثمان وقيع الله الذي كان يستجيد المحجوب إنشاده للشعر ويطلب منه دائماً ألا ينشد شعر المتنبي قبل شعره حتى لا يفسده له ويحوّله إلى كلام لا طعم له.

عاش المحجوب حياة عريضة وغنية ومتنوعة وكان شخصية جذابة تستقطب اهتمام الناس في نطاقه المحلي وفي المحيطين العربي والأفريقي. وكانت كثير من العواصم تحتفي بزيارته لها.. ويهرع إليه الأدباء والمثقفون يستمعون بما يشيعه حوله من روح إبداعية شفاقة وقدرة على التواصل الإنساني.

«موت دنيا»..

جدلية الحب والمعرفة



د. عبد الحليم محمد

يقول أحدهما وأخاله المحبوب - يقيناً هو - «يونانية حسناء في ريعان الشباب ممثلة أنوثة وحناناً، ساهمة النظرات على وجهها سيماء حزن خفي حاولت كثيراً أن أدرك كنهه ولكنني لم أستطع فك رموزه، وخصلات شعرها المرسلة الظليقة يداعبها النسيم وهي تسوى ذلك الشعر مكانه بيد كلها الفتنة، وتتحدث الإنجليزية في عجمة حبيبة إلى السامع لا يسعه إلا أن يطلب منها المزيد. تلك هي بائعة الكتب في ذلك الحانوت الصغير، تلاطف هذا وتجامل ذاك، وتطلع السلم إلى رف قصي لتأني بكتاب وضع هناك، وهي في صعودها وهبوطها تبدو كل محاسن جسمها: صدر بارز، وخصر نحيل، وساق فاتن أملود، وفستان يساعد كل ذلك الجمال على الظهور، فلا هو بمخف الضواصر، ولا هو بمقلل من قيمة المشارف، لا ولا هو بسائر الملادة. تلك هي بائعة الكتب التي لفتت أنظارنا إلى المتجر وجعلتنا نرتاده ولا نمل إرتياده، وهي التي نشأت بيننا وبينها أول صداقة فكرية، قبل أن نألف صحبة المؤلفين والتحدث إلى الكتب

والاستماع إليها، ولحسنها في قلوبنا كل إجلال وتخليد. مضت زهاء الخمسة عشر عاماً منذ أن لقيناها أول مرة، ولكن ما نكاد نلقاها بعد ذلك إلا ونذكر أنها الفاتنة الملهمة، عبقرية الجمال التي تهدي الناس إلى شعاع العبقرية من أقدم الأجيال حتى يومنا هذا ولا يحلو لصديقنا عشري - يعني عبدالله عشري الصديق أو أخاه محمداً - إلا أن يلفت نظري إليها كلما لقيناها في الطريق وأن يذكرني بأنها أستاذنا الأول، وهل نرضى نحن بغير أستاذية الجمال.

لقد لقيناها في العام الماضي وراءها سرب من الأطفال يمتازون بنفحة من ذلك الجمال والوداعة، وأهمهم لم تفقد شيئاً من رشاققتها ولا فتنتها، غير أن الأيام قد جعلت ذلك الوجه الطليق ورسمت عليه سطوراً من حكمة الزمن، وبدت شعيرات بيضاء هنا وهناك في شعرها الذي طالما سوته بيد الفتنة، إنها كتاب من الجمال العبقرى، والكتب الجيدة الجميلة لا يدركها الفناء، تبقى على الزمن تراثاً خالداً ونبراساً يضيء الطريق للمارين في مسالك الفكر.

هذا النشر الإبداعي الرفيع تضمنه كتاب «موت دنياه» الذي ألفه محمد أحمد محبوب وابن خاله الدكتور عبدالحليم محمد، كانا في ريق الصبا عند ذاك في سنوات الثلاثين من القرن الماضي، أودعاه ذكريات عزيزة وانطباعات عن حياتهما التي تراكمت مع تحولات عنيفة في السياسة.. عاشاها في كلية غردون - المرحلة الثانوية - في سنوات العشرين، وما تلا ذلك من سنين. كانا قد نهلا كثيراً من فيض الأدب.. عثرا على كنز من الكتب في دارهما بأم درمان وتأثرا بالمشايخ الأدبي العام الذي أخذ يطبع حياة العاصمة بميسمه حين نشأت جمعيات القراءة والتنقيف الذاتي وأخذت في الازدهار.

تعرفا على الأدب والفلسفات الغربية وشغفا بالتراث الإغريقي وملاهما سقراط بمثالية الفكر والاستعداد للموت في سبيل الإعتقاد وأعجبا بالوزير البريطاني دزرائيلي الذي حفزه الإحساس بالاضطهاد ليصل إلى مكانة رفيعة واستطاع أن

يجسد تجاربه فيما كتبه من أدب رائع، كرواياته «فيفيان جراي» و «كنجز بي» و «سبل» و تقلبا في مختلف حقول المعرفة ونهلا من كل ما كان متاحا لهما.

كانت الصحافة المصرية تشكل رافداً أساسياً في شحذ الوعي لدى المتعلمين السودانيين، فكلفوا بها أيما كلف.. كما كان كتاب مصر وشعراؤها في تلك الفترة يمثلون ذروة الذوق الأدبي في الثقافة العربية.. طه حسين والعقاد والمازني وعبد الرحمن شكري، وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه المهندس.. وإذا تأملت ما اقتطفناه في صدر المقال تجد تأثير هؤلاء الكتاب والشعراء واضحاً على مستوى التراكيب والمفردات في ذلك النص.. وتبدو حساسية المحجوب الشعرية بارزة بصورة عفوية حين يتحدث عن الفاتنة اليونانية «التي تسوي شعرها بيد الفتنة» كما يتحدث عن «ساقها الأملود»، فيستدعي الشابي مثلما استدعى علي محمود طه.. ولكنك لا تحس بأيّ عمل أو تكلف. لم تكن الرواية العربية قد برزت بشكل سافر إلى الوجود.. مجرد محاولات حيية متعثرة.. ولكن المقال الأدبي وجنس الكتابة النثرية الإبداعية في المشاهدات والانطباعات كان يجد حماساً لدى القراء والمثقفين. ويشير المحجوب نفسه لمؤلف المازني «إبراهيم الكاتب».. الذي يتماهى مع النص الذي كتبه.

كتب المحجوب عن صالون أدبي لسيدة من نساء ذلك الزمن - قطعاً ليست دارفور.. بعدها بسنوات - أطلق عليها أصدقائه اسم «مدام دي باري».. امرأة سودانية عادية صقلوا حسها وشحذوا وعيها فيأت أدري الناس بإدارة الحديث وكيفية تناول القضايا مع المتابعة الدقيقة لأخبار الطبقة المثقفة التي تتمتع بصلات وثيقة مع كثير من وجوهها اللامعة. وصف المحجوب الصالون بأنه كان داراً أنيقة حسنة النظام تتم عن ذوق وفن.. لم تكن للعبث والمجون وإنما هو صالون بكل ما تعني الكلمة.. يدور الحديث فيه عن الأدب والفن والسياسة وتنشد فيه الأشعار.

شغف الكاتبان بالموسيقى وعرفا بتهوفن.. وكانا يرتادان الأماكن التي تجمع

السحر والفتون.. فقد كان للأجانب عالمهم في مدينة الخرطوم.. كانت لهم وحدهم دون أهلها من السودانيين، إلا أنهما لا يلبثان أن يعودا باحثين عن الموسيقى في بلادهما فيستعذبان القيثارة وما تثيره فيهما من أشجان ومسررات.

كثبا عن المرأة السودانية التي جسداً نموذجها الفريد في تلك السيدة التي كانت تحمل إناءً من الشريد والتظاهرات الحاشدة تزحم شوارع العاصمة فتقدم طعامها للجوعى في ذات يوم مكفهر، ويتحدثان عن أخرى ويقولان «جلت عن أن تسمى»، ويبدو أنها زوجة الزعيم عرفات محمد عبدالله، فيستطردان في الحديث «فرقت الحوادث بينها وبين بعلاها وهو أنبل الرجال وأثبتهم على مضى الجهاد، فاحتملت كل ذلك في صبر وثبات، حانية على طفلتيها الحبيبتين، تربيتهما وتعلمهما وتغرس فيهما أنبل المقاصد والعقائد، وها هي تقص عليهما قصة أبيهما، وكيف خرج من الحمى وتعرض للصعاب والتشريد آونة، ونعم بالحياة والتجاح أخرى، وتخفف عنهما حرمانهما حنو الأبوة ورعايتها، وهي في كل ذلك تتألم صابرة وترتقب عودة الرائد.. وها هو قد عاد إلى الحمى.. وها هو ذا يقود القافلة ويحسن الحداء. وها نحن ننضوي تحت لوائه، ونسعد بالعمل معه ومشاركته التفكير في شؤون البلاد، وإذا بتلك المرأة النبيلة تحدثنا حديث ذلك العام، وموقفها من ذلك الرجل المنتفع الأوداج، الذي لم يبق مكاناً في الدار إلا نبشه، ولم يبق إلا خدرها يريد أن يصل إليه، وهنا أعطته الدرس الأول والصفعة القوية.. فخرج من الدار مطأطئ الرأس وفي عينيه دمعة تترقرق». هذا هو عرفات بعينه فقد كان أباهم الروحي.. وتلك هي زوجته التي لقنت أحد ضباط العباحث ذلك الدرس. «وقد أغفل الكاتب عمداً أن يورد الأسماء مما أفقد النص البعد التاريخي الذي كان يمكن أن يكشف الكثير». والواضح أنه أراد أن يكون نصاً أدبياً بحثاً بشأن الرواية رغم واقعية الأحداث. كما أن الكاتبين لم يحددا الحدود الفاصلة بين كتابتهما.. إلا ما يستطيع القارئ أن يستشفه من

طبيعة الحدث.. والأسلوب متقارب لدرجة التطابق، حتى تظن أن الصياغة النهائية إنفرد بها أحدهما دون الآخر.. وأغلب الاحتمالات أن يكون هو المحبوب.. رغم المقدرات التي تميز بها دكتور حليم. فقد كان أدبياً مطبوعاً قبل أن يهجر ذلك المجال ويتجه للإهتمام بالرياضة التي أبدع فيها. يمضي بك الكتاب صعوداً وهبوطاً ويتناول صورا شتى ومتنوعة عن الحياة السودانية خلال النصف الأول من القرن العشرين.. طلاب الكلية وما كابده إثر ثورة 1924 ثم الإضراب الشهير الذي سجل أول انتصار لهم وتراجع للإدارة البريطانية.. الجمعيات الأدبية وهي تشق طريقها.. نادي الخريجين واحتفالات المتعلمين بالمناسبات المختلفة.. نماذج من الحكام البريطانيين وسلوكهم تجاه الآخرين. ولعل أطرف ما جاء في الكتاب وصف البعض منهم الذين كانوا يتصرفون كأنهم آلهة اليونان في جبال الأولمب. فروى بريطاني لا ينتمي لرجال السلك السياسي - يسخر منهم - قصة عن إمبراطور الرومان قال فيها «أقام الإمبراطور حفلة من حفلاته الدامية التي تدور رحي الحرب فيها بين الأسود الكاسرة والمسيحيين الأوائل، وقد تجمع حوله رجال الدولة وأعيان البلاد، وجيء برجل من أولئك المسيحيين المعذبين وأطلق الأسد عليه، ولكنه تمت ببعض كلمات فوقف الأسد حائراً لا يحرك يداً، وغضب الإمبراطور لذلك وأشار إلى أحد وزرائه أن يتحرى عن السبب، فذهب الوزير واستفسر وعلم أن الرجل قال للأسد: «أنا أحد رجال السلك السياسي في حكومة السودان» ولهذا صمد الأسد عنه وتساءل الإمبراطور دهشاً عن السر! فقيل له إن الأسد لا يفهم إلا الأدميين فقال أليس رجال السلك السياسي في حكومة السودان أدميين؟ فقيل له: «عفوك يا مولاي إنهم أنصاف آلهة». كانت لهذه الدعاية أثرها في أوساط السودانيين حيث تضمنت كثيراً من السخرية والشماتة على تعالي الإنجليز وإحساسهم بالتفوق. سرعان ما تنبه السادة الإنجليز إلى ما يدور في أوساط المتعلمين السودانيين

من ضيق وتبرم بأسلوب معاملتهم فإتخذوا سياسة جديدة بالدعوة إلى حفلات الشاي في الدور الخاصة وفي سراي الحاكم العام التي قرّر السير استيوارت سايمز فتح ميادينها لأبناء الشعب مرّة كل أسبوع للترفيه عنهم. وكان يدعو المتعلمين وغيرهم إلى تلك الحفلات.. حبوه ربما يرغب في الحديث عن قضايا البلاد وهمومها وناقشها معهم.. إلا أن الكلام كان ينحصر في أنواع الزهور التي تزين ميادين السراي وأنواع الطيور الوافدة من بلاد بعيدة والأخرى المستوطنة.. وأحياناً عن صيد السمك.

صدر هذا الكتاب لأول مرّة في أغسطس عام 1946، ثم صدرت طبعة ثانية خاصة في عام 1986 بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل الأستاذ محمد أحمد محبوب.

26 نوفمبر 2002

غمامة تحت عمامة

في ذلك الصباح البعيد اصطبغت الأفاق بألوان أرجوانية يجعلها سواد.. اعتلت
كواكب في السديم.. إختلجت وديان وتقبضت قسما من سهول وتبست لحاء
الأشجار وتصححت أوراقها.. حنت النوق وغاص الحليب في أخلافها وألقت
أصراب الفراشات بنفسها على نيران الرعاة وأمسكت الطيور ببيوضها كأنها
بانتظار زلزال مدمر.. وتراكضت نقاتق تدفع برئالها أمامها مذعورة.. عوت ذئاب
وأجفلت وعول.. أرزمت طيول وتجاوت أصداؤها، فطائر التم هوى من عليائه
صريعاً على الفلوات.. تمدد الشاعر ميتاً تحيط به هالة من الشبل زرقاء بيضاء
تنلأ.. قضى شهيد مناقبيته وروحه الشفافة.. كان ذلك في أوائل العقد الثاني
من القرن العشرين بمدينة الأبيض.. إنتقل النبا الحزين من دغل إلى سهل ومن
سهل إلى دغل حتى ارتدى على بحر الشبل مرهقاً وانداح على صفحته الصقيلة
ثقبلاً كالزئبق فاختنقت الأسماك وتمشى النبا في شوارع أم درمان فسيطر عليها
سأم كثيف.

كان الديوان الملكي خاصاً بالوزراء والقضاة والأعيان وكبار الضيوف في الفاشر
حاضرة دارفور والسلطان الشاب علي دينار بن زكريا يجلس على سرير الملك
يحفه الجلال بعينيه الواسعتين المستديرتين تحدقان إلى الأمام نحو ذلك
الرجل الوضيء الجالس في ثبات ويقظة تنمان عن علو المهمة، والكل غارق في
الصمت، إلا أنهم كانوا يدركون أن الأمر لم يكن يتعلق بمحاكمة أو صدور قرار
قاس بقدر ما هو عتاب يوجهه السلطان إلى صديقه الشاعر التاجر حامد ود محمد

الذي يغشى مدينة الفاشر مرتين في العام فينتظره السلطان على ما هو أحر من الجمر ويفسح له مجالاً في مجلسه ويستمع بحبور إلى مغامراته وأشعاره وأخبار «دار صباح» ولا يتركه يغادر المجلس إلا وهو محمّل بكل ما هو غال ونفيس. يعتدل السلطان في جلسته تتابعه العيون الخاشعة والمشفقة والتفت إلى حامد الشاعر معنفاً «أما سمعت يا حامد من قبل أن هدايا الملوك لا ترد ولا تُهدى ولا تباع.. وأنا قد اصطفتك دون سائر التجار القادمين من «دار صباح» صفيّاً ونديماً.. ولقد كانت قصيدتك الأخيرة في مدحنا درة زينت تاج ملوك الفور لذا اقتضيت أريحيتنا مكافأتك عن جدارتك في قول الشعر ومعرفة مكانة السلاطين.. فلم أهديت كل ما منحناك إياه وعدت لا ترعى للملوك حرمة». لم يرد السلطان إلا أن يتحدث باقتضاب متحرّفاً لأن يستمع إلى ردّ صديقه. هبّ الشاعر واقفاً بقوامه السمهري الفارع ليبرد على السلطان خلافاً لتقاليد البلاط التي تقتضي أن يكون حال المرء جاثياً على ركبته.. ثم يكن الحديث نثراً وإنما شعر تأني عفو الخاطر ببداهة وإحكام.. وتناثرت أبيات القصيد الفخمة تعدّد مآثر السلطان وترسل الاعتذار إرسالاً بهذيب وترفع تؤكد غلبة الطبع وسخاء اليد الذي لا تقيد أعراف ولا تقاليد.

كانت غضبة السلطان مضرية لا تعرف التراجع ولا تقبل الاعتذار حيث رأى في موقف الشاعر بتوزيعه كل هداياه على فقراء مدينة الفاشر إهانة لا تليق بالملوك.. فأصدر أوامره الصارمة بمنع الشاعر التاجر من عبور دارفور مرة أخرى. أذعن الشاعر، لملم أطرافه وغادر القصر ومن ثمّ المدينة التي ظل يتحاشى المرور بها خلال رحلاته المنتظمة بين الأبيض ومناطق ودّاي وأفريقيا الوسطى. ولدى عودته من رحلاته المتعددة إلى مدينة الأبيض التي كانت ترتدي له أغلى حللها وحليها تموج بالطرب الحفي وتغدو أيامها أعياداً، وكانت داره واسعة تحيط بها أشجار الدوم والدليب وسيلان من الجرار الضخمة ملأى بالماء

أصوات

القراح لعصائب الطير والسابلة.. والأبواب مفتوحة في أنحاء الليل وأطراف النهار تفيض بالأضياف وذوي الحاجات وجماعات الواغليين.. والموائد مبسوطة ودماء الذبائح لا تجف.. وعندما يرخي الليل سدوله يخرج متنكراً يغطي منازل الفقراء ممن لا يستطيعون الوفود إليه.. فبطرق الأبواب يوزع الأموال صرةً فصرةً على الأراامل والأيتام والمرضى حتى لا يتبقى في يده شيء.. حالة أقرب إلى الأساطير ولكنها حقيقة.

أضحت دارفور سلطنة مستقلة عندما جثم الاحتلال البريطاني، إلا أن ريقه ظل يتحلب وهو يترقب السوانح للوثوب عليها.. كان المفتش الإنجليزي لمدينة النهود في منطقة كردفان المجاورة يقعي على كرسيه الساعات الطوال يتسقط أنباء دارفور ليدهج التقارير الواحد تلو الآخر إلى حكومته بالخرطوم، يمهّد السبيل لغزوة مرتقبة. في تلك السنوات المليئة بالهواجس والإحتمالات. كان حامد يروح ويحيى بقافلته التجارية الصغيرة يشق الفلوات.. ينحدر إلى واد ويرتفع إلى تل ويمر بالنهود في كل الأحوال.. كان تجار المدينة ووجهاتها يتلقونه بالبشر والترحاب.. مغتبطين يتنافسون على استضافته.. وكان المفتش الإداري الإنجليزي يتحرق لرؤياه عله يقتنص شيئاً من الشاعر الحصيف ولكنه لا يلبث أن يرتد خائباً.. فالشاعر عندما يتردد اسم السلطان علي دينار يتهلل وجهه ويمتدحه شعراً ونثراً حتى عندما عاد مغضوباً عليه ومطروداً من القصر الملكي.

ما كانت مخابرات الإدارة البريطانية لتغفل عن مثل حامد.. يجوب البلاد شرقاً وغرباً كمن يغزل لنسيج جديد وفجر مختلف.. فرصته عيونها ظنته يزود دارفور بالسلاح. يجييء به من وداي وأفريقيا الوسطى - تلك المستعمرات الفرنسية - ولكنها ما كانت لتستطيع أن تثبت ذلك فتحرشت بقافلة له وصادرت كميات من التبغ وسن الفيل كما صادرت منزلاً له بأم درمان.

انحدر الشاعر من أسلاف تجذرت عروقهم في أقصى شمال السودان.. وصفهم المؤرخون العرب بـ «رماة الحدق» لحدقهم في الرماية.. كانت نبالهم لا تطيش، ما تصيب إلا حدقات العيون.. فعندما حاربهم المسلمون بعد فتح مصر أصابوا بنالهم في ضحى معركة واحدة مائة وخمسين عيناً. فقأوها فاستحقوا عن جدارة وصف «رماة الحدق» فأعجبت المؤرخين بسالتهم ومضاء عزيمتهم. قال أحد هؤلاء المؤرخين وأظنه البلاذري «إن نكايتهم لشديدة وسلبهم لقليل». كان كيدهم أبعد من ذلك في التاريخ، فقد فقأوا عيون جنود الفرس حينما حاولوا غزو السودان بقيادة أرونديت- نائب الإمبراطور دارا- في نهاية القرن السادس قبل الميلاد- خارج بلدة اسوان المصرية الحالية- ما طاشت سهامهم.. كانت الأحداق بغيتها فهزموهم وردوهم على أعقابهم فيما روى المؤرخ الحمصي اليوناني الكنعاني الأصل هيلودور.. هؤلاء «رماة الحدق» قبلوا الإسلام بالموادعة والمسالمة وكف المسلمون عن قتالهم بعد أن كتبوا الموائيق واليهود ولكنهم ما لبثوا أن أقبلوا على الإسلام.. وباتوا بعد ذلك من جنوده الميامين.. أشرعوا رأيته وتدفعوا في أحشاء السودان يعلمون الدين ويستغنون الرزق ويختلطون بالأهلين.. وعندما اندلعت الثورة المهدية في آخريات القرن التاسع عشر كانوا ضمن حداتها ووقود نارها.. انتصروا لها وانتصرت بهم وألقوا بالغزاة خارج الوطن وأقاموا دولتهم الوطنية وعاصمتها أم درمان. أقامت عائلة حامد بالعاصمة الجديدة في حي الشيخ محمد صالح ود أرو.. وهو خال الشاعر.. كان مقيماً بالأبيض وانتقل إلى أم درمان شأنه شأن الكثير من العائلات التي رحلت مع الإمام المهدي وأقامت في المدينة الجديدة. أغلب الظن أن الشاعر كان لما يزل طري العود في مبة الصبا عندما تفجرت الثورة المهدية فلم يشارك فيها بنصيب وإن كان قد تنسم عبرها الفواح.

ورث حامد كل شجاعة آبائه هؤلاء، سجاياهم، نبلمهم وكرمهم الجموم، واجه

السباع في الأجام وانثنى يطارد الأشداء من قطاع الطرق هاربين أمامه.. وحتى الآن لا تجد فماً ثرثاراً في غرب السودان حيث للبطولات مكان إلا ويتحدث عن حامد.. أطلقت قبائل كثيرة اسمه على أبنائها.. يتمنون أن يتجسد في واحد منهم يوماً ما رغم مرور عشرات السنين على وفاته.. هذا القلب الصخري لم يتحمل أن يرد هالب حاجة قصده من بعيد فتوقف عن الخفقان أي حينما أدرك حامد أنه لا يستطيع أن يفي بغرض ضيقه ويمنحه ما يتمناه - لضيق ذات اليد - أسلم الروح كما طائر النمل الذي يموت حالما يسقط في فخاخ النسياد.. فاكتملت الأسطورة.

5 ديسمبر 2000م

قديسة سودانية عاشت في إيطاليا

جوزيفينا بخيته



جوزيفينا بخيته

يتميز الدكتور منصور خالد دون معظم أقرانه من السياسيين السودانيين بعمق الرؤية وفخامة الأسلوب فيأسر قارئيه سواء أن اتفقوا معه أم اختلفوا. ومنذ «حوار مع الصفوة»، ظل يرتقي بكتاباته مغترفاً من معين الأدب العربي القديم وتاريخ الثقافة الإسلامية والإنسانية ومركزاً على تاريخ السودان، يتوغل في طلب المعارف ويغوص ويأتي بجديد كلما كتب. وفي يوليو الماضي حين شارك بكلمة ألقاها باللغة الإنجليزية في افتتاح المؤتمر الذي عقد في مركز جامعة كيمبريدج بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لرحيل الزعيم السياسي والأديب الشاعر محمد أحمد محجوب تناول القضايا الخلافية التي لا تزال تشغل السودانيين وفي مقدمتها مسألة الهوية. وفي معرض حديثه عن الحضارتين النوبية والمسيحية أشار لتجربة أسطورية لامرأة سودانية من دارفور خاملة الذكر تدعى جوزيفينا بخيته عاشت كرقيق في أواخر القرن التاسع عشر وجئ بها إلى الخرطوم بعد أن

تعرضت لعذابات مريرة على أيدي النحاسين. وكان خلاصها على يد القنصل الإيطالي العام في زمن الدولة التركية السابقة، الذي أخذها معه إلى إيطاليا حيث عُمدت وأدخلت الدين المسيحي وسميت جوزيفينا إلا أنها أصرت على الاحتفاظ باسم بخية. انضمت بخية إلى «أخوات كانوسيان»، وأصبحت معروفة بالأخت السوداء.

وخلال الحرب العالمية الثانية قامت بأعمال إنسانية أثارت الإعجاب حين انبرت لحماية سكان بلدة سنيو خلال عمليات القصف، وبعد خمسين عاماً على وفاتها وفي عام 1992 طوبتها الكنيسة. وفي أكتوبر من العام الماضي سماها البابا قديسة لتتضم إلى قائمة قليلة العدد من القديسين السود. وقال الدكتور منصور خالد أن الكاثوليك السود في كل أنحاء العالم ابتهجوا بهذه المناسبة - إلا في السودان حيث تجاهل الإعلام الحكومي النبأ.

بدأ النشاط التبشيري للكاثوليك خلال سنوات الأربعين من القرن التاسع عشر، بعد عقدين من الحكم التركي. وتوالى على الخرطوم منذ عام 1843 مبعوثون كاثوليك من النمساويين والإيطاليين والألمان البافاريين. وبدأت تلك البعثة إقامة مبنى لها عام 1850 في الخرطوم، ومن ثم توسع نشاطها فأقامت محطتين بمنطقة البارية في بحر الجبل وفي بقعة ما بين شامبي وبور، ولكنهما أغلقتا بعد حين، وعندما عادت البعثة في عام 1872 إلى الخرطوم برئاسة الأب كمبوني افتتحت ثلاث محطات في بربر والأبيض والدنج بجبال النوبة. فتك داء الملاريا بسبعة عشر من أفراد البعثة فأخلت محطة بربر، ثم انسحبت نهائياً إلى القاهرة في ديسمبر 1883 بعد هزيمة حملة الجنرال هكس في براري كردفان.

كان افتتاح القنصلية النمساوية في الخرطوم يرتبط بأهداف البعثة الكاثوليكية. وكان أول نائب لقنصلها هو الدكتور رتر الذي وصل إلى الخرطوم في مارس

1851 وعرف بصلاته الواسعة مع الكثير من مشايخ العرب بمنطقة الخرطوم. أما هانزل الذي شغل المنصب في عام 1853 وجاء للتدريس في مدرسة البعثة الكاثوليكية فقد إمتدت إقامته حتى سقوط مدينة الخرطوم في يناير 1885. وقد ترك أبحاثاً قيمة في الجغرافيا والاثروبولوجي نشرتها المجلات العلمية في النمسا وألمانيا. وكان رجلاً إجتماعياً يستضيف السائحين والمكتشفين في منزله، كما يتحدث العربية ولغة البارية.

ركزت البعثة الكاثوليكية على التعليم، وكانت ترمي بذلك إلى تنصير الأطفال الأرقاء فأنشأت مدرسة ضمنهم مع بعض الأطفال البيض والمولدين، إلا أنها لم تستمر طويلاً فأقامت مدرسة أخرى في عام 1850 لتدريس القراءة والكتابة والحساب والموسيقى والأشغال اليدوية واللغات العربية والفرنسية والإيطالية. وبعد أعوام قليلة شهدت المدرسة تقدماً وازدهاراً فأضيفت مواد جديدة لمقررات الدراسة كالتربية البدنية والفنون الجميلة والغناء كما ألحق بها قسم تجاري في عام 1859. والتحق خريجوها بالمصالح الحكومية. وقد اهتمت المدرسة بالتعليم المهني فاستحدثت أقساماً للتجارة والحياكة والحدادة وصناعة الأحذية يشرف عليها خبراء إيطاليون.

وكان المهندس مبادا يدرس علم الميكانيكا للتلاميذ الذين يظهرون كفاءة ومهارة. وكان هؤلاء التلاميذ يعملون في الترسانة بعد إكمال الدراسة. وفي السنوات اللاحقة توسعت المدرسة في قبول التلاميذ، ذكوراً وإناثاً، حتى بلغ العدد في عام 1878 ثلاثمائة ولد ومائتي بنت.

نماحت البعثة الكاثوليكية مع الموقف العالمي المنادي بإبطال تجارة الرقيق واستخدمته لتحقيق أهدافها في تنصير الأهالي، فتوسعت في شراء الرقيق وتربيته تربية دينية للإستعانة به في التبشير بمناطقهم. كما شجعت الرقيق على

أصوات

الهرب وأنشأت من أجل ذلك ملجأ بدار الإرسالية لإستقبال الهاربين. ويزعم الكونت الإيطالي لويجي بنازي الذي زار الخرطوم قبيل الثورة المهدية أنهم نجحوا في تحويل الرأي العام بالسودان ضد تجارة الرقيق.

ومما لا ريب فيه أن البعثة الكاثوليكية دأبت على تنصير المسلمين. وقد تمّ العثور على فتية وفتيات من تلاميذها تختلط أسماؤهم الإسلامية بالمسيحية، وبخينة مثال واضح لذلك، كما كانت هناك فتاة سودانية تدعى كاترين زينب أجول استعانت بها البعثة في معرفة لسان الدينكا، ويبدو من اسمها أنها كانت مسلمة وتنصرت.

وقد برز من تلاميذ البعثة القس الدينكاوي دانيال سرور الذي أُلّف أكثر من عشرين كتاباً عن عادات قبيلة الدينكا لم يبق منها سوى كتاب واحد موجود الآن بمكتبة المخطوطات بمجمع آباء فيرونا. ذلك إلى جانب التقارير والمراسلات والمذكرات التي أعدها أفراد البعثة والتي تزخر بها مكتبات جميعات البعث الدينية في إيطاليا وخاصة في ذلك المجمع. وقد قام الأب الياس توفولو الذي تولى التدريس في كلية كمبوني بالخرطوم مراجعة تلك الوثائق وادّعها في مخطوط بعنوان الأعمال الجغرافية وغيرها الخاصة بالبحث عن الاجناس البشرية التي قام بها مراسلو الإرسالية الكاثوليكية الأفريقية الوسطى (1846 - 1898). وتنضج أهمية هذا المخطوط فيما تضمنه من الكشوف الجغرافية التي قام بها أفراد البعثة الكاثوليكية والتي لم تتعرض لها كثير من كتب الرحالة التي تناولت هذا المجال. وكان قد فقد الكثير من التقارير المهمة التي كتبها أفراد البعثة من بينها تقرير كتبه أحد الآباء في عام 1848 عن جزيرة سنار.

السودان عرف المسيحية قبل كل مكان، وكان أول سوداني يعتنقها هو وزير خزانة الكنداكّة، ملكة مروي، حوالي عام 35م - أي بعد عامين من وفاة السيد

المسيح. وقد وردت قصته في سفر لوقا، وهي قصة شيقة أوردناها عدة مرات فيما كتبنا حول هذا السياق، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن السودان شهد انتشاراً للمسيحية قبل أن يحدث ذلك رسمياً في المناطق الأخرى، وقد تم العثور على وثائق تثبت أن ذلك يعود إلى حوالي عام 450 م. وفي أوائل سنوات السبعين من القرن الماضي تم اكتشاف لوحة حجرية في البركل أقامها رجل يدعى يوانس وزوجته البصابات تذكراً لابنتهما نيوسيس المتوفاة، ويعود تاريخها إلى ما بين 300 و500 م. والواضح أن يوانس والبصابات اسمان مسيحيان من أصل عبري، أما الصورة الرسمية التي وصلت بها المسيحية إلى السودان، والتي ترددها كتب التاريخ، فهي مبادرة ملوك القسطنطينية بارسال وفود التبشير.

وازدهرت المسيحية في السودان وتجددت في مملكتي المقررة وعلوة ولكن لا يزال الغموض يلف الملابس التي أدت إلى زوالها إلا من بعض الإشارات العابرة من الرحالة الذين زاروا السودان في أيام اضمحلالها التدريجي حتى اختفائها في الفترة ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر.

فقد كتب القس البرتغالي الفاريز الذي زار إثيوبيا عام 1250 م أنه عندما كان في بلدة غندار وصل بعض القساوسة والرهبان من السودان يرغبون في تعلم مبادئ الدين المسيحي، وقالوا إنهم كانوا يتلقون كل شيء من القسطنطينية ولكن بسبب الحروب وموت جميع رجال الدين انهارت المسيحية في السودان.

وقال الفاريز إن يوحنا الطرابلسي الذي كان يصحبه وسبق أن عبر منطقة بلاد النوبة شاهد أكثر من مئة وخمسين كنيسة معظمها مبنية داخل القصور وجدرانها مزدانة بصورة السيدة العذراء والحواريين، وتلك الشهادة أثبتتها الآثار التي تم اكتشافها في النوبة أخيراً.

ومن عجب أن أحد القسيسين في مصر كتب في عام 1742 أن بعض البرابرة

القادمين من جزيرة تنقاسي، الواقعة نجااء دنقلا العجوز التمسوه وطلبوا منه أن يعطيهم بعض الصليبان لحماية أطفالهم. ومن المستبعد أن تكون المسيحية قد استمرت بعد سقوط دنقلا العجوز في حوالي 1326. الراجع أن هؤلاء الناس كانوا يتخذون من الصليبان تماثم حسب معتقداتهم التي سبقت الإسلام ولا بد من التأكيد من أن المسيحية قد زالت من الوجود في السودان ككنيسة منتظمة في أوائل القرن السادس عشر حين انتصر الحلف الذي قاده عمارة دنقس وعبدالله جماع على النوبة المسيحيين وسقطت مملكة سوبا في عام 1504م. وعندما مر الرحالة اليهودي داود روبين عام 1526 على سوبا وجدها خراباً إلا أنه رأى بعض سكانها يعيشون بين الأنقاض. واستمر اسم العاصمة المسيحية في بعض القرى الواقعة في منطقة الروصيرص. كما أن هناك سوبا أخرى قرب «أبوجماي» حيث يسكن بعض الهمج الذين انحدر أجدادهم من المدينة القديمة، واحتفظوا باسمها. وقيل إن بعضهم لا يزال يردد عند القسم «أحلف بسوبا دار الجد والحبوبة المطلق الحجر ويفطس الكركعوبة».

الفتى الذي فقدناه في ناشفيل

رينقو باولينو دينق

«مات هناك في رحاب الترم صديقنا
فتى من الجنوب اسمه ميور
قراء في الصباح كحبة الصباح
يدخل الهجة في الأرواح والسرور
مقلق الأسان في إضامة كأنها سرب من الإفد
انقلبت مرقاً على صفحة نهر الجور»

الشاعر صلاح أحمد إبراهيم

تجمع عدد غير قليل من اللاجئين السودانيين في شقة السيدة فكتوريا في مجمع سكني بمدينة ناشفيل في ولاية تينسي.. إفتروشوا الألفحة والبطاطين وأسندوا ظهورهم إلى الجدران.. كانوا حزاني صامتين تلفهم الكآبة والإحساس المرير بالغربة.. وذلك خلال مشاركتهم لتلك العائلة النعيصة أحزانها في وفاة الفتى رينقو باولينو دينق الذي لقي مصرعه على يد مهاجر لاتيني يدعى راؤول كوزاليس سيلفيا، طعنه بسكينه حتى الموت. لم يكن دينق قد تجاوز التاسعة عشر.. إلا أنه كان شهعاً كريماً ذا مروءة ونجدة وسخاء.. تحدث عنه أصدقاؤه المهاجرون السودانيون لوكالات الأنباء.. قالوا إنه كان أخصاً لنا ووقف إلى جانبنا وقدم إلينا الطعام والكساء، وانخرطوا في بكاء مرير. حل دينق بناشفيل قبل عام ونصف العام بصحبة عمته وعميه وجدته.. جاءوا من القاهرة حيث تركوا والدي

دينق هنالك وأقاموا في شقة تتكون من غرفتين في ذلك المجمع السكني الذي ضمهم مع مهاجرين لاتينيين. يعتمد اللاجئون السودانيون على مساعدات الأهل والأصدقاء والبعض الآخر يعتمد على المؤسسات الخيرية. كان دينق يعلم بالحصول على منحة جامعية يوفرها له فريق كرة السلة الذي سينضم إليه. وقد التحق بالفعل بمدرسة هيلسبورو العليا لتطوير لغته الإنجليزية ولكنه سرعان ما هجر الدراسة حين عثر على وظيفة ثابتة بدوام كامل بأحد المخازن التجارية الكبيرة.. كان عمله في مرآب السيارات حيث يقوم بتنظيم حركتها وتوقفها المؤقت فيه إلى حين فراغ المتسوقين في المخزن. كان قد نشب العراك بينه وبين غوتز اليس على مترين من الأرض في حين ترك خلفه مليوناً من الأميال المربعة هي مساحة بلاده التي ضاق بها وبحروبها المتجددة. لم يكن يصدق أنه قد نجا بجلده من جحيم الحرب في الجنوب. واعتقد أنه حلّ برؤوس ملؤها الأمن والطمأنينة والعيش الهنيئ في بلاد « العم سام »

وفي فبراير الماضي كانت قد وقعت حادثة راح ضحيتها فتى آخر هو جيمس مشار جيو الذي سافقه العناية إلى ولاية أريزونا في إطار برنامج لإعادة توطين آلاف الأطفال والمراهقين السودانيين اليتامى ممن فقدوا أسرهم في دوامة الحرب اللعينة. حافلتان تصادمتا في عرض الطريق فهوت إحداهما على جيو الواقف على بعد بضعة أمتار بانتظار وسائل النقل العام ليعود إلى شقته بعد عناء يوم حافل عقب نهاية الدوام. كان محملاً بالمواد الغذائية والأطعمة التي يجلبها لزملائه. قبل وقوع المأساة كان قائداً لمجموعته ومستودعاً لأسرارها واحتياجاتها وما تحصل عليه من أموال قليلة. كان يتميز بروح التصميم والمعنويات العالية. وعقب وفاته الفاجعة جلسوا حيارى يائسين يسألون عن سبب عدم اعتقال السائق مباشرة لإزالة العقوبة به وعن عدم السماح لأصدقائه بمرافقة جثمانه إلى المستشفى في سيارة الإسعاف، وعن عدم دفن جثمانه مباشرة بعد الوفاة. وقد

أدرك مدير لجنة الإنقاذ الدولية في فونيكس روبن دون ماركوس أسباب حيرتهم وتساؤلاتهم وأرجعها إلى أسبابها الثقافية حيث أنهم يعيشون في واقع مغاير بقوانينه وأنماط سلوكه.

في عام 1841 كتب المفكر المصلح والشاعر الأمريكي إيمرسون يقول «لَمْ يكن لنظرية الإصلاح يوماً في تاريخ العالم ما لها في وقتنا الحاضر من مجال فإن كافة المصلحين السابقين كانوا يوقرون بعض النظم والمؤسسات الكنسية أو الدولة أو التاريخ أو التراث بيد أن هذه جميعاً وكافة الأمور الأخرى المسيحية والقوانين والتجارة والمدارس والمزرعة والمعمل - تسمع الآن صفير الصور «نفير البعث» فلتهرع إلى الحساب - وما من مملكة أو مدينة أو تشريع أو شريعة أو دعوة أو رجل أو امرأة إلا تهدده الروح الجديدة». كان ذلك الزمن الذي تحدث فيه إيمرسون زمن تدمر لا حدود له وأمل لا نهاية له لذا توجّه أيضاً بهذه الدعوة لمواطنيه «علينا أن نعيد النظر في كل بنياتنا الاجتماعية: الولاية والمدرسة والدين والزواج والتجارة والعلم وأن نستكشف أصول طبيعتنا الخاصة».

كان ذلك زمن تحديات كبرى واجهت المجتمع الأمريكي الذي كان يعمل في حالة التكوين والمخاض العسير فنهض المصلحون رجالاً ونساء لتشكيل المجتمع المدني الذي يسع الجميع ويحد من ضراوة الغلاة والمستبدين. وانصرفوا بنشاط عارم وعاطفة صادقة حارة عزّ نظيرها في التاريخ وعكفوا على إزالة العقبات. واتجه إيمرسون وأضرابه إلى تخليص الكنيسة من التعصب والعقوس ليعودوا بها إلى المبادئ الأخلاقية العظيمة الكامنة في قلوب البشر وعملوا على محو الأمية وحلّ مشكلة تعليم البنات واتجهوا إلى الطبقة الفقيرة الراححة تحت نير الرأسمالية الزراعية والصناعية البازغة. وكانت المرأة مسحوقة مستضعفة فتكاتف عدد من المصلحين مع نساء جسورات وأطلقوا حملة من أجل حقوق النساء في المحاكم وفي السياسة وفي الأعمال والمدارس. وقادت

دوروثيا ديكس حملة من أجل المصابين بالجنون وأنشأ غيرها معهد بيركنز للعميان وأقام توماس جالوديت مدرسة للصم وصور تشارلز لورينج برس مأساة الأطفال المشردين في شوارع المدن الكبرى.

إفتتح هؤلاء المصلحون بأن للإنسان قيمة لا حدود لها وعملوا على تجنبه ويلات الحرب ونادى أحدهم بأنه « ما من حرب مشرقة، وما من سلام غير مشرف». انتصرت هذه المبادئ وخلقت مجتمعاً متماسكاً رغم تباين أعراقه وتقدمت هذه الأمة حتى بلغت صدارة الأمم ولكنها ما زالت تعاني من التشوهات التي لا تقعد بها كثيراً حيث ما زال كثير من المضطهدين يلوذون بها فارين من جحيم بلداتهم. إن هذه التجربة في طريق تقدم الإنسانية لحرة بالاهتمام وهذا المجتمع المدني لا يفتأ يتماسك رغم ضراوة السلطة وتغول الرأسمالية الشرسة على مسيرة الحياة وأقدار الناس.

نحن في السودان نحتاج لمثل هؤلاء المصلحين.. لرجال يؤرقهم الظلم وتهزهم صور إهدار الإنسانية فلا محيد عن توقف هذه الحرب.. فنحن لا نريد أن يقتل بعضنا البعض نحن نريد السلام. وإذا كان هناك أمراء للحرب أياً كان جانبهم تدفعهم شهوات التسلط وتركيبهم نزعات القتل والتدمير وقهر الآخرين فليرفعوا أيديهم عن مستقبل هذا الشعب الطيب المسالم الذي لم يبق له الحرب سوى الحقد والدمار. ولينهض الجميع من أجل قهر الحرب ووأد العنف ولتصمت المدافع وتغرد الطيور وتقرع الطبول وترفرف رايات السلام ويفرح الجميع ولتعد السيدة فكتوريا - عمة المغدور رينفو باولينو دينق - من منفاها في ناشفيل إلى قرينتها في الجنوب.

7 أغسطس 2001م

مدرسة رمبيك..

حنين جارف إلى الماضي والسلام



الطفل جابريل

اعثدنا أنا وجابريل على تسميتهما الأستاذ والمهندس لأن الأول حصل على شهادة الدكتوراة من مصر والآخر لأنه أشرف على إعادة إعمار عدد من المباني. لم نرهما لعدة أيام وكان ذلك أمرا غير عادي فلقد كنّا نشاهدتهما بانتظام حول مباني المدرسة حيث كانا طالبيين قبل سنوات عديدة. ومنذ عودتهما إلى رمبيك ظلا دائما بطوفان حول الفصول الخالية، يناقشان الكيفية التي تمكنهما من إعادتها إلى أحوالها السابقة. ولما كنّا أنا وجابريل نتمنى أن نكون طالبيين في هذه المدرسة فقد كانت تسعدنا الأوقات التي تجمعنا بهما، وقد كانا لا ييخلان برواية القصص المتعلقة بـماضي المدرسة وكيفية سير الأمور في أيامها الخوالي، لذا فقد ازعجنا غيابهما غير العادي. كان الأستاذ والمهندس عجوزين فقد مضى حوالي نصف القرن منذ أن كانا طالبيين في هذه المدرسة. استبد بي القلق وذهبت بي الظنون إلى أن أحدهما أو كليهما سقط طريح الفراش بسبب المرض. وأوغلت في الفطن إلى

درجة القلق على حياتهما. ولما مضت الأيام تعاظم الإعتقاد باحتمال وفاتهما. وكثيراً من الأحيان كنت أجد نفسي مستلقياً وسط الحشائش في غابة أشجار التيك تضايقني حرارة الجو فأمرح بعيداً بخيالي حتى أنسى وجودي بهذه الحالة، وكثيراً ما كنت أستعيد إحدائنا الأستاذ والمهندس.

كان الأستاذ يقول «يشكل عام فالنساء إضعف من الرجال، فإذا قتل طفل أمام امرأة فإنها بلاشك تنفجر بالبكاء، ولكن الرجل لا يفعل، ويصف المهندس اليوم الذي عاد فيه إلى مدرسة رمبيك الثانوية بعد أن استعاد الجيش الشعبي المدينة من القوات الحكومية، «كان المكان الأول الذي زرته هو صفي توجهت إليه مباشرة وعندما وقفت أمامه انفجرت باكياً».

ولما استعدت أحاديثهما تلك أحسست وكأنهما يحددان لي الكيفية التي ينبغي أن اتصرف بموجبها عند سماع تعيهما. كنت أحس بالحزن الذي قد يفضي إلى البكاء ولكنني كنت اتمسك وكان ذلك أمراً معقولاً حيث إن عمري الآن يتراوح بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وأتوقع أن اتصرف كرجل أكثر مما افعل كأمراة أو طفل.

قبل سنوات عديدة قرّر البريطانيون أن الجنوب السوداني يحتاج إلى مدرسة ثانوية إلى جانب المدارس التبشيرية التي كان غرضها الأساسي الدعاية الدينية. ولما طرح النقاش لتحديد موقع المدرسة على مديري مديريات الإقليم اقترح مدير الاسوانية، رمبيك لإعتبارات عملية من بينها أن موقع المدينة مناسب وسهل الوصول إليه كما أنها تستطيع إمداد المدرسة باحتياجاتها الغذائية. كما أوضح أيضاً نوعية الهدوء الفريد الذي تنعم به المدينة الأمر الذي سيكون مثالياً لتلقي الدراسة. وهكذا تم اختيار رمبيك وتقرر إقامة المدرسة في أحد أطرافها قريباً من الطريق الرئيسي في نهاية الشارع الذي تحفه أشجار المانجو، وهي عبارة عن تلك المباني التي تتباين علواً وانخفاضاً. وفي هذا المكان في رأس شارع أشجار المانجو رأيت

المهندس يقف هناك بعد غيابه الذي استغرق عدة أيام، كانت المسافة بعيدة لأثيينه بوضوح ولكني لم أخطئ هيئته النحيلة، كان يقف ورأسه يرتفع قليلاً ليتأمل الكتابة الباهتة في أعلى المدخل الرئيسي للمدرسة. كنت معتاداً على رؤيته على هذه الحالة. وفي داخل المدرسة يقضي المهندس وقته يتفقد المباني، وفي بعض الأحيان كان يحاول تقدير الأضرار التي لحقت بها ليرى ما إذا كان هناك أمل في صيانتها ولكنه في معظم الأحيان كان يتذكر تلك المباني في ماضيها الزاهر حين كان طالباً، وعندما تأكدت من وجوده تبددت مخاوفي وسعدت بوجوده حياً ومن ثم توجهت إليه على الفور. وعندما خطوت قليلاً نحوه غادر المكان سالكاً طريقاً قصيراً إلى الفناء الأمامي ثم انعطفت إلى اليمين ليتخفي حول أحد الأركان، لم أشأ أن أناديه تهديباً ومراعاة لفارق السن بيننا ولكني أسرعته الخطى. وعندما وصلت إلى الفناء رأيت المنصة التي كان يقف خلفها ناظر المدرسة خلال الاجتماع الأسبوعي الذي يضم جميع الطلاب والمعلمين في الهواء الطلق كما رأيت عربة عسكرية من ناقلات الجنود مفرغة الإطارات مفتوحة الأبواب. ولكني لم أقف على أي أثر للمهندس. ويبدو أنني لم أسرع بصورة كافية فقد اختفى في أحد المباني العديدة أو المداخل التي تمكن من تجاوز الفناء كما لم أستطع أن أميز الطريق الذي سلكه.

مدرسة رمبيك واسعة وضخمة وليس فيها فناء واحد بل عدة أفنية تحيط بالفصول والداخليات التي كانت في يوم من الأيام تسع ألف طالب. وتمتد المباني لتشمل منازل المدرسين والموظفين والعمال والناظر ونائبه، ذلك بالإضافة إلى المرافق الأخرى كالمطابخ وقاعات الطعام والحمامات وبيوت الأدب وبعدها تمتد مبادئ النشاط الرياضي بمختلف أنواعه، وكانت هناك كنيسة إحداهما كاثوليكية والأخرى بروتستانتية. ولما كانت هناك عدة اتجاهات استطع أن أسلكها إلا أنني اخترت التوجه إلى الأمام مباشرة وكنت أنتقل من ظل إلى مكان مكشوف حتى تراءى لي مسجد كان قد شيده الشماليون بالطوب الأحمر. وقف الأستاذ على بعد

عبدالله الطيب - أقال الله عشرته - في رثائه.

عبدالرحيم فقدناه فوأسفًا أخا المعارف والرأي الذي حصفا

اللودعي الدقيق الحس ذا البصر اللماح والمثل العليا بها اتصفا

أما يوسف مصطفى التني فمازالت قصيدته «في الفؤاد ترعاه العناية» تبدد
القلق السياسي وتشيع الاطمئنان كلما ألفت بالبلاد جائحة من الجوائح. ثم كان
هناك عبدالله عبد الرحمن نقد الله القيادي المبدع والشاعر التحرير الذي حمل
سجايأ أمته ومناقبها في الشجاعة والبذل وإياء الضيم، وعبدالله خليل العسكري
المتقف والإنسان العامر بالخير والمودة - لم يتمكن معاصروه من رؤية قدراته
الإنسانية حجبتها عنهم المكائدات السياسية. وهناك أيضاً أمين التوم الذي
ضرب سهماً وقرأ في الاستقامة وحسن الخلق.

غير هؤلاء كثير - إذا أردنا حصرهم - عمروا المحافل بالمعرفة والأدب ونبل
الأخلاق متجردين من الهوى متعقفين عن لعاغات الدنيا ما اغتتموا - حين
تسبحوا المناصب - ولا مكنوا أبناءهم من نهب ثروات البلاد ولا حكموهم في
رقاب الناس.. قضوا واحداً تلو الآخر - دونما ضوضاء - وتركوا حسن الأحدثه.
الآن أبناءهم وأحفادهم متفرقون في شعاب الأرض يبتغون الرزق الحلال رغم
مؤهلاتهم العالية.

مكتبة مصطفى سعيد التي ورد وصفها في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»
ما هي إلا مكتبة القانوني الضليح محمد صالح الشنقيطي التي أهديت إلى
جامعة الخرطوم. روى كاتب الرواية أنه رآها ذات يوم خلال زيارة لمنزل
الشنقيطي بأم درمان فنقل صورتها كما هي في عمله الروائي، تنوع وغنى في
المعارف ومخطوطات نادرة قل أن تجدها في مكتبات الأفراد. خالها بعض النقاد
العرب أنها تعبّر عن ثقافة الكاتب وثراء المعرفة التي اغترف من معينها.

أصوات

أمتار منه. اعترتني الدهشة لمرأء مثلما حدث حين رأيت المهندس يقف تحت مدخل المدرسة وكان إلى جانبه جابريل الذي أميزه بقميصه الـ«تي شيرت» الذي يرتديه ويتدلى في جسمه الضئيل حتّى يغطي سرواله القصير.

كانا لا يتبادلان الحديث، فالأستاذ ينظر إلى مكان خلف المسجد، أما جابريل فقد كان يواجهني. ولما كان المهندس قد ضاع مني أردت أن أركض نحو الأستاذ حتّى لا يختفي عن ناظري هو الآخر، ولكنني ترددت. فعند منتصف المسافة كانت هناك بئر مفتوحة ذات فوهة واسعة تبتلع سيارة، وعميقة إلى الدرجة التي يمكن أن تغيبها إلى الأبد لذا تفاديت الركض في تلك المنطقة الخطرة، فإذا سقطت لن يكون بوسع أحد إنقاذي. وفي خلال المعارك التي جرت في المدينة تلوث عدد من الآبار بالعجث التي ألقيت فيها لذا بدلاً من الركض لوحت لجابريل وظننت أنه إذا لوح لي أيضاً فإن الأستاذ سيلتفت ناحيتي ويراني، وربما يكون سعيداً برؤيتي كما أكون أنا أيضاً. فخطرت لي فكرة أنه ربما يكون من وجهة نظر الأستاذ أنا هو المفقود خلال الأيام الماضية، ولكن جابريل لم يلوح لي، ليس ذلك فقط، ولكن بعد لحظة تلويحي تحرك الأستاذ مثلما فعل المهندس وبعد ثوان قليلة كان قد اختفى خلف المسجد وتوارى عن الأنظار.

عبرت الفناء حتّى اقتربت من جابريل حيث استطيع أن أكلمه دون أن أرفع صوتي، فسألته عن سبب إحجامه عن الرد عليّ بالتلويح.. ولكنه أجاب بكلمات غامضة ثم أردف قائلاً «إذا كنت تريد المهندس فقد لمحنته الآن يتوجّه نحو قاعات الطعام».

تحركنا سوياً حيث لم يكن لدى جابريل خيار أفضل من السير معي. لم أكن اتوقع أن أجد المهندس في قاعة الطعام، وكما أسلفت القول إن الهم الأساسي للمهندس هو صيانة المباني ولكن قاعات الطعام كانت تحتاج لما هو أكثر من ذلك.. فقد كانت بلا سقف وجدرانها مدمرة تماماً وحتّى إذا كان الحنين قد استبد

بالمهندس فلم يكن المكان مناسباً لاجترار الذكريات. أما الأرضيات فقد إستخدمها الأطفال مكاناً لقضاء الحاجة. فلا يستطيع المرء أن يتحرك دون أن ينظر إلى الأرض متلمساً طريقه. كما كانت رائحة المكان لا تحتمل. وعندما وصلنا إلى قاعة الطعام كانت خالية، وكان كل ما يستطيع المرء رؤيته هي رسومات بالفحم لأشخاص يتبادلون الضربات بالكاراتية رسمها جنود تملكهم اليأس والفجر.

هل أنت متأكد أنك رأيت المهندس يسلك هذا الطريق؟ سألت جابريل فهرز رأسه ولم يجب لأنه كان يغطي أنفه وضمه بساعده تغادياً لتلك الرائحة. فأعدت السؤال ضجراً «أنت لست متأكداً أنك قد رأيته؟» فأجاب «رأيت شخصاً ولكنني لست متأكداً ما إذا كان هو المهندس، ربما يكون شخصاً آخر».

تحدثت إلى جابريل بحدّة، ولكن في اللحظة التي أكّد فيها أنه لم ير المهندس رأيت الأستاذ للوهلة الأولى بدا شكله من خلال نافذة قاعة الطعام. وعندما حاولت أن اقتفي أثره لم أعثر عليه، كما أن الفناء كان خالياً. وللحظة كنت فيها مصاباً بخيبة الأمل رأيت ظلاً يتسلل داخل إحدى الداحليات. كان المدخل يؤدي إلى غرفة تمتلئ جدرانها بالثقوب التي أحدثتها آلاف الطلقات، كما كانت أغلفة الرصاص تتناثر على الأرض.

خرجنا من الغرفة وتحركنا قليلاً وبدا يتناهي هاجس بأن ما شاهدته كان شبحي العجوزين إلا أنني رأيتهما فجأة مرة أخرى يققان سويًا ويتحدثان. حينذاك لم أتمالك نفسي فركضت نحوهما، حاولت أن ألتفت انتباههما، يشدني شوق عارم إلا أنني ما كنا منهمكين في الحديث، ولكن كان يكفيني من السعادة أنهما لا يزالان على قيد الحياة. كان حديثهما ينحصر في غابة التيك وكيفية إعادتها إلى وضعها الأول حين كانت ملاذاً مفضلاً للطلاب أيام زمان يهرعون إليها للمذاكرة يتفياون ظلال أشجارها الوارفة. أما الآن فالأنعام الأرضية باتت عائقاً وضحاياها من الناس يتزايدون يوماً بعد يوم. وأخيراً إفترقا، المهندس إلى منزله ليتناول شيئاً من الطعام

والأستاذ جلس على كرسيه مولياً وجهه صوب المدرسة يراقب مبانيها في سكون وصمت.

نشرت صحيفة «الديلي تلجراف» هذه القصة في الأسبوع الماضي بعنوان «مدرسة رمبيك الثانوية» كتبها أحد الصحفيين يدعى أليكس جارلاند. كان هو ومجموعة من زملائه قد زاروا جنوب السودان في أوائل هذا العام تلبية لدعوة يبدو أن الصحيفة تلقتها من الحركة الشعبية للوقوف على الدمار الذي لحقته الحرب الأهلية بتلك المنطقة. لم يشحن هذا الكاتب البريطاني قصته بكثير من الدلالات السياسية أو الانحياز إلى جانب. اتخذ فيها منحي إنسانيا وذروة المضمون تكمن في بشاعة الحرب وما تصنعه بالإنسان، زماناً ومكاناً، كما تكمن في الحنين إلى الماضي والأشياء التي ترتبط بالطفولة والعصبا. لا ريب أن هذه القصة ليست من نسج خيال كاتبها بل هي واقع رآه وعاشه خلال تلك الزيارة. ومدرسة رمبيك احتلت جانباً عزيزاً في وجدان خريجيه من إخواننا الجنوبيين مثلما فعلت وادي سيدنا وحتوتوب وخورطقت، وغيرها من المدارس العريقة التي تألفت في ذلك الزمن السعيد، في نفوس خريجيه من الشماليين.

الصحافيون البريطانيون الذين صحبوا أليكس جارلاند كتبوا قصصاً ومقالات تمّ جمعها الآن كما ذكرت «الديلي تلجراف» وصدرت في كتاب سيعود ريعه إلى أعمال الإغاثة في جنوب السودان.

موت حلم



جراهام توماس وزوجته الزماني

جراهام توماس رجل بريطاني شاءت ظروفه أن تقوده يوماً إلى السودان. كان ذلك في أواخر أربعينات القرن العشرين والبلاد في أقصى درجات مزاجها الثوري تنهياً لمخاض عظيم.. بعد أن تراكت تجاربيها ونضالاتها وباتت قاب قوسين من نصر وشيك.. ويبدو أن السيد جراهام كان قد بُعث مستشاراً للتعليم فحزم أمتعته ودلف إلى القاهرة ومن ثم إلى الخرطوم فأنبهر بتلك العاصمة العربية - الإفريقية.. ما دار بخلد أنه سيرى مدينة يمثل تلك الأبهة داخل القارة بعد عاصمة المعز.. مدينة جميلة نظيفة ومنظمة تتمتع بجميع الخدمات الضرورية وأكثر. أدهشه معدن أهلها، وخاصة تلك الطبقة الوسطى - وصفها بالمخملية معجبة - والتي كانت منهمكة في تشكيل مجتمعها المدني. لم يجد صعوبة في الولوج إلى مؤسسات ذلك المجتمع والاتصال بالقائمين عليه من شخصيات إجتماعية وسياسية وثقافية - إلا أن ارتباطه الأوثق كان بالإمام عبدالرحمن

المهدي الذي كان قد بلغ ذروة تألقه وعطائه الغيداق. أخذ يتردد على مجلسه العامر الذي ضمَّ الصغرة من كبار المثقفين والمثقفين.

كان الإمام عبدالرحمن منذ يفاعته ولوعاً بالعلم والعلماء متصلاً ببقية الكرام ممن عاصروا الدولة المهدية وعملوا في دواوينها كالشيخ الطيب أحمد هاشم مفتي السودان وشقيقه أبو القاسم أحمد هاشم شيخ العلماء والشيخ محمد عمر البنا «الكبير» العالم الشاعر والشيخ مدثر الحجاز الفقيه الثبت والعالم الحجة والشيخ بابكر بدري رائد التعليم الفذ والشيخ محمد البدوي.

وقد ضمَّ مجلسه علماء وأدباء وشعراء ونحاة وفدوا ليعملوا بالسودان من مصر والشام وفلسطين والعراق من نواحي الفكر والأدب كالإمام المراغي والشيخ ماضي أبو العزائم والأستاذ فؤاد الخطيب والشيخ عبدالرؤف عبدالسلام والسيد نسيم قلندس وغيرهم.

وحينما تخرجت الأجيال الحديثة في كلية غردون التذكارية وجدت متسعاً وترحيباً بل واستقطاباً لتلك المجالس. كان يتوسم فيهم خيراً ويرى مستقبل الأمة رهن تطوُّرهم فرعى النادي الذي أنشأوه عام 1918 والذي قدَّر له أن يلعب دوراً محورياً في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية.

برز في صفوف الحركة الاستقلالية التي رعاها الإمام عبدالرحمن نفر عزيز من مثقفي الأمة وقادتها السياسيين مازالت أنفاسهم تعطر واقعنا الجديد. محمد أحمد محبوب تعددت مواهبه وقدراته فكان مهندساً وقانونياً وكاتباً وشاعراً ورائداً للدبلوماسية ورئيساً للحكومة، وعبدالرحمن علي طه الأديب والتربوي والوزير الذي لا تزال آثار صنعته الإبداعية في مجال التعليم ماثلة في التكوين الوجداني لأبناء شعبه جيلاً بعد جيل ونظيره المدرس اللامع والصحافي المجدد عبدالرحيم الأمين الذي يكفي ما قاله عنه صديقه الدكتور الشاعر

حجراته المزودة بالحمامات العصرية ووجدت في السيد الهادي شخصية ساحرة مولعة بالاستشهاد بشكسبير.. ووصفته بأنه كان أنيقاً بجلبابه و عمامته وشديد الترحيب بضيوفه. وتناول معهما وجبة الإفطار التي كانت سخية حسنة الإعداد لولا أن أفسد رونقها إنتشار الذهب بصورة مزعجة. أما وجبة الغداء فقد رأت أنها لم تُقدّم بشكل حضاري لأن أطباق البورسلين الفرنسي الفاخر لا يتناسب وجودها مع الخل المعبأ في الزجاج. كما شكت من حرارة الجو وعدم تشغيل المولد الكهربائي إلا في المساء. كما تضايقت من وجود نوع ضخم من الجراد وصفته وكأنه قادم من «خيال والت ديزني». ولا بد أنه جراد «أم جركرم» المعروف بحجمه الكبير. إلا أنها في صباح اليوم التالي نعمت هي وجراهام برحلة إلى حدائق طيبة الواقعة في الركن الجنوبي الغربي للجزيرة حيث تناولوا وجبة الفطور تحت ظلال الأشجار الوارفة المثمرة وعرائش العنب التي ساروا تحتها مسافات طويلة. وكان السيد الهادي في كل مكان يحظى بتحيات السكان في محبة واحترام. وعندما طافا بجوانب القصر أعجبهما متحف ملحق به شاهدا فيه آثاراً من المهدية مثل جيب بعض الأمراء وحراب وسيوف وسروج جمال وجرار ماء ووحدة تسجيل من نوع «أديسون بل» في حالة جيدة - لم تنس أن تعلق على ما اعتبرته مفارقة. وعندما زارا مدرسة البنات فوجئت إزماني بوجود إحدى تلميذاتها من بين أفراد مجموعة المعلمات.. كانت قد بدأت حياتها العملية للتو، فسرها ذلك.. كما أعجبها وجود أشغال الإبرة والتطريز في أحسن مستوياتها في إطار المقرّر المدرسي. بشكل عام أعجبتها الجزيرة رغم ما وصفته بنزعة التطهر والأرثوذكسية، حيث لا يوجد أثر للسجائر والكحول. وقد أكّد لها السيد الهادي أنه لم يحدث أن شوهد أحد المواطنين يتعاطى التبغ لا في الشوارع ولا في الأسواق.

منذ وصولهما إلى الخرطوم للعمل في حكومة السودان في مجال التعليم

جراهام توماس اتصل بهؤلاء وبغيرهم فامتدت تلك العلاقات خمسين عاماً.. ما توقفت. ثم عاد إلى الخرطوم عدة مرات زائراً ويات وشيخ الصلة بتطورات الحياة السودانية حتى عهد جعفر النميري وجهود المصالحة الوطنية.

أما قرينته السيدة أزماني فقد احتفظت بعلاقات ود عميقة مع سيدات بيت المهدي حيث عملت ناظرة لمدرسة أم درمان الثانوية للبنات وتخرجت على يديها فتيات ماهضات لعبن أدواراً مقدرة في الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد. وكان من بينهن أوائل من التحقن بكلية الخرطوم الجامعية جنباً إلى جنب مع رصفائهن الشباب كالدكتورة خالدة زاهر السادات وفاطمة طالب وحاجة كاشف وغيرهن.

«موت حلم» هو عنوان الكتاب الذي أودعه ذكرياته عن السودان.. وعبر فيه عن لوعته وحزنه لضياح الصورة التي كان يتمناها لمستقبل البلاد. لم أتمكن من قراءته إلا أنني تصفحته قبل سنوات على عجل وما زالت بعض سطوره مطبوعة في الذاكرة.

قبل أسابيع رحل في صمت وكان السيد الصادق المهدي في زيارة لأبوظبي فسارع بالتوجه إلى لندن للمشاركة في تشييع جنازة الرجل الذي ظل صديقاً وفياً لجده ولأسرته ولشعب السودان.

وما كان وحده جراهام الذي ارتبط وجدائه بالسودان بعد نهاية خدمته.. فمعظم البريطانيين الذي عملوا فيه -إن لم يكونوا جميعهم- ظلّ عشقهم له متقدماً وثابروا على صلات متنوعة مع أهله. ما كان أبلغ صلاح أحمد إبراهيم حين وصف شعبه: كالبشاري يقوده الصغير المعروف إما اهتاج دق العنقا

هؤلاء القوم ما استطاعوا إحتلال السودان إلا بعد أن مشوا فوق أجساد عشرة آلاف شهيد في معركة واحدة وواجهوا مزيداً من المقاومة طوال عهدهم.. إلا

أنهم تصرفوا على نحو مغاير عندما علموا أنَّ هؤلاء الرجال في تاريخهم كانوا يتقاتلون نهراً ويتهادون القرى ليلاً، فاختاروا لإدارة السودان أفضل العناصر وأكثرها كفاءة وزودوها بالدراسات اللازمة والنصائح الضرورية للتعامل مع هذا الشعب على نحو خاص. لذا نجد أسلافاً لنا من البسطاء كثيراً ما كانوا يرددون في الأيام القاتمة الصعبة «يا حليل الإنجليز»

20 يوليو 2000

يوميات إزمي توماس في السودان



إزمي توماس

فوجئ الزوجان البريطانيان جراهام وإزمي توماس وهما جالسان في شرفة قصر السيد عبد الرحمن المهدي بالجزيرة أبا بأصدقاء لأنغام موسيقية مألوفة لديهما تنأى من بعيد.. فلم يصدقا أذانهما فأخذا يشرئبان بعنقيهما يستطلعان جلية الأمر وقد عقدت الدهشة لسانيهما حتى اقتربت فرقة مكونة من ستة من الفتيان يعزفون موسيقى القرب الاسكوتلندية كأفضل ما يكون، وكادا لا يصدقان عيونهما أمام ذلك المشهد الفريد في ذلك العمق الأفريقي. كانا قد عادا من جولة ممتعة شاهدها خلالهما إسطبالات الخيل يصحبهما السيد الهادي المهدي الذي إستضافهما في قصر والده ومن ثم قادهما إلى منزله الملحق بالقصر. حيث إستقبلتهما زوجته الشابة السيدة رقية عبد الله الفاضل التي وصفها إزمي بأنها كانت امرأة ذكية في الثالثة والعشرين تتحدث الإنجليزية بطلاقة وقد زارت إنجلترا قبل سنوات.. أعجبت السيدة إزمي بهدوء قرية الجزيرة أبا وما يبدو عليها من مظاهر الدعة كما فوجئت بفخامة القصر وحديقته الراسعة واتساع

شاركت بالكتابة في الدوريات وقدمت أحاديث في الإذاعة والتلفزيون عن النساء في السودان ومصر وأفريقيا. وقد توفيت في عام 1995. ذكر زوجها جراهام الذي حرر اليوميات بأنها حين عادت إلى السودان بعد عطلتها حبلت إزماني بوحيدهما رضوان الذي ولد في 25 مارس 1954. وفي أغسطس انتقلا إلى نيروبي. أما جراهام الذي أصدر كتاباً بعنوان «موت حلم» قبل سنوات وأسهب في الحديث عن تجربته في السودان بمحبة واحتفاء فقد توفي في العام الماضي. وكنت قد كتبت مقالة عنه في ذلك الحين. أما يوميات زوجته إزماني فقد صدرت في سسبيكس.. لا أدري قبل أو بعد رحيله بقليل ولم أسمع عنها حتى عثرت عليها في الشهر الماضي في المكتبة الخاصة بصديقنا الشاعر راشد سيد أحمد في لندن، وهي جديرة بالقراءة حيث تعكس جانباً من واقعنا الاجتماعي والسياسي بعيون أجنبية. وذلك خلال السنوات القليلة التي سبقت إعلان الاستقلال. أتمنى أن تتم ترجمة هذا الكتاب وتوزيعه بصورة تجعله متاحاً للقارئ السوداني.

أصوات

أبدى جراهام توماس وفريقته إزمای إهتماماً بالحياة السياسية وعقدًا صلات وثيقة مع عدد كبير من السياسيين والمثقفين وخاصة في أوساط حزب الأمة. والتقت بالسيد عبد الرحمن المهدي الذي وصفت زيارته وما صاحبها بالأبهة والفتامة التي يتميز بها الملوك. وقالت إنه كان رجلاً أرستقراطياً يمتلك عدداً من القصور الواسعة ويبلغ دخله السنوي مليوناً من الجنيهات. كما التقت بابنه الصديق عندما توجهت إليه هي وزوجها لتنهشته بعيد الفطر حيث كان يستقبل زواره في قصر والده بالخرطوم في حجرة واسعة وصفتها بقاعة النبلاء والدوقات الإنجليز «إلا أنه رغم السجاد الفاخر المفروش كانت تفتقر للإضافات الضرورية كالتحف والدقة في تنظيم الأثاث» ولم تتخل إزمای عن سخريتها التي تصل أحياناً لدرجة الوقاحة - حيث أشارت إلى أن هؤلاء القوم كانوا قد فطروا على حياة بسيطة ولم يأخذوا بأسباب الحضارة الغربية إلا مؤخراً. وكثيراً ما تغمز إزمای في يومياتها الماضي الثوري لهذه العائلة وتحاول من طرف خفي أن تقارن ما آل إليه الحال بعد خمسين عاماً من الزمان.

وتحدثت عن محمد أحمد محبوب - الذي لم يكن قد انتمى لحزب الأمة بعد - ووصفته بالاشتراكي الذي يطمح لإنشاء «حزب العمال السوداني».

وفي إحدى الأمسيات تمكنت إزمای وزوجها جراهام من زيارة السيد علي الميرغني - الذي تردد كثيراً قبل السماح لهما برؤيته - في منزله بالخرطوم بحري يصحبهما ميرغني حمزة. ووصفت إزمای السيد علي بأنه كان رجلاً قصير القامة يعيل جسمه إلى الإمتلاء، إلا أنه شديد الحبوبة سريع الحركات. وكان يسعل بعصبية بسبب ما يعانيه من الربو.

وقد تحدث إليهما في كثير من المواضيع الدينية والتعليمية. واستمتعا بتناول مشروب الليمونادة والفهوة. وبعد فترة لبي السيدان محمد عثمان وأحمد الميرغني دعوة موجهة من الزوجين البريطانيين لتناول الشاي يصحبهما ميرغني

حمزة وأحد خلفاء الختمية. وكان الجو حاراً والصبيان يرتديان جاكيتين طويلين من الصوف رفضاً خلعهما رغم إلحاح مضيفيهما.

وصفت إزمای السيد محمد عثمان الذي كان في السابعة عشرة من عمره، بأنه كان حازماً يتميز بوجه نحيف ويرتدي نظارات طبية ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ويهوى التصوير. أما السيد أحمد الذي كان في الثانية عشرة من عمره فكان شخصاً لطيفاً متبسماً بوجهه المستدير، ويبدو عرجولاً لا يشارك في الحديث. وأشارت إزمای إلى أنهما كانا يتعلمان على أيدي معلمين خاصين ويحظر عليهما الاختلاط بأترابيهما من الفتيان الأمر الذي اعتبرته خطأ فادحاً.

تحدثت إزمای عن زيارات كثيرة لعدد من بيوت السودانيين وحضرت حفلات للزفاف تفاوتت في مستوياتها الاجتماعية وكانت تنتقد كل المظاهر التي لا تروق لها.

جاء هذان الزوجان البريطانيان للسودان في عام 1950 وباشرت إزمای التعليم في كلية المعلمات بأم درمان ثم أصبحت ضابطاً لتعليم البنات والنساء في منطقة الخرطوم. وأحببت اللغة العربية وتعلمتها بسرعة قياسية واستطاعت كثانية امرأة بريطانية أن تجتاز امتحانها العالي. وإلى جانب وظيفتها الرسمية شاركت إزمای في النشاط العام حيث سعت لإنشاء أول ناد للنساء السودانيات كما حاولت مساعدة الفتيات المعاقات ودعمت مشاريع لصالح الصم والبكم. وفي عام 1954 انتقلا إلى كينيا حيث أمضيا خمس سنوات وبعد عودتهما النهائية إلى المملكة المتحدة عملت إزمای في عدد من مواقع التعليم حيث انضمت إلى كلية سلاو للتعليم (الآن جامعة تيمس فالي). وفي عام 1961 شغلت منصب محاضر أول في تدريب المعلمين وظلت فيه حتى تقاعدت. وبعد ذلك بدأت في تقديم محاضرات عامة وعملت مستشارة لمجلة عربية تصدر في لندن كما

إنجليزية.. على الرغم من أنها أبدت تعاطفها مع القضية المصرية.

لَمْ تصمد الديمقراطية كثيراً أمام الطموح غير المشروع للعسكريين فأطاح عبود بالحكم المدني وغيّر وجه الحياة السياسية ودخل السودان في ليل طويل.. إبتعد عبد الفتاح المغربي عن السياسة وأثر التقاعد في مزرعة أخرى اشتراها في بري. إستمرت الأحوال السياسية في التدهور وبلغت ذروة انهيارها في السنوات الأخيرة لدكتاتورية نظام نميري فقرّر الزوجان المغربي مغادرة السودان نهائياً في عام 1984 م إلى إنجلترا وأقاما في نيوتن أبوت.. وفي عام 1985 م إنتقل السيد عبد الفتاح المغربي إلى رحمة مولاه.

24 أكتوبر 2000م

فيليبا.. ممرضة بريطانية

زوجة لأول رئيس سوداني

في أغسطس الماضي نعت صحيفة «الديلي تلغراف» وفاة السيدة فيليبيا المغربي عن عمر بلغ السادسة والتسعين أنفقت خمسين عاماً منها في السودان بعد أن تزوجت من أول رئيس لمجلس السيادة بعد الاستقلال . كانت هذه السيدة قد هاجرت إلى السودان في عام 1933 بعد عام واحد من إكمالها دراسة التمريض . وكان الدافع لإختيارها لهذا البلد هي القصص الشيقة والمثيرة التي كان يرويها خالها الميجور مايكل بيتروز الذي عمل في الجيش الإنجليزي وشارك في حملة إحتلال السودان عام 1898م . وبعد وصولها إلى الخرطوم بأربعة أعوام تزوجت فيليبيا من عبد الفتاح المغربي أستاذ مادة الرياضيات الذي كان قد تخرج في جامعة بيروت الأمريكية ضمن أول بعثة حكومية إلى لبنان في سنوات العشرين من القرن الماضي .

يبدو أن صحيفة «الديلي تلغراف» كانت قد التفت بفيليبيا قبل وقت وجيز من وفاتها وأجرت معها مقابلة تضمنت ذكرياتها في السودان فتحدثت عن زوجها وتجاربها ونظرت للأمور بعين أوروبية يبدو أنها لم تتأثر كثيراً بالواقع السوداني . وأغلب الظن أنها كانت بعيدة عنه روحياً.. إلا أنها لم تنتقد أي مظهر من مظاهر الحياة بدا سلبياً أمام ناظريها .

ولدت فيليبيا لانجستاف كاستل في 25 فبراير 1904م وكانت الابنة الصغرى

أصوات

للطبيب الممارس في منطقة مناجم الفحم بدارفيلد في وست ريدنج بيوركشير. قبلت بمدرسة سليد للفنون برئاسة بروفيسور هنري تونكر - إلا أنها لم تواصل الدراسة وأثرت الابتعاد لتخفيف الضغوط المالية التي كانت تنوء بها عائلتها.. وأنفقت عامين في التدريس ومن ثم التحقت بمستشفى سانت توماس في عام 1928م وبعد أن تم تأهيلها بمعهد نايتنجيل للتعرض أكملت دورة في القبالة بأدفيرة.

لم يمض وقت طويل بعد وصولها إلى العاصمة السودانية حتى التقت بالأستاذ عبد الفتاح المغربي الذي كان يعمل مدرساً في كلية غردون التذكارية. وذلك عندما توجهت إليه تطلب المساعدة في تلقي دروس في اللغة العربية وأفضت هذه العلاقة إلى الزواج في عام 1937م.

كُنَّا كثيراً ما نسمع ما يردده قدامى الخريجين بأن المغربي كان ضمن أول بعثة حكومية إلى الخارج واقتنى أول سيارة خاصة، كما كان أول من اقترن بامرأة أوربية.

تحدثت فيليبيا للصحيفة البريطانية وقالت إن محمد مصطفى المغربي - والد عبد الفتاح - اختاره الإمام المهدي ليكون رئيساً لكتبة عمالة دنقلا... إلا أن الخليفة عبد الله أمر بسجنه في أعقاب هزيمة توشكي في عام 1889م ولم يستطع استعادة حريته إلا بعد أن مدح الخليفة بأربعين بيتاً من الشعر.

في الفترة ما بين 1937 و 1948 م اتخذ عبد الفتاح المغربي وزوجته فيليبيا منطقة الجريف سكناً لهما حيث أفلحا في إنشاء مزرعة عامرة بأشجار الفاكهة والخضروات. وكانت فيليبيا تستمتع بقيادة السيارة المحملة بعلف البرسيم متجهة إلى سوق الخرطوم تحت حرارة شمسها اللاهبة. وعندما تبلغ الحرارة أقصى درجاتها خلال أشهر الصيف كانت فيليبيا تستجير بمياه النيل فتسبح في

منطقة زعمت أنها كانت تأوي ستة من التماسيح.. لذا كان لزاماً عليها أن تتوخى الحذر الشديد. وفي تلك الفترة قالت فيليبيا إنها كانت تعمل متطوعة في التمريض بالقرى المجاورة للخرطوم.

وأثناء الحرب العالمية الثانية أبدت فيليبيا استعداداً كاملاً للدفاع عن أم درمان من أي غارات جوية إيطالية محتملة. كما التحقت كمرضة متطوعة في عدد من المستشفيات. ومنذ سنوات الخمسين الباكرة إعتاد الزوجان على قضاء عطلتهم السنوية في بريطانيا.. وفي معظم الأحيان كانا يستمتعان بقيادة سيارتهما يتجولان من منطقة إلى أخرى.

وفي عام 1952 م عادا بالسيارة من إنجلترا عبر شمال أفريقيا من واي في ديفون حتى الشلال في صعيد مصر ينامان داخل السيارة وبطبخان طعامهما في موقد «بريموس» صغير.

وفي موقع معركة العلمين تتذكر فيليبيا كيف تقاسما طعامهما مع كلبة صغيرة أودعت جراءها داخل دبابه محترقة. وعند الشاطئ المغمور بمياه الفيضان قرب مدينة أسيوط اعترضتهما عصابة لصوص.. إلا أن المغربي تخلص منهم بعد أن هددهم بأن السرقة من هذه السيدة البيضاء لن تمر بسلام.

ومن خلال نشاط زوجها وعائلته أصبحت فيليبيا وثيقة الصلة بالحركة الوطنية واستعدت بشكل جيد لتصبح زوجة لرئيس مجلس السيادة الذي شغل المنصب لمدة ثلاث سنوات بعد إستقلال السودان. وجدت فيليبيا نفسها سيدة أولى في القصر الجمهوري الذي تدفق نحوه سفراء عشرات الدول لتقديم أوراق اعتمادهم لرئيس الدولة الوليدة. وفي أثناء حرب السويس في نوفمبر 1956م التهب المشاعر العربية وارتفعت الأصوات منددة بالعدوان البريطاني - الفرنسي على مصر - كان موقف المغربي لا يخلو من حرج حيث كان متزوجاً من سيدة

إليها من وقت لآخر.. حيث إكثرت داراً في حي المراكبي كانت مهوى لطلاب الحاجات والمساكين والباحثين عن تجديد ذواتهم بالدين والفكر.. ولا يزال كثير من أهل المدينة يرددون قصصاً أغرب من الخيال عن كرمه وإنفاقه وإثارته، الأمر الذي كان يعبر عن دخيلة تحررت من الذاتي وسعت عن لعاعات الدنيا وزخرفها.

عاش الرجل عقوداً من الزمن منسجماً مع ذاته متوحداً.. بعد أن كدح في سبيل ذلك كدحاً يقعد عنه الرجال حتى استطاع أن يقهر النفس وينفذ إلى حقيقة الأشياء.. كان لا يفتأ يرتقي ويدعو الناس إلى لباب الدين واقتفاء أثر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

بدأ حياته زعيماً سياسياً ثورياً منذ منتصف سنوات الأربعين.. كانت الحركة الوطنية في طفولتها.. يعوزها الفكر وتنقصها سبل الرشاد.. بدأت بالكيد والتنازع وفجر كثيرون في ممارستهم السياسية في محاولات للانتصار لذواتهم.. فأنبرى محمود يقدم نموذجاً ويدعو للجمهورية.. يلتف حوله عدد من المثقفين.. كثير منهم أدباء وشعراء.. أحبطتهم أساليب الأحزاب وصغارها.. نذكر منهم محمد المهدي المجذوب، ومنير صالح عبدالقادر، وأمين صديق.. كان يملؤهم الحماس فيوزعون المنشورات السياسية ويخطبون في الأندية والمجتمعات.. وما لبث الحال أن أدرك الأستاذ محمود أهمية التربية لتقديم النموذج للإنسان من خلال فهم متقدم للدين وممارسة تسيجها أخلاق النبوة بالإقتداء بها.

طرح الأستاذ محمود محمد طه فكراً جديداً ما أخرج البشرية إليه الآن في ليالها الداجية هذا.. في الأيام التي سقط فيها مشروع الإرهاب والمزايدات السياسية باسم الدين.

قبل حوالي أسبوعين تابعت برنامج «مواجهة» الذي يقدمه تلفزيون أبو ظبي.

واقفاً تحت حبل المشنقة..

وما زال يحدجهم بنظرته فيرتعدون



الشهيد محمود

«لا حرج أئمن من الرغبة في التأثر للبرية

لا سماء أسطع من صباح يستطفيه الغوث

لا سلام على الأرض إذا اغترفا للجلادين»

«بول إيلوار»

حين جيء به يحيط به حراسه يرسف في قيوده مغمض العينين يسعى إلى المشنقة بخطو ثابت وقامة منتصبه كان هناك حفنة من قضاة نكرات وقفوا لتوهم ليشهدوا تنفيذ حكم الإعدام فيه.. اعتلى المنصة.. هدرت الجموع.. تعالى الهدير منبعثاً من السجن، من حناجر السجناء والمعتقلين السياسيين، كأنما كان يصدر من جهات الأرض الأربع.. «لن ترتاح يا سفاح»، كشفوا الغطاء عن

وجهه فنظر إلى الجماهير المحتشدة منذ الصباح الباكر ذات اليمين وذات اليسار وابتسم.. ومن ثم ألقي بنظره على القضاة الواقفين في صف إلى جانب المشتقة قطأطأوا رؤوسهم ونكسوها.. ما احتملوا نظرنه تلك وهو راحل عن عالمهم القاني إلى رحاب الخلود.. طأطأوا رؤوسهم وارتجفوا وما رفعوها حتى الآن.. ولا يعلم إلا الله ما كان يدور بأخلاقهم في تلك البرهة النادرة في تاريخ السودان.

بعد خروجه من المعتقل مباشرة في 19 ديسمبر 1984- أي قبل شهر من إعدامه- أعلن الأستاذ محمود محمد طه موقفه بقوله نحن أخرجنا من المعتقلات لمؤامرة. نحن أخرجنا في وقت يتعرض فيه الشعب للإذلال والجوع بصورة محزنة. ونحن عبر تاريخنا عرفنا بأننا لا نصمت عن قول الحق وكل ما يحتاج أن يقال إليه في نفسه قلناه. و«مايو» تعرف هذا الأمر عنا.. ولذا أخرجتنا من المعتقلات، لتسوقنا مرة أخرى، ليس لمعتقلات أمن الدولة، وإنما لمحاكم ناس المكاشفي، ولكن نحن لن نصمت».

في ذلك الضحى الرمادي الشائي الأغبر القادم من ظلمات القرون الوسطى أقيمت مشنقة خصيصاً في قلب العاصمة الخرطوم ليتم تنفيذ حكم الإعدام في واحد من أشرف وأعظم المفكرين الإسلاميين المعاصرين.. رجل ما عرف منذ غضارة الصبا إلا بالخلق الكريم والذكر الحسن. يذكره أضرابه طلاب كلية غردون القديمة في الثلاثينيات ويقولون إن نسجه كان مختلفاً وسلوكه كان نموذجاً للآخرين. ما عهدوا فيه نزقاً ولا التواء. وحينما تخرج وعمل مهندساً في مختلف أنحاء الوطن كان قدوةً وملهماً وقائداً وصديقاً للفقراء والمساكين وأبناء السبيل والدرأويش العابرين.

كُنَّا نسمع عنه ونراه في طفولتنا بمدينة كوستي.. كان يتردد عليها حيث عمل لفترة من الزمن يخطط مشاريع القطن الواقعة جنوب المدينة.. التي صار يختلف

بهذه الذكرى إلا في الخرطوم حيث حالت السلطات دون ذلك .. لأنه لا يزال يحدهم بنظرة فيرتعدون.

ليس لدينا ما نقدمه سوى أن نشهد مع صلاح أحمد إبراهيم:

ما انعت قاماتنا من حمل أقتال الرزانيا

فلنا في حلك الأحوال مسرى وطرق

فإذا جاء الردى كسر وجهها مكتهراً

عارضاً فينا بسيف دعوى ودرق

ومغيراً يده قصلتنا

لمزيد للموت امقاعاداً أو فرق

ترك الدنيا وفي ذاكرة الدنيا لنا ذكرى وذكرى

من فعال وخلق

ولنا إرث من الحكمة والعلم وحب الكادحين

ولا، حينما يكذب أهليه الأمين

ولنا في خدمة الشعب عرق.

92 يناير 2002 م.

الدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور سيد القمني كانا ضيفي الحلقة. منيت نفسي بلحظات من المتعة الفكرية ولكن آمالي خابت.. فقد كانت المواجهة أشبه بحوار الطرشان.. القضية كبيرة والإثنان يمثلان التيارين المتخاصمين الآن. وعبدالصبور شاهين مواقفه معروفة.. خاصة فيما يتعلق بقضية الدكتور نصر حامد أبو زيد وما تمخض عن ذلك بموقف أقرب إلى تكفير الرجل والحكم بالتفريق بينه وبين زوجته حتى اضطر إلى الهروب من مصر والالتجاء إلى أوروبا.

وسيد القمني يكتب الآن عن الإسلام في إطار ما يعرف بالتيار العلماني.. تمنيت لو كان لديه علم بفكر الأستاذ محمود محمد طه أو لو قرأ «الرسالة الثانية» ولخص حجته بالدعوة للإسلام الذي يتسق مع حاجة وتطورات البشرية وفكرها.. وليس ما كان مطروحاً للخارجيين من الجاهلية في أول القرن الهجري. تلك الدعوة التي إذا استطاع المسلمون فهمها وطرحها لهرعت إليها الحضارة الغربية - التي تزدرى المسلمين في هذه الأيام - وما أرادوا بعدها بدلاً.

ما كنت بعيداً عن الجمهوريين، في أيام تألق الفكرة وعنفوانها وحتى الآن.. فقد كان فيهم أصدقائي الخالصاء وجزء عزيز من عائلتنا.. أبناء عم أثيرون لدي.. كنت اختلف معهم وأجد في الحوار معهم سعادة ما عليها مزيد.. وكُنَّا نتبادل كثيراً من الاحترام والمودة والمشاعر الطيبة.. تأسرتني أرواحهم الجياشة وقلوبهم العامرة وسلوكهم الحميم إزاء الآخرين.. مروءتهم ونجدتهم وأثر التقوى البادى على سيماهم.. وقد حاول نفر منهم أن التحق بالركب وألا يفوتني ذلك العرس الجليل. كانوا يتحركون كالنحل البري يقدمون الشهد.. شهد المعارف.. يطوفون المدن والقرى والبوادي يحملون الكتيبات التي تتضمن فكرهم ويخوضون مع الناس مساجلات تثري الحياة وتممر الوجدان.

وقف الفكر الجمهوري تريباً يدحر فكر المتأسلمين.. وأقام المنابر والأركان وأرسى تقاليد الحوار الديمقراطي في أوساط الجامعات والأماكن العامة.. وقدم

متحدثين محاورين بارعين أتلفوا أعصاب مناوئهم بالحجة نلو الحجة فكانوا يلجأون إلى العنف حين يخسرون النقاش أمام الحاضرين الساعرين وينكشفون جاهلين بقضايا الفكر والدين.

وفي بدايات تشكُّل وعيناً وإهتمامنا بقضايا وطننا كُنَّا نغشى الندوات والمحاضرات.. يستهويننا النقاش. تحمل زادنا القليل من الفكر، وكُنَّا به جد مزهوين. تتردَّد على ندوات الجمهوريين وأحياناً ندخل في حوار مع الأستاذ محمود محمد طه فنجد فيه روحاً متسامحة وصدرأ متسعاً.. وكثيراً ما كان يردد قوله «نحن متفقون» مهما شجر الخلاف واستعر. فقد كان فكره العميق ونظراته الشاملة المحيطة يتجاوزان ما هو ثانوي فيرى ما لا نرى حيث تتوحد الرؤى في اتجاه خير الإنسانية. مرَّة كُنَّا حضور ندوة له بمدينة كوستي واحتشد المخرجون المتفهبون المتنطمعون يعارضون. كان من بينهم أحد المدرسين.. قيل إنه حائز الماجستير في اللغة العربية.. وكان ذا صلف وعجب بالنفس كبير.. وقف يتحدث لا بأسلوب الفضلاء والعلماء وإنما بأسلوب الباحث عن نصر رخيص أمام مؤيديه. فحاول أن يقدح في علم الأستاذ محمود بالقرآن الكريم وأراد أن يصحح ما ظنه فكره القاصر خطأ. وعندما توقف عن حديثه الصاحب ذاك نهض الأستاذ محمود بهدوءه المتسامي بفند آراءه حتَّى تناول إدعاءاته بشأن اللغة.. وتبحر في القول.. ما أراد بذلك أن يفحمه ولكن علمه برق ما فاتته معرفته في مجال تخصصه.. فأنفعل الحضور وصفقوا طويلاً وطأطأ الأدياء رؤوسهم خجلاً.

قبل أيام مرَّت الذكرى السابعة عشرة لاغتيال الأستاذ محمود.. سنوات ليست بالقليلة ولكنها لم تمنح أثر الصدمة التي أصابت المثقفين بصفة خاصة وعامة الناس في السودان الذين عرفوا قدر تلك الشخصية التي ستبقى خالدة إلى جانب شهداء الإنسانية الذين سعوا نحو تشكيل عالم أكثر وعياً وعدلاً وإهتماماً بمصير الإنسان. واحتفل كثير من المهتمين في كثير من مدن العالم

الفتى ضمير المدينة يونس الدسوقي¹



فحبة لأصدقائي أبطال الملحمة
ليونس الدسوقي - الفتى ضمير المدينة -
يزأرون الآن في مناء
كالأسد الحيس بالناصرة
ولأحمد إبراهيم الذي - فقد ساقه في المعصية
ما زال مرابطاً بناصر المظلومين
بحرية العرضحالات أمام المحكمة
للعيد عام وهو يجس ذكرياته
بقريته أمرهاني
بجلمر باتحاد حقيقي للمزارعين
وصوتك، جديدة في سيل الكادحين.

من قصيدة (زغاريد الغضب). لكاتب هذه السطور بمناسبة الذكرى الخمسين
لانتفاضة جودة. فبراير 2006م

1. توفي بالسرطان بعد أن عك من القاهرة في عام 2006

هؤلاء الرجال الثلاثة الذين وردت أسماؤهم في هذا المقطع من القصيدة هم أصدقاؤني حقاً وليس مجازاً كما يتبادر إلى الذهن. لَمْ يضمني معهم تنظيم سياسي واحد. وَلَمْ تتوحد حول قناعات فكرية معينة.. إلا أنني نعمت بقربهم وبمودتهم وصدقهم وعظمتهم الإنسانية. وخيرت معادتهم في أنبل المواقف وأشرفها. شاركوا ثلاثتهم بشكل أو بآخر مع من شاركوا في أحداث انتفاضة جودة. لا يتحدثون عن أنفسهم بما فعلوا. ولكن يتحدثون عن تضحيات الآخرين وبطولائهم. غُيب الموت يونس الدسوقي في نوفمبر الماضي. فكان وقع ذلك علينا كسقوط جبال شنكيانج على الصدور. كما عبّر الشاعر الصيني كوموجو عن صديق له عظيم اخترمه الردي. غاب يونس فانطوت صفحة مشرقة وعامرة بالمآثر الجليلة. وحياتنا بعده قفر بباب ولا عزاء لنا في فقده.

قال إنه يتمنى أن يرانا قبل الرحيل. أحسّ بأن أيامه أخذة في الزوال. أبلغ إيننا أشرف مأمون بذلك فنقل إلينا الرسالة. قررنا من فورنا زيارته وشدّدنا إليه الرحال. أسامة أبو قرحة من الخرطوم وأنا من أبوظبي. كان ذلك في صيف عام 2004م أخبرناه بميعاد وصولنا إلى القاهرة فرتب شئون إقامتنا بنفس الفندق الذي كان يقيم فيه. كانت قد مضت حوالي عشرين عاماً منذ افتراقنا في منتصف الثمانينات. توجّهت أنا للعمل بمنطقة الخليج. ثُمَّ لَمْ يلبث هو أن اختار القاهرة منفى له في أوائل التسعينيات حين حلت القارة وتبدد شمل الجميع.

بعد ساعتين من وصولنا دقّ جرس الغرفة، ففاجأنا شيخ قد كفّ بصره وهذه المرضى، يعتمد على عصا ويسعى بخطوات بطيئة عاجزة. ليس ذلك الرجل الذي عهدناه في عنفوان كهولته قوياً متمسكاً بالبدن. إلا أنه ظلّ رابط الجأش، مشتعل الفكر، متقدّ الفؤاد، قابضاً على أزمة الأمور، متابعاً. لَمْ تفارقه روحه الوثابة ولا قدرته التي لا تجارى في صناعة الكلام وربط مفاصله بالحكمة ومأثور الحديث والشعر والمعنى الحصيف. قضينا أياماً لا تنسى في ضيافته. أشرف

على كل ما يتعلق بشؤوننا في الفندق رغم أحواله الصحية غير المستقرة. يدعو أصدقاءه المثقفين لزيارتنا ويغمرنا بكرمه الفياض. محمود صالح جاء من أصيلة حيث حضر مع الطيب صالح المهرجان الثقافي السنوي. حيدر إبراهيم علي عاد من باريس. مصطفى عبادي من أثينا بعد نهاية دورة الأولمبياد ثم الدكتور فاروق محمد إبراهيم من الخرطوم، فالدكتور أسامة عبد الرحمن النور من ليبيا. التقينا بالمرحوم مبارك محجوب لقمان الذي دعانا لمأدبة غداء سخية في داره بحدائق القبة. حضرها ليف من المثقفين في مقدمتهم المرحوم علي التوم ورحمة الله عبد الله وصلاح أحمد محمد صالح ومحمود صالح عثمان صالح ومصطفى عبادي والسر وعمر أحمد قدور. كان يونس واسطة العقد رغم ضعف النظر والوهن الذي إعتراه. وقد داوت بين الحاضرين أحداث عذاب لا يزال صداها يتجاوب في النفس.

أقام يونس في فندق هابيتون حوالي خمسة عشر عاماً زاده القراءة والتأمل حتى كف بصره وامتنع عنه الكتاب الذي ظل رفيق حياته الزاخرة الثرية. إلا من نفر كريم من الأصدقاء يقرأون عليه من وقت لآخر ما يراه مهماً. غير أنه لم يفتقد في أي لحظة من اللحظات لياقته الفكرية وقدرته على المتابعة. كان أصحاب الفندق من الأقباط. نفاءوا بوجوده وأحاطوه بكثير من الرعاية والاهتمام. لم يفتهم أن لاحظوا أهمية الزوار الذين كانوا يترددون عليه. ينفعون العاملين بعطيائهم الجزيلة. يقدون من مناطق الخليج في عطلاتهم الصيفية، وفي مقدمتهم القانوني الضليع محجوب إبراهيم. ومن السودان وعلى رأسهم الصادق شامي المحامي. يقبل الفتية الجمهوريون من الولايات المتحدة وكندا وأوروبا والخرطوم. يزورون القاهرة ويتفقدون أحوال يونس فقد كان صديقاً حميماً للأستاذ محمود محمد طه (وكل صميم لصميم بديل). كما عبرود الرضي.

كان واحة يستجير بها المثقفون عند احتدام الهاجرة وتفاقم العسف والاستبداد.

يتحدث إليهم بصوته الصافي العميق . يشتم أحاديثه الشجية فيخفف كثيراً من غلواء الحزن والمكابدة .

ظلَّ الكاتب الروائي الطيب صالح منذ سنوات يزور القاهرة من عام لآخر في عطلة الشتاء . إلا أنه بعد وصول يونس إليها بات يزورها سنوياً بصورة منتظمة ليلقاه . وقد صرح بذلك مغتبطاً بتلك الصحبة الفكرية التي لا يعود الزمان بمثلها كثيراً . كان العاملون والعاملات بفندق هابتون يسعدون برؤية الطيب صالح ويشعرون بكثير من الفخر والإعتزاز لزيارته . أما هو فقد كان يغمر المكان بتعليقاته الذكية وأوصافه الساخرة يزوجها همساً ليونس الذي كان مولعاً بكل ما هو طريف .

عاش يونس تجربة الحركة الوطنية في إبانها منذ منتصف أربعينيات القرن الماضي . انفعَلَ بها وانغمس في خضمها وذلك بعد أن أعدَّ نفسه بالقراءة الصادقة العميقة المستمرة . فقد كان عصامياً لَمْ ينل من التعليم النظامي إلا مراحلَه الأولى . ولكنه غداً موسوعياً جَمَّ المعارف . كانت تشده الثقافة الرفيعة والأدب العظيم ويحتفي بالتاريخ يوظفه في تطورات الحاضر .

انتمى ليسار وعمل في أوساطه منذ بواكير الخمسينات وحتى السبعينات في أم درمان وكوستي . إلا أن طبعه المتمرد ونفوره من الانضباط الحزبي جعله ينأى نوعاً ما عن التنظيم ، وإن لَمْ يفارق الجماعة . شغل منصب السكرتير للجهة المعادية للاستعمار في مدينة كوستي . وقال مؤرخو تلك الفترة إنه على الرغم من صغر حجم الحزب الشيوعي إلا أنه غداً ضخماً مهيأً لارتباطه بيونس . كان يضيق ذرعاً ويتبرم ببعض قيادات حزبه من القاعدين ومحدودي الذكاء والمفتقرين لسعة الخيال فيتصرف بما يمليه عليه ذكاؤه وفطرته اللماحة .

عاش يونس حياة لَمْ تنح له فرصة الإنطلاق الفكري والسياسي التي تناسب

قدراته. وعلى الرغم من أنه تفتح في زمن التحولات في الحياة السياسية والاجتماعية إلا أن تعليمه المحدود وقف أمام طموحاته في الزعامة ورغبته في العطاء. تزوج مبكراً وعمل مع والده في التجارة التي لم تتوسع فتحد من شهوته للثورة والإصلاح. فكر في الهجرة إلى السعودية في عام 1955 وتعاقب مع إحدى الشركات الحجازية وكتب رسالة لوالده في هذا الشأن. إلا أن تلك الرغبة لم تتحقق لأمر لم ندركه ولم يتحدث لنا عنه حتى ولو بصورة عارضة. ولكنه توجه إلى مصر وأقام فيها مدة من الزمن. وربما كان ذلك في بدايات النصف الأول من القرن العشرين. كان أحياناً يتعرض لتلك التجربة ولقاءاته مع المثقفين اليساريين المصريين. كما يبدو أنه قد قرأ كثيراً هناك وعاد ممتلئاً بالثقافة والفكر. وقد وصفه لي أحد أصدقائه الذي إلتقيت به في تندلتي بأنه عاد شخصاً آخر في ما يتعلق بالتوجهات الفكرية والسياسية.

قبل أن يفتح وعينا في مدينة كوستي رأيتاه زعيماً جماهيرياً قائداً يتقدم التظاهرات ويخطب بطلاقة ما عهدناها في غيره ممن كانوا يعدون خطبهم ويقرأون على الناس ما يكتبون. كان بحرارة صدقه وجراته وسمته المهيبة يحرك المشاعر فتركض خلف موكب وهو يستغل سيارة جيب ممسكاً بمكبّر للصوت. لم يكن بعينا ما يقول. كنا نرى أماماً بطلاً صارم القسمة يتطاير شعر رأسه بفعل الريح مما يضفي عليه مظهراً أخاذاً كأحد أبطال الأساطير الإغريقية، كما رسمهم هوميروس. كان خطيباً مفوهاً منقطع القرين. حين يخطب يستدعي خيالك مارتن لوثر أو ميرابو أو تروتسكي.. أدبياً متمكناً من القول، مؤثراً، صاحب قضية كونية ولا ريب، أركانها الحق والعدل والحرية وكرامة الإنسان. كان رجلاً قوي الشكيمة، صعب المراس، سمحاً، كريماً، متلاقاً لا يحسب للأيام حساباً ولا يدخر مالاً لغده. يتعامل مع الحياة اليومية وكأنه مسافر أبدي. لم يكن يابه كثيراً للحديث النظري والنصوص. كان يطرح طرحه الخاص، ثقافة مهضومة بعيد

إنتاجها بأسلوبه الساحر الفريد. إستخدمت إحدى الشركات الزراعية تلاميذ المدرسة الصناعية الوسطى بكوستي - بتوجيهات من السلطة الحاكمة - لجني القطن في أحد مشاريعها الزراعية في العطلة الصيفية لأحد أعوام الستين. وقد وقع حادث مؤسف لإحدى العربات التي كانت تقلهم مما أسفر عن مصرع تلميذين صغيرين وإصابة آخرين بجراح. كنّا صبية صغاراً بالمدرسة الوسطى ولكننا شاركنا في تشييع الجثمانين.. حيث خرجت المدينة بأسرها. فقد هزّها الحادث وأدمى قلبها. فالتلاميذ كانوا غرباء عن المدينة يقيمون في السكن الداخلي. الحاكم العسكري بجبروته وما يحيط به من مظاهر القوة كان في مقدمة الجميع، ونظام عبود في أسوأ مراحل تسلطه واستبداده. وبعد أن فرغ الناس من دفن جثمتي الصغيرين برز يونس من بين المشيعين غاضباً محمر العينين، ممسكاً بمكبر للصوت. إعتلى سيارة واقفة وبدأ يخطب في الناس ويندد بنظام الحكم جهرة غير هباب ولا وجل. خاف كثير من المشيعين من هول الموقف. إستقلوا سياراتهم ونسللوا عائدين قبل أن يشهدوا عملية الإعتقال في نفس اللحظات، الأمر الذي كان يتوقعه يونس بطبيعة الحال. ذلك مشهد واحد من سلسلة مشاهد وقفنا عليها في حياة يونس في تلك المدينة التي باتت صغيراً لها. كان خبيراً عارفاً بأقدار الرجال. تهزه سيرهم وتشجيه. وكان يكن إعجاباً خاصاً للإمام محمد أحمد المهدي. أذكر مرة كنّا نتحدث عنه وأشرت في سياق الكلام إلى أن المهدي رجل وهو في الثانية والأربعين من عمره، فانتفض وتغير وجهه والتفت إليّ محتجاً وكأني قد ارتكبت خطأ. إذ كيف يستطيع شاب في مثل هذا العمر أن يتقدم شعباً كشعب السودان ويقوده في أكثر المنعطقات حلقة في تاريخه فيوحد البلاد ويقوم دولتها الوطنية. وحينما راجعته واقتنع زفر زفرة عميقة وانتصب قائماً وغادر مجلسنا. غاب عنا أياماً وعاد ليخبرني بأنه لم ينم ليلتها. كان حينذاك يقترب من الستين. ما فاتته ذلك. إلا أننا راعه حقاً هو مضي

العمر قبل أن يحرز نصراً رغم الآمال التي كانت تنطوي عليها نفسه المترعة بروح الزعامة.

تمتد علاقاتنا إلى زمن بعيد. كنت أراه في مأتم والدي - عليه رحمة الله - وأنا حدث يافع. يحضر يومياً وينفق الساعات جالساً بين المعزين. كنت أعجب لذلك الزعيم اليساري بزيه الأفرنجي ويتوسط شيوخ الأنصار. زال العجب حين كبرت وعرفت منه الصداقة التي جمعت بين والدنا منذ بواكير الثلاثينيات. وكثير ما كان يروي قصة البندقية التي أهداها والدي لوالده ويردد - حتى آخر أيام حياته - أنه سيعيدها إليّ بعد خمسة وسبعين عاماً - تحفة أثرية تزين صالون منزلي. ولتلك البندقية قصة جذيرة بأن تروى في يوم من الأيام.

في طفولتنا كانت «المكتبة الوطنية» لصاحبها مصطفى صالح هي الوحيدة في مدينة كوستي. تنقلت في السوق من مكان إلى آخر حتى إستقرت قرب مكتب البريد. ثابرتنا على التردد عليها لاقتناء مجلات «الصبيان» و«السندباد» ثم «سمير» والقصص التي كان يصدرها «مكتب النشر». وتلك المجموعات التي كانت تفلد من مصر. ثم لم يلبث الحال أن إفتتح يونس «مكتبة الفكر الحديث» - لا أدري في أيّ عام حدث ذلك. وجدنا فيها ضالتنا من الأدب الإنساني فقد تجاوزنا مرحلة الطفولة في أول مدارج المرحلة الثانوية. واتسعت إهتماماتنا بالقراءة وباتت أكثر عمقاً وتنوعاً. في ذلك الوقت توطدت علاقتنا به نحن مجموعة من طلاب الثانويات الباحثين عن المعرفة والحقيقة، فوجدنا فيه أباً براً وأخاً كريماً وصديقاً مخلصاً. عاملنا كأنداد له. وسمح لنا بالإختلاف معه بكلّ سماحة وأريحية رغم طبعه الحاد في مواجهة السذج والمتنطعين. وظلت كلما تقدّمت السنون تزداد علاقاتنا توجهاً وبريقاً. يزيئها حضوره المشبوب وتدفعه الفكري الذي لا يغيض.

قبل سنوات ونحن بدولة الإمارات أهدى إليّ صديق الطرفين الأستاذ مأمون

محمد عيسى المحامي نسخة من رواية لعبد الرحمن منيف بعنوان «عروة الزمان الباهي». تناول فيها سيرة صديق له من المناضلين الموريتانيين، تنقل ما بين باريس وبيروت مدافعاً عن قضايا المغرب الكبير وخاصة الجزائر. رأى فيه مأمون صورة من يونس لجرائته في إقحامه للمحافل وشجاعته ومروءته وتعامله المختلف مع الناس والحياة. ما أحوجنا الآن لنكتب عن هذا الفتى ضمير المدينة الذي كان يختزل الكون في حناياه ويمشي في شوارعها.

أمبراطورية رابع فضل الله

ما زالت كتابات الأوروبيين تطفح بالمرارة حين يتحدثون عنه.. غاظهم أن يقف قائد أفريقي حجر عثرة أمام محاولات توسعهم المحموم في أفريقيا.. وكاد أن يفسد عليهم ما قرروه في مؤتمر برلين لعام 1885 بشأن تقسيم القارة التي حسبوها خلاء ففوجئوا بوجود جيش منظم وشجاعة لا تأبه بتفوق الأسلحة الحديثة.. وعندما احتدمت المعارك واشتد أوارها انسحب البريطانيون والألمان.. أخلوا الساحة للقوات الفرنسية تقاتل رابع فضل الله.. عكر مزاجهم وأباد فيالقههم ومشى على جثث جنودهم حتى الرمي الأخير من حياته.. وفي معركة الأخيرة لم يشأ أن يموت وحده فقتل الجنرال لامي قائد القوات الفرنسية الذي فاضت روحه بعد ساعات قلائل من موت رابع على ضفاف بحيرة تشاد في الثاني والعشرين من أبريل 1900.. لم يستطع الفرنسيون هزيمة رابع إلا بشراء مروءة سلاطين باقيرمي ووداي (تشاد) السابقين.. وبعد مصرعه لم يذوقوا طعماً للراحة.. أقلقهم إبنه فضل الله الذي قاد حرب عصابات لمدة عامين حتى لقي مصرعه.

في كتاباتهم وصفه المؤرخون الأوروبيون «بنابليون الأسود» و«نابليون الصحراء» اعتبروه غازياً أجنبياً جاء من سودان النيل إلى تلك البقاع التي أطلق عليها الجغرافيون أفريقيا شمال خط الاستواء.. نفثوا عليه بطولاته.. سموها مغامرات عسكرية امتدت من النيل حتى حوض بحيرة تشاد.. انطلقوا من عاطفة غريبة هوجاء ما هي إلا إمتداد لرؤية الاستشراق.. إلا أن مؤرخين أفارقة محدثين يحاولون جادين أن يردوا للقومية الأفريقية اعتبارها.. فحالة رابع نموذج ساطع لما يحاولون.

نحن في السودان مازلنا نجهل الكثير عن رابع.. لا نذكره إلا حينما نتحدث عن الزبير في الوقت الذي لا تزال آثاره ومنازله قائمة في دكة عاصمة امبراطوريته الضخمة التي شملت بلاد برنو والباقيومي وجزءاً من تشاد.. دكة هذه تقع جنوبي بحيرة تشاد.. والناس في تلك المناطق لا يزالون يتحدثون عن شجاعته الأسطورية وعدله وصرامته.

ارتبط اسم رابع بالزبير باشا.. فقد كان واحداً من قادته العسكريين.. بل كان أبرزهم وأكثرهم مضاء وعزيمة. صحبه إلى بحر الغزال بعد تجارب عسكرية سابقة.. وقيل إن أباه كان جندياً في الجيش المصري بالسودان وعمل هو بفرقة للخيالة بمصر ليعود إلى السودان ويعمل أيضاً بالجيش. وتردد بعض الروايات مشاركته في الانتفاضة العسكرية التي قادها الجنود السودانيون في حامية كسلا في عام 1865 بسبب الظلم وتأخير المرتبات.. وشهد إعدام عدد من رفاقه في السلاح وسجن الكثيرين بعد إحباط الانتفاضة وبات أحد الناجين القلائل من تلك التجربة.

ولد رابع في عام 1840 وأغلب الظن أن يكون ذلك قد حدث في حلفاية الملوك حيث كان والده يعمل في صناعة الطوب بعد تركه الخدمة العسكرية. ويبدو أن عائلته انحدرت من سلالات الفونج أو الهمج القاطنين بمنطقة جبال إدريس الواقعة في الجنوب القصي لمنطقة الجزيرة. أدخل رابع الخلوة فحفظ شيئاً من القرآن ونال قدراً يسيراً من التعليم.

في التاريخ السياسي للأمة السودانية لعبت الشاعرات والنساء دوراً لم يجد حظاً في البحث والتوثيق فالحاجة بت مسمس نظمت قصائد غنائية تحريضية ترزح بصور في غاية البراعة والإبداع في أيام الحكم التركي وإبان الثورة المهدية.. إلا أن ثلاث من أبيات الشعر خاطبت بها الزبير باشا في منعطف

تاريخي مهم بانت أشبه بالمانفيسو السياسي.. جسدت وعياً غاب حتى عن الزبير نفسه الذي لم يدفع بالأمور إلى درجة قطف ثمار انتصاراته وإعلان مناطق بحر الغزال ودارفور دولة وطنية - بعيداً عن سلطة الأتراك - قدمها للتخديوي في طبق من ذهب في حالة من الغفلة السياسية دفع ثمنها غالياً باحتجازه في القاهرة لأكثر من ربع قرن.

قالت بت ميسم:

جئك قلات ورفقات جيب ردهن

صقور الجور حلقن قورم غدهن

يا منيع الكاشفات لي حدهن

كان النفوذ التركي لم يبلغ بحر الغزال بعد.. وكانت الشركات التجارية الأجنبية ترتع بلا رقيب وتعمل في تجارة الرقيق ومن الفيل وريش النعام.. وكان الزبير جزءاً من هذا الواقع.. إلا أنه استطاع أن يتجاوزه ليخلق قوة عسكرية تحدث سلطة الخرطوم حينما هزم قوات البلاي وفرسان الرزيقات وأخيراً أسقط أقدم مملكة في المنطقة وهي مملكة الفور ووقف حائراً أمام تلك التطورات فقرر الذهاب إلى القاهرة.

بات الزبير منفياً في مصر، وترك وراءه سليمان ابنه الذي كان في الحادية والعشرين.. غراً قليل التجربة وإن كان إلى جانبه قادة عسكريون ذوو تجربة وقدرات وفي مقدمتهم رابع فضل الله.

كان عدد الطامعين في إرث الزبير كبيراً فأوغروا صدر غردون على سليمان فعمل على إضعافه وتقسيم جيشه وعين إدريس أبتر مديراً على بحر الغزال.. فلم يجد سليمان متاصماً من قتاله، وهكذا إنزل في سلسلة من الاشتباكات قادت إلى

إستسلامه الأمر الذي رفضه رابع وناشده مناشدة عاطفية حارة للعدول عن موقفه الذي أسفر عن مصرعه وتشتيت جيشه.

توجّه رابع جنوباً عبر دارفور يقود ألفاً من المسلحين الأشداء إلى بلاد البرنو ففتحها وأسس إمبراطورية واسعة شملت بلاد البايرمي وجزءاً من تشاد. ولما اندلعت الثورة المهدية في السودان في عام 1881 كتب إليه الإمام المهدي يدعو للعودة إلى بلاده إلا أنه تردّد كثيراً.. وكذلك فعل الخليفة عبدالله لكنه لم يستجب، ورغم ذلك رفع رايات المهدية في جميع معاركه واعتبر المهدي إماماً ومرجعياً لنشاطه.. وذكرت المصادر الأوروبية أنه كان يتبادل بعض الرسائل مع الزبير باشا في منفاه بالقاهرة.

وبعد هزائم مريرة تجرعتها القوات الفرنسية جرد الكونت لامي حملة عسكرية ضد قوات رابع مزودة بالأسلحة الثقيلة والمدافع وخاض معها معركة عنيفة كانت الأخيرة- أبلت خلالها رابع وقواته بلاء عظيماً إلا أن قواته انهزمت وتبدّد شملها بعد مقتله وبقي ابنه فضل الله يقاتل الفرنسيين حتى قُتل أيضاً.

لا أحد يعرف شيئاً عن مصير من تبقى من قوات رابع من السودانيين الذين خرجوا معه.. فقد صاحبه عدد من أبناء الجعليين والتعايشة والهبانية الذين رفضوا الهزيمة وخرجوا من البلاد.. وقد رصد المؤرخون الفرنسيون عدداً من هؤلاء القادة الذين حكموا تلك الأقاليم الأفريقية وطوتهم غياهب النسيان.

أدهشتني كثيراً الصور الفوتوغرافية التي تضمنها كتاب لمؤرخ فرنسي يدعى (هلم) ذهب إلى دكوة- عاصمة رابع- ووجد قصره الذي لا يزال شاخصاً كأن لم يخل من أهله.. كما عثر على مواقع المعارك الحربية وبعضاً من آثارها التي تشير أشجان المهتمين بتاريخ السودان وعظمة أبطاله.

من العضاض الى براغ

إبراهيم زكريا.. زعيماً لعمال العالم



كنت جالساً في صالة المسافرين العابرين بمطار إسطنبول يسيطر عليّ سأم كثيف.. فهذا الانتظار سيدوم خمس ساعات. جعلت أقلب كتاباً بين يدي.. «كيف صنعنا القرن العشرين» لروجيه جارودي - مترجماً إلى العربية - كنت في حالة لا أخلق فيها القراءة ولا أحتمل دونها. والأرائك ليست بوثيرة، تؤلمك صلابتها أني اتكأت عليها. أقبل رجل وزوجته.. عجوزان تجاوزا السبعين وربما إفتريا من الثمانين. إلا أنهما كانا متماسكين.. جلسا غير بعيدين مني. تبادلنا النظرات التي تحولت إلى ابتسامات وإيماءات بالتحية.. ثم لم يلبث الرجل أن تناول الكتاب الذي وضعته جانباً وسألني بأي لغة يكون. ولما أجبتة نشعب الحديث بيننا وأدرك من أي بلد أنا. فباغتني بالسؤال، «هل تعرف إبراهيم زكريا، لم ألتق بسوداني إلا وسألته عنه». وأخذ يتحدث عن الرجل الذي ظل شاخصاً في ذاكرته لأكثر من أربعين عاماً. قال إنه لم يلتق في حياته بكثير من الرجال في هيئته المتواضعة وبساطته وعلمه الغزير وإجادته للحديث وقدراته المتعددة. كان الرجل دبلوماسياً شاباً بوزارة خارجية بلاده حين زارها إبراهيم زكريا في أوائل سنوات الستين من

القرن الماضي فتم تكليفه بمرافقته لمدة سبعة أيام لمس خلالها من السجاي والصفات ما أدهشه فظلت ذكراء حية متقدة لم تمحها السنون. كان إبراهيم زكريا عهد ذلك شاباً أيضاً يعمل في سكرتارية إتحاد العمال العالمي.

كان الرجل سعيداً حين ودعني هو وزوجته ليلاحقا بطائرتهما فيتحقق حلم حياتهما بزيارة بعض مناطق الشرق الأقصى. أما أنا فعدت ولم يفارقني صدي حديث الرجل. فإبراهيم زكريا سمعت عنه الكثير كأحد أبرز الشخصيات السودانية التي عملت في المنظمات الدولية ووقفت في محافلها يحفها الوفاق والرأي السديد. كما إنني التقيت بعدد من أقاربه أهالي قرية العفاض وبعضهم أصدقائي في مقدمتهم ابن أخيه النقيب الجسور الصادق زكريا. من واجبتنا أن نكتب عن إبراهيم زكريا وأضرابه من الذين رفعوا هامة الوطن وقدموا نموذجاً رائعاً للشخصية السودانية.. مهما اختلفنا أو اتفقنا مع ما رأى أو اعتقد.

عدت أبحث عن كتيب أصدره إتحاد النقابات العالمي في الذكرى الثالثة لرحيل إبراهيم زكريا. جاءت مديحه من الخارج.. ليس مناً، ومن حق الأجيال الجديدة أن تعرف شيئاً عن عظماء يغيبهم الجهل السائد الآن حيث يفشو الإدعاء والتطلع والتسلط وتخبر العظمة الإنسانية وتراجع.

كتب الكسندر جاريكوف السكرتير العام لإتحاد النقابات العالمي يقول إن انطباعاته عن إبراهيم زكريا ليست مستمدة من لقاءات أو اجتماعات عرضية قصيرة، ولكنها مستمدة من علاقات تطورت بثبات خلال فترة طويلة حافلة بالأحداث. ووصفها بأنها أقرب إلى اللقطات السينمائية في الأفلام التاريخية التي تغص بالذكريات.. تبدو فيها أشكال معينة بعيدة في الأفق كالصور الظلية التي تقترب تدريجياً حتى يتبين المرء قسماؤها. يظل الشكل مائلاً هنيئاً قبل أن ينحرف بعيداً فيخفي خلفاً وراءه انطباعاتاً قوياً ثابتاً في الذهن يدفع المرء لأن يتذكره مراراً حتى يستبين التفاصيل التي تصبح في النهاية جزءاً من الإنسان نفسه.

قال جاريكوف إن إبراهيم زكريا كان يسحر كل من يقترب منه بشخصه البسيط في مظهره ونظراته وسلوكه بقطرته الخالية من التعامل والتكلف. تلك البساطة كانت لرجل أدرك القيم الحقيقية للحياة فعاش وفق ذلك. رجل استطاع إستيعاب التجربة التاريخية للبشر فأخذ يدرك بوعي عميق أفراح وأتراح الواقع. واسترسل جاريكوف في حديثه الذي لا يمل عن عظمة ذلك الرجل. فقال: «لَمْ تكن هناك حاجة للاستفسار عن الخلفية الثقافية والتعليمية لهذا الشخص واسع المعرفة. لقد كان يشعر بالراحة والطمأنينة سواء كان في رفقة العمال العاديين أو في رفقة رؤساء الدول. وكان قادراً على المعالجة العميقة لأي مشكلة يمكن تصورها. بدءاً بالعقبات الصغيرة وانتهاء بالتطورات الدولية الأكثر تعقيداً. لقد كانت أبعاد ذهنه واسعة بدون حدود سواء اتفقت معه أم لَمْ تتفق.. أحببته أم كرهته. إن كل من التقى به لا يمكن أن ينساه فشخصيته الرفيعة مهية ومحبة». ظل جاريكوف يتحدث بحرارة وصدق يصف جوانب العظمة في ذلك الأفريقي المهيّب القادم من قرية نائية بالسودان.. إلا أنه يعود فيقول إن حديثه ليس من باب الإثارة والمغالاة. فقد كان زكريا يتعامل مع الناس بروح متساوية فلا يأسره ذور المناصب ولا يستأثرون بإهتماماته أكثر من البسطاء. فقد كان ينجذب دائماً للمحتاجين للمساعدة والذين أضربهم واقع الحياة المرير. وصفه أيضاً فقال إنه كان رجل مبادئ وقناعات، كان العمل معه سهلاً حيث لَمْ يكن يلتقي بالآ أو ينشغل بأي نوع من المناورات أو التآمر.. يستطيع المرء أن يعتمد عليه في كل الظروف فقد كان ينأى بنفسه عن الخيانة والنفاق والرياء والكيل بمكيالين. وختم حديثه بقوله «وفي الواقع إنتي مقتنع بأن شخصية وظاهرة إبراهيم زكريا الذي يصنف بين أعظم البشر استقلالاً بيننا إلى الأبد».

كان إبراهيم زكريا أحد قادة نقابيين شباب تخرجوا في مدرسة جبيت الصناعية وعملوا فنيين وعمالاً مهرة في ورش مصلحة السكة الحديد السودانية بعطبرة. وقد أظهروا ميلاً نضالياً إبان عنفوان الحركة الوطنية في أواسط سنوات الأربعين. ولَمْ

يلبث هؤلاء الشباب أن التقوا بطلاب قادمين من مصر وموظفين صغار ومثقفين فشكلوا تنظيمًا يساريًا عُرف في البداية باسم الحركة السودانية للتحرر الوطني وفي أوقات لاحقة أصبح الحزب الشيوعي السوداني. كان من بين هؤلاء النقابيين الشباب إلى جانب إبراهيم زكريا، الشفيع أحمد الشيخ وقاسم أمين والجزولي سعيد وآخرون. أصبحوا وهم في باكورة شبابهم قادة أساسيين في الحركة النقابية السودانية ولعبوا دورًا مهمًا في تنظيم الحركة العمالية وانتصروا بتظاهراتهم وإضراباتهم عن العمل على الإدارة الاستعمارية وانتزعوا إعرافها بحقوقهم في التنظيم، كما انتزعوا قانون العمل الذي صدر في عام 1948. تم فصل إبراهيم زكريا من مصلحة السكة الحديد بسبب نشاطه السياسي والنقابي وعمل لفترة قصيرة في مصنع أسمنت عطبرة الذي فصل منه أيضًا لنفس الأسباب، فتفرغ للعمل الحزبي سكرتيرًا تنظيميًا للحركة السودانية للتحرر الوطني. كان ذلك في عام 1950 ولم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين من عمره. وفي نهاية عام 1956 تم إختياره ممثلًا للحركة النقابية السودانية في اتحاد النقابات العالمي حيث بات منظمًا دوليًا، ولم يلبث أن أصبح أحد سكرتيري الاتحاد. وفي عام 1978 تم إختياره سكرتيرًا عامًا مساعدًا في المؤتمر التاسع في براغ. وبعد عامين أصبح السكرتير العام بالإقامة. وبعد عامين آخرين إلتخب سكرتيرًا عامًا في المؤتمر العاشر الذي انعقد في هافانا. وفي عام 1990 إلتخب إبراهيم زكريا رئيسًا لاتحاد النقابات العالمي ليصبح أول نقابي عربي-أفريقي يتقلد هذا المنصب الرفيع المستوى.

إستطاع إبراهيم زكريا خلاله عمله النقابي على مستوى العالم لأكثر من ثلاثة عقود أن يحقق نجاحات واسعة لهذا التنظيم الدولي المرموق الذي يضم أكثر من ثلاثمائة مليون عامل في مختلف بقاع الأرض، وذلك بتركيزه ومثابرته في إختيار أفضل السبل لتوحيد المنظمات النقابية بسيادة التفاهم والتعاون والحيولة دون وقوعها في فخاخ الحرب الباردة. فقد جاء في كلمة له حول الحقوق النقابية

ومكافحة البطالة «عندما تُصبح القنابل بدلاً من فرص العمل، وعندما تُمنح الأولوية لمجموعات الصناعة الحربية دون تغذية ملايين الأطفال الجوعى في العالم، يمكننا أن نتصور ما هو نوع المستقبل الذي يقدمه لنا رأس المال الكبير والشركات المتعددة الجنسيات».

هذه الكلمات تُكتسب اليوم مزيداً من التوهج بعد أن انكشفت حقيقة الجشع الكامن في سلوك الدول الكبرى والشركات المتعددة الجنسيات، وبعد أن بات واضحاً تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والصحية في جميع دول العالم الثالث واتسعت الهوة بصورة لا تسمح بمجرد الأمل.

كان إبراهيم زكريا منشغلاً على الدوام بقضايا العمال في دول العالم الثالث، وبصفته عربياً وأفريقياً عمل على تطوير العلاقات الأخوية بين اتحاد نقابات العمال العرب ومنظمة الوحدة الإفريقية، وانهمكت المنظمات الثلاث في تعزيز التضامن العالمي دعماً لحقوق الشعب الفلسطيني وانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية المحتلة والنضال من أجل التحرر الوطني في ناميبيا وأنجولا وموزمبيق وبلدان أفريقية أخرى. ودعماً للنضال ضد العنصرية وحكم الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا. وكان إبراهيم زكريا يبدى اهتماماً كبيراً بالقضية الفلسطينية ويقدم المساعدات للعمال الفلسطينيين ويحيطهم بروح التضامن. كما أتاح لهم منبراً دولياً مناسباً لدعم ومساندة قضيتهم العادلة. وبالطبع لم ينس وطنه رغم سنين غربته الطويلة فقد كان حاضراً دائماً في فكره ووجدانه.. كان يوظف كل مقدراته للوقوف إلى جانبه حين يدلهم ليله ويحذق به الخطر بتولي العسكر للسلطة ومصادرة الديمقراطية وكبت الحريات، وطالما تصدى إبراهيم زكريا للديكتاتوريات وفضح طبيعتها، فقد عاصر التجارب الثلاث.

وكتب الدكتور خالد المبارك عن إبراهيم زكريا يقول إن الكثيرين لا يعرفونه فقد غادر السودان وعمل لعشرات السنين في الاتحاد العالمي لنقابات العمال برئاسته

في براغ. درس في مدرسة الصنائع الشهيرة في جييت لكن أوربا فجرت طاقات ذكائه الوفاة فالتحق بمختلف الدراسات التي لا تستلزم تفرغاً، وصار عندما التقته ناطقاً بالألمانية والنشكبة والفرنسية والإنجليزية. وذلك بالإضافة إلى أنه بات خبيراً في الشئون العمالية العالمية والأجور وقوانينها بمستوى رفيع. ومن المفارقات أن رئاسته الحزبية التنظيمية كانت داخل السودان، لكنه كان في مواقف كثيرة أقرب إلى النقابيين الفرنسيين والإيطاليين والإنجليز الليبراليين لدرجة أنه لم يؤيد الغزو السوفيتي لبراغ عام 1968.¹

ولد إبراهيم زكريا في قرية العفاض بشمال السودان في 17 مارس 1929، وكان والده يعمل ناظر محطة في مصلحة السكة الحديد السودانية. وظل زملاً في المدرسة الوسطى ببورتسودان ينوهون بذكائه واجتهاده وبروزه في النشاط المدرسي بمختلف ضروبه. وكان شقيقاً لثلاث بنات وثلاثة أولاد يتنقلون مع والدهم من محطة لأخرى، إلا أنه حين اشتد عوده أخذ يعود لقريته في الشمال يساعد عائلته الكبيرة في أعمال الزراعة إلى أن تخرج من القسم الثانوي بالمدرسة الصناعية. وبعد أن تخرج وبدأ العمل كوّن جمعية لأبناء العفاض، يجمعون التبرعات بانتظام لصالح قريتهم.

وفي عام 1964 تزوج إبراهيم من السيدة فاطمة النعيم التي عرفت كقائدة طلابية في جامعة الخرطوم وعضوة نشطة في الاتحاد النسائي. فأنجبا خليل - الذي توفي فجأة قبل عامين أو ثلاثة - ولويس التي أظن أنها لا تزال تعيش مع والدتها في براغ. وقد توفي - عليه رحمة الله - عام 1993.

22 أكتوبر 2002م

مدرساً بجامعة الخرطوم

إحسان عباس



كانت محض صدفة تلك التي أتاحت للنقاد العربي المعروف إحسان عباس أن يعمل مدرساً للغة العربية بكلية غردون التذكارية- فقد قدّم له صديقه محمود الغول طلباً للعمل بتلك الكلية التي لم تبحر أن غدت جامعة الخرطوم خلال سنوات قلائل من إقامته، ولم يكن يعلم أن الأستاذ أحمد أمين مساعد الأمين العام للجامعة العربية للشؤون الثقافية والذي أخفق في تعيينه بالجامعة قد رشحه لتلك الوظيفة من خلال تلميذه الدكتور محمد النويهي، الذي كان يشغل منصب رئيس قسم اللغة العربية بكلية غردون في الخرطوم. تسلّم الأستاذ إحسان برفقة من المستر بل وكيل حكومة السودان بمصر يستفسره عن قبول العرض بالعمل في الخرطوم فوافق واتفق معه على موعد السفر إلى العاصمة السودانية. تفاول إحسان خيراً عندما قبلت السلطات السودانية جواز سفره الصادر من حكومة عموم فلسطين بالقاهرة - ذلك الجواز الذي كان مرفوضاً لدى الدول العربية الأخرى.

وصل إحسان إلى محطة السكة الحديد بالخرطوم بعد رحلة استغرقت نهارين وليتين تصحبه زوجته وطفلاه في 18 يناير 1951. وكان في طريقه إلى الخرطوم بحري حيث سكنه الذي استأجرته له الكلية في سيارة للأجرة حينما برز له ثلاثة من زملائه الأساتذة بقسم اللغة العربية هم محمد النويهي وعبدالمجيد عابدين ومحمد عبدالعزيز إسحاق بسياراتهم الثلاث. قضى إحسان بقية العام الدراسي حتى مارس حيث قام بتدريس التاريخ الإسلامي. وفي العام الدراسي الجديد إنتقل إلى منزل بحي المطار وصفه بأنه كان دارة جميلة حولها حديقة تضم أشجار الموز والباباي والليمون والنيم وغيرها.

سجل الأستاذ إحسان إنطباعاته وذاكراته عن الفترة التي قضاها في السودان في كتاب له صدر عام 1996 بعنوان «غربة الراعي» وهي لا تخلو من طرافة خاصة وقد كتبها بعد خمسين عاماً من تلك التجربة. قال إن الدكتور النويهي كان خريج مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية بلندن وقد نال منها شهادة الدكتوراه في موضوع «الحيوان في الشعر الجاهلي» ولذلك كان مجال تدريسه قصائد مختارة من الشعر الجاهلي. وقد نشر فيما بعد حصيلة دروسه في هذا الموضوع في جزأين. وكان قد تزوج من امرأة أجنبية واكتسب الدقة في المواعيد والنفور من المبالغة في القول. وكان خارج العمل الجامعي مهتماً بإلقاء محاضرات أكثرها عن المرأة وحقوقها. وعبر إحسان عما كان يعتريه من دهشة لإختياره هذا الموضوع لأنه يعلم تمام العلم أن أمام المرأة السودانية - التي كانت لاتزال تخضع للخقاص الفرعوني - مراحل كثيرة لا بد لها أن تقطعها. وأن الرجل السوداني كان لديه وقتذاك من المشكلات ما يستنفد جهده كله لينال حقوق الإنسان في مجتمعه. وكان إحسان يلاحظ أن بالخرطوم مجموعة من المثقفين العميقي الثقافة الذين يعرفون شؤون بلادهم أكثر من النويهي يتحدثون عن موضوعات تهم مستقبل بلدهم ولا يتعرضون لما يتحدث عنه النويهي ويتخذ مجالا لنشاطه الفكري. لاحظ إحسان أن كلية غردون كانت

تشبه الكلية العربية بالقدس إلى حد ما حيث يتم اختيار طلابها من النخبة في المدارس السودانية، ولذلك كانت مهمة المدارس أكثر صعوبة وأكثر مسؤولية وأكثر إمتاعاً. ولكن الفرق الأساسي بين الكليتين هو انغماس الطلاب السودانيين في العمل السياسي وبعد طلاب كلية القدس عن الانتماء السياسي، ونوه إلى أن الحزب الشيوعي في السودان كان قوياً وحسن التنظيم وأن العمال فئة يحسب حسابها. بينما استطاع تنظيم الإخوان المسلمين أن يستقطب عدداً غير قليل من الطلاب. وأشار إلى حادثة - لم نسمع عنها من قبل - وهي أن الأستاذ محمد عبدالعزيز إسحاق تورط في حديث اعتبره الطلاب ماساً بالعقيدة فثاروا وحركوا الشارع السوداني في يوم الجمعة التالي بعد الصلاة حيث تظاهر الناس وطالبوا برأس «الأستاذ الزنديق»، وخضعت إدارة الكلية لهذه الثورة وأبلغت الأستاذ بعدم تجديد عقده في العام المقبل.

لم ينس الأستاذ إحسان ساعات الدوام التي كانت تبدأ في الساعة السابعة صباحاً حتى التاسعة حيث تناول الإفطار حتى العاشرة، ولم ينس طبق الفول الذي كان يتقاسمه مع جمال محمد أحمد وسعد الدين فوزي. ووصف الأول بأنه كان من أكبر أدباء السودان والثاني في طليعة المفكرين السودانيين درس في جامعة لندن الاقتصاد وتمكن من التحصيل الفلسفي. وأعجبته فنانة المثقف السوداني الذي لا يترفع متعالياً عن واقع الناس البسطاء.

قال الأستاذ إحسان إنه وجد إنتاجاً أدبياً غزيراً في السودان وخاصة الشعر إلا أن الدراسات حوله كانت شحيحة للغاية فأخذ يكتب لبعض المجلات للتعريف بالأدب السوداني ولم يكن يعلم بأن بالأستاذ عبدالمعجيد عابدين كان يعد كتابه «الثقافة العربية في السودان» الذي لم يلبث أن صدر للناس. وروى إحسان أنه أخذ يشجع نشر الشعر السوداني والقصة القصيرة في بيروت، وكان من ثمرة هذه الجهود ظهور ديوان «غابة الأبنوس» لصلاح أحمد إبراهيم ومجموعة «الهرجوازية الصغيرة»

القصصية لصالح وصديقه علي الحك، ثم «غضبة الهبياي» لصالح - كتب ذلك رغم أن ديوان «غضبة الهبياي» صدر عام 1965 بعد مغادرة إحسان للخرطوم، إلا أنه ربما اطلع عليه من خلال صلاته بالشاعر التي استمرت لوقت طويل، وديوان «الهمم والرماد» لكجراي. وعندما أصبح محمد إبراهيم أبو سليم - أحد طلابه - مسؤولاً عن المحفوظات والوثائق السودانية تمكن إحسان من خلاله من الإطلاع على كثير من الوثائق الخاصة بتاريخ المهدي ونسخ كثيراً منها لدراسة أساليب الكتابة في ذلك العهد.

كان إحسان يشارك في النشاط الثقافي الذي انتظم العاصمة ويرتاد معظم الأندية في الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري يقدم المحاضرات إلا محاضرة واحدة كان مُقررًا إقامتها في يوم انقلاب 17 نوفمبر 1958 حالت الشرطة بينه وبين الوصول إلى مكانها.

اصطفى إحسان أربعة عشر طالباً كان يلتقي بهم في داره أو في دار إتحاد الطلاب ليتحدثوا في شتي الموضوعات على الرغم من انتماءاتهم المختلفة، فبعضهم من اليساريين وآخرون من الإخوان المسلمين. وكان الحوار يحتدم بينهم وترتفع درجته إلا أنهم يعودون إلى صفاتهم أحياناً. ولاحظ إحسان أن هذه الظاهرة شملت السياسيين في البرلمان الذين كان يشتد أوار معاركهم خلال الجلسة وبعدها يخرجون سوياً كأصدقاء. ولقد أعجب هذا السلوك الحضاري إحسان وكان يردد «حقاً إن الديمقراطية تليق بهم».

في خلال السنوات العشر التي قضاها إحسان بالخرطوم حدثت تطورات مهمة في المؤسسة الجامعية حيث تغير اسمها إلى كلية الخرطوم الجامعية عام 1954 ثم أصبحت جامعة الخرطوم عام 1956. ورافق تلك التطورات سودنة المناصب الإدارية بالجامعة حيث استقال النوبي وخلفه الدكتور عبدالله الطيب وأصبح نصر الحاج

علي مديراً للجامعة كما انضم إلى قسم اللغة العربية مصطفى عوض الكريم ومحمد المجذوب. نصبح جمال محمد أحمد وسعد الدين فوزي صديقهما إحسان بالحصول على الجنسية السودانية إلا أنه اعتذر ولم يرد أن ينافس أهل البلاد في مناصبهم.

وصف إحسان الحياة في الخرطوم خلال تلك السنوات بأنها كانت مريحة وتتميز بالنظام في جميع الشؤون والمجالات وتوفر للمرء كل ما يحتاج إليه من لباس وطعام ودواء «فإذا جمعت إلى ذلك لطف الشعب السوداني ودماثة الخلق لدى أبنائه وصدق العلاقات بين الناس كنت تصف جواً مثالياً للعيش». هذا الجو الاجتماعي المثالي وتلك العلاقات الودودة دفعت الأستاذ إحسان لأن يخفي خبر مغادرته النهائية للخرطوم بعد أن رفض تجديد عقد العمل مع الجامعة بشروط. ولم يرد أن يشير بسفره جواً عاطفياً لم ير مبرراً له.

بدأ الدكتور إحسان عباس نشاطه الأدبي مبكراً فكتب الشعر، إلا أنه عُرف بكتاباته النقدية وخاصة تناوله للشعر العربي الحديث حيث كان يركز على تجربة الشعر العراقي الحديث. وقال إنه تسلم ديوان «أباريق مهشمة» لعبد الوهاب البياتي في عام 1954 في الخرطوم وأعد محاضرة حوله حشدها بكل إمكانياته المعرفية والثقافية في ذلك الوقت. ولا يزال بعد خمسين عاماً من تلك البدايات يساهم الدكتور إحسان بكتاباته النقدية العميقة والثرية رغم بلوغه الثمانين فقد أصدر خلال السنوات الثلاث الماضية ثمانية مؤلفات هي: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، اتجاهات الشعر العربي المعاصر وعبد الحميد بن يحيى الكاتب والوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي وتاريخ الأدب الأندلسي في (جزئين) وفن الشعر وفن السيرة. توفي في وقت لاحق من كتابة هذا المقال عليه رحمة الله.

17 ابريل 2001م

ابن عمر التونسي.. وتاريخ دارفور

في مشهد أقرب إلى مشاهد قصص ألف ليلة وليلة وقف فتى تونسي في حوالي الرابعة عشرة من عمره حزينا يائسا أمام رجال قافلة من الحجيج السودانييين أدوا الفريضة وأخذوا يتهيأون للعودة إلى بلادهم فأحضروا البضائع وأعدوا الركائب.. فسألهم عن والده الذي انقطعت أخباره في السودان منذ سنوات. كان ذلك في نهار يوم في أوائل القرن التاسع عشر. ولما أفصح عن اسمه فاجأه صاحب القافلة التاجر السوداني الشيخ أحمد البدوي بمعرفته لوالده وما بينهما من صداقة وتعهد باصطحابه إلى دارفور حيث يقيم والده. كان ذلك الوالد قد جاء إلى السودان أيضاً بحثاً عن والده الذي وفد إلى مملكة سنار وطالب له المقام بعد أن تزوج من أهل البلاد وأنجب عدداً من الأبناء.

أقام الفتى محمد بن عمر التونسي منذ عام 1803 في إقطاعية لوالده في قرية «أبو الجدول» بدارفور حوالي سبع سنوات كأول رحالة عربي. وأتيح له الإلمام بأحوال السلطنة الاجتماعية والاقتصادية وبنظمتها السياسية والإدارية والحربية وعلاقاتها بجيرانها. وبنات مؤلفه «تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان» أهم مصدر للتعريف بأحوال ذلك الإقليم، الذي يعتبر حلقة في سلسلة الممالك الإسلامية السودانية التي امتدت من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الاطلنطي غرباً.. وشملت ممالك سنار وكردفان ودارفور ووداي (نشاد الحالية)، وباجرمه، وبرنو (الكانم)، وممالك الهوسا، ثم مالي.

كانت المعلومات عن تاريخ دارفور قليلة واعتمدت أساساً على الروايات الشفهية التي أخذ يتداولها الناس قصصاً جيلاً بعد جيل كدأب الافارقة. شعب

الفور هم أهل البلاد الأصليون ويسكنون المنطقة الجبلية وخاصة جبل مرة. وقد وفدت عليهم هجرات القبائل العربية الرئيسية من مصر وشمال أفريقيا عبر السهوب والبراري الواقعة بين النوبة وإقليم تشاد. ورغم هذه الهجرات بثقلها الثقافي لم يصبح الإسلام الدين الرسمي للسلطنة إلا حين تولى سليمان صولون عرش دارفور في عام 1640. وذلك بعد أن تسلس الدم العربي للبيوتات الحاكمة.

لم تشهد دارفور رحالة أجانب كثيرين كما حدث لمناطق السودان النيلية.. وكان أول من زارها الرحالة الإنجليزي براون (دبليو. جي. براون) وذلك في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد. وقد سلك براون في رحلته إلى دارفور طريق درب الأربعين من أسبوط إلى الفاشر.. وأقام في دارفور ما بين 1793 و1796، إلا أن السلطان ارتاب في نواياه كأوروبي مسيحي ولم يسمح له بالتجول وجمع المعلومات.. كما أنه لم يعثر على تاريخ مدون لذا جاءت معلوماته سطحية ومضطربة. وفي الفترة ما بين 1849 - 1855 قام الرحالة المعروف هنري بارت برحلته المشهورة من طرابلس الغرب إلى بحيرة تشاد وارتاد خلال هذه الفترة المنطقة بين تمبكتو وباجرمة.. إلا أنه لم يقم بزيارة دارفور أو ودّاي.. ولكنه استطاع أثناء إقامته في برنو أن يجمع تفتاً قليلة عن تاريخ هذه الأقاليم معتمداً على بعض الروايات الشفاهية وكتابات بعض المؤلفين العرب القدامى.

وفي عام 1874 زار الرحالة الألماني جوستاف ناخينجال دارفور عن طريق بحيرة تشاد وباجرمة وودّاي وجمع معلومات عن المنطقة بمساعدة السلطان إبراهيم محمد حسين (إبراهيم قرص): الذي كانت دولته في أيامها الأخيرة حيث سقطت في يد الزبير رحمة في العام التالي ودخلت دارفور في نفوذ الأتراك حتى اندلاع الثورة المهدية.

كان محمد بن عمر تونسي الأب مصري الأم أفادته عرويته في اكتساب ثقة واحترام الناس في دارفور بقبائلها العربية وثقافتها الإسلامية فاحتضنته وهيات له مكانة مرموقة. واستطاع بقدرته الفذة ودقة ملاحظاته وانغماسه التام في الحياة الاجتماعية أن يقدم صورة متكاملة لما رآه. وقدر له أن يطوف معظم مناطق الإقليم وخاصة جبل مرة فكتب عن جغرافية المنطقة بتفاصيل مذهلة، وسبل كسب العيش فيها وعادات الناس وأخلاقهم وثقافتهم بمختلف طبقاتهم الاجتماعية. ووصف مجالس السلطان وزيه وعاداته وتقاليد حكمه، وقوة شوكلته وسلطانه المطلق.. «فهو الأول والأخير لا يسأل عن قرار إتخذه ولا يرجع إلا من قبيل الشفاعة.. ويجد من التعظيم والإجلال ما لم يحظ به الملوك الآخرون.. فبطائنه تحيط به تراقب في خشوع جميع تحركاته وتبدي الاستعداد التام لإظهار كل مظاهر التكريم والتوقير. وحينما يكون في مجلسه يهزون مراوح ريش النعام فوق رأسه. وإذا خرج للصيد يظلمونه بشمعية وأربع مراوح كبيرة من الريش مبطنة بالجوخ الأحمر وتنشر أمامه سجادة يتبادلها الغلمان. ومن مظاهر تكريمه أنه إذا جمع جواده وألقى به أرضاً يلقي الجميع بأنفسهم من على ظهور جيادهم على الأرض. وإذا جلس في ديوانه للحكم لا يكلم الناس مباشرة، إلا من خلال سبعة من الترجمة - يسمونهم خشم الكلام - يصطفون من بين يدي السلطان حتى يصل آخرهم لدى أصحاب الدعاوى والعساكر حوله والناس جاثون على ركبهم واضعين أيديهم على التراب. يترقب الناس يوم جلوس السلطان في الديوان في الفاشر حيث يأتي الكماكلة (المستشارون) والعقدة (ولاة الأقاليم) والأمراء بمختلف طبقاتهم والقضاة وأشراف الناس والعلماء والتجار.. يجلسون تحت ظلال أشجار السيال الوردية.. ويخرج «خشم الكلام» من خلال سلم من داخل البيت ليجلس على منسوبة أعدت له خصيصاً ومن ثم يفتح المجلس قائلاً: «السلطان يسلم عليكم يا أهل الفاشر، السلطان يسلم عليك يا قاضي، السلطان يسلم عليكم يا علماء»، وهكذا يمضي في حديثه.

ووصف التونسي عادة السلطان حين يخرج مرة في كل عام لبذر البذور في مزرعته الخاصة.. وتخرج في معيته الجوّاري الحسان تزينهن الحلّى ويحملن الأواني المملّأ بأنواع الطعام الفاخر. وتمشي خلفه جوقة موسيقية والجوّاري يغنين بأصواتهن العذبة. ومن أطرف بطانة السلطان التي وصفها التونسي جماعة من المهرجين يطلق عليهم اسم الموجّيه.. يلبسون لباساً خاصاً أقرب لزي المهرج التقليدي ويعتمرون عصابة تحدث رنياً موسيقياً. وهم لا يتخرجون من الحديث أمام السلطان.. ويتحدثون ما شاء لهم أحاديث موحية للفت نظر السلطان لما ينبغي أن يعرفه عن خاصته وكبار المسؤولين في دولته وما يجري فيها.. وأحياناً يتولون قتل من يرغب السلطان في إعدامه.. يغنون ويرقصون ويقلدون نباح الكلاب وأحياناً مواء القطط. وحين يركب السلطان في حالة السفر أو الصيد يكفون عن الغناء ولكن يصدرون صيحة عظيمة في وقت واحد بقولهم «يايا».. وهكذا يفعلون ما دام السلطان راكباً.

وكتب التونسي عن المرأة في دارفور ومكانتها وسطوتها ومشاركتها للرجل في العمل والحياة الاجتماعية والحريات التي تتمتع بها. وأشار إلى مجموعة من النساء المسنات يكوّن طائفة عظيمة لهن رئيسة تسمى «ملكة الحبوب» يشاركن بطقوس معينة في تنصيب السلطان.

وكان من أغرب الظواهر التي تعرّض لها التونسي في مؤلفه معرفة بعض الناس بالسحر واستخدامهم للمجن وروى تجارب ذاتية في غاية الغرابة. وقد قرأت قبل سنوات كيف أنّ هذه الظواهر التي أوردها التونسي في مؤلفه الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية منذ منتصف القرن التاسع عشر أثارت اهتماماً بالغاً لدى الأوساط العلمية في باريس.. الأمر الذي دفع بمجموعة من الطلاب الجامعيين وبعض أساتذتهم لزيارة تلك المنطقة لتقصي تلك الظواهر بعد أكثر من مائة عام من صدور الكتاب.

حين أقام محمد بن عمر التونسي في دارفور كان يتولى العرش السلطان محمد الفضل الذي خلف أباه السلطان عبدالرحمن الرشيد وكان لا يزال حدثاً صغير السن. فاستأذنه التونسي للسفر إلى تونس وسافر عن طريق وداي التي اضطرت للإقامة فيها حوالي ثمانية عشر شهراً. ولما وصل إلى تونس في عام 1813 لم يقم طويلاً وتوجه إلى القاهرة حيث التحق بخدمة الجيش المصري في وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة التي شاركت في حرب المورة في عام 1827. ولما عاد منها اشتغل التونسي بمراجعة الترجمة العربية لكتب الطب التي كانت تدرس في كلية البيطرة بأبو زعبل. وهناك التقى بالدكتور بيرون الفرنسي الذي أخذ يتلقى عنه دروساً في اللغة العربية، ولما علم الدكتور بيرون برحلته إلى بلاد السودان شجعه على كتابة مذكراته، وقد كان. ولما تم تعيين بيرون مديراً لمدرسة الطب بالقصر العيني عام 1839 أوصى بتعيين التونسي كبيراً للمراجعين فيها. فأتاحت له هذه الوظيفة فرصة الإسهام في خدمة اللغة العربية في عصر الترجمة بمصر في منتصف القرن التاسع عشر. فإنه فضلاً عما قام به من تصحيح الكتب المترجمة إلى العربية، أو الموضوعة في العلوم الحديثة. ساعد على استخدام كثير من المصطلحات العلمية المتعلقة بعلوم الطب والنبات والحيوان.

ومن مؤلفاته في هذا الشأن «الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية». وقام بمراجعة وتحرير «الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع» و«كنوز الصحة ويواقيت المنحة» و«مروضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى»، و«الدرر الغوالي في معالجة أمراض الأطفال».

وللتونسي فضل في مراجعة بعض المؤلفات العربية القديمة التي طبعت في مصر على عهده منها «مقامات الحريري»، و«المستطرف» لبلاشيهي، ثم أنه أشرف على طبع «القاموس المحيط» للفيروز أبادي، ودأب في أخريات أيامه على إلقاء دروس في الحديث بمسجد السيدة زينب في يوم الجمعة من كل أسبوع

حَتَّى توفاه الله في القاهرة عام 1857 وهو في السبعين.

وكان الأصل المعتمد لكتابة «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان»، هو النسخة المطبوعة بالحجر التي كتبها المستشرق بيرون بخط يده ونشرها في باريس عام 1850. وللتونسي كتاب آخر حول رحلته إلى ودّاي قام بيرون أيضاً بترجمته إلى الفرنسية ونشره في عام 1851، إلا أن النص العربي ظلّ مفقوداً حَتَّى الآن ولا يعرف أحد عنه شيئاً.



محكمة السلطان تحت ظلال الأشجار

نعوم شقير.. كما رآه أبو سليم



د. أبو سليم

ظلّ كتاب «تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته» لمؤلفه اللبناني نعوم شقير رغم مرور الزمن وتقلباته والمتغيرات التي طرأت على أساليب البحث ونقّذ الدراسات السودانية، مرجعاً راسخاً ومهماً تتداوله أيدي الباحثين والمهتمين.. وذلك لغزارة معلوماته وشموليته وتناوله لتاريخ السودان منذ أقدم العصور حتّى نهاية القرن التاسع عشر. كان للصدفة دورها في توجّه ذلك الرجل لكتابة التاريخ حيث توفّرت لديه معلومات سياسية واقتصادية وجغرافية تمّ جمعها كتقارير لخدمة المخابرات في سعيها للتمهيد لغزو الدولة المهدية التي انتصرت على القوى الأجنبية وأقامت كيائها الوطني. كان ذلك الأمر متزامناً مع صدور عدد من الكتب التي جرى تأليفها على عجل من أجل الدعاية وتبرير الغزو.. كتبها رجال مورتورون تملكتهم مشاعر الحقد والضغينة فتجاوزوا الموضوعية في جميع الذي تناولوه.. أمثال سلاطين النمساوي وأهروفلدر الألماني وريجناد ونجت البريطاني. وكان نعوم أحد موظفي المخابرات.. لم يكن مؤرخاً إلا أن وفرة

المعلومات دفعته لأن يكون كذلك.. وبما أنه شرع في الكتابة عقب سقوط أم درمان وزوال العدو باتت كتاباته أقل مرارة واستفاد من كل ما تم جمعه من مادة عن تاريخ السودان قديمه وحديثه واستعان بإفادات من ألمع الشخصيات السودانية والمصرية التي كان لها دور مباشر في الأحداث أمثال الزبير رحمة باشا والأمير عثمان دقنة، وعبدالقادر حلي باشا أحد أهم العسكريين المصريين والذي عمل حكمداراً للسودان إبان اندلاع الثورة المهدية.

ولد نعوم شقير بالشويفات في لبنان عام 1864 وتخرج في الكلية الإنجيلية السورية عام 1883 والتي عرفت فيما بعد بالجامعة الأمريكية ببيروت. وقد تخرج فيها للمصادفة في أوقات لاحقة المؤرخ السوداني اللامع مكّي شيكة والرئيس إسماعيل الأزهرى وغيرهما من شخصيات سودانية كان لها دور بارز في الحياة السودانية في القرن العشرين. هاجر نعوم بعد تخرجه إلى مصر شأن جماعات أخرى من الشوام عارضوا الحكم العثماني فوجدوا مستقراً في أرض الكنانة.

وبعد وصوله إلى مصر بقليل التحق نعوم بخدمة الجيش الإنجليزي في 20 سبتمبر 1884، في الوقت الذي كانت تنهأ فيه الحملة البريطانية لإنقاذ غردون بالتحرك نحو الخرطوم التي حاصرها ثوار المهدية. أخفقت الحملة في مسعاها حيث وصلت بعد أيام ثلاثة من سقوط المدينة فعادت أدراجها حيث تمت تصفيتُها ليحل مكانها جيش الحدود الذي إتخذ من أسوان مقراً لقيادته.. وقد أسندت قيادة هذا الجيش للجنرال جرانفيل وكانت مهمته حماية حدود مصر الجنوبية.. ريثما تكتمل الأسباب للوثوب على السودان.

بدأ نجم نعوم في الصعود منذ التحاقه بمخابرات الجيش بقيادة «ونجت» وبات يصحب السردار جرانفيل في معظم رحلاته التفقدية لمناطق الحدود ولمدينة سواكن. ولما تولى ونجت قيادة الحملة على طوكر في فبراير 1891 رافقه نعوم

وشاكره الإهتمام بالوثائق التي تَمَّ العثور عليها في معسكر الأنصار في عفافيت بعد الواقعة. كما اشترك نعموم في الإعداد لهروب سلاطين من أم درمان الأمر الذي شكّل انتصاراً باهراً لإدارة المخابرات فأنعم عليه برتبة البكوية التي لا يحصل عليها موظف إلا بإنجاز كبير.

وحضر نعموم سلسلة المعارك التي خاضها جيش الاحتلال منذ تحركه في عام 1896 نحو أم درمان حتّى معركة كرري التي وقعت في الثاني من سبتمبر عام 1898 والتي يورد بعض مشاهداته الخاصة منها. وأخذ يتردد على السودان في عدد من المرات حيث أصبح رئيساً لقسم التاريخ بإدارة المخابرات التي بقيت رئاستها في القاهرة.

وبعد سقوط أم درمان شرع ونجت ونعوم في جمع وثائق المهديّة، مثلما فعلا خلال المعارك التي سبقت ذلك. وقد تزايد إهتمام ونجت بعد أن بلغه اختفاء خاتم الإمام المهدي من محفوظاته فهرع يرافقه نعموم لوضع الوثائق تحت الحراسة بعد جمعها من منازل مدثر إبراهيم الحجاز، وأبو القاسم هاشم، والأمير يعقوب - شقيق الخليفة - وبيت الأمانة. وتم حفظها بمنزل الأمير يعقوب الذي تحوّل إلى قومندانية.. حيث عثت في زكائب ووضعت داخل أخراج الصمغ ومن ثمّ نقلت إلى إدارة الحربية بالقاهرة.

اعتمد نعموم في مؤلفه عن تاريخ السودان على مراجع قديمة عربية وأجنبية كالموسوعة البريطانية والتوراة وتواريخ هيرودوتس وديودور الصقلي واسترابو وبوسيفوس والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون وابن أبياس والمقريزي وأبو الفدا.. وغيرهم. كما اعتمد على مصادر سودانية كمخطوطي إبراهيم عبدالدافع، والزبير ود ضوه، وقرأ مؤلفي إسماعيل عبدالقادر الكردفاني «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي» و«الطراز المتقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبش»،

واطلع على دفتر وقائع عثمان دقنة. إلا أن البروفيسور محمد إبراهيم سليم يرى أن معرفته بمطبوعات المهديّة كانت ضعيفة، كما أنّه لم يشأ أن يستفيد كثيراً من الوثائق التي أتاحت له، حيث إن تركيزه كان على الرواة. ففي تناوله لسلطنة دارفور اعتمد على رحلة التوتسي في نصّها الفرنسي وعلى كتاب «السيف والنار في السودان» لمولف سلاطين وأخذ من رواة آخرين منهم على ود الخبير، ومحمد الطيب التنيكتي الملاوي. وفي كتابته عن تاريخ المهديّة اعتمد على ثلاثة أنواع من المصادر والمراجع فلقد توفّرت له مؤلفات تكلمت عن المهديّة مثل كتاب «المهديّة والسودان المصري» لريجنالد ونجت، و «عشر سنوات في الأسر» لأهروفلدر، و «السيف والنار...» و «تاريخ الحملة النيلية» للكولونيل كولفل، و «تاريخ الحملة السودانية» لجبرائيل حداد، و «تاريخ مصر الحديث» لجورجي زيدان.

ويذكر نعوم بعضاً من الرواة الذين أخذ منهم من أمراء المهديّة وأعيان السودان والضباط والعساكر والأعيان المصريين الذين كانوا بالسودان وهم: عبدالقادر حلمي باشا، ومحمد نصحي باشا، ونخشم الموس باشا، ومحمد بك السيد الشايقي، وعثمان بك لطيف، والبكباشي أحمد أفندي الحلاوي، والأستاذ محمد شريف نور الدائم، والمضوي عبدالرحمن، ومحمد خدام (شيخ قبيلة الحمر)، وإسماعيل الأزهري (القاضي ونجل السيد أحمد الأزهري). ولاحظ أبوسليم أن جميع هؤلاء الرواة كانوا من المعارضين للمهديّة، الأمر الذي أضعف صوت المهديّة عند نعوم، وذلك رغم الأهمية القصوى لرواية الأشخاص ذوي الشأن والإرتباط المباشر بالأحداث.

وقد أشار أبوسليم في مقالته الواردة في مؤلفه «أدباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان» إلى أخطاء فادحة وقع فيها نعوم فيما يتعلق بتاريخ السودان. وحدّد تلك الأخطاء التي أوردها بالتفصيل وقام بتصويبها. ورأي أن نعوماً لم يكن مؤرخاً

لَمْ تلبث الأحداث أَنْ تلاحقت في تلك الفترة نفسها حيث أعلن المهدي ثورته في الجزيرة أبا وهزم أول حملة عسكرية للحكومة. وغداة انتصاره عبر النهر متوجهاً غرباً يصحبه بضع عشرات من الناس. وفي خلال عامين وعقب انتصارات أسطورية على قوات الحكومة انثنى بجيش لجب نحو الخرطوم إختلف المؤرخون حول عديده. إلا أن يوسف ميخائيل استطاع أن يجسد صورة حيّة لضخامة ذلك الجيش يسرده الشيق للأحداث اليومية لتحركه. فأسراب الغزلان والدجاج البري لا تجد سبيلاً للفرار فأينما توجه تسقط تحت الأقدام فتخطفها الأيدي وتسارع إلى ذبحها.. والأسواق تقام كلما أوقف الجيش تقدمه.. وغير ذلك من الصور التفصيلية النادرة.

تحول يوسف ميخائيل من مسيحي قبلي إلى أنصاري متحمس وأبدى روحاً زعامية أهله لأن ينال رضا الخليفة ويصبح مقدماً على أهله الأقباط ومسؤولاً في ديوان الأمير يعقوب - هذا الموقع أتاح له فرصة التعرف على الأحداث ومجرياتها فكتب عنها كما رآها وفهمها. فلولا ما كان يتسنى لنا أن نعرف الشيء الكثير عن الوفد الأثيوبي الأول الذي زار أم درمان للإعراب عن الصداقة وصون حقوق الجوار. فاهتم الخليفة بذلك وأمر باستقبالهم ومرافقتهم في الطريق حتى وصولهم إلى أم درمان حيث أنزلوهم في دار للضيافة وبات أمين بيت المال إبراهيم رمضان مسؤولاً عن إكرامهم وتوفير أسباب الراحة لهم. وكان الوصف قد اشتمل حتى على أنواع الطعام والشراب والسلوك الذي أبدوه أمام الخليفة.

لا تخلو كتابة يوسف ميخائيل من سخرية وخاصة عندما بدأت قوات الاحتلال في الدخول إلى البلاد وخط السكة الحديد يتقدمها. ولكن المثير للدهشة أنه بعد نهاية الدولة المهدية توجه إلى مصر وقابل كبار أساقفة الكنيسة القبطية ومسؤولين مصريين ودافع حين اقتضى الحال عن الخليفة عبدالله ولم يقبل أي انتقادات وجهت إليه. ومن ثم عاد إلى السودان.

متخصصاً بحكم التأهيل الدراسي وإنما إتجه لكتابة التاريخ بالهواية وإغراء المعلومات التي توفرت لديه. وقد فهم التاريخ في إطاره العام من حيث تسجيل النشاط البشري واعتبره قارئاً جيداً يحسن عرض ما يتوفر لديه من معلومات.. ومتمرساً في الكتابة يورد ما يصل إليه من معلومات بأمانة ودقة ولا يمكن لأي منصف أن يغمطه حقه في الجدارة ولا أن يتجاوز مساهماته في كتابة التاريخ. ولاحظ أنه يميل إلى التاريخ السياسي العام ولا يحفل بالنشاط الاقتصادي والزراعي والفكري والعمراني، ولا يمر خلال ذلك إلا عابراً وفي إطار التاريخ العام. ومن بين ملاحظات أبوسليم أن نعوماً لا يكاد يدرك المضمون الإسلامي في قيام سلطنتي القونج والقوق ولا تأثير العرب بلغتهم ونفوذهم الاجتماعي ولا يدرك أثر التجارة على السلطنتين وعلاقاتهما الاجتماعية. وكان كل ما يعنيه فيما يكتب هو وصف الحوادث في حدود ما وقف عليه.. في سياق سردي دون البحث عن الأبعاد الاجتماعية والسياسية التي تقف وراء الحوادث.

وفيما يتعلق بتاريخ المهدي لم يستطع نعوم النفاذ إلى جوهر حقيقتها بل اعتبرها - بكل بساطة - خروجاً عن الطريق القويم وأن نجاحها ما كان ليحقق لولا الإخفاق في اتخاذ الإجراءات السليمة. ونظر إلى الأمور نظرة في غاية السطحية فلم يسترع إتباهه إنخراط مئات الآلاف في الدعوة واستعدادهم الخرافي للتضحية والاستشهاد. ولم يفهم نعوم العمق الديني للثورة ولا الأبعاد السياسية والاجتماعية للأحداث. وربما يكون لإعتقاده الديني بإعتباره مسيحياً دور في ضبابية الرؤية لديه. ذلك بالإضافة إلى أنه عمل مع الأوساط البريطانية العاجزة بحكم موقفها السياسي والديني عن الرؤية الموضوعية لطبيعة الثورة.

كتب نعوم عدة مؤلفات تناولت موضوعات مختلفة كالتاريخ والجغرافية بمعنييهما الطبيعي والبشري الشامل واللغات واللهجات والأمثال والعادات والخرافات والمعتقدات والصناعات والحرف. وهو يتجه في كل ذلك إلى

التعريف الشامل متنبهاً كل التفاصيل المتاحة له مع توخي الموضوعية والإبتعاد عن التأثير العاطفي أو الإتجاه الخاص. ففي جغرافية السودان- وهو جزء من مؤلفه الشامل- تناول نعوم حدود السودان السياسية والمعالم الجغرافية والطبيعية كالنبيل وروافده، والأراضي، والمعادن، والطقس، وحالاته، والأمراض، والنباتات، والحيوانات. وتناول سكان السودان أصولهم ومواطنهم ثم مديرياته ومحافظاته واللغات والأديان والمعارف والحرف. وفي حديثه عن الإسلام قدم بيانات طيبة عنه وعن قواعده وأركانه ومذاهبه وطوائفه ونظمه السياسية.

ويقول نعوم إنه فرغ من تأليف هذا الكتاب في يوم 27 أكتوبر عام 1903 «بعد إختبار نحو عشرين سنة في السودان وأهله وقضاء جل ساعات الفراغ الثمينة خلال سبع سنوات متتالية في جمع موادته وتمحيص حقائقه وسنة ونصف السنة في تبييضه وطبعه».

ومن مؤلفاته المهمة والمعروفة كتابه «أمثال العوام في مصر والسودان والشام»، الذي أشار فيه إلى أنه بصدد طبع كتاب بعنوان «مرأة الأيام في مصر والسودان والشام» ويبدو أنه لم يوفق في طبعه. ولديه أيضاً «في تاريخ سيناء وجغرافيتها» الذي طبع مرة واحدة عام 1916، وتوجد من كتاب الأمثال نسخة واحدة بمكتبة التجاني الماحي بجامعة الخرطوم. أما كتابه عن تاريخ السودان- وهو أشهر مؤلفاته وأكثرها أهمية- فقد طبع مرة واحدة أثناء حياته، ثم أصدرت «دار الثقافة» البيروتية طبعة ثانية في عام 1967، ثم طبعة مصورة في عام 1973، وأصدرت «دار الجيل» البيروتية طبعة محققة في عام 1981.

مؤرخاً بمحض الصدفة

يوسف ميخائيل

كانت تلك سانحة نادرة الحدوث.. أتاحت لنا فرصة الوقوف على معلومات تاريخية واجتماعية مهمة.. ولولاها لذهبت أدراج الرياح. يوسف ميخائيل القبطي السوداني الذي ولد وعاش بمدينة الأبيض قدّر له أن يشهد فترة عاصفة من التاريخ السوداني. إمتدت من أخريات العهد التركي لتشمل الثورة المهدية ونهايتها بسقوط دولتها. وعلى الرغم من أنه كان شاهداً ومشاركاً في أحداث تلك الفترة إلا أنه لم يفكر قط في أن يؤرخ لها. وفي أخريات حياته أدار هو وأخوه إسحاق مطحنة للحبوب بالأبيض. ودأب إداري بريطاني شاب على زيارتهما في المطحنة ليلتقي بيوسف الذي وصفه بأنه كان نحيلاً واهن البدن وأبيض الشعر - ليحدثه عن تاريخ المدينة قبيل الاحتلال البريطاني.

وفي ذات مساء من خريف عام 1924 كان المستر أقلين نائب مفتش المركز عائداً من مهمة خارج المدينة فدخل إلى مكتب البلاغات وحراسات الشرطة ليفاجأ بوجود صديقه يوسف ميخائيل وزوجته فيكتوريا معتقلين في الحراسة بتهمة صناعة «العرقى» - حيث كانت القوانين مشددة فيما يتعلق بالخمور البلدية - يعني أنهما كانا ضحيتين لعملية «كشة» حسب التعبير المتداول في أيامنا هذه. كان دفاع السيدة فيكتوريا واهياً حيث زعمت أن «العرقى» دواء ناجع للأزمة (الربو) الذي يعاني منها زوجها - لذا كانت تصنعه. ورغم وساطة الجالية القبطية والشوام المسيحيين الموجودين بالمدينة إلا أن الحكم قد صدر بإدانتهم - هي بالسجن مع وقف التنفيذ، وهو بقضاء شهر كامل في الحبس. أشفق المستر أقلين على صديقه يوسف ميخائيل وخشي على صحته الواهنة من أعياء السجن فقرّر استبدالها بقلم رصاص

وعدد من الدفاتر ليحكى قصة حياته الفنية بالأحداث. وقد فعل.. ليصبح مؤرخاً لمدة ثلاثين يوماً وليقدم أفضل خدمة لبلاده.

كان يوسف ميخائيل ملماً بالقراءة والكتابة على حد معقول ويبدو أيضاً أنه كان قد توفّر على قراءة الكتب المتاحة لأمثاله في ذلك الوقت كـ «ألف ليلة وليلة» و«أبو زيد الهلالي» و«الأميرة ذات الهمّة».. يتضح ذلك من أسلوبه والعبارات التي كان يجمعها أثناء عملية السرد. وجمعت لغته بين الفصحى وعامية أهل كردفان بجماليتها وشفافيتها وقصر عباراتها ومخارج ألفاظها العذبة (أشد ما أحشاه اندثارها بدداً).

وكأي كاتب محترف ربط يوسف ميخائيل بين الأحداث اليومية وتفاصيل حياته وحياته أسرته والأحداث الكبرى أو التحولات التي شكلت مستقبل السودان السياسي في أوقات لاحقة. وتذكرني أوراق يوسف ميخائيل هذه برواية صدرت أخيراً للكاتب الإسباني أنتونيو غالّا «المخطوط القرمزي» التي تناولت فترة انهيار وسقوط غرناطة مع التحفظ على الأسس النقدية لأوجه المقارنة.

كانت مدينة الأبيض قد إستوت بندراً عامراً واسع الأطراف لما تبوأته من مكانة تجارية وإنتاجية. وكانت مصدراً أساسياً لعمليات تصدير المحاصيل من حبوب وصمغ وريش نعام حتّى مدحها محبوبها من العربان القاطنين من حولها بقولهم «الأبيض أب قبة فحل الديوم». كان ذلك حين تفتح وعي يوسف ميخائيل فتى على أبواب التخرج من كتاب الأقباط بالمدينة. وأخذ في التدريب على الأعمال الكتابية ليحتل وظيفة في ديوان المديرية. وبالتحديد حين زار الجنرال تشارلز جوردون المدينة في إطار مهمته الأولى (1877 - 1879)، فوصفها في مخطوطه وصفاً بديعاً في إطار رؤيته الخاصة المختلفة عما جاء في كتابات المؤرخين. ووصف تهرج المدينة لاستقبال المسؤول البريطاني وتمردهم على عريف الكتاب المصري الذي حاول منعهم من الخروج لمشاهدة الإحتفال فأمسكوا به وأوسعوه حلقة ساخنة، وتعرّض

الكاتب إلى ما رافق الزيارة من مظاهر ذات مدلول عميق حين وصف تدافع العربان المرازحين تحت نير الظلم وفداحة الضرائب لكتابة العرائض وشيوخهم الذين أقاموا المخيم في فناء المديرية لمقابلة المسؤول الزائر.

وبتناوله لبعض الأمور التي تبدو هامشية أتاح لنا فرصة التعرف على بعض سمات الحياة الاجتماعية، فأخوه جورجيس الموظف الحكومي المرموق باع هجيناً جميلاً للسلطات لإرساله إلى غردون الذي عاد إلى الخرطوم وكان الهجين بمثابة السيارة في ذلك الزمن، فتغنت به فتيات المدينة المرححات:

كين جورجيس أبو غرقة

نجولي الصريف تشوفه

خمسين مردال دفوهن في المظروف.

هذا الهجين استخدمه غردون في رحلاته بجوب البلاد طولاً وعرضاً. وفي نهاية الأمر تمّ تحت التمثال المعروف للرجل راكباً فوق ذات الهجين كما أكد يوسف ميخائيل. ثمّ تمض بضعة أشهر على ذلك حتّى زار الشيخ محمد أحمد «الإمام المهدي» الأبيض وأقام لفترة في إطار اتصالاته الواسعة بزعماء القبائل والمشايخ ورجال الطرق الصوفية وممارسة نشاطه التبوي الذي كان له أبلغ تأثير في تعزيز الدعوة وترسيخ دعائمها تمهيداً لإعلان الثورة.

استمع يوسف ميخائيل كفتى غريب لمّ يشتد عوده إلى ما تتناقله الألسن عن درويش شاب بهي الطلعة وسيم المحيا وعذب الحديث وصل إلى المدينة بصحبه عدد من تلاميذه يقيمون الليل بالأذكار ويصوفون أحياناً يرددون قولهم «الدايم هو الدايم الله». ثمّ يعودون إلى حيث يقيمون في دار السيد المكّي أو لدى آل سوار الذهب.

أمهاتنا اللاتي نقلنه عن مصادره الحقيقية - جداتنا شهود العيان - ومازلت أذكر أن المؤلم من تلك الأحداث كان يملؤنا رعباً وأسى في تلك الأماسي البعيدة.. ومما يدفعني لأن أكتب الآن عن تلك الحكاية هو إحساس عميق بالتقصير ظل يلزمني لفترة طويلة من الزمن.. ذلك أن مثل ذلك الحدث كان سيغيب عن ذاكرة التاريخ إلى الأبد إن لم يكن هذا التناول. ألم يقل المؤرخ الدكتور محمد سعيد القدال، «إن تاريخ السودان لا يزال في صدور الرجال».

قرأت ما كتبه شيخ المؤرخين الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم حين تناول سيرة الكردفاني وتحدث عن نهايته في كلمات قليلة جاءت بهذه الصورة «ويقال إن مرفعيناً اختطفوه وهو ملقى على عنقريه لا يستطيع حراكاً من الجوع ولكن أقرباءه ينقون هذا الوجه من نهايته»!! وإني لأعجب لنفي عائلته لتلك الحادثة لأن الأمير أبو قرجة الذي تلقفته العناية الإلهية وخرج من هذا المنفى بعد سقوط الدولة المهديّة كان أمامه طريقان للعودة إلى أم درمان، إما طريق ساحل شرق أفريقيا حتى السويس أو التوجه غرباً من خلال أوغندا والكونغو وأفريقيا الوسطى ووداي «تشاد» ومن ثمّ الولوج إلى دارفور فالتوجه إلى أم درمان، فاختار الطريق الثاني إلا أن السلطان علي دينار احتجزه حتى عام 1907. وعندما انطلقت قافلته الصغيرة في ذلك العام شرقاً دلف إلى الأبيض حاضرة كردفان - قبل أن يواصل رحلته - وحلّ ضيفاً على السيد المحكي الشيخ إسماعيل الولي.. وهو خال إسماعيل الكردفاني ولا بد أن يكون قد روي له النهاية الفاجعة لابن أخته.

تلقى إسماعيل الكردفاني - المولود بالأبيض عام 1844 - المراحل الأولى من تعليمه في خلوة جده الشيخ إسماعيل الولي ثمّ اصطحبه خاله أحمد الأزهرى إلى مصر حيث مكث هناك سنوات بلغ خلالها شأنًا رفيعاً في النجاة والذكاء وبرع في الأدب العربي ونظم الشعر وحظي بمقام رفيع إلى جانب علماء الأزهر. وبعد أن أكمل دراسته عاد إلى بلاده في صحبة قافلة تجارية ولقي ترحيباً في



غردون على ظهر هجين جورجيس (التمثال)

مأساة مؤرخ.. اقترسته الذئاب

إسماعيل الكردفاني

تقع تلك الجزيرة محاذية لجبل الرجاف البركاني في المنطقة الاستوائية بجنوب السودان.. فكانت كأنما أبقاها الزمن نموذجاً للخليفة الأولى.. تعج بحياة أسطورية وكائنات ونباتات غريبة وأدغال يتعذر اختراقها.. فالتماسيح تزحم شطآنها لا تترك موضعاً لقدم.. تهاجم كل من يقترب منها وتسعى أحياناً لفرائسها من البشر في مراقدهم.. وذئابها تعوي في رائحة النهار وأفراس النهر ترتع بلا توجس أو وجل تتقاذز صغارها من حولها.. وجموع النحل تشكل سحابات داكنة لا تلبث أن تتبدد لتتجمع من جديد.. والبعوض يموج ليلاً ونهاراً ينشر داء الملاريا القاتل. والحيات تطلق فحيحها من بين أغصان الأشجار والفهود تتربص للإتضاعض بين حين وآخر.. والسلاحف العملاقة تتراكم في تكاسل في الأجمات والمطر ينهمر بلا انقطاع ليرفد المستنقعات بمزيد من المياه.. والرطوبة تتمدد وتتخلل العظام فتزيد من أوجاعها والظلمة تلف المكان الخرافي التكوين.

في هذه البقعة التي تضاعف الرعب فيها الهزات الأرضية بفعل البركان في جبل الرجاف إختار الخليفة عبدالله المنفى الذي أودع فيه عدداً كبيراً من معارضيه السياسيين منذ انفجار الخلاف بينه وبين الأشراف، ذلك غير التصفيات الدموية التي راح ضحيتها عدد كبير منهم.

هذا ما نواتر عن روايات سماعية جسدت صورة الجزيرة في أخريات القرن التاسع عشر، إلا أن المؤرخ محمد عبدالرحيم الذي عمل موظفاً في مناطق

الجنوب في سنوات الثلاثين رأى الجزيرة من بعيد فوصفها في مخطوطاته بعبارة مقتضية قال إنها تبدو كحديقة ملتفة الأشجار.

لَمْ يكن يخطر ببال المؤرخ إسماعيل عبدالقار الكردفاني أن تكون أيامه الأخيرة ونهايته المأساوية في تلك الجزيرة اللعينة الفارقة في رعب الطبيعة البكر.. وهو الشاعر والكاتب الذي أنفق زهرة شبابه في تحصيل العلم بقاهرة المعز- أيام عزها وبرجها في عهد الخديوي إسماعيل- فشهدت أمجاده العلمية وتفوقه في الدراسة. كان إسماعيل ضحية للمكاييد والدسائس التي حفلت بها الأيام التي بطش فيها الخليفة بالأشراف فتم اقتياده منفياً إلى الجنوب ومعه عدد من الأسرى في مقدمتهم الأمير محمد خالد زقل تحت حراسة قوة بقيادة الأمير عربي دفع الله.. الذي وصفه المؤرخون بالشراسة والوحشية.. وكانت المهمة الأساسية لعربي هي إعتقال الأمير محمد عثمان أبوقرجة الذي كان يمارس مهامه عاملاً للمهدية في المناطق الاستوائية، منذ إستدراجه لها بتعيينه في مارس 1893.

في أواخر عام 1893 أقيمت أكواخ صغيرة على عجل من أغصان الأشجار والحشائش في طرف الجزيرة وأدخل فيها الأسرى مكبلين بالقيود، كان أبرزهم الأميران أبوقرجة وزقل والشيخان إسماعيل شجر الخيري وإسماعيل عبدالقادر الكردفاني.

وفي مساء يوم حزين - بعد ثلاث سنوات من الهول - زحف الأسرى كعادتهم نحو كوخ الأمير أبوقرجة- حيث كانوا قد فقدوا القدرة على المشي لثقل القيود- وتحلقوا حوله بعد أن أوقدوا ناراً لطرد الناموس وطلباً للدفء.. كان أبوقرجة يخفف عنهم ويبت الأمل في نفوسهم التي أمضتها العذاب وأرهقها المنفى والغربة الموحشة والإحساس بالظلم القادح.

تناول الأسرى ما تيسر لهم من طعام وقفلوا عائدين زحفاً إلى أكواخهم قبل أن تحول دونها قطعان الذئاب، إلا أن الكوردفاني الذي ظلّ متجدّد الأحزان كثير الحنين إلى أهله تأخر قليلاً يتجاذب الحديث مع الأمير أبوقرجة ويبثه شوقه لعائلته معرباً عن يأس مطلق وإحساس مرير بخيبة الأمل. أخذ أبوقرجة يواسيه ويدعوه للتمسك بالصبر والاعتماد على الله وحده. ولكن الأسير التبعس كان متظيراً ذلك المساء مستسلماً لليأس يغالب الدموع والعيبرات. زحف نحو كوخه ببطء يلتفت بين الحين والآخر ليتزود بأصداء الكلمات المشجعة «حتماً تعود يا إسماعيل إلى بلدك وأولادك بعد هذه الحالة» إلا أن القدر كان يخبىء له مصيراً آخر حيث تراءى له ذئبان غير بعيدين عن كوخه فأسرع زاحفاً إلا أنها تكاثرت وأحاطت به وأخذ يتناول ما يصادفه في الأرض من أغصان جافة يحاول ردها.. حتى بلغ كوخه بعد مشقة فاقتمحته عليه وأنشبت أظفارها في جسده النحيل فواجه الموقف بشجاعة وثبات، وأخذ يردد الشهادتين بأعلى صوته ويلعن جلاديه متوعداً إياهم بيوم الحساب.. تنبه رفاقه في الأسر لمحنته منذ أن بدأت الذئاب في مناوشته وسط الأكواخ وجميعهم مكبلون بأصفاد ينوءون تحت ثقلها.. فأخذ بعضهم ينشج بالبكاء تحرقاً لنجدته وآخرون يصيحون لذي مروءة.. ولكن لا صرخ.. فالحراس جميعهم كانوا يقضون الليل خارج جزيرة المنفى.. شق الأمر على الأمير أبوقرجة وهو طريق «عنقريه» مقيداً بسبع من «المكاكي» فحاول النهوض رغم ذلك، وهو الذي لم يقف على قدميه منذ يوم إعتقاله فانكسرت قوائم السرير وغاص في كومة من الحبال والنخوق البالية.

ولمّا أيقن الجميع أن رفيقهم في الأسريات في بطون الذئاب أخذوا في التكبير والتهليل بأصوات واهنة ولزموا أكواخهم ثلاثة أيام ما التقوا خلالها.. حدث ذلك في أوائل عام 1897.

كان ذلك جزءاً من التاريخ الذي لم يجد من يكتبه حتى الآن.. وهو ما روثه لنا

والثقافي ومختلفة في أساليب الحياة.

وروى يوسف بدري أن الحياة في الكلية كانت تبدأ بجرس الصباح للنهوض والتوجه إلى الحمامات والنماز للتأكد من أن الجميع غسلوا أجسادهم بالمياه المندفعة من الدش. وذلك خلاف ما تعودوه في مناطقهم الريفية. ثم يتوجهون إلى غرفة الطعام (السفرة) لتناول الشاي ثم أداء الجمباز فالحصتين الأولى والثانية وبعدها تناول الفطور واستكمال الحصص الست. وفي الفسحة الثانية توزع على كل طالب أربع تمرات وهم وقوف في طابور.

أتحفنا يوسف بدري بإتطاعاته عن الإضراب الشهير الذي نفذته طلاب الكلية عام 1931 احتجاجاً على قرار الحكومة القاضي بتخفيض مرتبات الخريجين من ثمانية جنيهات إلى خمسة جنيهات ونصف الجنيه، وكان ذلك بسبب الأزمة الاقتصادية وما رافقها من سياسات تقشفية ارتأتها الحكومة إلا أنه من الواضح أن الأمر كان ينطوي على أمر سياسي وأسلوب للتعبير عن إمكانية التمرد على السلطة بعد أن ران على البلاد من سكون وغيظ مكبوت نتيجة القمع والإرهاب، كانت القضية وطنية بلا ريب.. انفرد كاتبنا بالحديث عن بعض التفاصيل لذلك الحدث النادر، فوصف اجتماع السيد عبدالرحمن المهدي بالطلاب في محاولة لإثنائهم عن الاستمرار في الإضراب حتى لا يجد الإنجليز فيه ذريعة لإغلاق الكلية وحرمان الطلاب من التعليم في هذه المؤسسة. احتشد الطلاب البالغ عددهم خمسمائة وخمسين في غرفة الطعام، حيث لم يكن هناك مكان آخر يسعهم ودخل السيد عبدالرحمن منفرداً وجلس على كرسي وضع فوق إحدى المناضد وأخذ يتحدث عن التعليم وضرورته ومحاولة فصله عن الوظيفة. ولما أحس أن الطلاب مصرون على موقفهم أذعن لما ارتأوه بروح ديمقراطية وأبوية كانت محل تقدير الجميع.

لم يكن غريباً أن يرد اسم السيد عبدالرحمن المهدي في عدد من صفحات

سلطنة دارفور وعلم عدداً من الطلاب، ثم واصل رحلة العودة إلى كردفان حيث أصبح المفتي لتلك الديار وأقام حلقة للتدريس. وعندما اندلعت الثورة المهدية أثر الانضمام إليها حيث كان خاله السيد المكي من أبرز مناصريها. ومن ثم اتخذت حياته مسارات أخرى. قربته الخليفة عبدالله إليه وأسند إليه وظائف قضائية مهمة، إلا أن المهمة الكبرى التي أوكلت إليه كانت كتابة تاريخ المهدية فأنجزها بصورة لا تزال تذهل المؤرخين المعاصرين بدقتها ولغتها الغنية الباذخة، ولا يزال كتابه «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي» و«الطراز المنقوش ببشرى مقتل يوحنا ملك الحبوش» مصدرين أساسيين للباحثين في تاريخ المهدية.

لم يمض وقت طويل على إنجاز هذا العمل الذي نال رضا الخليفة حتى سعى الواشون إليه بما أسخطه على الكردفاني فأمر بنفيه إلى الرجاف واحراق كتبه، وقد بقيت نسخة وحيدة من كتاب السيرة تمكن نعيم شقير من شرائها في مصر عام 1895- كما روي، إلا أن ذلك يبدو في إطار نشاط المخابرات البريطانية حيث حصل عليها ريجنالد ونجت بعد ذلك ومن ثم وجدت طريقها إلى مكتب الدراسات الشرقية بجامعة درم ولا تزال هناك، وهي التي تم الاعتماد عليها في إصدار الكتاب.

كتب كثيرون عن إسماعيل الكردفان وعن نشاطه الفكري والأدبي ووجد تقديرا عظيماً لديهم حتى أن بعضهم وضعه في مصاف مؤرخين كابن الأثير وأبي الفدا وابن خلدون والمقريري.

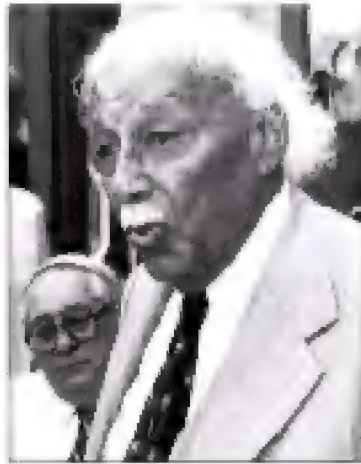
2 أكتوبر 2000م



الأمير أبو قرجة

من البداوة إلى مظاهر المدنية

مذكرات يوسف بدري



تُوج العميد يوسف بابكر بدري حياته الحافلة بأفضل ما يمكن أن يقدمه أضرابه من عطاء.. مذكراته. كان لا بدّ له أن يفعل ذلك فقد كان والده رائداً في هذا المجال حين كتب سيرة حياته منذ تجربته في الرضاعة حتّى أيامه الأخيرة.. فأصبح «تاريخ حياتي» أحد أبرز المؤلفات حول الحياة الاجتماعية في السودان. كان الرجل شخصية ديناميكية فاعلة.. جريئاً منفعلاً بما حوله. كما كان صريحاً في الحديث عن تجاربه وتجارب الآخرين.. صراحة ما تعودها السودانيون. وقيل إن مذكراته هذه أزعجت الكثيرين رغم تعرّضها للحذف في مواضع كثيرة.. بابكر بدري وُلد في العهد التركي وحين اندلعت الثورة المهدية كان شاباً في العشرين.. رأى الإمام المهدي قبل الدعوة في رفاعه، الأمر الذي ترك انطباعاً عميقاً في نفسه فشارك في حصار الخرطوم وما تلا ذلك من أحداث حتّى تمّ أسره في حملة ود النجومي بمصر.. كتب عن كلّ ذلك وأظنّ في الوصف وقدم عملاً مذهشاً جديراً بالثناء. كما كتب عن تجربته الفريدة في التعليم والتي

بدأت منذ السنوات الأولى للقرن العشرين حتى بعد منتصفه بقليل . وبات ذلك السفر مرجعاً لكل المهتمين بالشؤون الاجتماعية والثقافية السودانية.

أما ابنه العميد يوسف بدري الذي رحل قبل سنوات قليلة فقد كان امتداداً لحياة والده.. خلفه في نشاطه التعليمي وحافظ على تراثه.. وقد عاصر أحداثاً مهمة حيث وُلِدَ بُعيد الاحتلال البريطاني للسودان بأربعة عشر عاماً. شهد التحولات التي مرّت على البلاد في تلك الفترة وكتب أيضاً وفقاً لرؤيته الخاصة. وقد استأثرت تجربته في تطوير المؤسسات التعليمية التي تركها والده بمعظم المذكرات.. إلا أننا نجد في ثنايا ما كتب صوراً جديرة بالتأمل عن الحياة في السودان خلال العقود الأولى للقرن العشرين.

قدم يوسف بدري من رفاعة بصحبة والده إلى أمدردمان التي لم تكن قد خلعت عنها رداءها الريفي.. كان ذلك في عام 1920 ولا يزال اليمانية الوافدون يحملون قرب الماء على ظهورهم يوزعونها على المنازل كما كان المكارية يتولون نقل الناس بحميرهم وقد اتخذوا زياً موحداً حسب ما ارتأت سلطات المدينة لتنظيم عملهم. ولاحظ أن بعض المظاهر الحضارية التي تميّزت بها أم درمان كانت تفتقر إليها بلدة رفاعة.. ولم يمر زمن طويل حتى تمت إقامة كوبري النيل الأبيض الذي ربط بين أم درمان والخرطوم وأصبح الترام كهربائياً بعد أن تخلى عن البخار.. كما تمّ توصيل المياه بالمواسير إلى المنازل.

التحق يوسف بدري بالمدرسة الأولية - أو كتاب الطين - التي كانت مشيدة بالأجر واتخذت موقعها غرب المدرسة الأميرية الحالية بطابقها منذ ذلك الحين. وكان جلوس التلاميذ لا يزال على البروش. في تلك الفترة وقعت أحداث ثورة 1924 وشارك فيها التلاميذ بهتفون كما يفعل الكبار «تحيا مصر ويحيا سعد» وكانت الشرطة تكتفي بتفريقهم برشهم بالمياه من خراطيم كانت

تجرها عربات الخيل. وعندما إنتقل إلى المدرسة الوسطى وجد ناظرها معلماً مصرياً يدعى مصطفى السيد يرتدي البدلة والطربوش وكان يظهر في المناسبات.. كما وجد معظم المدرسين مصريين والقلّة من السودانيين الذين كانوا يرتدون الحجة والقفطان.. رغم تخرجهم في كلية غردون - المدرسة النظامية الحديثة - وكان من بينهم إسماعيل الأزهرى.. الذي كان يدرس الحساب - كان ذلك قبل ابتعائه إلى بيروت ليدرس في الجامعة الأمريكية ويعود مدرساً بالكلية. كما كان هناك عوض ساتي ومحمد أحمد مختار اللذان كانا يدرسان الجغرافيا واللغة العربية. إثر أحداث ثورة 1924 تمّ نقل المدرسة الوسطى - التي كانت ضمن مباني كلية غردون إلى رفاة فعاد يوسف بدري إلى مراتع طفولته الأولى وقضى أوقانا ممتعة وذكر بالخير عدداً من المعلمين السودانيين النابغين والجادين ونوه بعلمهم الغزير وخلفهم القويم أمثال علي حسني، وزين العابدين الطيب، ويعقوب أبوزيد، والشاعر عبدالله البنا.

كان التطلّع إلى كلية غردون محط آمال النابغين من تلاميذ المدارس الوسطى الثماني الموزعة في مختلف أنحاء السودان - باستثناء الجنوب في ذلك الوقت - وهي مدارس أم درمان والخرطوم وعطبرة وحلفا والأبيض ومدني وبورتسودان ورفاعة. وكانت الكلية هي المرحلة الثانية والأخيرة في السلم التعليمي. وكانت تسمى بالتجهيزي - أي التي تقوم بإعداد الموظفين الذين تحتاج إليهم مؤسسات الدولة.

وكان يتم توزيع الطلاب في أول السنة الثانية إلى الأقسام المختلفة، وكان قسم المعلمين من نصيب يوسف بدري. كانت الوظيفة أملاً وحلماً بالوضع المادي المريح والاجتماعي المرموق. وكان العامة يطلقون عليهم «الكليات» في مهابة وإجلال. كما كانت الكلية نفسها انتقلاً لمستوى أرقى من التعليم حيث الأساتذة الإنجليز والشوام والاندماج في مؤسسة رفيعة المستوى الاجتماعي

فيما بينهم ويشتركون في تأديب الصغار ورعايتهم.. ويدعون حياة جديدة شكلت جماع وجدان الأمة السودانية الحديثة.. وباتت نموذجاً يحتذى في جميع أقاليمها.

نظر الفنان إبراهيم الصلحي - المولود في العباسية عام 1930- بعينين تشكيليتين وتحسر على أيام أم درمان زمان ووصف وسطها في حوار مع مجلة - كتابات سودانية- انطلاقاً من الطبقية (مركز الشرطة) حيث كان يقبع تمثال سلاطين باشا والمدفعان، وقال إن الشوارع والبيوت كانت في غاية النظافة والأناقة والمطاعم مثل المطاعم الأوروبية. ولم ينس مطعم الأغاريق الذي كان - جرسوناته- من اليونانيين يرتدون بدلاً سوداء وأحذية نصف رباط بنفس اللون.

ووصف المقاهي بأنها كانت مثل مقاهي باريس تبرز منها الفونوغرافات الكبيرة (أبوسماعة) وأصحاب المقاهي جالسين مثل المعلمين في المقاهي المصرية. وتذكر المحطة الوسطى بمكاتبها واستراحاتها المزودة بمقاعد مطية باللون الأخضر. وتحدث عن الناس والأماكن بعواطف سخية وقال: «إن كل ذلك ضاع لما رآه من تبدل في الأحوال قبل سنوات قليلة عندما زار أم درمان».

بعد مرور عقدين من احتلال البلاد وسنوات عجاف ران عليها صمت كثيف افتتح نادي الخريجين في عام 1918 ودبت فيه حركة أدبية وألحقت به مكتبة عامرة.. وكان للشعر دور واضح في تعبئة بواكير الوعي الوطني.. وبرز في النادي شعراء أمثال عبدالرحمن شوقي وأحمد محمد صالح وعلي نور وعبدالله محمد عمر البنا.. وتبع ذلك حركة نقدية كان في مقدمتها الأمين علي مدني الذي أثار معارك أدبية حادة تضمنها كتابه «أعراس ومآتم». لم تلبث أن برزت مدارس فكرية احتضنتها أحياء أم درمان فاهتمت جماعة الأبروفيين بمطبوعات (نادي الكتاب اليساري) ومنشورات الجمعية القافية والأدب الإنجليزي وقرأوا برناد شو وناقشوا

الكتاب فقد كان المؤلف، كما كان والده وأسرتة من العائلات الأنصارية العريقة التي انخرطت في الجهاد بصدق وإيمان، وقد رحلت العائلة بكاملها في حملة الأمير عبد الرحمن النجومي المتجهة إلى مصر ومرت بتجارب قاسية ومريرة وقتل عدد من أفرادها في مشاهد مأساوية، وظل الشيخ بابكر بدري وثيق الصلة بالسيد عبد الرحمن وأحد الأعضاء الأساسيين في مجلسه، وقد وصف يوسف بدري ذلك المجلس بأنه كان يجمع بين الجد والإحساس بالمسؤولية وبين الظرف والفكاهة. وكان من أبرز الظرفاء الذين يضمهم المجلس الأستاذ عبد الله بشير سنادة والشاعر المنشد حامد العربي، والسيد أحمد حميدة المعروف بالزعيم.

روى يوسف بدري تجربة سفره إلى بيروت للدراسة في الجامعة الأمريكية بصحبة إبراهيم قاسم مخير، وأحمد المرضي جبارة، وعبد الحليم علي طه بالإضافة إلى مكي شبيكة، ونصر الحاج علي، اللذين كانا قد سبقاهم في الدراسة بلبنان. وكان الأربعة الآخرون مبعوثين من مصلحة المعارف لإعدادهم كمعلمين يحلون مكان المعلمين المصريين الذين كانوا يعملون في كلية غردون بعد إجلائهم في عام 1924 وكانت الدفعتان الأوليتان تضمان عبيد عبد النور، وعبد الفتاح المغربي، ومحجوب الضوي، ثم إسماعيل الأزهرى، ومحمد عثمان ميرغني شكاك، والنصري حمزة. وأشار إلى أن واسطة العقد لهذه المجموعة من الطلاب كان عبد الحليم علي طه لما يرويه من قصص طريفة عن الريف والبادية ولما ينشده لهم من الدوبيت.

عاد يوسف بدري صيدلياً من بيروت في يونيو عام 1937 يشده حنين غامر لبلاده بعد أن أدار ظهره للعاصمة اللبنانية التي استمتع فيها بكثير من مظاهر اللهو إلى جانب التحصيل العلمي الذي أهله لنيل شهادته الجامعية. عمل في مستشفى ود مدني براتب قدره إثنا عشر جنيهاً في الشهر، وسكن في منزل

أصوات

حكومي هو وموظف آخر كان لكل واحد منهما خادمه الخاص بالإضافة إلى الطباخ المشترك. وكانا يستطيعان في كل أسبوع شراء سلال من الفاكهة المستوردة كالبرتقال والتفاح والكمثري، ويستمتعان بسهرة مساء كل خميس زاخرة بكل مالد وطاب.

وصف يوسف بدري غربة المتعلم السوداني، وتأثره بالفكر الأوروبي واللغة الإنجليزية وتحدث عن الانقلاب الذي حدث لحياتهم وكيف أصبحوا بعد التخرج في كلية غردون يتناولون طعامهم على الطاولة ويسكنون في الغرف المبلطة ويسهرون تحت ضوء الكهرباء ويغتسلون بالماء المنبثق من الحائط وذلك بعد أن كانوا يلتمسون الضوء من فانوس الجاز والماء من الآبار العميقة. ووصف تبدل ثيابهم حيث لبسوا «الشورت» والفانلة في النشاط الرياضي، ولبسوا أزياء أخرى للدرس والنوم، وذلك بعد أن كانوا يرتدون حتى وقت قريب العراقي والسروال، وذكر كيف أن أنواع اللعب تغيرت أيضاً فبعد «شليل» و«حرت»، و«العيتوبة»، أخذوا يلعبون كرة القدم والتنس والبولو مع المفتشين والمديرين وغيرهم من زملائهم البريطانيين.

وهكذا بات الأفندي مرتبطاً بالإنجليزي صباحاً في المكتب وبعد الظهر في الملاعب يتبادلان الحديث باللغة الإنجليزية «فنرى مأمور المركز والباشكاتب والطبيب ورئيس الحسابات «متنكلزين» بينما القاضي الشرعي وناظر المدرسة نراهما محتشمين أو منكربين، ويجتمع الكل في المساء بدار ناديهم وتبدأ قصص التندر وعبارات السخرية التي تصل إلى حد التراشق وفي الصباح يروها زميلهم الإنجليزي، كأنه قد رأى وقد سمع أم أن للشيطان أذناناً؟».

أم درمان.. صبية بين المدائن



لا يأتي الحديث عن المدن حتّى يلوح قول أبي يزيد البسطامي حين سئل عن أي المدن تلك التي أحب فلم يزد قوله عن «تلك التي فيها من اختطف قلبي»، وهذا حديث عرفاني نتجمل به عند الحديث عن مدينة أم درمان التي تكشف في كل يوم عن جمال خبيء طوال قرن من الزمان ويزيد. تزدهي بتاريخها المثير وتزهو بتلك الليالي المجللة بالفخار والمزنة بالمجد الأثيل.. خطت أساسها أسنة الرماح وأظلت بيوتها السيوف الراعفة غداة انتصارات أدهشت كل العالم.. وما فتئت عاصمة الشعب وملهمته التي احتضنت جمعياته السياسية السرية ورعت بداياته الفكرية والثقافية وبلورت رؤاه الفنية وصقلت ملكات أبنائه الشعراء والظرفاء والفنانين والزعماء السياسيين.

عندما اشتدت العلة بالشاعر خليل فرح وأحسّ بقرب نهايته طلب من أصدقائه أن يطوفوا به مدينة أم درمان ففعلوا.. تجولوا في أحيائها وأسواقها وامتلأت عيناه بمראה للمرة الأخيرة قبل أن يعود إلى مستشفى الخرطوم ويلفظ أنفاسه بعد أيام قليلة.. تلك القدلة التي تمنّاها- وهو بالقاهرة- حافياً مُعلقاً شعر رأسه- من فتّيح للخور للمغالق.. حتّى علايل أبوروف للمزالق.. بالطريق الشاقية الترام.

عندما نزل فيها إسماعيل باشا بن محمد علي زاحفاً نحو ستار كانت أم درمان قرية صغيرة لبعض الصيادين.. ولما أسس الأتراك عاصمتهم في الخرطوم ظلت أرضاً خلاء لا تؤمها سوى القوافل التجارية القادمة من الغرب ريثما تعبر إلى الخرطوم.. وفي أثناء الحصار شُيّد فيها غردون طابية ظلت تقاوم قوات الأنصار حتّى ركزوا عليها الهجوم فاستسلمت قبيل سقوط العاصمة، وغداة انتصار الثورة إتخذها الإمام المهدي عاصمة وبانت الخرطوم مدينة مهجورة.

أم درمان اسمها قديم ورد في وثائق «مملكة الفونج» وورد ذكرها أيضاً في «طبقات ود خفيف الله» لدى الحديث عن الشيخ حمد ود أم مريوم.. وبعض الروايات تذهب بها إلى زمان «العنج» وتقول إنّ امرأة من سلالة ملوكهم سكنت فيها مع ولد لها يدعى درمان، أقامت منزلاً مبنياً من الحجر محاطاً بسور متين قيل إنّ آثاره كانت لا تزال شاخصة في حي «بيت المال» إلى وقت قريب.. ولا يزال كثير من الناس يذكرون التنقيبات الأثرية في «خور أبو عنتجة» حيث كان يتم العثور على فؤوس وسهام ومعدات حجيرية.. تعود بالتأكيد إلى العصر الحجري.. أطلق عليها المهدي اسم البقعة وعرفت باسم دار الهجرة وهو الاسم الذي نقش على العملة التي ضربت أثناء حياته.

بعد فتح الخرطوم بأيام قليلة إنتقل الإمام المهدي إلى أم درمان وأرخصى رسن ناقتة حتّى بركت في الموضع الذي عليه القبة الآن فأقام بيته وشيّد خلفاءه وأصحابه الكبار منازلهم حوله. وأقام الأهليون منازلهم بالنقش والجلد والشكاب

حتى تحول المكان إلى معسكر كبير. وفي عهد الخليفة استمر توسع المدينة وأخذت المنازل المبنية بالطين والطوب الأحمر والحجر تحل مكان المنازل القديمة. اهتم الخليفة بالمعمار وانشأ مؤسسة سماها «مصلحة العمارة» أشرف عليها مهندسون محترفون ذكر المؤرخون منهم إسماعيل حسن ومحمد حمد حسن وحامد النور ويتر. نفذوا مبانيها مثل بيت المال، وبيت الأمانة «مخازن الأسلحة»، وسجن السائر ومنزل الخليفة نفسه بطابقيه وسور المدينة وقبة الإمام المهدي ومنزل الخلفاء والحرس والمصالح العامة. كما قُمَ إنشاء المدرسة الوحيدة فوق مستوى الخلاوي.. وكان يدرس فيها الحساب إلى جانب العلوم الدينية وكان مشرفا عليها عثمان فريد - جد آل فريد الموجودين حالياً بأم درمان- استخدم الخليفة شبكة التلغراف للاتصال من منزله بمختلف المصالح كاترسانة وكارة الجهادية وبيت المال العمومي كما شيد مصنعاً للمصابون وآخر للبارود بالحلفاية. وكان هناك مخزن كبير للبارود في جزيرة توتي.

وعندما زار مراسل صحيفة «التايمز» أم درمان في عام 1901 انتقد سلوك كتشنر الهمجي عندما حطم القبة وحول المسجد إلى ملعب رياضي واتهمه بمحاولة القضاء على ملامح القومية السودانية.

في مذكرات له وصف القس الإيطالي روزنبولي - الذي كان أسيراً- سكان أم درمان في أول نشأتها بأنهم كانوا من مختلف العناصر والقبائل التي يعرفها السودان بالإضافة إلى المصريين والهنود والعرب الحجازيين والشوام والاغاريق والإيطاليين والترك والإثيوبيين. وقال إن ألوان البشر كانت تتدرج من السواد الشديد حتى الأبيض. وهناك النموذج السامي بالأنف المدبب واللحية الكثيفة إلى جوار الزنجي الوسيم بجسده القوي وأنفه الأفطس وشفاهه الغليظة. كل هذه العناصر مضت إلى سبيلها في الانصهار على مر السنين واندمجت في عائلة كبيرة واحدة في سلوك اجتماعي فريد يعتمد الحياة الجماعية.. يتهادون الطعام

شديد مخترقاً سكة العرضة حتى يبلغ موضعها وهو راكب على هجينه ويمر أمامه الأنصار عائدین فی اتجاه المدينة فی مقدمتهم الراية الزرقاء بطبولها المحمولة علی الجمال وهي تدق بعنف شديد تليها الراية الخضراء - للخليفة علي ودخلو- ثم الراية الصفراء للخليفة محمد شريف حامد.

وكان من المواكب المهمة ذلك الذي یقام عند خروج جيش كبير إلى أحد الأقالیم حيث توزع الرايات والسلاح من بیت الأمانة، ویقوم كاتب الأمير بصرف أدوات الكتابة بينما یقوم وکیل الجيش بإعداد دواب النقل والمؤن. وعند استكمال الاستعدادات يتحرك الجيش إلى الجهة المقصودة، فإذا كانت شرقاً عسكرت القوات قرب قبة الشيخ خوجلي وإذا كانت شمالاً عسكرت فی الهجرة فی الطرف الشمالي، وإذا كانت جنوباً تجمعت قرب شجرة المهدية، ثم یرجع الخليفة فی موكب مهيب تحيط به مظاهر السلطة ومعه قائد الجيش حتى المعسكر فیودع القوات ویبارك مساعها.. وفي حالة حضور جيش كبير أو أمير مهم كان الخليفة يستقبله بعرض كبير خارج المدينة ثم یرجع معه.

إحتفی المغنون والمغنیات الذین عمروا الحياة الإجتماعية فی الخرطوم فی العهد التركي. فدلّم بت سليمان وشريفة بت بلال لم يعد أحد یسمع عنهما.. لم تجدا مكاناً فی العهد الجديد. فالحماسة الدينية والزهد والتطهر تسود المدينة.

وبدا الناس وخاصة الأعیان یحیون لیالهم وأفراحهم بالمديح النبوي.. فالشيخ أحمد أبوشريعة وإبراهيم كراع النعامة وعلي طلبة وغيرهم من المادحين كانت تتلقاهم الدور حفية مرحبة فی تلك الأيام.. إلا أن المدينة لم تغل من العابثین الساهرين.. یختلسون جلسات خاصة فی منازلهم بعيداً عن الرقباء یحتسون فیها ما تیسر لهم من مشروبات.. وقد كانت تجربة يوسف میخائیل والأمیر النور عنقرة طریفة معتنة.. بسهران فی العشیات ندیمین ثنائین معارضین لنظام الخليفة

المثل العليا والأخلاق. وكان من أبرزهم حسين أحمد عثمان «الكدة» وشقيقه حسن وإبراهيم يوسف سليمان وتخضر حمد وغيرهم. أما مجموعة الهاشميات فقد ضمت محمد أحمد محجوب وعبدالحليم محمد وعرفات محمد عبدالله ويوسف مصطفى الثني ومحمد عشري الصديق وعبدالله عشري الصديق وغيرهم. كما كان كبار طلاب المعهد العلمي يعقدون ندوة أدبية في منزل الشيخ إبراهيم أبو النور بحي «السوق الكبير». وكان الشعراء أبناء المعهد العلمي يتخذون من دار خلوة الكتيابي منبراً لهم وهم التجاني يوسف بشير ومحمد عبدالوهاب القاضي ومحمد عبدالقادر كرف، قبل أن ينتقلوا إلى الأندية.

أعلن سلاطين عندما دخل مع الجيش الغازي وأصبح مفتشاً عاماً للسودان أنه سيملاً مدينة أم درمان بالعناصر المنيعة قبلياً.. يري أن عدم الانتماء القبلي يصرفها عن القضايا الوطنية.. ولكن بحلول عام 1921 بدأت الحركة السياسية بأم درمان تتلمس خطاها سراً فنشأت (جمعية الإتحاد السوداني) ثم اللواء الأبيض التي قادت نصلاً عنيفاً ضد قوات الاحتلال حتى بلغ درجة الصدام المسلح. وغاب ظن سلاطين فقد كان معظم هؤلاء الزعماء ممن ظن أنهم لن يشاركوا في القضية الوطنية.. وظلت هذه الوقفة الباسلة جزءاً عزيزاً من تاريخ الوطن وإلهاماً عظيماً لوقفاتها اللاحقة.

إنشق مؤتمر الخريجين كحقيقة كبرى في فبراير 1938 ليتوج كل هذه الجهود ويصبح المنبر الوحيد المعبر عن الأماني الوطنية واستقبلته البلاد بحفاوة بالغة لخصها علي نور شاعر المؤتمر بقوله

كُنَّا نتميه سراً في جوانحنا حتى استحال إلى الإجهار والعلن

أم درمان.. صبية بين المدائن - ٢

لَمْ تجد الحياة الاجتماعية بأم درمان أيام المهديّة عند المؤرخين كبير اهتمام بتوثيقها.. فالأحداث السياسيّة العاصفة والمتلاحقة طيلة فترة الثلاثة عشر عاماً التي تربع فيها الخليفة عبدالله على دست الحكم لَمْ تترك مجالاً للالتفات للتجليات الأخرى. كما كان لأسلوب الحياة الذي وسّمته النزعة الدينيّة والغلو والتطرف أثره في تحويل المدينة إلى ما هو أشبه بالثكنة العسكريّة.. إلّا أنّ النسيج الاجتماعيّ الجديد الذي صنّعته المجموعات الأثنيّة كان قد بدأ في التشكل وبروز القسمات.. ففي فترة وجيزة أخذت المدينة تبرز عمراًياً ونشأً مركز السلطة في وسطها.. فحول قبة الإمام المهديّ بني الخليفة منزله وشيدت بطانته من الأمراء والقادة من ذوي قرابته منازلهم.. وفي الجانب الشماليّ قامت منازل الخليفتين عليّ ود حلو ومحمد شريف حامد وعدد آخر من الأمراء وعلية القوم.. إتخذت المجموعات القبليّة أحياء خاصّة بها ونشأت المصالح الحكوميّة حول منطقة السلطة وأهمها بيت المال الذي كان بمثابة وزارة الماليّة ومخازن الدولة.. كان موضعه قرب النهر ليسهل نقل البضائع الواردة بالسفن والمراكب.. وكان أهم ما في بيت المال مصنع سك العملة. ويقع جنوب بيت المال العمومي سوق الرقيق المشيد بالطوب الأحمر. ومن الضروريّ أن نعرف أنّ الخليفة كان قد حظر بيع الذكور من الرقيق إلّا للدولة بينما حظر قنصه بشكل بات ومنع تصديره للخارج. كما كان هناك بيت مال خاص بالملازمين وشيدت منازل خاصّة بكتبته قريباً من المكان.. ومن المصالح المهمّة بيت الأمانة لحفظ الأسلحة والذخيرة..

(دار الرياضة الحالية) وبالقرب منه مبنى دائري صغير تحفظ فيه رايات الجيش وطبوله، وإلى جانبه مصنع الذخيرة والأسلحة الخفيفة. وكانت لمدينة أم درمان محكمة خاصة هي محكمة السوق التي تخصصت في نزاع البيع والشراء وقضايا الأسواق وكل ما هو واقع تحت سلطات ما يعرف بالمحتسب في النظم الإسلامية - أما غير ذلك من القضايا فكانت تُنظر في محكمة المسجد. وكان الأمير محمد حسين وهي مكلفاً بأمن المدينة ويتركز نشاطه في السوق والأماكن العامة بقوة يبلغ عددها 25 جهادياً وإلى جانبهم مجموعة عرفت بالمبشرين مهمتهم شبيهة بما تقوم به قوات النظام العام التي إبتدعتها سلطة «الإنقاذ» الحالية - فكانوا يلاحقون المشتبه بهم سياسياً ومتعاطي الخمر والتبكيك. أما الأمن في الأحياء السكنية فكان يقع على عاتق أهل الحي الذي يتولون الحراسة ليلاً. كان تجار السوق يغلقون محالهم عند الغروب فيغدو ساكناً مهجوراً إلا من الجهادية الذين كانوا يتولون حراسته.. وكان محظوراً على الناس أن يوقدوا النار أو يحملوا المشاعل فيه.

كان الإمام المهدي قد أمم بعض المؤسسات الإنتاجية والتجارية - التي تعلقت بمصالح الناس - كمصارات الزيوت والوكالات والغابات وحدائق العيري وأطيان الأجانب والمشارع العامة «المرافىء النهرية». كما احتكرت الدولة صناعة الصابون والأسلحة وسك العملة والصناعات الخفيفة المتصلة بالمجهود الحربي كالسيوف والحراب والصناعات الجلدية كسروج الدواب وأغمد السيوف.

تنوعت أشكال المعمار بالمدينة.. وكان الحوش هو السمة المشتركة في منازل الأهالي والمصالح العامة.. فتجد الكرنك «المبني على شكل ظهر الثور» والدانقة وهي الحجرة المشيدة بالجالوص والقضبة والراكوبة. وكانت دور الأغنياء وعلية القوم محاطة بأسوار من الطين والأخرى أحيطت بزرايب من الأغصان الشوكية.

برز الخليفة عبدالله كرجل دولة لا يمكن التقليل من شأنه محكوماً بظروفه التاريخية وإمكانياته الشخصية وقناعاته ودرجة الوعي التي توفرت له. استطاع أن يؤسس دولة مركزية مرهوبة الجانب ظلت القوات البريطانية تترصد بها عند الحدود الشمالية ثلاثة عشر عاماً قبل أن تتمكن من الانقضاض عليها.. رصدت مخابراتها كل نامة وصوت صدرت من أم درمان حتى غدا رصيدها من المعلومات التي استقتها مؤلفات ومراجع للتاريخ مثل جغرافية وتاريخ السودان لنجوم شقيرة.. تجربة جديرة بالاهتمام رغم ما أحاط بها من سلبيات أملت ضرورة الظروف في معظم الأحوال. فالخليفة قد أقام دولة لا يستطيع أحد أن ينكرها إذا نحى المرء العواطف جانباً وأجهد نفسه شيئاً ما لقراءة ذلك التاريخ.

حدثني مرة شيخ المؤرخين البروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم أن صلته بالمهدية كانت وامية جداً.. حيث أنها لم تبلغ مواطنهم الحدودية في أقصى الشمال في كل الأحوال ولم يتأثروا بها.. إلا أن عمله في دار الوثائق أتاح له فرصة القرب منها والتعرف عليها.. وأكد أنه في كل يوم جديد يزداد إعجاباً بتلك التجربة التي نجح زعمائها في توثيق أحداثها بشكل نادر الحدوث.

كانت مدينة أم درمان تتزين وترفل في أبهى حللها في أعيادها الدينية وترفع الرايات وتخرج قوات الجيش للإستعراض وتدفق الطبول ويخرج الخليفة في موكب عظيم. وكان في أول عهده يستخدم إحدى مركبات الحكمдарية التي آلت إلى الدولة الوطنية بعد سقوط الخرطوم.. ولكنه لم يلبث أن إستبدل ذلك بركوب الجمل أو الحصان ولدى خروجه في موكبه الرسمي كان يحيط به كبار رجال الدولة من الخلفاء والأمراء والقضاة والقواد، ويسير خلفه حرسه الخاص (الملازمون) في أعداد كبيرة. ويمشي أمامه محمد بشير كرار العبادي - قائد هجانة البريد- ممسكاً بحربة كبيرة في يمينه بينما يمسك بيسراه سيفاً كبيراً يتدلى من جانبه بالشمال. ويبدأ الموكب مسيرته من بيت الخليفة ويمشي ببطء

بسيوفهم وسكاكينهم الطويلة. ولما هبطوا عليهم تحطفونهم كالطير.. وصف المراقبون فتكهم بهم بأنهم كانوا كمن يعرضون في الحلبة حتى أفتوا جانباً كبيراً منهم.. أعادوا تجارب معاركهم معهم في شرق السودان حين كسروا لأول مرة في التاريخ مربع الفرسان.. وحين دخل الخزانة أم درمان لم تستقبلهم بالخضوع والاستسلام بل واجهت القلة القليلة الباقية العدو ببسالة وإقدام إلا أن نيرانه أسكتت تلك الانتفاضة اليائسة. ولما استبيحت المدينة وقف الرجال أمام بيوتهم يذودون عن أعراضهم وممتلكاتهم وقتل منهم الكثير. ولم تضع قيادة العدو وقتاً جمعت من تبقى من الأمراء والقادة وقضت بإعدامهم فاقبضوا غرب المدينة - موقع ميدان الربيع الحالي - وتم التنفيذ..

حين عاد الشاعر المادح أحمد أبو شريعة من ميدان القتال توجه إلى بيت الخليفة وهناك علم بخروجه من أم درمان فأخذ ينشد الشعر والدموع تنهمر من عينيه «السادة الخيرة فاتوني.. وخلوني في حيرة»، كلمات عبرت عن حالة الضياع التي إكتنفت البلاد والمجهول الذي بات يتهددها. وصف المؤرخون الخليفة في تلك اللحظات بأنه كان ثابت الجنان لم يهتز لما حاق به من كوارث إلا عندما بلغه نبأ مقتل أخيه يعقوب. وكان مشرفاً على سير المعركة ومجريات الأمور لصيقاً بتفاصيلها. لم يهرب لينجو بنفسه كما عبرت جوارى المدينة في أغانيهن الشامتة «ما قلنا الخليفة بفر.. أوقف الحدود يا سعادة الوز» و«الليلة هاي قلبوها تركية.. ود تورشين شرد رقدوا الملازمة» وإنما كان خروجه خياراً وقراراً إتخذه في اللحظة الأخيرة بعد أن كان الاتجاه السائد هو البقاء داخل أم درمان للدفاع عنها.. وفي وقفته الأخيرة بأمر ديبكرات وموته الرائع لم يملك عدوه اللدود ريجنالد ونجت إلا أن يقول «مهما كانت نظرتنا للخليفة فإننا لانملك إلا أن نعجب بميئته الشجاعة».

تدافع الناس للخروج من المدينة لحظة دخول الجيش وما بعد ذلك بساعات

يتحدثان في السياسة ويشتمان السلطة.

من المؤكد أن دولة الخليفة تدخلت في حياة الناس الاجتماعية وألغت كثيراً من العادات التي إرثأت أنها تجافي الدين ومن بينها أنها حددت المهر للبكر والثيب. فإسماعيل عبدالمعين كان يردد في ألقانه الزنجرائية «المهدي جاء من دنقلا.. قال الفتاة بفد ريال.. والعزباء بالقاتحة». وفي مذكراته «تاريخ حياتي» يروي الشيخ بابكر بدري تجربة زواجه من السيدة نفيسة «أم أحمد» وكيف تصرف كأنصاري ملتزم واصفاً نفسه بالحنبلي المتطرف فحاول أن يسكت مغنية عمياء ورفض حضور حفلة الرقص التي أقامتها النساء وحدهن دون حضور أي رجل آخر. إلا أنه أصدق العروس أربعين ريالاً قوشلياً وقدم جهازاً من الملابس الغالية والعطور.. كان ذلك خلال السنوات الأخيرة لعهد المهدي.

14 نوفمبر 2000م



بوابة عبدالقيوم

أم درمان.. مأساة الفتح



ظَلَّت نساء أم درمان لسبع ليالٍ متتابعات يتسللن متلفعات بالصمت والظلام
فاكلات بانسات مثقلات بالفجائع.. والمدينة يلفها الردى ورائحة الدماء والبارود..
وأحذية الغزاة الثقيلة الجهمة لا تزال شاخصة في أزقة المدينة وشوارعها بعد أن
أستبيحت ثلاثة أيام بلياليها وتعرضت للقصف بحوالي ثلاثمائة دابة من عيار
خمسین رطلاً - وهي مكتظة بالمدينين خالية من الجنود - خلال يومي الخميس
والجمعة الأول والثاني من سبتمبر 1898م. وكانت النساء يحملن الزاد والماء
يخرجن في جماعات صغيرة يقصدن ساحة المعركة في كرري يتفقدن الجرحى
يواسينهم ويضمدن جراحهم ويبللن شفاههم بقطرات من الماء.. كانوا لا يزالون
أحياء يتمددون بين آلاف الجثث المكدسة المعزقة برصاص «دم - دم» المحرم

استخدامه دولياً. كان الجنرال الفاتح غاضباً من سلوك الجرحى .. حيث كان الواحد منهم - في أعقاب المعركة- يهب من رقدته وهو في الرمي الأخير يسدد طعنة أو يصوب طلقة إلى صدر جندي عدو ليموت بعدها راضياً لذا أمر الجنرال بتصفيتهم لا بنقلهم للعلاج - كما تقتضي العهود والمواثيق - كما أمر بتصفية الأسرى أيضاً. ذلك الأمر الذي أثار ثائرة الصحف الأوروبية. رأت فيه وحشية وبربرية لا تناسب إستهلالات القرن العشرين. كانت نساء أم درمان أيضاً يحاولن التعرف على الجثث لدفنها فقد كان الرجال أزواجهن وأبائهن والمرخيات تردد صدى تشجيعهن المكنوم في ليالٍ مفعمة بالأسى والقنوط وتفاقم الإحساس بتفاهة الحياة.

عندما حسم معركته مستخدماً أحدث منتجات مصانع بريطانيا من الأسلحة.. تلك التي استخدمت لأول مرة في كرري على أساس التجربة ومن ثم باتت الأسلحة الرئيسية التي تفوقت في الحربين الأولى والثانية - توجه الجنرال الغازي جنوباً - تحيط به كل مظاهر الغطرسة والغرور - عبر شارع أم درمان الرئيسي (شارع الهجرة) .. وطوال خط سيره كان المشهد واحداً لا يتغير.. الجثث والأشلاء وأتات الجرحى ورائحة الموت.. فالحيوانات من كل الأنواع والبشر من كل الأعمار كانوا مستلقين في شمس الظهيرة اللاهبة وهم في النزاع الأخير. كان كتشنر قد خلف وراءه في ميدان القتال عشرة آلاف شهيد وصف حالهم المراسل الحربي الشاب ونستون تشرشل بقوله «وحيث سقط العدو ولم تكن هناك مراسم الدفن والموسيقى ولا الإحتفالات التي تمجد عظمة الرجولة الصامدة.. ولكنهم كانوا أشجع من مشى على وجه الأرض، دُمرُوا ولم يقهروا بقوة الآلة». لم تكن معركة أم درمان بالنسبة للقائد مجرد تزهة فقد رأى هو والمراسلون والمراقبون العسكريون رجالاً يندفعون نحوهم للالتحام وأيديهم خالية من السلاح.

كثيرون ظنوا أن الدفاع عن أم درمان كان إنديفاعاً أخرق نحو جيش العدو الغازي. انتقدوا الهجوم النهاري.. رأوه مجافياً للخطط العسكرية في مثل تلك المعارك.. إلا أن الواقع الذي محصه المحللون العسكريون من وطنيين وأجانب يدحض ذلك الزعم.. فخطّة الدفاع عن أم درمان كانت دقيقة ومحكمة وتشكّلت من مرحلتين إلا أن تنفيذها تعرّض في الواقع كما أن الأسلحة الحديثة الجبارة - والتي إستُخدمت لأول مرّة في تلك الحرب ما احتلت حيزاً مناسباً في تقديراتهم. ورغم ذلك أبّلت قوات الدفاع السودانية بلاءً ظلّ حديث الصحف العالمية لفترة من الزمن ويات جزءاً مهماً في التاريخ العسكري جسّد جسارة الرجال واسترخاصهم للموت في سبيل الوطن. كتب ستيفنسون يقول «والعدو» لقد حاز هو شرف اليوم.. وصل رجالنا درجة الكمال إلا أن السودانيين فاقوا حدّ الكمال. لقد كان ذلك أعظم وأشجع جيش خاض حرباً ضدنا، وأبّد وقتل جنوده بشجاعة جبيرة بالإمبراطورية الهائلة التي أقاموها وحافظوا عليها طويلاً. أحاط الموت بحملة بنادقهم من كل جانب وهم يجاهدون عبثاً لإطلاق ذخيرتهم القديمة والرديئة عديمة الأثر في وجه أقوى وأحدث أسلحة التدمير. مرّت لحظات في جانب من المعركة كان هناك ثلاثة رجال يعملون الراية الزرقاء ويتقدّمون بثبات نحو تسعة آلاف جندي مدججين بأحدث الأسلحة، كان المدافعون يتساقطون حول الراية التي أصبحت هدفاً واضحاً لنيران الغزاة ومن ثمّ مصيدة للموت وهي ترفرف عالياً حتّى سقط آخر من كان يحملها بعد أن غرسها على الأرض. كانت ساحة المعركة واسعة مثالية لنيران العدو المتقدمة ومدافعه بعيدة المدى والمقاتلون السودانيون يحاولون جاهدين الوصول إلى صفوفه للالتحام بها لتحقيق عدالة النزال.. ولكن كان ذلك بعيداً والنيران تحصدهم حصداً وتزيحهم بالمشات من على وجه الأرض حتّى بلغ عدد القتلى عشرة آلاف قتيل. عثمان دقنة وحده الذي شفى غليله باستدراج قوة من فرسان الجيش البريطاني إلى خور شمبات حيث كان يقبع رجال الهندوة الأشداء

بتجاربها الثرية، وقدمتهم عطبرة إلى العالم فزينوا محافله، فإبراهيم زكريا - الفتى القادم من قرية العفاص - أصبح رئيساً لإتحاد نقابات العالم.. كل العالم.. والشفيع إحتل منصب نائب الرئيس.. وقدمت غيرهم ممن شارك في إثراء التجربة في بلاده وعلى مستوى العالم.

عطبرة الآن لا تستجدي أحداً أن يرد إليها بهاءها وتاريخها ولكنها تدرك أهمية السكة الحديد كمؤسسة قومية ذات ضرورة قصوى للنقل في بلد شاسع مترامي الأطراف قدره أن ينفذ برامج مكثفة للتنمية للتهوض من كبوته. ومازالت السكة الحديد رافداً حيويّاً لاقتصاديات الدول التي تعمل جاهدة لتحديث القطارات وتطوير أدائها بعيداً عن هوى النفوس والمنطلقات الذاتية، فأساطيل النقل التي يمتلكها المحاسب - يحتكرون بها الحركة أو يحاولون - لا تستطيع أن تعوض فاقد نشاط السكة الحديد وقدراتها العالية.

12 سبتمبر 2000



أول قاطرة متجهة نحو السودان إلى الفتح

واتجهوا جنوباً.. وأغلب الظن أنَّ هؤلاء كانوا من المتصلين بالسلطة والذين تخوفوا من إنتقام الجيش الغازي. كانت أبرز المجموعات مجموعة الخليفة شريف- الذي ساهم في المعركة وقيادة الجيش رغم معارضته السياسية، ومعه أبناء المهدي ومعظم الأشراف الذين توجهوا إلى أم غنيم ثم الفشاشوية التي عبروا منها إلى الجزيرة أبا. تلتها مجموعة كبيرة من الفور والرزيقات في طريقهم إلى دار فور ليلحقوا بعلي دينار. كما خرجت مجموعات أخرى وأغلبهم من أبناء الغرب للحاق بالخليفة أو العودة إلى أوطانهم. سيظل هذا اليوم محفوراً في ذاكرة مدينة أم درمان.. فقد كان مليئاً بأحداث لا تتكرر كثيراً في تاريخ الشعوب.

12 نوفمبر 2000م

عطبرة مدينة الحديد والنار

«بأعطبرة .. هل تهبي مثل أمس من جديد»

من قصيدة لصالح أحمد إبراهيم

جلس الملازم البريطاني جروارد في خيمته بوادي حلفا ذات يوم من عام 1897 بعد قائمة شاملة بالاحتياجات اللازمة لإقامة خط الصحراء الحديدي لنقل الجنود ومدافع المكسيم إلى أم درمان. كان الهدف قهر قوات الخليفة عبدالله وإزالة دولته الوطنية التي شكلت نموذجا متمردا يعرقل حركة التوسع الاستعماري في القارة. كانت القائمة طويلة والمشروع مشكوك في جدواه. قدر الخبراء أنه قد يقود إلى كارثة إلا أن الجنرال كتشنر قائد قوات الفتح أصر على تنفيذه في عناد وبعث جروارد إلى إنجلترا لشراء لوازمه من القاطرات والعربات وقطع الغيار وما يتعلق بإنشاء الورش الجديدة وهكذا بدأ العمل في المشروع الذي ظل مؤجلا منذ عهود الحكم التركي السابق. كانت بداية العمل منعثرة بلا شك.. موظفون ينم تدريبهم تحت ظلال النخيل، وعمال غير مهرة من مختلف الجنسيات إنهمكوا في صناعة الآلة التي حملت الموت والتسلط، فقط كانت الحرب حرب نقل في المقام الأول وقد هزم الخليفة على السكة الحديد كما عبر ونستون تشرشل في كتابه «حرب النهر».

بعد إستقلال السودان ظل الإداريون البريطانيون الذين حكموه يتفاخرون بثلاث مؤسسات أقاموها، مشروع الجزيرة، والخدمة المدنية، والسكة الحديد، وقد حق لهم ذلك فتلك المشروعات التي لم يكن لها مثيل في أفريقيا حاق بها

الدمار نتيجة لما فعل السفهاء مثلاً.. أعملوا فيها فؤوسهم بعد أن غلبهم الهوى السياسي وأعمى بصائرهم.. وَحَتَّى الآن ما اعتذروا لشعبهم عما اقترفوا ولا أحسوا جرمًا.. وكان لدكتاتورية مايو نصيبها فيما حدث من دمار وخاصة في السكة الحديد التي أضحت ورشها وقاطراتها وعرباتها جائمة دون حراك يملؤها صدى كثيف.. كأنما هي كائنات خرافية نافقة.. وأجهز الباقون على ما تبقى منها وظلوا سادريين في غيهم يتمنون خصخصتها لتعود ملكاً خالصاً لذواتهم الغافية.. ما راعوا في ذلك مصالح الوطن.

ما تشرفت بزيارة مدينة عطبرة من قبل إلا عبوراً بمحطتها نحو مصر في زيارات خلال سنوات الدراسة، ولكن حين رأيته في أغسطس الماضي أحسست كأنني أقمت فيها لألف عام.

كان الطريق إليها من الخرطوم أسفلتياً جديداً ممهداً وناعماً لا يقترب من بحر النيل ولا يبتعد، ولكن خضرة الضفة اليمنى كانت تتراعى بانهة عميقة ومخضلة. وكلما أوغلنا في الشمال تنابعت صور الماضي البعيد بعهوده المختلفة.. فهل يا ترى مرّ عيزانا -الإمبراطور الأثيوبي- من هنا بطارد فلول النوبة الحمر.. كما سجل في لوحة انتصاراته؟ وهل هذه الحمرة الداكنة التي تلون الحصى صخور بركانية تفتت أم بقايا قطع الحديد التي خلفتها حضارة مروي القديمة في أيامها الزاهرة؟ ومن أين توجه الملك نمر بعد قتله إسماعيل، وأي طريق سلك. تساؤلات تترى وما من مجيب.

بعد الفتح امتدت خطوط السكة الحديد شرقاً وجنوباً حتّى أواسط القطر ثم بعد ذلك إتجهت غرباً وأضحت مدينة عطبرة واسطة العقد تنافس كرو البريطانية.. ضمت رئاسة المصلحة وورش الصيانة الضخمة.. وتكاثرت أعداد العمال والموظفين من مختلف الأنحاء وتشأ مجتمع جديد أقرب إلى الحداثة من التجمعات الحضرية الأخرى ذات الطابع الريفي. لعبت السكة الحديد دورها

الجديد في نقل المنتجات السودانية وخاصة القطن لمصانع لانكشير والسوق العالمية ونشطت التجارة وتبرعم وعي جديد بالواقع غذته أحداث القرن العشرين العنيفة والمتلاحقة، وبرز دور العمال يطالبون بتحسين ظروفهم المعيشية وبإنشاء تنظيمات خاصة بهم، وشاركوا في كثير من الأحداث التي أعقبت الحرب الأولى.. وخاصة خلال ثورة 1924 وما رافقها من مظاهرات بمختلف المدن.

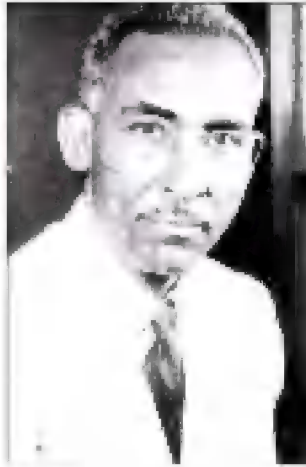
كان لمدرسة الصنائع دور بارز في مجتمع مدينة عطبرة فآثرت سلطات الاحتلال نقلها إلى جبهة لتكون بعيداً عن تطورات الأحداث.. إلا أن خريجيها الذين عادوا يعملون في مرافق المصلحة المختلفة ما لبثوا أن انضموا إلى التنظيمات الأولية لمؤتمر الخريجين في أوائل سنوات الأربعين. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية وما رافق ذلك من هبوب الرياح العاتية للحرية التي أصبحت مطلباً حيوياً لجميع المستعمرات. نشجت الحركة النقابية واشتد ساعدها وأخذت تجاهر بمطالبها السياسية والاقتصادية وشكلت ذراعاً قوياً للحركة الوطنية.

حين جلست أتلقى العزاء في وفاة صهري بإحدى الزوايا بحي الحصاية في عطبرة كان المجلس عامراً يقص بأهل المدينة عمالاً وموظفين.. جامعا من كل حذب وصوب.. يحملون زادهم على دراجاتهم الهوائية.. تبدو عليهم السعادة والتصميم وروح التضامن، التي ظلت تقليداً مجيداً يزين مدينتهم. ما لمست فيهم ضعفاً ولا إستسلاماً رغم قسوة الظروف وشظف العيش.. تحسبهم أغنياء يتسربلون بالعفاف والإباء.

كان من بينهم تقاييون قدامى - يتوسطهم شقيق الفقيد وهو القائد النقابي المنحصرم تاج السر حسن آدم يحثشون بالتجارب والذكريات، يتحدثون عن قاسم أمين، والشفيع أحمد الشيخ، وإبراهيم زكريا، وغيرهم. يملأهم الفخر والاعتزاز، يودون ألا ينقطع الحديث عن هؤلاء الذين تخرجوا من مدرسة عطبرة

«كفاح جيل»

أحمد خير المحامي



في كتابه الذي احتل موقعا متميزا في أدبيات تاريخ السودان الحديث «كفاح جيل» قدم أحمد خير صورة قلمية نادرة ووصفا أدبيا مؤثرا لنشأة مؤتمر الخريجين فقال: «جاء المؤتمر كالطفل المدلل في أسرة عريقة الحسب موفورة النسب محرومة من الذرية والولد فأولاه جميع الخريجين عطفهم وحنوهم وحماسهم. ومن فرط الحب والحنان إختلفوا في فجر حياته اختلافا كبيرا على أمثل الطرق لتنشئته وتهذيبه وتدريبه حتى يتم إعداداه واستعداداه للقيام برسالته الخطيرة على خير الوجوه وأتمها. ومن فرط حبهم للوليد ورغبتهم الصادقة في عمل كل ما يحقق مصلحته لم يتعد اختلافهم طور تبادل الرأي والاقناع. فقد رغب فريق أن ينهج على سبيل المؤتمر الهندي، فيدرج الوليد السوداني في أسلوب نقابة للموظفين، تعني بمصالحهم وشؤونهم. ومن ثم يدلف بعد أن يشتد ساعده ويقوي زنده، إلى ميدان النضال الوطني. وأمل فريق آخر أن يقفز قورا إلى مكانة الوفد المصري في أوليات أيامه ويكون مؤتمر السودان. واتجه فريق ثالث موقفا

منهج الطغاة اللئيم في تدمير التربية والتعليم

جسدت الحرب الأمريكية ضد العراق ذروة التراجيديا العربية، وغدت الأحداث تأتي في كل يوم بجديد يكشف عن أزمة الأنظمة الاستبدادية والظلم الفادح الذي تدفعه الشعوب. ولا شك أن الدهشة قد إعترت الذين شاهدوا لافتات المتظاهرين العراقيين بعد الحرب مرفوعة فوق رؤوس زعمائهم باللغتين العربية والإنجليزية تغص عباراتها بالأخطاء التي يجب ألا تجوز حتى على الصبية الأحداث. مستوى ينم عن خلل جسيم وما آلت إليه أحوال التعليم في بلاد أبي عمرو الجاحظ ومهد دار الحكمة. فقد إرتدت إلى الأمية أجيال من العراقيين خلال الأربعين عاماً العجفاء. وكان ذلك عين ما يريده الطاغية ويتغيه. فالأمة التي يغيب وعيها الجهل تكون أسلس قياداً من تلك التي يسيجها الوعي والمستوى التعليمي والثقافي المتقدم. وكان هدف الطاغية منذ البداية أن يصيب العراق في كبده فيبدد شمل علمائه ومثقفيه بالقتل والتدمير والقهر والتشريد. فقبل أربعة عشر قرناً ظلت بغداد لمئات السنين عاصمة الثقافة في العالم والحاضرة السياسية والاجتماعية الأولى بلا منازع. فبرعت في كل صروب الإبداع، وجاءت بكل فن مستطرف وفريد. كان يرفدها تاريخها القديم الذي حفل بحضارات الإنسانية الأولى من فنون العمارة التي تجلت في حدائق بابل المعلقة، وفي القوانين التي تحفظ حقوق الإنسان تمثلت في تشريعات حمورابي، وفي الكتابة المسمارية التي قد تكون سابقة للهيروغليفية.

ها هم سادة الدنيا قديماً يعودون ليخطئ زعمائهم السياسيون اليوم في هجاء

المفردة، وفي إختيار العبارة المحكمة الصحيحة التي تشف عن مواقفهم. وذلك بعد أن نفذ صدام حسين برنامجه في اجتثاث المعرفة التي كانت تزرُق مضجعه. وما كان قادة البعث بمن فيهم صدام نفسه أكثر علماً واقتداراً حين دهمتهم القارعة فانكشفوا كمجموعة من الجهلة المستبدين.

ونحن في السودان لنا من ذلك نصيب وافر ونمر على نفس الطريق منذ أن شمر نظام مايو عن أظلافه واقتحم مستودع الخرف. كان نظام التعليم في عتقوانه وثورته التي تفجرت في بخت الرضاء أخذت تؤتي أكلها. وما كان يتعين علينا سوى أن نراجع ونشري لزوم التجويد. أقول ذلك بعد أن تلقيت رسالة ملتاعة من قارئ سوداني كانت كل كلمة فيها تعبر عن عمق المأساة وهول الفاجعة. اعتذر فيها كاتبها الذي أكمل دراسته الثانوية -وقد بلغ الآن الثالثة والثلاثين- عن أخطائه النحوية والإملائية وعن ضعف قدرته على التعبير عن رأيه. تلك المرحلة الثانوية التي ظُلت عندنا ممثلة في كلية غردون حتى سنوات الأربعين مصنعاً يتخرج فيه أفذاذ الرجال. كانت رسالة القارئ غاضبة عاتبة عليّ لأنني كتبت عن الإنجليزي برامبل الذي كان مفتشاً لمركز أم درمان -ظن- ويا للراء- أنني أكتب عن الإنجليزي معجباً وأتجاهل الثقافة الوطنية.. حتى القدرة على التمييز عند القراءة افتقدوها. فمن لا يحسن القراءة لا يحسن الكتابة.

وأخذ يكيل السباب لجيل الإنجليزي الذي حسبني منه، ونذد بما وصفه بالحنين إلى الماضي، والخروطوم في أيامها الزاهرة، إلا أنه لم يستطع أن يوضح ما يريد. وقد كان شجاعاً ومدركاً بصورة نسبية لما هو فيه ولأزمة جيله -أولئك الذين ولدوا منذ مطالع سنوات السبعين.. أرضعتهم مايو من غثائتها وتنطعها وزيف شعاراتها وأجهزت عليهم «الإنقاذ» بتكريس القطيعة بينهم وبين المعرفة بصورة منهجية وسافرة. أضرمت النار في عشرات الآلاف من الكتب -ليس مجازاً وإنما حقيقة يعرفها كل الناس. وأغلقت البلد في وجه الكتب ومنعت

دخولها وصادرت ما كانت تجده في حقائب المسافرين.. وثبت عيونها في الجامعات والمعاهد تشد كل ما تراه يعبر عن بواكير وعي واستنارة.. حسبته لا ينسجم مع «المشروع الحضاري». والمدارس نفسها خللت من المعلمين الأكفاء ومن المناهج المجودة والمجربة التي كانت تنعقد حولها ورش التربويين الثقات.

جزع القارئ في رسالته من الديمقراطية القادمة وكأنها خطر داهم وتوجس منها، ونحت تعبير «الاستبداد الديمقراطي».. -بإلها من جسارة- وما أدرك أن السبب في كل ما حاق به وبجيله هو غياب الديمقراطية الراشدة المستنيرة والمناخ الحر المعافى وسيادة الرأي الواحد الإقصائي الذي يزدري كل المعاني والقيم التي راكمتها البشرية خلال مسيرتها الدامية الطويلة.

ما دفعني للإعتقاد بأن كاتب الرسالة من جماعة «الإنقاذ» -رغم نفيه البات لذلك الانتماء- جرأته في الباطل والانتهاكات المعدّة والجاهزة دون سند من معرفة، ومحاولات النيل والانتقاص مما يعتقد أنه الآخر بعلامات الاستفهام والقوسين والتنصيص حول كلمات معينة. يفعل ذلك ويعتذر عن ما يسميه بتخطي حدود اللياقة والأدب.. يقول ما يريد ويدرك عدم موضوعيته فيعود ويطلب المغفرة.. يندفع ويتراجع. هذا السلوك لا يخفى على أحد.. هذا سلوك جماعة الإنقاذ.. تشوهات أصابت عقول ووجدان كثير من أبناء تلك الأجيال.. ضاعوا وسط الهرطقات والسفسطات والوعود الزائفة.. والأمال الكاذبة.. وها هو المعبد ينهار على رؤوس الجميع.

ومن المؤكد أن هناك استثناءات بارزة من هؤلاء الشباب -ولكنها قليلة- إلتقينا بنماذج منها فغمرتنا بالدهشة والإعجاب.. شباب صهرتهم تجارب القهر والعنت وجفاف الحياة ونضوب منابعها فتجاوزوا محنتهم وطوروا ذاتهم ونفوقوا في كثير من المجالات.. لم ينتظروا حتى تأتيهم رُخاء، أبحروا في مختلف الاتجاهات وأحرزوا كثيراً من النجاحات.

رددت على صاحبي القارئ رسالته بصورة حاسمة وحازمة ومرتفعة فتلقيت منه أخرى اعتذر فيها وأكد عدم صلته بالإنقاذيين وأعرب عن حب عميق لدينه ولوطنه.. وطالب بمساعدة ذلك الجيل الذي أضاعته الأهواء السياسية. إن خسارتنا لا تعوض في تلك الأجيال التي جارت عليها سلطات الاستبداد وأخلت بنظمها التعليمية وحرمتها من الحرية والديمقراطية.



مدرسة سنار الأولية في عام 1908

أبله البسمة كالقرد الصفيق

في منتصف سنوات السبعين ونعال النظام المايوي على جبين الشعب اندفع جنود مخمورون من حامية ريك القريبة من مدينة كوستي يطلقون النار على الناس.. فأصابوا بعضهم.. وربما قتلوا واحداً أو اثنين.. فنازعت السلطة القضائية في كوستي ضباط حامية ريك تريد اعتقال الجناة للتحقيق والمحاكمة.. والضباط يصرون على الاحتفاظ بهم في حراساتهم. نشأت أزمة وصلت أبنائها إلى الخرطوم وسمع الأستاذ أحمد خير وكان شيخاً قد تجاوز السبعين ولكنه تجشم مشقة السفر إلى كوستي للوقوف على جلية الأمر وللدفاع عن حق الضحايا. ولما دخل مكتب القاضي، عبدالمحمود حاج صالح، وجد المحامين والضباط جالسين يبحثون كيفية الخروج من الأزمة، فسلم على المحامين وتجاهل العسكريين وامتنع عن مصافحتهم ولما حاول القاضي أن ينبه بلطف بوجود الضباط اعتذر بقوله: «يا بني لقد كبرت وكلُّ بصري وت لا أرى الكاكي»!!

28 مايو 2002

وسطاً ورأى أن يستنير بالتاريخ ويهتدي بالسوابق دون أن يتقيد بها. والعبرة بقيام هيئة تضم الخريجين أما المستقبل فهو من شأن الأجيال اللاحقة.

كان أحمد خير هو صاحب الدعوة لتأسيس مؤتمر الخريجين في السودان. ولم يعتبر دعوته هذه ناتجة عن فكرة عبقرية أو إلهام. وإنما هي محصلة طبيعية لما تراكم من نشاط وتجارب أسهم فيها المفكرون والكتاب والشعراء، كما لم يتجاهل التأثيرات الإقليمية كالحركة الشعبية في مصر والشرق العربي وحركة التحرر العالمية وفي مقدمتها «المؤتمر الهندي». كانت دعوته لهذه المؤسسة التي لعبت دوراً خطيراً وحاسماً في تشكيل مستقبل البلاد قد ظهرت لأول مرة في يونيو 1935 على صفحات جريدة «السودان» في خطاب مفتوح إلى «طوبجي» - خضر حمد - من أحمد خير. لكنها لم تثر اهتماماً في أوساط المهتمين وقادة الرأي. ولكنه عاد وطرحها مرة أخرى على صفحات مجلة «الفجر» في مايو 1937 في محاضرة قدمها في نادي ود مدني عن «واجبنا السياسي بعد المعاهدة» يعني بها معاهدة 1936. وفي هذه المرة لقيت إستجابة وإستعداداً من جانب أعضاء المدارس الفكرية التي كانت تقود الرأي العام في مدن العاصمة. فمقدوا اجتماعات وبحثوا المشروع حتى برزت الفكرة إلى الوجود.

إسترعى انتباهي قول أحمد خير «إن الوطنية والأدب متلازمان» وهو قول دقيق من الناحية التجريدية.. عميق من الناحية الموضوعية.. حيث ظلت الثقافة والمعرفة - والأدب جزء من ذلك - عنصرين أساسيين لتطویر الوعي بالذات والإحساس بالمسؤولية تجاه الوطن والإنسان. وقد تميّز قادة الأمم والشعوب عبر التاريخ بالإهتمام العميق بالثقافة والفكر وحركة التاريخ.

كان أحمد خير أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية ود مدني الأدبية التي نشأت في صيف عام 1936 بعد أن نقل تجربة مدرسة أبوروف الفكرية عدد من أفرادها

الموظفين الذين نقلوا إلى تلك المدينة. نشأت في قلة محدودة كأنها مجموعة من الماسونية كما وصفها أحمد خير. وكان هدفها الأساسي هو التثقيف الذاتي وتطوير ملكات الكتابة والخطابة والحديث. ولم يلبث الحال أن ازدهرت وترددت أصداء نشاطها في الصحف والأندية الأخرى وباتت محط الأنظار وموضع الإعجاب من جانب المشتغلين بالأدب والقضايا العامة.. كما أصبحت مصدر إعزاز وفخر للمدينة لا يغفل عن زيارتها كبار المسؤولين والزوار. إلا أن السلطات البريطانية رأت فيها خطراً فعمدت إلى اختراقها لتلمس الاتجاهات العامة وقياس درجة الوعي. فكلفت ضابط التعليم بمراقبتها فكان يضيق ذرعاً بمناقشة الشؤون المحلية والنظريات السياسية كالشيوعية والفاشية والديمقراطية. ومن أهم إنجازاتها التي باتت جزءاً من التاريخ الفكري والثقافي في القرن العشرين أنها أقامت مهرجاناً أدبياً كان بمثابة العيد القومي للبلاد. فازدحمت مدينة ود مدني بوفود الأدباء المشاركين والأعيان الزائرين من الشيوخ والشباب وانتهالت برقيات التهاني بالمشات من بينها برقيات من السادة زعماء الطوائف الدينية. واندفعت سلطات المدينة مهرولة حتى لا يفوتها شرف المشاركة في ذلك المهرجان وطلب مدير المديرية أن يلقي خطاباً خلال حفل الافتتاح. ووصف أحمد خير ذلك المهرجان بأنه أصبح عيداً وطنياً وصارت شعلته مثل شعلة الأولمب عند قدماء اليونان تنتقل من مدينة لأخرى فمن ود مدني إلى أم درمان ثم الخرطوم فالأبيض وعطيرة. من هذا المناخ الفكري العارم والوعي المتعاظم بقيمة الثقافة انطلقت الدعوة لقيام مؤتمر الخريجين.

صدر كتاب «كفاح جيل» في عام 1948 بعد أن خاض أحمد خير تجربة مؤتمر الخريجين كاملة حتى قيام الأحزاب السياسية. ولقي الكتاب رواجاً واستقبالاً حاراً.. فلغته كانت ملتزمة وعباراته مصادمة لا تساو.. وقد شن فيه هجوماً عاصفاً على الطائفية وعلى زعيمها.. وعلى شيوخ الأفندية الذين شكلوا التيار المعتدل.

ولم تصدر للكتاب طبعة أخرى إلا في عام 1970، إلا أنه ظل بغية الباحثين والدارسين المتخصصين وحديث الناس في المجالس وإن كان معظمهم لم يحصل عليه لندرة نسخه وصعوبة التوصل إليها.

يعتبر أحمد خير أحد أعلام الحركة الفكرية والوطنية في السودان. كان ذكياً فطناً ذا عقلية متقدمة وعاطفة حارة وحماسة صادقة دفعته لأن يدخل السجن مرات أثناء فترة الاحتلال البريطاني. وقد ولد بمدينة ود مدني في نحو عام 1905 وتخرج في كلية غردون مترجماً في عام 1925. ولما افتتحت مدرسة الحقوق التحق بها بعد أن تقدّم به العمر قليلاً وتخرج فيها عام 1944 واشتغل بالمحاماة. وكان أحمد خير من الرواد الأوائل بين الاتحاديين الذين إتخذوا التعاون مع مصر وسيلة لتحقيق الإستقلال وظلّوا يناوئون الإستقلاليين الذين كانوا يتشككون في نوايا السياسيين المصريين وشعار وحدة وادي النيل تحت الناج المصري. ولما كان أحمد خير فردي النزعة متميّز الشخصية حاد الطبع لم يستمر ملتزماً بالعمل في صفوف المجموعات الاتحادية فصار اتحادياً مستقلاً يخاصم المعسكرين مستخدماً قدراته الفكرية والسياسية. وقد صدرت له سلسلة مقالات شهيرة انتقد فيها الإدارة البريطانية ثم جمعها فيما بعد في كتاب سماه «مأسي الإنجليز في السودان» لقيت صدى في الأوساط الوطنية إلا أنها كانت تنعي عليه مظاهر الفردية وحدة المزاج.. وقد حال ذلك الانطباع دون مشاركته في الحكومات التي أعقبت الإستقلال والتي استوزر فيها من هم أقل منه قدرة وتضحية وإسهاماً في الحركة الوطنية.

وعند وقوع انقلاب نوفمبر تمّ إختياره وزيراً لخارجية النظام الجديد الذي بات صديقه محمد أحمد أبورنات رئيس القضاء عرابه ومهندس القانوني. رأى الوطنيون في شغله لهذا المنصب خاتمة محزنة لتاريخه ووصمة في سجله الوطني، خاصة بعد مصادرة الحريات وملاحقة الوطنيين وتكسيم الأفواه واتجاه

جميع القوى السياسية لمعارضة نظام عبود.

وبعد وقوع مأساة الكونغو واغتيال لوممبا وافتضاح موقف حكومة عبود المخزي وجد الأستاذ أحمد خير نفسه في موقف لا يحسد عليه، كأحد دعاة الحرية والمنافحين عنها. وقد لخص الشاعر صلاح أحمد إبراهيم غضبة الشعب السوداني على هذا الموقف في مقدمة ديوانه «غضبة الهبائي» بقوله «أما من قضية هزت إنسانية أفريقيا وإنسانها، وأقلقت ضمير الحرية ووجدانها مثل مقتل لوممبا وامتحان الكونغو. ونحن في السودان نعرف كجوع بطوننا. الخيانة السافرة التي ارتكبتها باسمنا حكومة التأمير العسكري من خذلان للوممبا باسم الأمم المتحدة ومحاصرة لأنطونين جيزنجا باسم الحياد.. إن لنا قسطنا من العار.. ومسؤوليتنا في كل شقاء مر به الكونغو وكل شقاء جديد، في كل دم يسفح وكل خيانة تظفر، لقد أحرنا قضية الحرية في الكونغو، أحرناها أعواماً وأعواماً بما فعل عبود وأحمد خير وحسن بشير وبقية البله والانكشارية ببادق الأمريكان. سيذكر لنا التاريخ بالخزي واللعنة منع جنودنا لرئيس وزراء بلاده الشرعي من مخاطبة شعبه بأمر همرشولد. وسيذكر لنا التاريخ صدنا للوممبا عن المطار ومعاندته باسم الأمم المتحدة. وسيذكر لنا التاريخ إستسلامنا الحقيق الجبان لموبوتو في متادي. وسيذكر لنا التاريخ حبسنا الدرب وقطعنا خط الشمال - خط الإمداد الوحيد حتى ماتت حكومة ستانليغيل صبراً». وفي إحدى لوممبياته يقول:

النعام الدبلوماسي الأنيق

يدفن الهامة في كوم من اللفظ رقيق

راجفا عن قولة الحق التي تنقذ شعباً

في نيويورك ضمير «العالم الحر» الدنس

في نيويورك التي ردت لوممبا

وحمت - فيمن حمت من قبل - ذنباً

ومما لا شك فيه أن مصر ظلت مهداً للحضارة طيلة عشرة آلاف سنة بينما كان بقية العالم يزرع في ظلمات الوحشية والحياة البدائية. ورغم ما تعرضت له من عمليات احتلال متتالية إلا أنها ظلت لأمد طويل تلقن شعوب المتوسط من أغريق ورومان مبادئ التنوير الحضاري.

وذكر فيجاك شامبوليون - أبو علم المصريين - « أن القبائل الأولى التي استقرت في مصر - بين شلال أسوان والبحر - جاءت من الحبشة أو سنار. وكان قدماء المصريين ينتمون إلى جنس بشري مشابه تماماً لذلك الجنس الذي يعيش حالياً في النوبة. وتشير الكتابات التاريخية إلى أن النوبيين هم أسلاف معظم سكان القارة الأفريقية».

وجاء في تاريخ ديودور الصقلي أن السودانيين يقولون إن الآلهة كافاتهم على تقواهم بامتيازات عظيمة وجنيتهم السقوط في أيدي الغزاة الأجانب، فحافظوا على حريتهم بفضل الوحدة العظيمة التي سادت بينهم دائماً. وقد فشل قمبيز الفارسي في غزو السودان وهلك جيشه بالكامل - فيما هو أشبه بالأسطورة - ونجا هو من الموت بأعجوبة. والملكة سمير أميس المشهورة بذكائها ومضاء عزيمتها توجست شراً حين وطأت أرض كوش وأحسّت أنها لن تنال مبتغاها فعادت أدراجها.. وربما كان إمتناع الأجانب عن غزو النوبة ناتجاً عن الخوف من قوتهم - فهم رماة الحديق - أو تقديراً لتقواهم.. فقد جاء في الياذة هوميروس أن «جوبيتر اليوم.. وبرفقة كل الآلهة يتقبل القرابين من الكوشيين فوجاء فيها أيضاً» وبالأمر.. ومن أجل زيارة كوش المقدسة إنتقل جوبيتر إلى شواطئ المحيط». ومن فرط إعجاب الأقدمين بهم إعتقد ديودور الصقلي أنهم لم يأتوا من أي جهة أخرى وإنما نبعوا من الأرض قبل بقية البشر لموقعهم المباشر تحت مسار الشمس.

ويعتقد المؤرخون أن كوش كانت مصدراً لرجال يتفوقون على بقية الجنس البشري بارتفاع قاعتهم وجمال نقاطيعهم وإمتداد أعمارهم، وقال المؤرخ الصقلي «لا يوجد

البارية ورثة الحضارة السودانية القديمة

«وبالأمس... ومن أجل زيارة كوش
المقدسة، إنتقل جويش إلى شواطئ المحيط»
"إلياذة هوميروس"

وصف الرحالة الألماني الجنسية فرديناند فيرن أفراد قبيلة البارية في جنوب السودان - حين زار منطقتهم في 20 يناير 1840 مرافقاً للبكبباشي المصري سليم قبودان في حملة لاستكشاف منابع النيل - وقال «إن ملامح هؤلاء البارية كانت لطيفة بصورة ملفتة للنظر وأنهم طوال القامة أقوياء البنية، أنوفهم عريضة بعض الشيء ولكنها ليست مفلطحة، بل على العكس من ذلك مرتفعة قليلاً، كما هو ملاحظ في أنف رمسيس الثاني، والفم كبير ممتلئ يماثل أفواه قدماء المصريين كما يبدو في تماثيلهم، والجبهة عريضة ومقوسة، والعيون بريقة معبرة». وكشف فيرن عن تواحي الحياة التي كان يحياها هؤلاء البارية وأوجه النشاط الاقتصادي التي كانوا يمارسونها، وأشار إلى حسن استغلالهم لموارد بلادهم الطبيعية المعدنية والنباتية والحيوانية. وقال إنهم كانوا يستخرجون الحديد الخام من المرتفعات ويصهرونه ثم يسبكونه في كتل متوسطة الحجم على شكل كرات - كما كان يفعل أهالي كردفان في غرب السودان - ومن هذه الكتل كانوا يصنعون الآلات القاطعة والمعدات التي يحتاجون إليها في كدحهم اليومي. وقال فيرن إن هؤلاء البارية كانت لديهم علاقات تجارية واسعة النطاق مع القبائل والشعوب المجاورة. ولاحظ أن الدين والمعتقدات الديشية

لا تشغل حيزاً من تفكيرهم، إلا أن علاقاتهم ومعاملاتهم تقوم على أسس متينة من المحبة والإخاء والتعاون والسلوك الراقى. ورأهم يقبلون بعضهم بعضاً في مختلف الظروف والمناسبات، وتجسد الواحد منهم يأخذ بيد الآخر عند صعوده القارب أو عند نزوله منه، ووصف الرحالة الألماني لقاءه مع سلطان البارية بقوله « وقد حضر السلطان لآكونو لمقابلة سليم على ظهر السفينة تصحبه زوجته السلطانة أشوك وبعض أفراد حاشيته، وفرقة من الموسيقى ظلت تعزف حتى وصول موكبه إلى الشاطئ. وعند وصوله أطلقت سفن الحملة مدافعها تحية للضيف الكبير. وكان السلطان يرتدي قميصاً طويلاً واسعاً من القطن أزرق اللون وله أكمام واسعة طويلة، وفي وسطه حزام من القماش الأبيض والأزرق وحول رقبته عقود من الخرز الزجاجي وأطواق من الأسلاك الحديدية الرقيقة ويضع في قدميه صندلاً من الجلد السميك أحمر اللون، وفي أصابعه خواتم من الحديد اللامع.

لم تفارق مظاهر العز والسلطان والأبهة الحقيقية عاهل البارية لحظة، فقد جلس إلى مأدبة البكباشي سليم قبودان يؤاكلة متخذاً أرقى أنواع السلوك الملوكي والترفع متمسكاً بآداب المائدة ومتعاملاً مع حاشيته أثناء ذلك بنوع من الاحترام والعطف والتقدير.

هذا جزء من كل.. فهؤلاء لم يكونوا جزيرة منعزلة بحضارتها وإنما يجسّدون حالة تاريخية تجاهلها الأوروبيون حين غزوا القارة.. زعموا أنهم وجدوا شعوباً بدائية رغم ملاحظتهم بقايا حضارة زائلة تبذت في السلوك الإنساني الراقى ونظم الحكم المتقدمة.. التفوا بملوك رعاة وليسوا طغاة - أنكروا ذلك كله وزعموا بوسائل الدعاية المختلفة أن أفريقيا بحاجة إلى مدينتهم المفروضة بالحديد والنار. وسعوا لتشويه شخصية الأفريقي المعنوية واستعداداته الفكرية لتبرير عدوانهم عليه.

اللافت للانتباه - فيما تقدّم من حديث - وصف فيرن لهؤلاء البارية وتشبيهه إياهم بالفراعنة، وليس هذا بغريب على كتابات المؤرخين الأقدمين، فقد ذكر المؤرخ

اليوناني ديودور الصقلي «أن السودانيين يقولون إن المصريين من بين جالياتهم التي أقامها أوزيريس في مصر، بل أنهم يزعمون أن مصر لم تكن في بداية التاريخ سوى بحر غمره طمي اثيوبيا الذي جرفه النيل وحولها إلى جزء من القارة».

ويقول ديودور الصقلي «إن السودانيين يزعمون أن أبناءهم المصريين نقلوا عنهم جانباً كبيراً من قوانينهم وأنهم تعلموا منهم تجميل الملوك كآلهة ودفن موتاهم في احتفالات مهيبة وإن التحت والكتابة نشأتا لديهم». ويقول الكاتب السنغالي شيخ أنثا ديوب في كتابه المثير للجدل «الأصول الزنجية للحضارة المصرية»، إن المصريين والسودانيين إن لم يكونوا من نفس الجنس الأسود لنوه المؤرخ القديم ديودور باستحالة إعتبار المصريين من جالياتهم- أي سودانيين إستقروا في مصر فكانوا أسلافا للمصريين»، وكشاهد عيان أفادنا أبو التاريخ هيرودوت أن المصريين كانوا أفارقة سمر الألوان ثم أثبت بعد ذلك بنزاهة تادرة (وهو الإغريقي) أن اليونان أخذت من مصر كل عناصر حضارتها بما في ذلك عبادات الآلهة وإن مصر هي التي كانت مهد الحضارة.

إن تاريخ مصر بأسره يدل على أن اختلاط السكان الأصليين مع عناصر بدوية بيضاء من الغزاة والتجار كان يتزايد أكثر فأكثر كلما اقتربنا من نهاية التاريخ القديم. وجاء في كتاب «أبحاث فلسفية حول المصريين والصينيين بقلم م. دي باو أن مصر كانت مكتظة في العصر المتأخر بجاليات أجنبية من الأجناس البيضاء، فالعرب كانوا في قفط والليبيون في موقع الإسكندرية واليهود على مقربة من مدينة هراكليس والبابليون في منطقة المحاجر الكبرى الواقعة شرقي النيل والكاريون والأونيون عند فرع دلتا النيل الشرقي، كما كان هناك الطرواديون الهاريون. وقال دي باو إن هذا الغزو السلمي بلغ أقصى مداه حين عهد الفرعون بسامتيك إلى فرق أجنبية وممزقة يونانيين مهمة الدفاع عن مصر». وبعد فتح الأسكندر لمصر اتسع مدى انصهار اليونانيين البيض مع المصريين السمر ليتخذ شكل سياسة إستيعاب في عهد البطالسة.

الموظفين السودانيين بعد مفتش المركز البريطاني.

ومن الطرائف التي أوردها السيد عبد الرحمن عبد الله في كتابه ذلك الحديث المشاعب للسيد محمد محمود الشايقي وكيل وزارة الداخلية في عام 1954 للدفة الجديدة من نواب المأمير - وكان من بينهم كاتبنا ابن القاضي الشرعي - فقد حذرهم مداعباً بضرورة اتخاذ الحيطة والحذر عند التعامل مع القاضي الشرعي الذي وصفه بأنه كفء وقوي الملاحظة، ولكنه دائماً ما يكون كثير المطالب فيما يتعلق بصيانة المنزل أو رعاية حديقته أو تسهيل مأمورياته. وكانت النصيحة باختصار أن يمدوا له يد العون وأن يحاذروا في الوقت نفسه من مواجهة مشاكل إجتماعية!!

لا شك أن كاتبنا قد نعم في طفولته بحياة سعيدة متنوعة كابن أحد كبار الموظفين فقد ركب القطار - الذي أحبه - في زمن مبكر في الدرجتين الفاخرتين « الأولى » و« النوم » واستمتع بتلك الخدمات التي كانت تقدم في قطار ذلك الزمن الاستثنائي. وأتاحت له ظروف التنقل أن يرى مدناً كثيرة. وصف القطار وصف محب كانت الدهشة تملأ أقطار نفسه الغضة. وحق له أن يفعل ذلك فقد كان القطار بشكل عالمياً مختلفاً في ذلك الوقت.

وما زلت أذكر القطار وهو يمر أمام دارنا بمدينة كوستي حين تهدأ سرعته شيئاً فشيئاً فتحيي الركاب ملوحين بأذرعنا النجيلة وتركض حفاة مسافات تطول وتقصر في موازاته حتى ينال منا التعب.. لقد ملأ عالمنا في الطفولة وكان يستحوذ على جزء من حياتنا اليومية رائحاً وغادياً.. رأينا من خلاله وجوهاً وسحنات... رجالاً ونساء وأطفالاً.. أعراساً ودفوفاً وزغاريد.. ووفيات ونساء ناكلات.. وطلاباً يهتفون متظاهرين قادمين في إضرابات من خورطقت أو الفاشر، أو عائدين في الإجازات في جمعيات مسرحية وموسيقية أو فرق رياضية. رأينا جنوداً عائدين من عطلاتهم ومساجين يتم تحويلهم إلى سجون أخرى. كان يسعدنا حين يحمل إلينا أحياناً بعضاً من أفراد أسرتنا وأهلنا الذين يعملون في مناطق الغرب. وما زلنا نعيش في ذكرى أسر ذلك

موقع آخر في العالم غير كوش صادفنا فيه حضارة بدت لنا مسيرتها مؤكدة ومحاطة بمعالم الأسبقية التي لا نزاع فيها، لأن معاصريها أفادونا حتى بمحاولاتها الأولى وتصورها وتصورها.

فالملوك الذين طردوا مفتصبي عرش مصر الليبيين في عهد الأسرة الخامسة والعشرين في حوالي عام 750 قبل الميلاد كانوا بالفعل ملوكاً سودانيين. فقد إعتلى شاباكا عرش مصر بعد أن طرد بوخوريس الغاصب، وقد استقبله الشعب المصري بحماس باعتباره منهم وباعثاً للتقاليد المشتركة في إطار تلك القرى التي تجمع بين الشعبين، ونقل هيروdot عن الكهنة المصريين قولهم إن من بين الفراعنة الثلاثمائة منذ عهد نعرمر (مينا موحد القطرين) حتى الأسرة الثامنة والعشرين كان ثمانية عشر فرعوناً من أصل سوداني، وقد اعتبر المصريون دائماً بلاد النوبة وأغوار أفريقيا أرضاً مقدسة جاء منها الأسلاف - وذكر ديودور الصقلي أنهم كانوا يخرجون كل عام تمثال أمون ملك طيبة باتجاه النوبة (أي السودان) لبضعة أيام ثم يعيدونه بعد ذلك للتدليل على أنه عاد من النوبة.



إثنان من زعماء البارية في منقلا عام 1926

الشفافية وأنفاس الحكمة

عبد الرحمن عبد الله

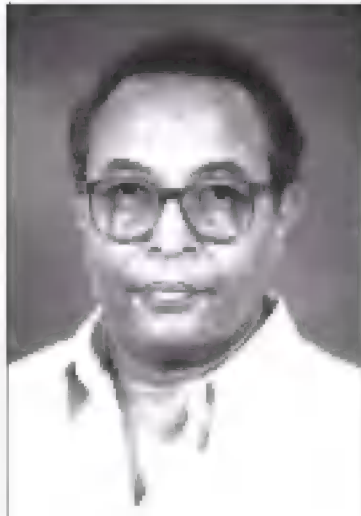


كتب كثير من القيادات السودانية الذين تبوأوا مواقع في العمل العام عن سيرهم الذاتية وعبروا عن رؤاهم وقرأنا جل ماكتبوا لمعرفة خصائص تجربة بلادنا وأسباب الإخفاقات التي لا تنبي تحاصر حاضرتنا وتهدد مستقبلنا. إلا أنني ما قرأت تجربة إنسمت بالشفافية ووضوح الرؤية مثلما لاقيت في مؤلف السيد عبد الرحمن عبد الله «السودان.. الوحدة أم التمزق». والرجل عالم إداري بارز وخبير دولي مرموق المكانة تسنم عدة مناصب في بلاده وعلى الصعيد الإقليمي والدولي وقدم نموذجاً متماسكاً لقدرات المثقف السوداني في المثابرة والكبح المعرفي. بدأ مؤلفه بموجز عن جغرافية وتاريخ السودان بصورة مكثفة مكتنزة شكلت خلفية متسقة مع السياق الأنبي. والواضح أن الرجل قرأ كثيراً جداً.. قراءة عميقة صبورة متأنية شملت ضروباً شتى من المعارف قبل أن يمسك بالقلم. لم تكن قراءة ليلة وضحاها ولا «علوقاً للشدة» وإنما إستيعاب مهضوم لقارئ كادح لا يضمن بنفسه على السهر الطويل. ذلك

بالإضافة إلى تجربته الغنية المتنوعة في العمل الإداري في الداخل والخارج. استشهد بمن كتب عن السودان وأورد مواجز جامعة تنم عن حسن إختيار ونبصر.

قال في شفافية نادرة - خللت منها كتب الآخرين - في حديثه عن الديمقراطية « وفي أي محاولة لمنح الديمقراطية فرصة حقيقية فإن المهم أساساً هو إدراك أنه لا يمكن أن يكون هناك مجتمع ديمقراطي من غير ديمقراطيين فإن ذلك النفر ولا استثنى كاتب هذه السطور - الذين قدموا يد المساعدة لتعزيز أو استمرار حكومات غير ديمقراطية مهما كانت أهدافها وانجازاتها ينبغي أن يتحملوا المسؤولية التاريخية أمام ما لاقى وبلافي شعبهم من قهر وتخل. يكتب ذلك بالشفافية، والتي هي لفظ مخفف إبتدعه جورباتشوف بديلاً للتعبير اللينيني التنظيمي الصارم « النقد والنقد الذاتي ». يشير إلى تجربته دون ريب.. فقد كان أحد المسؤولين الكبار الذين تقلدوا مناصب وزارية مهمة في نظام نميري.. جاءوا به من موقع الإداري الحاذق وموظف الخدمة المدنية الكفء.. طاهر اليد واللسان، ليسهم في صنع سودان جديد.. آمال قعدت بها إمكانيات الزعيم المتواضعة وأهل الباطل الذين احتووه. جاءت مقدمة الكتاب لطيفة وجذابة زانتها عذوبة الحكى ورصانة اللغة.. فتحدث عن طفولته ومرايع صباه بشوق وتحنان، فقد كانت ثرية متنوعة في كنف والده العالم الإسلامي والقاضي الشرعي مولانا عبد الله أحمد يوسف الرباطي الذي قرأت عنه في مؤلف الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم «أدباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان». ما كنت أعلم أنه والد السيد عبد الرحمن عبد الله. وقد كان الرجل أدبياً قارئاً نهماً ومنذ بفاعته اشتهر بين أترابه في الدراسة به المختصر». ربما كانوا يعنون «مختصر خليل». وقد ألف كتاباً موسوعياً عن «النخيل» أشار إليه أبوسليم أيضاً وأسهب في وصفه. وقد تخرج في كلية غردون النذكارية من قسم الشريعة في عام 1913، حين كان خريجاً ذلك القسم يفضلون على أقرانهم في الأقسام الأخرى ويرمقهم المجتمع السوداني بنظرة فيها كثير من التوقير والإعجاب. وكان القاضي الشرعي والمأمور من أبرز

السودان حروب الموارد والهوية



د. محمد سليمان

«الحرب القادمة ليست بالحرب الأولى
فقد سبقها في التاريخ حروب وحروب
انتهت الحرب السابقة... بمنصرين ومهزومين
عند المهزومين جاع عوام الناس
وجاعوا أيضاً عند المنصرين»
برتول برشت

ترجمة الدكتور محمد سليمان»

القطار الهادر الوقور وصافرته التي تعلو عند المنحنى متجها نحو المحطة.

حين بات على أبواب التخرج في مطلع الخمسينات كان يداعب السيد عبد الرحمن عبد الله حلم العمل في الإدارة الميدانية الذي كان حلم طفولته «نسبة لما كنت أشاهده من مميزات يتمتع بها الإداريون وأنا أرافق والدي، موظف الخدمة المدنية الذي عمل في عدد من المواقع المختلفة. وكان هناك منزل الأمور الواسع الأرجاء بأشجاره الوارفة والخدم يجوبون أنحاءه والمساجين يعتنون بحدائقه ورجال الشرطة وموظفون آخرون بملابسهم الرسمية يهرولون وراءه في كل مكان، أما المفتش الإنجليزي فهو دنيا كانت قائمة بذاتها، يعيش في عزلة المختارة في منزل فسيح في طرف المدينة وكأنه إقطاعي كبير».

وقد رصد في حديثه عن تاريخ الإدارة في فترة الحكم الثنائي تجربة المفتش الإنجليزي التي لا يفنأ كثير من السودانيين يذكرونها كلما التفتوا ورأوا جيشا جرارا من الإداريين اليوم يتزاحمون في الحصول على الامتيازات والسيارات والترقيات يجمعون كثيرا ولا طحنا يرى ولا غبار دقيق.. يذكرون المفتش ذلك الشاب الإنجليزي الصارم النظرات الذي له في كل مشهد حضور وفي كل موقف رأي قاطع.. يواجه المخاطر ويعقد المحاكمات ويفض الخصومات.. يجوب البوادي ويتفقد الأسواق غير أنه لما يلاقي من متاعب وما يغشاها من رهق.. وكأنه بطل الغرب الأمريكي الذي لا يقهر ولا يموت.

التقى الإداري الشاب بعدد كبير من نظرائه الإداريين الذين سبقوه في الميدان وتركوا لديه إنطباعات عميقة لا تزول. وقد استأثر حسن دفع الله وداوود عبد اللطيف بكثير من إهتمامه. وقد وصف داوود بحدة الذكاء وسعة الإطلاع وروح المرح والدعابة والحنكة في العمل وعدم الالتفات لأساليب البيروقراطية. وقال إنه أطلعه مرة على خطاب سري تلقاه من زميل له رفيع المستوى في الرئاسة يأمره فيه بلهجة عنيفة بعدم مراسلة وكيل وزارة أخرى مباشرة، وكان رد داوود الساخر أنه روى له

كيف كان ذلك الزميل لا يستطيع إلا الإمساك بالبدنية رأساً على عقب خلال التدريبات التي سبقت التحاقه بالعمل الإداري. وقال إن داؤود كان يصف حاكم المديرية العسكري المعين آنذاك بأنه «العسكري الحاكم» ساخراً ومجرحاً. كما علق على شكوى من موظف صغير ضد مساعد له لا يحبه أحد بقوله بلهجته النوبية الفريدة «إنه مرؤوس جيد ولكنه رئيس ردي».

كانت تجربة عبد الرحمن الأولى بعد تخرجه في الجامعة عام 1954 في مركزي الرنك وملكال بمديرية أعالي النيل ثم في فنجاك وسط قبيلة النوير التي أحبها وظل وفيها لعدد من أفرادها حتى بعد أن غادر إلى مناطق أخرى. ولم يكن بعيداً عن مشكلة جنوب السودان وظل لصيقاً ومتابعاً لتطوراتها، كما ظل يؤمن إيماناً عميقاً بوحدة بلاده وإمكانية حل النزاع إذا تمَّ إحترام حقوق الإنسان الأساسية من خلال الممارسة الديمقراطية الصحيحة واقتسام السلطة. ويرى أن العوامل الرئيسية التي تبدو شاخصة للعيان وتعرقل الوافق هي بالضرورة عوامل عدم الثقة والجهل وضعف الإرادة السياسية لحل الخلافات. ويدرك أن موضوع حق تقرير المصير الذي بات مركز اهتمام متزايد لا يمكن تناوله باستخفاف أو تنفيذه من خلال إتفاقية جزئية أو حلول قصيرة الأمد قد تشق صفوف السودانيين. ويؤكد أن حق تقرير المصير قضية بالغة الأهمية، ليس من حق أحد سوى الشعب السوداني بأجمعه، أن يقرها أو لا يقرها، بصرف النظر عما يضره الغيب. ويقدم رؤيته للنزاع الذي يعصف ببلاده ومقدراته بعمق وحكمة وبساطة خالية من التعقير والتنظير الأجوف ويرى في الدماء التي سالت والفرص التي ضاعت أساساً لوحدة محتملة.. فهجرة الجنوبيين الواسعة نحو الشمال وانتشار التعليم قد يخففان من الغلواء ويدفعان نحو الوحدة والانسجام. ويرى ضرورة أن يهتم السودانيون بجوانب التوحد وليس الانقسام وأن تتركز الجهود الفكرية على تشجيع التفاعل الإنساني وديناميكيته من أجل صهر الأمة.

كتب السيد عبد الرحمن عبد الله مؤلفه باللغة الإنجليزية فجاء نصاً متماسكاً

أصوات

مشدود العري محدّد الكلمات والأهداف مما انعكس إيجاباً على الترجمة التي اضطلع بمهمتها أستاذنا المقتدر الفاتح التجاني فأحسن الأداء.

25 يونيو 2002

الكتاب الذي صدر أخيراً بعنوان «السودان.. حرب الموارد والهوية» لمؤلفه المفكر والمثقف الموسوعي السوداني الدكتور محمد سليمان يضع جميع السودانييين أمام مسؤوليتهم التاريخية في هذا المنعطف الحاد والخطر.. إنه صبيحة من أجل وقف الحرب وتحقيق السلام.. ليس سلام التسويات المؤقتة والترصيات الفردية.. إنما السلام القائم على العدل وتوزيع الثروة والسلطة.. وهو يحاول تقديم رؤية تحليلية جديدة غير ما ألفنا من الأفكار السائدة التي تتناول طبيعة النزاعات المسلحة والحروب الأهلية التي إستشرت في نواحي السودان.. كما أنه اتسم بالفعل التوثيقي ليتجاوز النقص الذي صاحب المراجع التي اتصلت بالمحنة التي تهدد كيان السودان ووحدة.. كما يعتبر الأول من نوعه في مجال علم «الايكولوجي السياسي».

تناول المفكر محمد سليمان قضايا الصراع في السودان في بساطة ويسر وأعاد إلى أسبابه الحقيقية وطالب أبناء شعبه بالتأمل فيها للخروج من دوائل الموت التي لا تنى تنداح وتوسع لتبتلع خيرة الشباب وتكرس مزيداً من المحن والضغائن وترزعزع الأمن القومي وتمزق النسيج الاجتماعي، وركز المؤلف جل اهتمامه على الإنسان السوداني وأبرز مصالحه الأساسية وحقوقه المشروعة.. كما طالب مثقفي وطنه أن يضعوا على عواتقهم واجب إزالة ظلامات شعبهم والمساهمة العملية في الخروج من دائرة الحرب والتخلف دون الانغماس في التصورات الأكاديمية المجردة أو الانكفاء على الذات في الأبراج العاجية.

قدم المؤلف صورة يائسة وواقعا مضطربا وفجائع ماثلة وأخطارا إقتصادية واجتماعية وثقافية وبيئية ياتت تفرز نتائجها السلبية المدمرة، في كل منعطف وتجلي في كل مظهر من مظاهر الحياة اليومية.

وقف الدكتور محمد سليمان في عدد من المنابر الأكاديمية ذات الاختصاص في العواصم والمدن الأوروبية خلال السنوات الماضية - وهو الخبير في شؤون الإيكولوجيا السياسية ومدير مركز البديل الأفريقي في لندن منذ عام 1990 -

يتحدث عن محنة بلاده ويساهم بفكره في كيفية الخروج من هذه الأزمة ويدعو للتفكير في إمكانية إعادة ترتيب أجنحة الحرب والسلام في السودان عبر قراءة جديدة لبواعثها وتجلياتها في ضوء معايير تختلف عما هو متداول.

تناول الكتاب بشكل عام العوامل السياسية والاقتصادية لمعطيات النزاعات والصراعات الأفريقية والمفاهيم السائدة لتفسير بواعثها وربط ذلك بأبعاد الواقع السوداني- كما أبرز آليات الصراع الاجتماعي الناشئة عن تلك التغيرات، وتحدث أيضاً عن متركبات الواقع السوداني واندياحاته على الأصعدة الإيكولوجية «البيئية» والاقتصادية والاجتماعية والثقافية- كما ألقى الضوء على القوى الاجتماعية المستفيدة من تأجيج نار الحرب الأهلية.

واشتمل الكتاب على الملامح الرئيسية لمسارح عمليات الحرب والنزاعات المسلحة في الجنوب وجبال النوبة والأنقسا وشرق السودان ودارفور وأثار تلك الحروب والظروف المناخية وما نتج عن ذلك من اقتلاع وزروح مجموعات سكانية كبيرة متباعدة في خلفياتها الثقافية والاجتماعية. لذلك يعتبر هذا الكتاب محاولة لفهم النزاعات الدموية بين الجماعات بشكل عام بتجلياتها الأفريقية من خلال تفصي مظاهرها في بعض مناطق السودان، وليست هذه المساهمة سجلاً كاملاً لحالة الحرب والسلام في السودان وإنما تسعى لتحديد السمات العامة للظاهرة في كل جزء من أبعاده مع توثيق بعض الأمثلة المحددة. ويحاول الكتاب في الوقت نفسه أن يوجه كثيراً من الاهتمام للأثر الاجتماعي الذي ينشأ نتيجة للتحويلات السلبية التي تتعرض لها البيئة الطبيعية مما يشكل عاملاً مهماً لتأجيج الصراعات الدموية، ويرى أنه ما دام الترددي البيئي وشح الموارد يؤثران بصورة فعالة على طريقة حياة الناس وعملهم لذا فإنه من الضروري معالجة الشؤون الاقتصادية والقرارات السياسية ذات الصلة لتقويم أثرها على العنف في المجتمع.

ويظل أفضل ما احتوى عليه هذا الكتاب القيم هو التركيز على مأساة الريف

السوداني الذي أزيلت غاباته وتدهور الغطاء النباتي فيه نتيجة للتوسع الجائر في الزراعة المطرية (18 مليون فدان زراعة آلية تملكها حوالي ثمانية آلاف أسرة مقابل تسعة ملايين فدان زراعة تقليدية يملكها أربعة ملايين مزارع صغير). وأكد الكتاب أنه بحلول عام 2002 ستقرض كل الغابات الممتدة في شمال السودان ست مرات مساحة فرنسا.

وكشف الكتاب أن السودان فقد 17 مليون هكتار (40 مليون فدان) نتيجة لتعرية التربة جراء الزراعة المطرية الآلية -التي تتسم بالنهب- وأضحى أكثر من ستة ملايين شخص يعيشون تحت خط الفقر حتى بالنسبة للمقاييس السودانية، بينما نزح حوالي أربعة ملايين شخص من مناطقهم إلى أواسط البلاد حيث الأمن الغذائي أفضل نسبياً، بالإضافة إلى ثلاثة ملايين شخص فقدوا أرواحهم بسبب الحرب والمجاعة. وجاء في الكتاب أن الحكومات المتعاقبة منحت ملايين الأفدنة للمصقوة السودانية وشركائها الإقليميين والعالميين على حساب سكان الريف، وذلك في شرق السودان وجنوب النيل الأزرق وجبال النوبة وأعالي النيل وغيرها من المناطق في حزام السافانا الواقع بين خطي 7-15 شمالاً، ودون ضجيج تقوم حكومة الجبهة الإسلامية بتوزيع ملايين أخرى من الأفدنة على مؤيديها، وأورد مثالا لشخص واحد منح حوالي نصف مليون هكتار «1,040,000 فدان». بل وقبل الشروع في حفر قناة جونقلي بوقت طويل كلفت الحكومة شركة هولندية بإعداد دراسة جدوى اقتصادية للتخطيط الزراعي لمنطقة السدود مما أثار المخاوف لدى السكان المحليين الذي حملوا السلاح لحماية بيئتهم من النهب والتدمير وضمان بقائهم.. فقد بدأت الحرب الأهلية الثانية بالهجوم على حفارة قناة جونقلي وبضرب منشآت شركة شبقرون لاستخراج النفط. فهل الحرب التي تدور حالياً هي صراع بين العرب والأفارقة وبين المسلمين والمسيحيين أم هو نزاع على الموارد في المقام الأول؟ إن هذا الكتاب الذي يفيض بالمعلومات الموثقة يؤكد أن الأسباب الحقيقية لإمتداد

هذه الحرب هو الصراع من أجل الأرض والنفط والمياه.. ويقول إن عائد النفط أهم عند حكومة الجبهة الإسلامية في الخرطوم بما لا يقاس من دخول آلاف الجنوبيين الإسلام. ولم يغفل الكتاب دور الهوية في الصراع حيث لاحظ أنه يتعاطف مع استمرار التنافر والقتال. فكلما طال أمد الحرب كلما أخذت قضايا الهوية مكاناً متقدماً في وعي وإدراك المقاتلين من الجانبين.

قدم للكتاب باستهالة ضافية الدكتور صلاح آل بندر- مدير مؤسسة المجتمع المدني السوداني بمدينة كيميردج بالمملكة المتحدة وأثراء بالشروحات والحواشي كمساهمة رائعة في هذا العمل المختلف.

2 يناير 2001م

حروب الموارد.. المؤلف

لَمْ أجد موعاً للاستمرار في عرض الكتاب القيم «السودان.. حروب الموارد والهوية».. فما أوردته في الأسبوع الماضي يكفي فلسنا في حالة عرض لمحتوياته.. والمهتمون يسارعون لاقتنائه باعتباره وثيقة لا غنى عنها.. احتوى أحداثاً متلاحقة لا تفتأ تترى ويظل الجرح مفتوحاً عميقاً نازقاً ومائلاً لا يفري حتى الخلي بنسياته.. كما أنه من الصعب اختزاله لأن كل سطر فيه بل كل كلمة جديرة بالتوقف والتأمل.. فالصراع المسلح المرير والحرب الأهلية الغاشمة تمتد وتشمل مناطق واسعة من بلاد السودان.. ترافقها المجاعات وانتشار الأوبئة والأمراض والتفكك الأسري والمرارات التي تشكل موقفاً لن تفلح سنوات طويلة من السلام في إزالته.. هذا الكتاب يؤكد أن كثيراً من المثقفين السودانيين لا يغمض لهم جفن والوطن يواجه خطر التمزق والتجزئة. وإن كان هناك ما يحمد لهذه السنوات العجاف التي احتشدت بالأهوال والأحداث الثقالة هي البغظة التي انتظمت قطاعاً واسعاً من المثقفين فكتبوا ووثقوا وأعادوا النظر في كثير مما كان يُعد ضرباً من المسلمات. وقدموا مساهمات جليلة من شأنها أن تشكل أساساً راسخاً لإعادة بناء الوطن. وكاتبنا الدكتور محمد سليمان واحد من هؤلاء. وإن لم يغب عن ساحة الفعل الثقافي والفكري والسياسي طيلة العقود الأربعة الماضية.. أي منذ أن كان في غضارة الصبا وتفتح الوعي في تلك السنوات العاصفة.. سنوات برشت الذي ترجم أشعاره هو من الألمانية:

وردت المدن زمن القروضي

حيث نفشى فيها الجوع

وعم القحط

وجئت الناس أوان الثورة

زمن السخط

فسخطت، غضبت وإياهم

أعلنت الرفض

وأنكرت فساد الأحوال

في هذا الدرب، وعلى هذا المنوال

قضيت الوقت الممنوح إليّ على ظهر الأرض.

ولد الدكتور محمد سليمان بأم درمان في نفس العام الذي شهدت فيه العاصمة الوطنية نشأة مؤتمر الخريجين العام.. تلك المؤسسة التي لعبت أخطر دور في التاريخ السياسي المعاصر بالسودان.. كانت تتوجها لكل ما اعتل في النفوس منذ دخول الغزاة البريطانيين فاتحين.. ثم تزامنت مراحل طفولته مع تطورات الحركة الوطنية ونتائج الحرب العالمية الثانية، وما انبثق من أحداث وتطورات دستورية واحتدام الحركة الوطنية التي أفضت نتائجها إلى إستقلال البلاد.

كانت قد هبت رياح جديدة غداة الحرب ووفدت أفكار مختلفة مع انتصارات السوفييت في ستالينجراد ودحرهم للنازية.. وتشكل وعي جديد غير الذي ألفته الجمعيات الثقافية التي تشكلت من نواها الأحزاب السياسية.. ونشأت حركة نقابية عارمة.

كان محمد سليمان في تلك السنوات طفلاً غريباً يقضي أوقاتاً جميلة في غابة السنط المجاورة للحي بغرب أم درمان - كما تناول ذلك في كتابه مجسداً التغيرات

الإيكولوجية العميقة التي طرأت على البلاد - يطارد الحيوانات الصغيرة ويجمع الثمار البرية والحشرات الملونة.. ويعود إلى الدار يطلع من أثر طعنات الأشواك في باطن قدميه الحافيتين.. يربح هواء الضباغ الذي يتجاوب قبل المغيب.

عندما التفتته في العاصمة البريطانية في صيف عام 1999 فاجأته بأننا كنا نعرفه منذ سنوات الدراسة الثانوية في مدرسة المؤتمر بأم درمان حيث كان شقيقه الأصغر الدكتور فتحي يتقدمنا بعامين.. وكيف أنه فتح لنا كنوز مكتبته التي تركها بالسودان أيام دراسته بألمانيا. ورويت له كيف تملكنا الدهشة والعجب ونحن نطالع - لأول مرة - أشعار ناظم حكمت ولويس أراجون وبابلونيرودا وبول إيلوار وولت ويطمان ونبي. امس. إيليوت ومايكوفسكي وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وبلند الحيدري ومحمد صالح بحر العلوم وعبد الرحمن الشرفاوي وصلاح عبدالصبور وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن ومحمد الفيتوري وكتابات إرنست هيمنجواي وفراز كافكا ومكسيم جوركي وشتاينبك وريتشارد رايت.. وغيرهم. كانت تجربة ثرية ملاتنا وقتذاك بالزهو والإحساس بامتلاك الحقيقة.. ما أن انتهت حديثي حتى اتصل الدكتور محمد سليمان بشقيقه فتحي المقيم بألمانيا وتبادلت معه بعضاً من ذكريات تلك الأيام.

كُنّا مجموعة من الأصدقاء حين لبينا دعوته للعشاء في داره العامرة بالكتب والشعر وحسب الآخرين.. كان المطر يهمني حين استقبلنا بمودة وحرارة وجلس يتوسطنا مشبعاً جواً غنياً بالألفة والصدقة.. كان يقضي فترة نقاهة بعد صراع مرير مع مرض لئيم قاومه بروحه المقدامة ومؤازرة أصدقائه الذين لازموه في كل لحظة.. وأخذ يقرأ علينا بعض أشعار برتولت برشت التي ترجمها إلى العربية - وكانت قد صدرت لتوها كأفضل ترجمة للشعر الأجنبي - ترجمة لا تتماهى مع النص وحسب وإنما تكتب روحاً خصوصية متوثبة صادرة من ذات شاعرة ومبدعة.. كانت تلك الليلة ليلة للشعر والمطر والأصدقاء.. الثالث الذي يسعد الكاتب.

تلقى محمد تعليمه الأولي والأوسط في حي العرب بأم درمان والثانوي ما بين وادي سيدنا ونخور طقت أما تعليمه الجامعي فقد تقاسمته جامعتا الخرطوم وفريدريك شيلر بألمانيا، وقد حصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء الفيزيائية. كما حصل على درجات علمية في التعليم واللغات التي يجيد منها العربية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والروسية. وعمل محاضراً ثم محاضراً أول ثم أستاذاً مشاركاً في جامعات الخرطوم وجوبا وألمانيا وإنجلترا.. وله ثمانية مؤلفات وقدم حوالي خمسين ورقة علمية (وكان مؤلفه الأول قد صدر عام 1961. باللغة الألمانية والآخر عام 2000 باللغة العربية) ويجري الآن أبحاثاً حول الصراعات المسلحة في منطقة القرن الأفريقي حيث يعمل مديراً لمعهد البديل الأفريقي بلندن منذ عام 1991. ويعيش الآن في إنجلترا مع زوجته الدكتورة فاطمة بابكر محمود ووحيدتهما عزة التي تدرس الفنون التطبيقية في جامعة بيرمنجهام. كرس حياته للعلم والمعرفة والدفاع عن قضايا أمته. ولم يؤثر حياة الدعة والراحة في بلاده أو في العواصم الأوروبية ولكنه انبرى يقاتل دون ما يراه حقاً للمستضعفين فدفع ثمن ذلك غالياً سجنًا ونفيًا وتشريدًا.

اختتم مقدم كتابه الدكتور صلاح آل بندر ذلك الاستهلال بقول رائع: «أما المساهمات الرصينة مثل ما يقدمه المفكر محمد سليمان في هذا الكتاب فهي كعملية النعو الواعدة الصابرة، رغم نشاطها الفائق لا صوت لها ولا يحس بها إلا القليل، فمن سمع يا ترى صوت نمو الشجرة السامقة الوارفة الظلال».

9 يناير 2000م

في حكايات كانتربري السودانية

برامبل.. المستبد العادل

كان الإعجاب برجال الخدمة المدنية والعسكريين البريطانيين قد بلغ ذروته مع بلوغ الإمبراطورية شأواً لم يسبق أن حدث مثله في التاريخ. وقد تضمن كتاب «فيكتوريون مثاليون» لمؤلفه ليتون استراخي أربعة نماذج ساطعة عبرت عن تلك الفترة المهمة في تاريخ بريطانيا. كان الجنرال غردون أحداهم. وقد أضاف استراخي اللثام عن حقيقة تلك الشخصية التي جمعت بين القسوة والتسلط وإن لم تخل من روح الأخلاقية المسيحية التطهيرية. أما برامبل فقد كان طاغية صغيراً لم يتألق إلا في حدود مدينة أم درمان التي لا تزال تذكره.. حكمها بيد من حديد.. كان رودولف سلاطين قد سبقه في الشهرة في تلك المدينة التي عاش فيها سنوات أسره ثم إتخذها مقراً له حين عاد مفتشاً عاماً للسودان. إلا أن برامبل ترك بصمات أكثر غوراً في قسمتات المدينة، الشارع والسينما وذكريات تسلطه وعدله وموكله الصباحي في أحياء المدينة والسوق.

أسموه برامبل بيه - هكذا أطلق عليه العامة إجلالاً ومحبة رغم قسوته وتشدده في سبيل تطبيق القانون وفرض النظام. مات كل الذين رأوه وكانوا راشدين، وحتى إذا بقي منهم أحد قد لا يستطيع أن يقدم صورة كاملة عن ذلك الرجل الذي شغل ناس أم درمان لعدد من السنوات. إلا أن مستر إليوت بالفور سمقتش المركز السابق بحكومة السودان - قدم لنا صورة حية وكافية عن شخصية برامبل الذي عمل معه فترة بمركز أم درمان. قال بالفور إن برامبل كان يعمل في البحرية الملكية حتى وصل

إلى رتبة رائد، ولكنه قضى معظم سنوات حياته العملية بعيداً عن الروتين العادي. وكما حدث للجنرال غردون فإن اسمه قد لمع في الصين حيث كان يعمل. وربما كان قد جاء عن طريق الجيش المصري حيث بدأ خدمته في السودان بين قبيلة الثوير. «و» عندما عرفت أنه كان يعتبر ملكاً غير متزوج لمدينة أم درمان وكان أهلها يحبونه ويقدرونه لأنه على الرغم من ذلك القناع المتشدد كان هو وزوجته قد نذرا نفسيهما دون حدود لتحسين أحوال الرعية. كان المستر براميل يهتم حقيقة بالحرف المحلية ونجح فعلاً في تطوير أعمال الفضة والجلود إلى مستوى ما كان يمكن تحقيقه إذا ترك الأمر للجهد المحلي».

ووصف بالفور الموكب اليومي لذلك المفتش بعينين بريطانيتين لا كما كان يراه السودانيون بالطبع. وقال إنه في تمام الساعة السادسة صباح كل يوم كانت تحتشد أمام منزل براميل مجموعة من رجال الشرطة بزيهم الأبيض الناصع، وبعض الموظفين السودانيين الذين يمتطون الخيول كالمأمور وضابط الشرطة بالإضافة إلى عدد من شيوخ الحارات يركبون على الجمير. وعندما تعلن الساعة السادسة تماماً يخرج براميل منتظماً صهوة جواده ومرتدياً خوذة «ولزلي» التي وضع عليها شعار المديرية «رأس فيل من الفضة على أرضية حمراء لامعة»، وجاكتة من الجبردين مع أشرطة الرتبة على الكمين، والحذاء الميداني والمهمار. كان هذا هو الزي الرسمي المخصص لجولة المدينة. وكان يفترض أن يكون بالفور دائماً مرتدياً نفس الزي بانتظار براميل مع الآخرين. ولكن في أحد الأيام وصل متأخراً فبادره براميل بقوله «أنت يا خنزير الجحيم، لديك زرار فاتح»، ومنذ تلك اللحظة لم يصل متأخراً. وروى بالفور أنه قد حدث مرة في إحدى الجولات بسوق المدينة أن مروا بمجموعة من النسوة اللاتي ما أن رأينهم حتى أطلقن الزغاريد. وتكرر المشهد لثلاثة أسابيع متتالية.. وما كان الأمر لينتظلي على براميل الذي أوقف حصانه في المرة الأخيرة، ونادى «يا عوض الكريم» فأسرع إليه الباشجاويش عوض الكريم بزيه الرسمي الكامل

أصوات

وسيفه يصل على خاصرة الفرس. فأمره برامبل بالقاء القبض على النسوة وأخذهن إلى المركز. ولما عاد إلى مكتبه وقّدمن إليه استطاع أن ينتزع اعترافهن بأن الجزارين قدموا خمسة قروش للواحدة منهن حتى يصدرن تنبيهاً بالزغاريد لدى مرور موكب العفتش ليستعدوا بتغطية اللحم بالقوط حتى لا يصبح هدفاً للذباب. وكن قد إدعين في البداية بأنهن يزغردن إعجاباً به وبعده، إلا أن ذلك لم يقنع الرجل الداهية.

وقال بالفور إن لغة برامبل العربية كانت محدودة وكثيرة الأخطاء، إلا أن ذلك لم يؤثر على رباطه جأشه حين يتحدث للآخرين، وكان لديه ثلاث عبارات مفضلة يستخدمها دائماً «دا ممنوع» «مش ممكن»، و«أنت محبوب من هسح». أما إذا استدعى الأمر الإستممرار في المحادثة فينادي مترجمه هاشم ويقول له: «كلمه يا هاشم كلمه»، فيتولى هاشم الترجمة بسيل من الكلمات العربية، فيقول برامبل: «تمام، فهمت الآن أذهب بسلام».

وروى مستر بالفور أيضاً أنه حين انتشر مرض الجدري ذات عام بأمر درمان كان الناس يتهيرون من التطعيم. وحدث أن احتشد جمهور غفير في فناء المركز لمتابعة إحدى القضايا المهمة، فما كان من برامبل إلا أن أمر بإغلاق أبواب المركز واستدعى ممرضين من المستشفى على عجل ومعهم معدات التطعيم. وعلى الرغم من المفاجأة التي كان يمكن أن تؤدي إلى نوع من الشغب إلا أن الجمهور استقبل الموقف بضحك يشوبه نوع من الكآبة ومدوا أذرعهم جميعاً للتطعيم.

التقاء بالفور بعد فترة من نقله من مدينة أم درمان حيث عاد إلى العاصمة لأداء امتحان اللغة العربية الذي تعقبه الترقية، فقال له برامبل أنت تحتاج لكلمتين عربيتين فقط فتوقع أن يسمعه عبارتي «دا ممنوع» و«مش ممكن» إلا أنه في هذه المرة قال له: «الشدة مع العدل».

احتشد كتاب «حكايات كانتربري السودانية» بأكثر من عشرين رواية لبريطانيين

شغلوا وظائف في مختلف المهن بالسودان. وقد صدر في مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي بأم درمان في طبعة فاخرة تسر النفس وتسعد القلب وتفعم الروح. جمعها وحررها دونالد هولي -الإداري البريطاني السابق في السودان- وقام بترجمتها الأستاذ محمد أحمد الخضر التوم فأبلى وأحسن.

تحدث جميع من كتبوا بحب نادر وإعجاب شديد بالسودانيين وأكدوا أن السنوات التي قضاها بالسودان كانت من أسعد فترات حياتهم. وقدموا لنا تجارب ناصجة وصوراً نادرة عن سودان ما قبل الاستقلال.

27 مايو 2003



سلاطين مرتدياً زي الأنصار بعد هروبه إلى مصر

الأميرة نصرة وحوريات مارنجان

ما كان بدور بخلدنا أن قرية السورية الواقعة بالقرب من مدينة ود مدني كانت تحتضن قصرًا متيقًا شُيّد على طراز أحد المعابد القديمة يزينه الأثاث والرياش الفاخر ويغص بالجواري الحسان وتقدّم فيه أطيب أنواع الطعام التركي. كان ذلك قصر الأميرة نصرة بنت عدلان سليلة ملوك سنار الذين هوى سلطانهم بدخول الغزاة الأتراك في عام 1822. كانت الأميرة نصرة قد تجاوزت الأربعين بارة الجمال ذات بشرة صفراء تشوبها حمرة ذهبية أخاذة إستطاعت بسهولة ويسر أن تتسجم مع نظام الحكم التركي الجديد وتستقبل سدنته في مقرها وتقيم مع بعضهم علاقات تجاوزت كلّ الحدود هي وابنتها رغم أنّهما كانتا مقترنتين برجلين من كبار الأعيان الذين تعاونوا مع الأتراك. وفي ذات ليلة قصد خمسة من الأوروبيين كانوا يقيمون بود مدني قصر الأميرة وبمجرد نزولهم من الخيول أحاطت بهم الجواري الفاتنات يحملن آنية القرع الجميلة المزينة بالنقوش والملاي بشراب الأبري وقدمنها وفقًا لطقوس معينة. وكانت الجواري يرتدين الرحط وهي سيور كثيفة من الجلد تشر ما بين السرة والركبتين. وكن يتزين بالأسورة والحجول وعقود ذهبية من الخرز وتندلى من رؤوسهن على الوجوه ميداليات ذهبية زادت روتها رونقًا وجمالاً. ولما جنّ الليل حاولت الأميرة نصرة أن تبيع للأوروبيين اثنتين من هؤلاء الجواري المولودات إلا أن الصدفة لم يتم لأسباب مالية خاصة بالزوار. وفي مارنجان كانت أيضاً الأميرة نصرة تمتلك منزلاً تحيط به حديقة صغيرة بالإضافة إلى غابة من أشجار السنط الكثيفة الخضراء تضيئي على المكان منظرًا خلابًا. وفي مشهد آخر دخل بعض الأوروبيين تلك الغابة طلباً للصيد فقادتهم الصدفة إلى شاطئ النيل ليفاجأوا بعدد من الجواري المرحات يربو على العثتين يسبحن ويفسلن الملابس وينوثبن في الرمال وبعضهن يتنقلن

خلف الأشجار مثل الحوريات. كانت تلك الفتيات من جوارى الأميرة التي يبدو أنها احتفظت بعز الملك والسلطان حتى في ظل تلك التحولات السياسية العميقة.

إستطاع رجل أوروبي مجهول الهوية أن يسجل تلك المشاهد من الحياة السودانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ما كنا نستطيع الوقوف عليها لولا العثور على مخطوطه الذي قام بترجمته من الإيطالية إلى الإنجليزية رينشارد هيل وإلى العربية الأستاذ عبد العظيم محمد عكاشة. فنحن مازلنا نتوق لمعرفة المزيد عن التاريخ السياسي والاجتماعي للأمة السودانية. ويبدو أن المؤلف الإيطالي الجنسية عاش بسيطاً بين الناس منذ وصوله إلى السودان في بداية الفتح التركي عام 1822 م ولم يتأثر بأوساط السلطة الحاكمة في رؤيته لتلك الأحداث التي صاحبت الفتح ومحاولات تجسيد مراميه فوصف رجال قبائل الدينكا والشلوك بالشباب في مجابهة الجيش الغازي الذي ظل يشن غاراته لصيد الرقيق وانتقد بمرارة نماذج أخرى من السودانيين الذين تدافعوا بالمناكب للحصول على الزعامة وكسب المال بالتفاق وممالة الحكام الظالمين الذين وصفهم بالقسوة والتسلط والاستبداد. تناول النص أيضاً الوقفة الأسطورية لأبناء شرق السودان أمام القوة التركية الغاشمة التي حاولت إخضاعهم بأحط الأساليب كما تناول تمرد عرب رفاعة أبوروف والشيخ أبو ريش (عرب الحمدة) كما تطرق المؤلف لوصف عادات السودانيين ومعتقداتهم وفنون الطبخ لديهم وإكرام الضيف.

ومن المعروف أننا لا نمتلك إلا معلومات عامة عن الانتفاضة الشعبية العارمة التي فجرها السودانيون ضد الغزاة الأتراك عقب مقتل إسماعيل باشا بن محمد علي في شندي ولا نعرف سوى حداث الحريق ووصول الدفتر دار من كردفان ليثار لصهره وليطارد الملك نمر. إلا أن الواقع أن الانتفاضة هذه عمت أرجاء السودان وكادت أن تقضي على القوات الغازية لولا غياب القيادة المركزية الواعية فإستطاع الغازي أن يستفيد من العزلة التي صاحبت ذلك التحرك. كما إستطاع الكاتب أن يمدنا

بمعلومات ذات أهمية عن تلك الأحداث. وفي مشهد لم يكن معتاداً في السودان كما أن كتب التاريخ لم تتطرق كثيراً لنوعه، وصف المؤلف الإيطالي موقف الشيخ رجب ود بشير الغول (أحد شيوخ الحمدة بالعطيش) في مواجهة الإعدام بالجلوس على الخازوق وذلك في عام 1836 وكيف ودع أهله في هدوء وشجاعة وأبدى ثباتاً نادراً أمام جمهرة من النساء ثم إتحه إلى آلة الإعدام المعجبة. وقبل التنفيذ ندد بسلطة الأتراك ودعا الناس للإطاحة بها. وتناول الكاتب سيرة أحد الأقباط والذي كان سكرتيراً للحكمدار خورشيد باشا إلا أنه كان مقرباً منه وذا نفوذ كبير استطاع من خلاله أن يمتلك في سنار داراً فخمة تغص بالحشم والخدم من الجنسين. وكان من بين هؤلاء الخدم جارية شركسية أخفاها من الحكمدار لأنها من جنسيته إلا أنه اضطر بعد أن انكشف سره إلى الزواج منها بعد أن أعلن إسلامه وسمى نفسه محمد نور الدين. والطريف أن سلالته لا تزال تعيش في مدينة الكاملين ومعروفة بأولاد الأفندي. اندهش الكاتب لما رآه في قرية طيبة بالجزيرة حيث كان الشيخ أحمد الريح الولي المعروف ووالد الشيخ حمد النيل يتمتع بمنزلة كبيرة ويتزاحم الناس لتقبيل يده. رأى الكاتب أن الشيخ الريح كان يتكفل بإعاشة وإيواء الأسر الفقيرة في القرية. الواقع أن التكية ظلت مكاناً معروفاً لإقامة الحيران واستضافة المريدين لدى معظم مشائخ الصوفية في السودان.

ووصف المؤلف مدينة ود مدني التي يبدو أن العاصمة إنتقلت إليها من سنار في تلك الفترة بأن رؤيتها كانت تتعذر للقادم إليها بسبب الغابات الكثيفة. وقال إن مبانيتها شيدت دون تخطيط وأنه لا شيء فيها يسترعي الانتباه سوى الشكنات العسكرية وكذلك منزل قائد الفرقة الثامنة الذي تم بناؤه من طابقين بجدران صلبة. ووصف المستشفى وأقسامه المختلفة حتى غرفة العمليات والحجرات المخصصة للمرضى والممرضين والطبيب المناوب والكاتب والأجزة ثم المطبخ. وقال إن سوق ود مدني كان يتكون من مجموعة من الأكواخ أقيمت على خطين متوازيين ولم

ذلك بالإضافة إلى الإهتمام بأنواع الرياضة كالبولو وسباق الخيل وكرة التنس. وفي أيام أعياد الميلاد ورأس السنة يجد المزارعون والعمال مادة دسمة للحديث عن حفلاتهم الباذخة عندما يترنحون سكارى ويغيب بعضهم عن الوعي ويختلط الحابل بالنابل. كانت تلك الأخبار ينقل تفاصيلها السواقون والمراسلات. وكان يأتي بعد الإنجليز في المرتبة الباشكيتبة والمحاسبون المسؤولون عن مسك الدفاتر وحسابات المزارعين وصرف مستحقاتهم. وكانوا جميعهم من الشوام والأغريق والأقباط. منازلهم أقل درجة بكثير من منازل المفتشين وليس مسموحاً لهم مشاركة الإنجليز في أنديةهم فيجتمعون في منازل عزابهم للسهر والمقامرة. وكانوا يرتشون ويفرضون أتاوات بأشكال مختلفة على المزارعين كتزويدهم بالعلف لخيولهم ولأبقار اللبن وغير ذلك مما فعل الباشكاتب القبطي رياض عبده الذي قرّر أن يبيع بقرته عن طريق البانصيب (الكرتلة) ليقبض ثلاثين جنيهًا بينما قيمتها الحقيقية ثلاثة جنيهات فقط. وكان المفتشون الإنجليز تسرهم هدايا الديوك الرومية التي يقدمها بعض المزارعين في عيد الميلاد وينعكس ذلك في معاملتهم لهم والنظر بعين الرضا.

كان المزارعون رجالاً ونساءً يعملون في الغيط ويواجهون الكثير من الصعوبات إلا أن مجتمعهم في المشروع برز متماسكاً وذلك رغم اختلاف أعراقهم. فكانوا يجتمعون في أوقات صرف الأرباح والعلاوات ويناقشون المشاكل العائلية والاجتماعية والإقتصادية التي أفرزها قيام المشروع بالمنطقة.

كان المستر ريبى آخر محافظ أجنبي لمشروع الجزيرة - يتحدث مع مساعديه حول مستقبل المشروع بعد غيابه إذا تسلمه نائبه السوداني مكّي عباس. كان يتوقع له فشلاً ذريعاً فقد لازمتهم النظرة الدونية للعنصر الوطني. إلا أن عالماً هولندياً إعتاد زيارة المشروع سنوياً ليتفقد بعض التجارب التي أقيمت بالجزيرة كتب عن مستقبل المشروع يقول: إذا أطلنا التفكير في مستقبل مشروع الجزيرة بعد تخلي البريطانيين عنه تبادر إلى الأذهان ما سينجم عن ذلك من مشكلة. فهل نلقي القول بأن في

يكن فيها سوى بعض الأقمشة ذات الألوان الباهتة بالإضافة إلى الأحذية والخرز والسكر والبن والبهارات وغيرها. وأفضل ما في السوق كان ذلك المقهى الذي يحتل ركنًا قصياً عند نهاية أحد الصفين. ووصف المؤلف المدينة بأنها كانت قادرة لدرجة البشاعة تنتشر فيها الأمراض والأوبئة بسبب مياه الأمطار الأسنة المتركمة كما أشار إلى عدم وجود دورات المياه والمراحيض الأمر الذي يضطر السكان إلى قضاء الحاجة على ضفة النيل مما يحرم الناس فرصة التنزه على الشاطئ.

أعجب المؤلف ببلدة المسلمية التي ظلت مزدهرة ومركزاً تجارياً تتدفق إليه السلع من الحبشة ومصر والحجاز ويزخر سوقها الذي يقام في يوم الثلاثاء من كل أسبوع بأقمشة الموسوليين الهندي والمنتجات الأوروبية وغيرها بالإضافة إلى البضائع الواردة من مختلف المناطق السودانية. إلا أنه اتهم بعض تجار المسلمية بأنهم كانوا يستخدمون قاطعي الطرق لقتل ونهب التجار الغريباء العابرين. وقال إن عدداً من المتهمين ومن بينهم الشيخ مدني شنبول شيخ المنطقة قد أوقفوا لمدة من الزمن قبل أن يطلق سراحهم. أما في سنار فقد لفت انتباهه أن الموسرين كانوا يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي بعيداً عن النيل ويقوم بفلاحتها الأرقاء الذين يعيشون في قرى آمنة مع أسرهم ويجدون رعاية إنسانية من مالكيهم الذين لا يحرمونهم أطفالهم عن طريق البيع. وعكس ذلك حمل المؤلف بشدة على الأوروبيين الذين كانوا يعاملون أرقاءهم بمنتهى الفظاظة ويسومونهم سوء العذاب إلى درجة قتلهم لأنفسه الأسباب. الحقيقة أن تلك الفترة كانت من أسوأ المراحل التاريخية التي شهدتها السودان حيث كانت أهداف محمد علي تتجسد في صيد الرقيق لاقتيادهم للخدمة العسكرية ونهب ثروات الوطن وخاصة الذهب. وقد وصف زيارة محمد علي الكبير للسودان وتلفه للحصول على الذهب إلا أن محاولاته باءت بالفشل ولم يستطع أن يحصل على ما كان يتمناه وترامى إلى سمعه من وفوته. وقد أسهب المؤلف الإيطالي في وصف حملات صيد الرقيق التي كان يقوم بها الأتراك

أصوات

والقسوة المتناهية التي تلازمها. إلا أنه أكد أن الأمور ما كانت تتم بسهولة لأن جسارة رجال القبائل وشجاعتهم وقدرتهم على تعقب القوافل وتلقين المعتدين دروساً لا تنسى بعد تخليص ذريهم.

كان هذا الكاتب المجهول جزءاً من مجموعة الأوروبيين الذين وفدوا إلى السودان لتنفيذ مشاريع محمد علي وكان منهم الأطباء والصيادلة والبياطرة والمهندسون، فرنسيين وإيطاليين ويونانيين وإنجليز وغيرهم. جاءوا من أحضان الطبقة الوسطى الأوروبية متحنيين بجراح حروبها وهزائمها وإخفاقات انتفاضاتها الثورية. جاء بعضهم بحثاً عن المال والبعض الآخر عن المغامرة وإثبات الذات. وهناك فرنسي آخر تعرض لنفس تجربة نظيره الإيطالي وكتب نصاً عبارة عن يوميات يلقي الضوء على تلك الفترة التي لا نعلم عن تفاصيلها الكثير، والجزءان يحملان عنوان «على تخوم العالم الإسلامي... حقبة من تاريخ السودان 1822-1841»

الكارب.. وقصة مشروع الجزيرة

عرف السودان القطن من قديم.. ما جاء به مشروع الجزيرة في القرن العشرين.. كان ينمو برياً في تلك المنطقة وخاصة على ضفاف النيل الأبيض، وكان من الصادرات الرئيسية في عهد الفونج القطن والدمور. كما عرفت مناطق في الجنوب أيضاً، وقد ذكر بيركهاردت أنه في خلال وجوده بشندي عام 1814 رأى المنسوجات القطنية آتية من سنار. كانت منطقة الجزيرة امتداداً واسماً تغمره الغابات والحشائش الصالحة للمرعى من مشارف الخرطوم حتى الحدود الأثيوبية وعرفت المنطقة بجزيرة سنار، وجزيرة الخرطوم، وجزيرة مالك ود أبوروف - زعيم قبيلة رقاعة الهوي... التي كانت قطعانها هي وغيرها من القبائل تجوب تلك المنطقة في رحلة سنوية من أقصى جنوبها حتى الخرطوم. ومن الواضح أن الجزيرة كانت في الأزمان الموعلة في القدم جزءاً من الحضارة بالسودان. فلا يزال الناس يكشفون بين وقت وآخر آثاراً تدل على ذلك.

ظهرت فكرة زراعة القطن بالسودان لأول مرة في مذكرات كتبها الرحالة هولرويد عام 1839 حين مرّ بالجزيرة في طريقه إلى كردفان. وفي عام 1904 عقب الاحتلال البريطاني للسودان بسنوات قليلة بادر سير وليام جارستين المستخدم بوزارة الأشغال المصرية بنشر تقرير عن منابع النيل العليا نصّح فيه بشدة بضرورة تشييد خزان أو قنطرة في منطقة سنار على النيل الأزرق لري جزء من أرض الجزيرة. وأخذت الحكومة البريطانية تفكر في تنفيذ المشروع بجدية بسبب ضغوط أصحاب مصانع الغزل بلانكشير الذين اتجهوا إلى تجارة الغزل للقطن الناعم تدريجياً. ولما كان إنتاج القطن المصري طويل التيلة يتعرّض للانخفاض إتجه التفكير لإقامة المشروع.

وفي عام 1913م بحث مجلس العموم البريطاني القرض الذي كانت تطالب به الإدارة البريطانية في السودان لتأسيس مشروع الجزيرة. ووافقت حكومة لندن على القرض الذي كان مقدراً بثلاثة ملايين من الجنيهات.

وفي عام 1911م فكرت حكومة السودان في تجربة الري بالجزيرة فطلبت من الشيخ عبد الباقي العركي أن تبدأ التجربة في قريته (طيبة) التي زوّدت بوابور كبير لري الأراضي الزراعية الأمر الذي أحرز نجاحاً أفضى إلى نتائج غيرت من واقع المنطقة. ومن ثم تطوّرت الإمتدادات بعد التجربة الإستطلاعية الأولى في طيبة لتشمل مناطق أخرى بالري بالظلمبات كالحاج عبد الله وبركات. وبدأت الحكومة في تشييد الخزان عام 1914م ولكن العمل توقف بنشوب الحرب العالمية الأولى ليستأنف مجدداً ويكتمل في يوليو 1925م.

وتدرّج العمل في مشروع الجزيرة عبر تجارب عديدة ومتنوعة حتّى أضحي الركن الأساسي لاقتصاديات البلاد وحتّى بات يعرف بالمشروع الأكبر من نوعه في المحيط الإقليمي العربي والإفريقي.

في بدايات العمل لم يكن حظ السودانيّين في العمل بالمشروع وافراً وكان حكرًا للأجانب مع السيطرة التامة للعنصر البريطاني. وكان السودانيّون الأوائل الذين إنخرطوا في وظائف بسيطة بالمشروع فتية ثلاثة... أكبرهم في بدايات العشرين من عمره وأصغرهم لم يتجاوز السادسة عشرة. وكان عمر محمد عبد الله الكارب أحدهم. وجدوا أنفسهم في محيط زاخر من الأجانب بريطانيّين ويونانيّين وشوام ومصريّين.. كانوا غرباء في وسط بلادهم إلا أنّهم صمدوا وتحملوا المشاق والمكاره ومضايقة وعجرفة الآخرين.. بدأ الكارب مزارعاً عادياً ولما يزل بالمرحلة الوسطى وعند تخرجه منها التحق بالمشروع موظفاً صغيراً وتدرّج حتّى أصبح نائباً للمدير العام.. وأخيراً عضواً في مجلس إدارته.

أصدر المستر آرثر جيتسكل - وهو شقيق أحد أشهر زعماء المعارضة في بريطانيا- كتاباً في عام 1959 بعنوان «الجزيرة.. قصة تنمية في السودان»، وأرسل نسخة منه إلى الكارب وسمح له بالرجوع إليه في حالة كتابة مذكراته عن تجربته بالمشروع، والتي تناولت الأحداث التي مرت به طوال سني خدمته.

كان المستر جيتسكل قد انضم إلى خدمة مشروع الجزيرة فور تخرجه في جامعة أوكسفورد في عام 1932 وعين مفتشاً صغيراً بأحد تفتيش الغيط بالمشروع.. وذاول عدة وظائف قبل أن يصبح مديراً للمشروع في عام 1945 (في عهد الشركة الزراعية) ثم صار بعد ذلك محافظاً لإدارة المشروع بعد تأميمه في الأول من يوليو عام 1950 واستمر إلى أن تقاعد في عام 1952.

كتب السيد عمر محمد عبد الله الكارب مذكراته بعنوان " الجزيرة.. قصة مشروع ورحلة عمر " مزج فيه العام والخاص بشكل مختلف فتعرض لتجربة المشروع منذ قيامه في تداخل متع مع سيرته الذاتية. واهتم بإرفاق وثائق في غاية الأهمية تجعل من الكتاب مرجعاً اقتصادياً واجتماعياً لا غنى عنه.

وصف الكارب الحياة الاجتماعية في المشروع بأنها كانت تنص بالطوائف والمفارقات.. فالمزارعون كانوا ينظرون إلى الموظفين الإنجليز كحكام وكانوا يطلبون منهم المساعدة في حل قضاياهم أمام السلطات، الأمر الذي كان يثير كثيراً من المتاعب للحكومة المحلية.. إلا أنهم كانوا إذا أحسوا بأي نوع من الإذلال لا يخشونهم ولا يتورعون عن منازلهم. وكان للموظفين الإنجليز وضع متميز تخصص لهم منازل مفروشة ومزودة بكثير من الضروريات، وخاصة الهاتف الذي يتم توصيله عقب استلام المنازل من المقاول مباشرة. وكانوا يمنحون سلفيات لشراء الخيول التي كانت تستخدم بدلاً عن السيارات التي لم تكن قد عرفت بعد. وأقيمت لهم الأندية الخاصة المجهزة بكل أنواع التسلية والترفيه وكميات من الكتب التي ترد من إنجلترا مباشرة.

النهائية لجلاء القوات. واندفع بعضهم متهاوتين يفحصون الموجودات بل تسابقوا لحجز المكاتب أثناء سير المفاوضات. وافق الأزهرى على مقابلة المستر راو كأحد الخبراء الذين عهد حماد توفيق إلى الاستعانة بهم إثر زيارة له لنيدلبي. وقبل لحظات من مغادرتهما - هو وبحيرى - لمكتب رئيس الوزراء طلب المستر راو من الأزهرى فجأة أن يأذن له ليقول كلمات قليلة فخاطبه «يجب أن يعلم ضباط الجيش ويدعونا لتحكم التنظيم السياسى المدنى وهذه كانت واحدة من اعتباراتنا الرئيسية فى الهند عندما حصلنا على الإستقلال. إذا لم يحدث هذا الأمر سيأتى يوم يتجرأون فيه عليك ويلقون بك وبوزارتك فى السجن» ضحك الأزهرى ضحكة واثقة مميزة وانتهت المقابلة. ولم يلبث أن مضت سنوات قليلة حتى ألقى به العسكريون فى السجن مرتين.. لم يتحمل قلبه المهانة والقهر فى المرة الأخيرة فأسلم الروح.

كانت التجربة الهندية على الدوام نصب أعين الخريجين السودانيين الذين تحملوا عبء النضال الوطنى، حتى أن مؤسستهم الأولى أطلقوا عليها اسم «المؤتمر» تيمناً بالمؤتمر الهندى، وكانوا يتابعون بانبهار وإعجاب حركة الشعوب الهندية ونضحياتها والتعقيدات الإجرائية التى صاحبت مخاض الإستقلال. فالتجربة الهندية الآن رغم ما تواجهه من عثرات شأن دول العالم الثالث أثبتت رسوخاً ونجاحاً ومزيداً من الإيمان بالديمقراطية. كما أحرزت انتصارات فى مجالات الصناعة والإنتاج لم تعد خافية على المراقبين. أما نحن فى السودان فما زالت جراحنا نازقة بما فعل السفهاء منا.

قصة المستر راو مع الزعيم الأزهرى وردت ضمن مذكرات السيد مأمون بحيرى التى صدرت أخيراً فى الخرطوم بعنوان «لمحات.. من تجارب رجل خدمة عامة من جيل الرواد السودانيين». وبحيرى رجل خدمة مدنية معروف واقتصادى مرموق تدرج فى السلك الوظيفى بوزارة المالية وتولى مناصب مهمة.

إستطاعة القائمين بالأمر الآن الحفاظ على نفس المستوى من حيث الكفاءة والمقدرة؟ لا يخالجنّا ظن من الشك في أنّ السيد مكّي عباس الرئيس الحالي موظف من الطراز الرفيع، وهو في رأي كسب صحيح لأي مؤسسة دولية. إنه عملاق الروح والبدن.. مارد جامع الطاقة. متدفق الحماس. ثاقب النظر. سريع الفهم حاضر البديهة.. لا يحار في الإجابة مع ثبات القول.. شخصية طاغية.. مهيمنة. وهو في نفس الوقت رجل مهذب من قمة الرأس إلى أخمص القدم، هكذا وصف العالم الهولندي مكّي عباس الذي تسلم منصبه في عام 1956م.

وبدأت عمليات السودنة تشمل وظائف المشروع.. وأثبت أولاد البلد جدارتهم وكفاءتهم فبلغ الأداء في المشروع ذروته في الحركة والنشاط والمقدرة والحماسة، حتّى اعترف المستر جيتسكل بعظمة المستوى في أول زيارة له بعد سودنة الوظائف وعند زيارته الثانية عند قيام مشروع المناقل.

إستعرض الكارب عدداً من الشخصيات التي عملت بالمشروع وما قدموه من جهود. وانتهت مدة خدمته في أواخر أبريل عام 1964 بعد أن أمضى 35 عاماً في رحلة بدأها في صبيحة التاسع من يناير عام 1929 عندما حضر إلى المشروع باحثاً عن عمل منتظياً ظهر حمار والده. وأقيم له حفل شاي ضخم بعيدان مكتب الرئاسة ببركات تحدث خلاله عدد من المسؤولين وقدمت له الهدايا وقاء لما بذله من أجل المشروع الذي أثنى فيه زهرة شبابه. وهكذا إستطاع هذا الرجل العصامي أن يقدم لوطنه خدمة لا تقل عن مساهمته في تلك المؤسسة الشامخة بكتابة تلك المذكرات الثمينة. ولعل ذلك يكون باعثاً للقائمين على أمر المشروع الآن لاتشأله مما آل إليه من تدهور وأحوال تؤرق الحاديين على مصلحة البلاد.

لقد أحسن مركز الدراسات السودانية لمؤسسه الدكتور حيدر إبراهيم على نشر هذا الكتاب في إطار مجهوداته الرائعة في التنوير وإشاعة الوعي.



التجهيزات الأولية لتشبيد خزان سنار

مأمون بحيري والخدمة المدنية



في ذات صباح قبيل إعلان إستقلال السودان بقليل، كان الزعيم إسماعيل الأزهرى رئيس الوزراء ووزير الداخلية في أول حكومة وطنية منهمكاً في وضع الترتيبات النهائية المتعلقة بجلاء القوات الأجنبية من السودان. وكان ينتظر تقريراً عن سير المفاوضات مع قيادة الحاميات البريطانية التي كانت تقيم في ثكناتها ببري حول تسليم الموجودات غير العسكرية. وعندما حمل مأمون بحيري التقرير بتكليف من وزير المالية حماد توفيق رافقه المستر راو، أحد كبار موظفي الخدمة المدنية في الهند والذي كان في زيارة للسودان. كان ذلك الرجل يبدي رغبة عارمة في لقاء الأزهرى منذ وصوله إلى الخرطوم. وكان يشكو بكماسة ولطف من التأخير في تلبية تلك الرغبة. ولاحظ مأمون بحيري أن مستر راو كان يكتنز خبرة ثرية تثير الإعجاب عندما كان يتحدث عن التجربة الهندية في استلام الحكم من البريطانيين. وقبل السماح لهما بالدخول إلى مكتب الزعيم الأزهرى علماً أن القيادات العسكرية السودانية كانت قلقة بشأن الترتيبات

إختياره في مهمة دولية دعا إليها السكرتير العام للأمم المتحدة المستر داج همرشولد، وكانت تلك المهمة عاجلة ومهمة شاركت فيها مجموعة قليلة من أشهر وأقدر الاقتصاديين عهد ذاك، من الغرب والشرق ودول آسيا. فقد كلفوا بالقيام بتقدير الفوائد الاقتصادية والاجتماعية التي تعود للبشرية من جراء نزع السلاح، فأنهوا المهمة بنجاح وفي الوقت المحدد وأكدوا أن نزع السلاح يعود على البشرية بفوائد اقتصادية واجتماعية لم تنحصر على الببال. كان ذلك في مقر الأمم المتحدة بنيويورك في عام 1959.

21 مايو 2002م

وقد عمل وزيراً للمالية والاقتصاد خلال فترتين للدكتاتورية العسكرية (نوفمبر ومايو) حيث كان يتوهم أن نظام «المستبد العادل» هو نظام مثالي للسودان. إلا أنه توصل إلى قناعة نهائية بعد كل هذا الاستبداد العسكري الذي محق كل أوجه الحياة في السودان أن الديمقراطية هي الحق والمنطق والتاريخ مهما تعامى الغفلة وأرجف المرجفون.

ظل مأمون بحيري لمدة خمسين عاماً معاصراً للأحداث والمنعطفات حيث برزت مؤهلاته وقدراته على المستويين المحلي والإقليمي والمستوى العالمي أحياناً. وعندما وجد وقتاً كافياً ليكتب في الولايات المتحدة التي ذهب إليها مستشفياً لم يحاول أن يدعي بطولة أو يزين موقفاً.. وأخذ يتحدث عن تجاربه في العمل بروح المجموعة أو الفريق. والرجل ظل محمود السيرة لم يتورط في شبهة ولم يؤخذ عليه ما يشين تاريخه. كان يعمل بما يراه نافعا لبلاده ويتصرف دائماً بروح موظف الخدمة المدنية التي خاض تجربتها وهي في ذروة تألقها وعظمتها. وعندما استشرى الفساد في سلطة مايو وأحكم المرابون الطوق حول نميري وزينوا له كل قبيح وأوهموه بالعصمة والخلود ودبروا مكائد سياسية وأبرموا صفقات أودت بكل مكاسب للوطن كان الرجل بعيداً.. فطبعه لم يكن يؤهله للخوض في ذلك حتى وصفه أحمد سليمان المحامي بأنه كان «كالأطرش في الزفة».

والخدمة المدنية لا يذكرها السودانيون إلا وتغمرهم مشاعر الأسى والقنوط.. لا لأنهم فقدوا بها هبة الدولة وحمائتها وحسب. ولا الخدمات التي كانت تحرص على تقديمها.. ولكن لارتباطها بوجودهم لأنها كانت الحاضنة التي برزت منها الطبقة الوسطى، شريحة الأفندية المتميزة التي ظلت أملاً للأمة وملأت فراغ القيادة في المجتمع المدني السوداني وأنجزت كثيراً مما نعتمد عليه الآن.

كان أول الدروس في انضباط الخدمة المدنية التي تلقاها مأمون بحيري حدث عند تعيينه لدى عودته خريجاً في أوكسفورد للعمل بالسودان عام 1949. كان قد درس الاقتصاد والعلوم السياسية والفلسفة فتقدم بطلبه للالتحاق بمصلحة المالية. ورغم الحفاوة والترحيب بمقدمه من جانب إثنين من كبار موظفي المصلحة البريطانيين، إلا أن تعيينه لم يكتمل لأنه كان أول سوداني جامعي يتقدم للعمل. وليس هناك وظيفة «على مفاص» أو اعتماد مالي متاح لشغل مثل هذه الوظيفة تتضمنه الميزانية بالتالي.

لم تكن مصلحة المالية خالية من الموظفين السودانيين الأكفاء، بل كانت تعج بالعشرات. إلا أنهم جميعاً كانوا قد تخرجوا في كلية غردون التي لم تكن سوى مدرسة ثانوية عليا (تجهيزي). ولما كان التعليم الجامعي قد أخذ في التبلور خلال تلك السنوات إلا أن كلية الاقتصاد لم يتم إنشاؤها إلا في عام 1959. كما كان هناك تمييز واضح بين البريطانيين والسودانيين في الوظائف ومخصصاتها. وكان الإنجليز يبررون هذا التمييز بأن السودانيين يخدمون بلادهم وتلزمهم التضحية. وهو منطق يفتقر للياقة وروح العدل.

استقر رأي المسؤولين في مصلحة المالية على أن يلتحق بحيري مؤقتاً معلماً بمصلحة المعارف إلى حين إكمال إجراءات تعيينه في المالية بعد إعداد الميزانية الجديدة. فتوجه إلى المعارف حيث استقبله وزيرها رجل التربية والزعيم السياسي عبدالرحمن علي طه مرحباً وأحاله إلى مدرسة حنتوب الثانوية. وهناك استقبله مستر براون الذي كان أحد نظار المدارس البريطانيين المتميزين والذي عمل لفترة طويلة في السودان مدرساً للعلوم. وسره اللقاء الودود وروح الصداقة الذي تميز به لقاءه مع براون الذي كلفه بتدريس التاريخ الإسلامي. أتاحت له هذه الفرصة الوقوف على الحياة في مدرسة حنتوب الجميلة وهي لا تزال في عامها الرابع مزهوة بكوكبة من المعلمين الأفاض ذوي

المستويات الرفيعة كالنصري حمزة، وعبدالحليم علي طه، وعاشم ضيف الله، وغيرهم من الأساتذة المؤهلين، كما تميّز طلابها عهدذاك بالتفوق الأكاديمي والاجتماعي والرياضي. وعلى الرغم من ظهور الاتجاهات السياسية في المدرسة إلا أن الانسجام كان تاماً والهدوء سائداً.

كان مأمون بحيري محظوظاً حين قدر له الالتحاق بكلية فكتوريا في مصر، التي كانت مدرسة ثانوية رفيعة المستوى تقبل أبناء الأعيان والأسر الكبيرة وتمثل نمطاً إنجليزياً ظل متوارثاً منذ العهد الفيكتوري. استكثرت عليها مفتش إنجليزي في حديث مع والده قائلاً: إن تلك الكلية خاصة بأبناء الباشوات والطبقة الأرستقراطية، ولكن بحيري الأب أفحم المفتش بقوله: «وهل نسيت أن ابني هو حميد السلطان علي دينار، آخر سلاطين الفور»، وبعد ذلك التحق بجامعة أوكسفورد التي برزت كإحدى أعرق الجامعات في العصر الحديث، وما كان ذلك التأهيل ليتوفر لمأمون بحيري لولا أن والده كان أحد الضباط في قوة دفاع السودان الذين تمّ إلحاقهم بوظائف إدارية في الحكومة.

بات مأمون بحيري أحد الكفاءات النادرة في الخدمة العامة بالسودان وساعدت شخصيته الديناميكية في ترقّيه وتسمنه كثيراً من الوظائف العليا. واستطاع غداة الاستقلال أن يسهم في تأسيس النظام المالي للدولة الوليدة وإدخال عملة وطنية للمرة الأولى وإنشاء بنك مركزي بكل ما يتطلبه من إدارة جديدة تتمتع بالكفاءة اللازمة، ذلك بالإضافة إلى تأسيس البنوك الحكومية المتخصصة وبنوك القطاع الخاص لأول مرة، على الصعيد المحلي. أما على الصعيد الإقليمي فقد برز للرجل دور فاعل ومساهمة رائدة في تأسيس أول بنك لعموم أفريقيا، الأمر الذي دفع القارة لأن تشرفه بتكليفه القيام بمسؤولية أول رئيس لتلك المؤسسة الوليدة وأعيد إنتخابه لنفس الموقع لدورتين.

وعلى الصعيد العالمي كان بحيري نجماً لامعاً في الفضاء الاقتصادي حتّى تمّ

هذا المعهد. فمكتب النشر ومجلة الصبيان احتلا مكتباً صغيراً ببخت الرضا قبل أن ينتقلا إلى الخرطوم. وفكرة تعليم الكبار بدأت في قرية أم جر القريبة من مدينة الدويم تحت إشراف ببخت الرضا.

هذه التجربة التربوية تجاوزت حدود السودان لتشمل المنطقتين العربية والأفريقية. ففي عام 1939 زار ببخت الرضا الدكتور أحمد عبدالسلام الكردي بك رئيس رابطة التربية الحديثة بمصر وأعجب أيما إعجاب بمنهجها وأسلوبها العلمي ونقل التجربة إلى بلاده حيث أنشأت الرابطة مدرسة أولية ريفية في قرية المنيل خارج القاهرة.

كما دعت الحكومة المصرية عدداً من أساتذة ببخت الرضا وفي مقدمتهم الأستاذ عبدالرحمن علي طه الذي حاضر عن «بخت الرضا» وأسلوبها ومراميها وكان موضعاً للإعجاب والتقدير. كما اجتذبت التجربة أبناء حضرموت وعدن «وقتذاك» والصومال ونيجيريا فهرعوا إلى السودان طلباً للعلم.

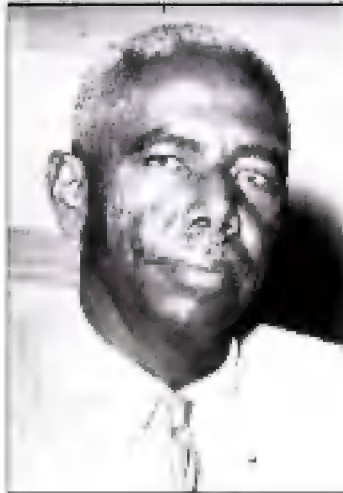
كان أبو عوف وطنياً مهتماً بالشأن السياسي منذ غضارة الصبا وانضم لحزب الأمة عام 1949 ودخل الجمعية التشريعية بحكم منصبه الوزاري وكان موضع ثقة الإمام عبدالرحمن المهدي ومستشاراً له. كما شارك في جميع وفود حزبه للمفاوضات التي دارت بمصر وإنجلترا بشأن الإستقلال.

وعندما تولى الأستاذ عبدالرحمن وزارة المعارف اهتم بوضع سياسة ثابتة للتعليم في الشمال والجنوب قامت على مبدأ الإنصاف وتوفير الاستقرار للمعلم وتوسيع قاعدة التعليم مع مراعاة الكم والكيف. وفي أحد مواقفه الجهرية تقدم بإستقالته من المنصب الوزاري للحاكم العام البريطاني احتجاجاً على عدم الموافقة على سودنة منصب مدير التعليم بتعيين الأستاذ عوض ساتي فيه، فتراجعت الإدارة البريطانية وأذعنت لموقفه.

وُلد الأستاذ عبدالرحمن علي طه في أول القرن العشرين -1901- في أسرة

التربوي المؤسس الأديب الشاعر والزعيم السياسي

عبدالرحمن علي طه



«أنت علمشي السياسة والشعر»

علي نور - شاعر المؤتمر

ظلمت حناجر الأطفال الغضة تردد لأكثر من خمسين عاماً نشيداً عذياً شجياً في كل المدن والقرى والهوادي السودانية.. تردده بحماس وغبطة وحبور في آخر كل حصة للجغرافيا في السنة الثالثة الابتدائية.. كان هذا النشيد الذي شد نياط القلوب - بأوتار لا ترتخي - بكل بقاع الوطن من القولد حتى يامبو ومن محمد قول حتى يابنوسة وفعل في النفوس فعل السحر ولا يزال يتوهج فينا نحن الكبار بعد مرور عشرات السنين.. ويبعث حنيناً وروحاً وطنية متأججة في كل الأجيال.. كان هذا النشيد قد ألفه التربوي المؤسس والأديب الشاعر عبدالرحمن علي طه الذي حمل عبء تربية النشء في السودان الحديث - هو وكوكبة من المعلمين

الأفذاذ. كانت مادتا الجغرافيا والتربية الوطنية قد وضعتا تحت إشرافه المباشر في معهد التربية بنخت الرضا، فأعد كتاب «سبل كسب العيش في السودان» الذي لا يزال يدرس بالمدارس الابتدائية مع تغييرات طفيفة. وقام برحلات حقيقية لمناطق السودان المختلفة يصحبه نفر عزيز من المعلمين منهم الأستاذة مكى عباس والتور إبراهيم وعثمان محجوب وأحمد إبراهيم فزع وسر الختم الخليفة. وشملت الرحلات القولد وريوة والجفيل وبابنوسة وبامبيو ومحمد قول وودسلفاب وأم درمان وعطبرة. تلك الرحلات التي صاغها الأستاذ عبد الرحمن أبو عوف كما كان يحلو لمريديه أن يكونه - شعراً سهلاً ينساب إنسياباً في الحناجر في قصيدته:

في القولد التقيت بالصديق أنعم به من فاضل صديق

كان لا يراه الناس في قرية «بنخت الرضا» إلا متأبطاً ملقاً من الأوراق أو مرجعاً من المراجع، وكانوا لا يرونه جالساً إلا وهو منكب على عمل يجوده، كتابة أو مناقشة مع زملائه وتلاميذه في شأن من شؤون التربية والتعليم. نقل أبو عوف إلى بنخت الرضا في عام 1935 بعد عام من إنشائها ليشغل منصب نائب العميد فأصبح «الدينمو» المحرك للعمل في التدريس والبرامج والتدريب وتأليف الكتب وأعمال الإدارة العامة ووضع السياسات المتطورة. كما كان اللسان المعبر عن المعهد في كل المحافل والتجمعات ولدى كل مسؤول وأمام كل زائر.

وكان عميد المعهد آنذاك هو التربوي البريطاني مستر قريفت الذي ترك بصمات واضحة في أسلوب ومناهج التربية والتعليم إلا أن القائد الفعلي لتلك التجربة بخصوصيتها السودانية وفرادتها كان الأستاذ أبو عوف. وقد وصف ذلك أحد عارفيه بقوله «كانا وجهين لعملة اسمها (بنخت الرضا) إذا مسحت واحدة من الوجهين فقدت العملة صفتها المميزة».

كان أبو عوف عالماً في التربية ملماً بأصولها متابعاً وقارئاً نهماً لتطوراتها - وكان معلماً مطبوعاً سمح السجايأ ساعدته على ذلك شخصيته المثماسة وقدراته الفذة في الخطابة والإلقاء والتمثيل وأسلوبه الرصين في الكتابة باللغتين العربية والإنجليزية وشاعريته المتميزة التي نوه بها شاعر المؤتمر علي نور عندما رثاه قائلاً: «أنت علمتني السياسة والشعر».

لخص مستر قريث دور أبي عوف في تجربة «بخت الرضا» في كتاب له أهداه إليه بقوله «إلى ذكرى عبدالرحمن علي طه نائب العميد لاثني عشر عاماً وأول وزير للتعليم في السودان والذي بدون أمانته ووفائه لما كان لهذه التجربة أن تنجح». وتحدث عن أبي عوف بحفاوة فقال «وكان ذا نفوذ فريد بين المعلمين القدامى، أما بين صغار المعلمين فقد كان تقريباً الوحيد بين هيئة التدريس الذي «يخشون» - بالمعنى الانجيلي السليم» وبالنسبة إلينا نحن الأجانب كان المرجع في أسلوب المعاملات اليومية ومثالا في الإخلاص للعمل الذي قطعناه على أنفسنا»، وأضاف «تمكن نائب العميد السوداني من التأثير على الآخرين عن طريق أسلوبه في دروس النقد بأن يشير إلى نقاط الضعف فيه أمام تجمع المعلمين في دروس المعاينة التي أصبحت معلماً بارزاً في كل يوم خميس»، وكان أبو عوف من رؤاد المسرح السوداني بلا جدال وكان يجيد التمثيل ويؤلف المسرحيات ويدفع إليه الطلاب ولا يفتأ يردد أن الذي يجيد التمثيل لا بد أن يجيد التدريس لأن الفصل مسرح صغير بطله المعلم ومشاهدوه التلاميذ وإن أفلح المعلم في التمثيل استطاع توصيل المعلومات إليهم دون عناء أو ملل. اطمأنت مصلحة المعارف ورأت النجاح الباهر الذي حققه معهد «بخت الرضا» في مجال التعليم الأولي إتجه التفكير إلى إصلاح المرحلة الوسطى، وصدر القرار بتكليفه بالقيام بهذه المهمة عام 1939.

أما الشهرة الواسعة والمكانة الرفيعة التي احتلتها «بخت الرضا» إنما تهيأت بفضل مشاريع رائدة للنهوض الشامل بالبيئة. وكانت الأفكار الخاصة بها تنبع من داخل

من عضوية المؤتمر وانقطعت صلته به وظل ينتخب عضواً في لجنته التنفيذية في كل دوراته إلا في الدورة الثامنة حيث اقتضت عضويته على الهيئة السيئية. وتولى رئاسة مؤتمر الخريجين في دورتين وذلك بعد إلغاء الرئاسة الشهرية وأصبحت الدورة كاملة. وفي أولهما قدم مذكرة المؤتمر الخاصة بمطالب البلاد في أبريل 1942. وعندما احتدمت الخلافات في أروقة المؤتمر بين معسكر الإنحاديين والإستقاليين وفجر فيها البعض كان صوته الهادئ العميق يجلجل محذراً من عواقب الأمور ومؤكداً صعوبة تطبيق الديمقراطية في بلد متخلف كالسودان. ودعا المتعلمين للتخلي عن العجلة وتبادل الاتهامات بالخيانة الوطنية واكتساب القدرة على التفريق بين ما هو ذاتي وموضوعي. كما دعاهم للالتفات إلى شعبهم والعمل على تعليمه وثقافته وتأهيله ليحسن التصرف في ظل الديمقراطية. كان يتحدث كرجل دولة مسؤول مُسلطاً الضوء على المشاكل التي لا تزال تعاني منها بلادنا.

كان الأستاذ إبراهيم أحمد واحداً من المؤسسين لحزب الأمة. بل أنه كان أحد خمسة من أعمدته جلسوا يبحثون له الاسم المناسب حتى استقر بهم الرأي لإختياره وكان إنضمامه لحزب الأمة متسقاً مع نشاطه ومشاركته في العمل العام بالإضافة إلى صداقته التي لا ريب أنها قد ألفت بظلالها على قناعاته. ولم يكن الرجل بالذي يسمى للأضواء التي لا تناسب طبعه الهادئ الرزين النافر من الخطابة الرنانة والإثارة العاطفية والمترفع عن المشاحنات والسباب. قبل أن يكمل حزب الأمة عامه الثالث إستقال إبراهيم أحمد منه للتفرغ للتعليم وإن ظل ولاؤه قائماً للحزب ولخطه السياسي.

تعود علاقة السيد إبراهيم أحمد بآل المهدي إلى أيام شبابه الباكر حيث كلف بالإشراف على صيانة منزل السيد عبد الرحمن المهدي بالخرطوم (دار الوثائق حالياً) الذي اشتراه في سنوات العشرين من أحد الأجانب. وإستطاع المهندس

مرموقة بقرية عمارة الجعليين قرب الحصاحيصاء وتلقى تعليمه الأولي بمدرستي رفاة والمسلمية والأوسط والثانوي بكلية غردون التذكارية. ولما جرى إختيار بعض الطلاب للدراسة في جامعة بيروت الأمريكية تم استثنائه لأنه - حسبما ورد في ملف خدمته - لا يحتاج لمثل تلك الدراسة لعلومه الغزير وإمكاناته الواسعة.

وكان قد تخرج في قسم المعلمين في عام 1922 وعمل بالمدارس الوسطى. وشهدت تلك الفترة نشاطه الباكر في المسرح والمحاضرات بنادي الخريجين بأمدردمان مع رصفاته حسين شريف وعبدالمجيد عبدالحميد وعبدالله خليل وصديق فريد وعرفات محمد عبدالله وعوض ساتي وعلي نور وأبو بكر عثمان.

كان آخر منصب تقلده هو وزير الحكومة المحلية حتى نوفمبر 1958 حيث عاد إلى قريته عمارة الجعليين (التي أعاد إليها اسم أربجي التاريخي) والتي عمل على إصلاحها بالتخطيط وتوفير مياه الشرب والكهرباء والخدمات الصحية والتعليمية حتى أصبحت قرية نموذجية.

سارعت جامعة الخرطوم إلى تكريمه بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية في القانون اعترافاً بفضلله وبذله وريادته كما كرمته أربجي وأقامت له مهرجاناً ضخماً وأطلقت اسمه على المدرسة الثانوية العامة للبنين بالقرية.

انتقل الأستاذ عبدالرحمن إلى رحمة مولاة في نوفمبر 1969 بمستشفى الحصاحيصاء إثر نوبة قلبية وشيع جثمانه الآلاف في موكب مهيب ورثاه عدد من الشعراء في مقدمتهم عبدالله محمد عمر البنا وعلي نور وعمران العاقب وتادرس يعقوب الفرشوطي.

27 مارس 2001م

عفة اليد واللسان

إبراهيم أحمد



عندما تمَّ إختياره كأول رئيس سوداني لبلدية الخرطوم في عام 1946م كان إبراهيم أحمد أحد أبرز رجالات الخدمة المدنية والعمل العام ويقف على أعلى قمة صرح تعليمي في البلاد.. ولكنه حصل على قطعة أرض بالمدينة شأنه شأن الآخرين.. ولما لم يستطع تشييد بناء عليها ردّها بعد عام من حيازتها إلتراماً بالقانون.. قلة كانوا يفعلون ذلك وقتذاك.. دع عنك ما يحدث في هذه الأيام الغبراء.. وبعد التوصل إلى إتفاقية عام 1953 ووقع الإختيار عليه ليكون عضواً ممثلاً للإستقلاليين في لجنة الحاكم العام كان يتعين عليه أن يطلب التقاعد على الرغم من أنه لم يبلغ السن القانونية للمعاش فقد بقي له ما لا يقل عن العام ليستحق معاشاً كاملاً فرفض المعاملة الخاصة في هذه الحالة وطالب بتسوية تتناسب مع ما قضاه من سنوات في الخدمة. بل أنه لم يمانع إذا عومل وفقاً للمادة (32/ب) من قانون المعاشات. وما كان بالذي يحال عليها.. كان كما

وصفه عارفوه لا يشغله عن عمله لهو ولا هوى ولا أبعد عنه استهتار أو غرض ولا دفعه للتقصير فيه خمول أو مرض بل روي عنه أنه لم يتم في حياته قط في قيلولة أو ظهر. وبعد فوز الحزب الوطني الاتحادي في أول إنتخابات عامة اختار الحزب السيد سيرسيو أيرو بدلاً منه في لجنة الحاكم العام فأنشأ إبراهيم أحمد مكتباً للاستشارات الهندسية وعرضت عليه كثير من الشركات الأجنبية أن يكون وكيلها بالسودان ولكنه أتم الرفض لأن كبار موظفي الدولة من طلابه الذين لا يتوقع أن يرفضوا له طلباً.. وقد لا يتفق الطلب مع مصلحة السودان.

وفي أول حكومة قومية تم تشكيلها بعد الإستقلال تم إختياره وزيراً للمالية واستمر في هذا المنصب حتى وقوع انقلاب نوفمبر 1958 حيث أثر الابتعاد عن الساحة السياسية وقام بتأسيس أول بنك سوداني هو البنك التجاري - وأضحى مديراً له بعد إنتخابه من جانب المؤسسين - الذين لم يمتلك أسهماً مثلهم وهو صاحب الفكرة.. وظل كذلك حتى تأميمه في عام 1970. وفي صباح اليوم التالي لإعلان التأميم جاء إلى مكتبه بالبنك ليلعلم أوراقه الخاصة ويودع موظفيه.. ولما عرض عليه سائق سيارة البنك أن يأخذه إلى منزله رفض ذلك بإعتبار أن السيارة أصبحت منذ ذلك اليوم ملكاً للدولة ولا يحق له استخدامها وعاد إلى داره في سيارة الأجرة.

كان إبراهيم أحمد من الأعضاء الأوائل في نادي الخريجين بأم درمان وحين انقسم الخريجون إلى فريقين متصارعين.. مجموعة الشيخ أحمد الفيل ومجموعة محمد علي شوقي واستقالت جماعة الفيل من النادي كان إبراهيم أحمد عضواً في تلك اللجنة التي سيطرت عليها جماعة شوقي.. وحين نشأ مؤتمر الخريجين العام في عام 1938 كان إبراهيم أحمد من المؤسسين وإنتخب في هيئته المستنينة ولجنته التنفيذية. وظل ينتخب عضواً بالهيئة المستنينة للمؤتمر ولجنته التنفيذية في كل دوراته حتى الدورة الثامنة لعام 1945 حيث إستقال مع آخرين

وهكذا يستمر الإمتحان.

لَمْ تستمر الدراسة في مدرسة رفاعة غير عام واحد استغرق حوالي عشرة أشهر، وأكملت حوالي شهرين في عامها الثاني، وقد صدر أمر بإغلاقها عقب وفاة الخديوي عباس مباشرة، وتولي سعيد باشا بأسبوع واحد، وأمضى رفاعة الطهطاوي أربع سنوات بالخرطوم وقفل بعدها عائداً إلى مصر، بعد أن شكّا مرّ الشكوى من تلك التجربة التي اعتبرها منقّى وكيداً سياسياً ومحاولة للتخلص منه بإعتباره واحداً من رجال العلم البارزين الذين لَمْ يطق عباس بقاءهم في القاهرة. واعتبر بعض المؤرخين أن الأمر يعود إلى موقف رفاعة من ولاية العهد بأحقية سعيد على غير ما كان يخطط عباس لتولية ابنه.

عند زيارة الرحالة الإنجليزي هاملتن للمدرسة أدهشه القدر الذي استوعبه التلاميذ من المعارف في عام واحد، ولاحظ «أن السنوات الطويلة التي تضيع في التعليم في الشرق حتّى يصبح المتعلمون شيئاً مذكوراً تختصر هنا في الخرطوم إلى حد كبير، وإن السرعة الملحوظة عند الأولاد في الحفظ والاستيعاب قد نعت الاستفادة منها إلى أكبر درجة ممكنة».

وأشار رفاعة إلى أن بعض تلاميذ المدرسة تمّ توظيفهم في المدارس التي أنشأها الخديوي إسماعيل بالسودان في السنوات اللاحقة، وكان من بين تلاميذ المدرسة بساطي بك الذي عمل سكرتيراً لغردون أثناء حكمداريته الأولى التي استغرقت ثلاث سنوات، ووصفه غردون بقوله «إنّه تعلّم في مدرسة الخرطوم على يد علامة مشهور، ووصل إلى درجة من العلم تجعله يقف على قدم المساواة مع خريجي أرقى معاهد أوروبا، فقلما يوجد موضوع لا يمكنه التحدث فيه بطلاقة، وهو يعرف حكومة البلاد وضرائبها وتاريخها، كما يمكنه الكتابة بعدة رموز دون النظر إلى مفاتيحها».

الشاب أن ينجز مهمته على أفضل وجه بل ويضيف من إبداعاته تلك الأعمدة الضخمة ذات الطراز الشرقي.. وهي أعمدة ديكورية لا تسند البناء في الواقع وإنما تحيط القصر بالهيبة والجلال.. وقد كان بين إبراهيم أحمد ومحمد الخليفة شريف - ابن عم السيد عبد الرحمن وصهره - صداقة ومودة منذ أن تزاملا في الدراسة وفي العمل بالكلية. ويبدو أنه هو الذي قدمه للسيد عبد الرحمن ولغيره من أقطاب بيت المهدي. ثم لم يلبث أن تولى المهندس إبراهيم أحمد مهمة مسح مشاريع القطن الخاصة بدائرة المهدي الزراعية في الجزيرة أبا وغيرها من مناطق النيل الأبيض ولم يكن يتقاضى أجراً نظير أعماله تلك بسبب تلك العلاقة. كما أن صلته الشخصية بمحمد علي شوقي ومحمد صالح الشنيطي - والآخر توطدت علاقته به بسبب زواجه من أخته - ساعدت في تعميق صلته بالسيد عبد الرحمن حتى بات من أقرب مستشاريه إليه. والمعروف أن إبراهيم أحمد لم يكن طائفاً ولم يعرف بولاء لإحدى الطائفتين - الختمية والأنصار - وأنه نشأ وسط أهله النوبيين المعروفين بولائهم للطريقة الختمية.. وقد عرف عن خؤولته وأصهاره أنهم من كبار الأسر الختمية بمنطقة النوبة.

وُلد إبراهيم أحمد في حلفا دغيم في عام 1899 وبدأ رحلته مع العلم في خلوتها ثم انتقل إلى المدرسة الأولية ثم الوسطى.. وقد حرص والده خلال تلك السنوات أن يبعث به إلى صديقه المرحوم محمد أحمد الفصل - أول ناظر لمدرسة أمدرمان الأولية والتي افتتحت عام 1899 - وهو أيضاً جد الشاعر الراحل صلاح أحمد إبراهيم لأمه - وذلك لتطوير قدراته اللغوية وتمكينه من اللغة العربية. وكان متفوقاً في جميع سني دراسته حتى قبل بكلية غردون التذكارية في عام 1916 واختير في قسم الهندسة ليروزه في مادة الرياضيات. واتسمت أحوام دراسته في الكلية بالتفوق والامتياز حتى اختارته معلماً بها فور تخرجه. وقد برز أيضاً في النشاط الرياضي ومارس صروباً من الرياضة كالتنس،

وكرة القدم حيث كان حارساً للمرمى بفريق الكلية، كما شارك في التدريب العسكري « الكديت ».

رغم إحتكار البريطانيين للموظائف العليا إلا أن إبراهيم أحمد بمشاربته وحسن أدائه ترقى فأصبح مراقباً لشؤون الطلاب بالكلية ثم نائباً لمديرها. وفي الأوقات اللاحقة أصبح أول رئيس لمجلس الجامعة التي عاصرها في أطوارها المختلفة.. كما أن إتقانه لعمله كمهندس وكمعلم أكسبه كثيراً من الاحترام والتقدير بين زملائه الأساتذة - سودانيين وبريطانيين - وطلابه والكثير من المهندسين. كما أدى ذلك إلى تحسن وضعه الوظيفي وبصورة منتظمة حتى غدا من كبار أساتذة قسم الهندسة بالكلية، وتراقق ذلك مع تعاظم سمعته بين المهندسين مما أتاح له فرص إنجاز كثير من الأعمال الهندسية المهمة في شبابه الباكر.

وقد تم تعيينه عضواً بمجلس مديرية الخرطوم قبل قيام المجالس المنفصلة لكل من المدن الثلاث، كما إنتخب كأول رئيس سوداني في أوائل عام 1946، وذلك في إبان الصراع الحزبي والخصومة السياسية. وأعيد إنتخابه لنفس المنصب أكثر من مرة حيث تم إنجاز الكثير في عهده وتم التخطيط لما هو أكثر وأعظم. ورغم انتمائه الحزبي فإن السيد إبراهيم أحمد التزم بمعايير تتسم بحياد والبعد عن التحزب خلال عمله بالمجلس البلدي.

إشترك إبراهيم أحمد في عضوية كثير من اللجان الحكومية.. فكان العضو السوداني الوحيد في لجنة التعليم الفني في عام 1943 وعمل في لجنة السودنة في الفترة ما بين 1944 و 1949 ولجنة تطوير القسم التجاري بالمعهد الفني في عام 1960. كما ترأس لجنة الشؤون الإجتماعية بالجمعية التشريعية واختارته لجنة المتاحف والآثار عضواً في فبراير 1942. وظل عضواً بمجلس أمناء مدارس الأحفاد لأعوام طويلة.. وبعد إستقالته من النشاط السياسي بحزب الأمة وعقب

قيام الجمعية التشريعية تمّ إختياره عضواً بمجلسها التنفيذي بلا أعباء مصلحية. والمعروف أنّ كلّ عضو من أعضاء ذلك المجلس سودانيين وبريطانيين تولى مسؤولية وزير أو وكيل وزارة.

رحم الله الأديب الأستاذ عثمان حسن أحمد الذي ظلّت الثقافة السودانية والتوثيق والترجمة لأعلام البلاد هاجساً له وهماً مقيماً. ما أدخر وسعاً في سبيل ذلك.. وحقق الكثير رغم حياته القصيرة. ومن بين ذلك كتابه القيم (إبراهيم أحمد.. حياة إنسان) كتبه رغم أنّه محسوب على معسكر الإتحاديين تاريخاً ووجداناً.. بذل فيه جهداً وجمع وثائق مهمة تتصل بحياة الرجل الثرية وتحدث إلى الكثيرين من معاصريه ومحبيه وعارفي فضله.. وكان الأمل فيه عظيماً أنّ يواصل عطاءه في هذا المجال لولا أنّ تنخطفه الردى وهو في قمة نضجه وحيويته.

9 أكتوبر 2001

الطهطاوي في السودان



رفاعة الطهطاوي

كان الشيخ محمود القباني تلميذاً بمدرسة الخرطوم التي أنشأها وأصبح ناظراً لها رفاعة رافع الطهطاوي في منتصف القرن التاسع عشر فوصف يوم الامتحان الذي حضره الحكمدار وجمع من الموظفين. صدحت الموسيقى وتم تقديم الشربات والقهوة والسجائر، ثم تقدم تلميذان فأنشدا قصيدة بصوت شجي، ثم أثنى الحكمدار على النظام وفتش صفوف التلاميذ وانصرف. وتشكلت لجان لامتحان اللغتين العربية والفرنسية والحساب. وظلّ الممتحنون بالمدرسة لا يغادرونها لمنازلهم للغداء الذي يتناولونه بالمدرسة خرافاً ودجاجاً وحلويات طيلة أيام الامتحان. وقال القباني إن الامتحان كان شقياً والحساب على النخعة، والخط يقدم في كراسته التي تسمى «غرلعة». وكنت أنا قد اجتزت الامتحان بتفوق في الفرنسية والعربية والحساب، ولكن خطي لضعف في يدي لم يكن جيداً فأرادوا أن يسقطوني في الامتحان. وكان الفائز إذا خرج تعزف له الموسيقى،

الرحيل المباغت

إبراهيم أحمد عبدالكريم



فجأة تواترت أنباء مقلقة عن مرضه وخطورته وتدهور حالته.. ولم تمض أيام حتى غيب الردى وهو في عنفوان حياته وذروة عطائها. وعندما خرجت العاصمة في موكبها المهيّب الأسبوع الماضي لتشيع جثمانه إلى مقابر فاروق بالخرطوم كانت ملتاعة ومباغته. فهذا الوجه الأليف الذي ظلّ يطلّ عليها مرّة في الأسبوع من شاشة التلفزيون، من دون سائر الوجوه، كان يثير إهتمامها وأشواقها المؤودة لأيامها الخاليات.. كان يطلّ عليها بصوته المديد وكأنما يواسيها مشجعاً، ها أنت لك ماضٍ عظيم وتاريخ مجيد، وهؤلاء المبدعون أبناؤك وأنت سيدة ولود. رأى هؤلاء المشيعون فيه مثقفيهم الغائبين ومبدعيهم الراحلين وفنانيهم الصّانعين والصّورة البهية للشخصية السودانية الممتلئة بالزهو والتواضع. رأوا فيه تعويضاً جزئياً عن جهامة الواقع ومرارة العيش وقتامة الليالي وشيخوخة الروح وانطفاء الأمل. كان يحاول أن يستمد قسماً من الخليل وكرومة وسرور ويوقد شمعة في عتمة النفق الطويل ليضيء مسارب النفوس اليائسة ويفتح نافذة إلى الماضي السعيد.

وساطي بك هذا أضحي باشكاتب الخرطوم .. وهو سوداني من قبيلة المحس ..
وقد صاحب الجنرال هكس في حملته العسكرية كأحد الأعيان ولقي مصرعه في
معركة شيكان الأسطورية المعروفة.

عاش رفاة في الخرطوم حزيناً مثبهماً بأحوال المدينة التي لا ترقى لأيام
باريس التي أمضى فيها خمسة أعوام هي عمر بعثته التي اتسمت بنشاطه
ومثابرتة وكدحه في القراءة والترجمة والتأليف حتى أضحي أحد أبرز رموز
المثقفين في الشرق. وأين هو من أيام مدرسة الألسن التي كان مديراً لها حيث
وصفه أحد مؤرخي سيرته بأنه «كان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند
الثلاث الأخير ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات واقفاً على قدميه يدرس اللغة أو
فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية، وكذلك كان دأبه معهم في
تدريس كتب فنون الآداب العالمية، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن
الإشتغال بالترجمة أو التأليف، وكانت مجامع الامتحانات لا تزو إلا به»، وقال
عنه تلميذه صالح مجدي «كان مجلسه رضوان الله عليه مجلس مسرات وأفراح،
وطالما حضرته وسمعت فيه من لطيف المزاح ما يشهد له بركة المزاج بأن سحره
الحلال يقوم للعليل مقام العلاج».

وعلى الرغم من شكوى رفاة وتبرمه من الخرطوم التي إعتبرها منفى له إلا أنه
كان نجماً من نجوم تلك العاصمة وكان يشارك في المناسبات المهمة. وقد
حدث أن أقام حفلاً أمام منزله بمناسبة خطوبة ابنة سلطان تركيا إلى ابن والي
مصر ودعا إليها أعيان الخرطوم من السودانيين والأجانب وفي مقدمتهم رئيس
مجلس الدعاوى ومدير الخرطوم.

كما كان لرفاعة صالونه الذي كان يجتمع فيه المثقفون من شخصيات الخرطوم
والعاملين في التجارة والرحالة الأجانب وممثلي القنصليات، وكان يلبي دعوات
كبار رجال العاصمة ويشارك فيما يقام من إحتفالات. وقد حدث أن حضر مأدبة

عشاء دعت إليها الأميرة نصرة بنت عدلان كريمة آخر ملوك الفونج عام 1852 إحتفاء بمقدم الرحالة الأمريكي بايارد تيلور إلى الخرطوم. وقد أقام رفاة صلات وثيقة وصداقات مع الأجانب المقيمين بالخرطوم والعابرين، من بينهم الدكتور بيني الفرنسي، كبير أطباء الحكومة والدكتور ريتز نائب الفصل النمساوي وخلفه هجلن والدكتور نوبلخر رئيس البعثة الكاثوليكية بالخرطوم، والرحالة جورج مللي وأندريه مللي وهاملتن - وهؤلاء إنجليز - وبايارد تيلور الأمريكي وشارل دديه الفرنسي - وجميعهم ذكروا رفاة في مؤلفاتهم الخاصة برحلاتهم في السودان وأدركوا إمكانياته العلمية والثقافية. وقد تحدث شارل دديه عن سعة إطلاع رفاة وموسوعيته وتمكنه من اللغة الفرنسية ومكانته عند العارفين بها.

كان رفاة قد تخرج من الأزهر وعمل فيه مدرساً لمدة عامين قبل ترشيحه واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش الجديد الذي أنشأه محمد علي، ولما تم إيفاد أول بعثة كبيرة إلى فرنسا تم إختياره إماماً لها.. وهكذا تغير مجرى حياته حين اعتبر مبعوثاً شأن الطلاب الآخرين فأظهر تفوقاً بمشاربته وشغفه بالقراءة، وإستطاع أن يقرأ في كل العلوم وإن كان أكثر ميلاً للجغرافيا والتاريخ.. فكانت ثقافته موسوعية. فقرأ الفلسفة والآداب الفرنسية، ومؤلفات فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو وراسين. وشملت قراءته علم المعادن والفنون العسكرية والرياضيات وغير ذلك، كما ترجم وهو في باريس اثنتي عشرة رسالة، معظمها رسائل صغيرة أو فصول من كتب كبيرة في شتى العلوم والفنون والتاريخ والجغرافيا والسياسة والأخلاق والفنون العسكرية والهندسية وعلمي المعادن والصحة.

عاد رفاة من باريس يحمل إجازة الترجمة وفي يده الأخرى مؤلفه الشهير «تخليص الأبريز في تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس» الذي وصف فيه باريس وأحوال الفرنسيين وعاداتهم ومظاهر الحضارة الغربية، والذي يعتبر أحد أهم كتب الاستنارة الداعية إلى الحداثة.

وكانت الرغبة في التأليف لدى رفاعة قد ظهرت في وقت باكر منذ أيام الطلب في الأزهر، فقد نظم في ذلك الوقت أرجوزة في علم الكلام، وأخذ عن أستاذة الشيخ حسن العطار مبله إلى العلوم العصرية. إلا أن إهتمامه الأساسي كان متجها إلى التاريخ والجغرافيا، إلى الدرجة التي ختم مؤلفه الخاص برحلته بقوله «وإن شاء الله تعالى يصير التاريخ على اختلافه منقولاً من الفرنسية إلى لغتنا.. فقد تكلفنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئة الله». وقد استطاع بالفعل أن يترجم عدداً كبيراً من كتب التاريخ من الفرنسية إلى العربية.

وكان لرفاعة مجهودات مقدرة في مجال التربية والتعليم بشخصيته الأزهرية التي صقلتها الثقافة الغربية الحديثة، كما كان أثره واضحاً في إصلاح تعليم اللغة العربية واختيار أسانئذتها وإعداد المناهج للتلاميذ. فقد وضع كتاب التحفة المكيبة في القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية، وغير ذلك من كتب المقررات.

وإلى جانب تلك القدرات المتعددة برز رفاعة في مجال الصحافة الذي كان أول من ارتاده حيث أوكل إليه إصدار جريدة «الوقائع المصرية»، بعد أن صدر قرار بذلك من مجلس الشورى في يناير 1842، وعمل رفاعة منذ البداية على إنشاء الصحيفة على غرار الصحف الفرنسية فاختر لها محررين ومترجمين ومصححين ممتازين منهم نخبة من تلاميذه خريجي مدرسة الألسن ومن أبرزهم أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين.

كتاب «رفاعة الطهطاوي في السودان» ألفه الدكتور أحمد أحمد سيد أحمد وصدرت طبعته الأولى في عام 1973، وقد بذل المؤلف جهداً مقدراً في جمع المعلومات من مصادر متعددة. وقد سبق أن قرأت لهذا المؤلف كتاباً بعنوان «تاريخ مدينة الخرطوم.. تحت الحكم المصري 1820 - 1885» أهداني إياه أحد

أصدقائي المهتمين بثقافة وتاريخ السودان، ولَم استطع العثور على أي أثر لهذا المؤرخ الكدود. وقد ذكر ناشروه أن هذا الكتاب «تاريخ مدينة الخرطوم» هو في الأصل رسالة حصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه من كلية الآداب قسم التاريخ، تحت إشراف أستاذين جليلين هما الدكتور محمد فؤاد شكري والدكتور محمد أنيس في عام 1963. وإنما الذي عرفني على الرسالة أنني اشتريتها من سور الأزبكية من نحو عشرين عاماً، ونظراً لأهميتها رأيت نشرها في سلسلة «تاريخ المصريين» تكريماً لصاحبها الذي لا أعرفه ولا أعرف إن كان حياً يرزق أو صعدت روحه إلى بارئها؟».

19 فبراير 2002

الأعمال الحرة والتجارية والزراعية إلا أنه واصل الكتابة ومراسلة الصحف.. حتى قرر السفر للإقامة بالخرطوم ليجد موضعاً ينطلق منه لتحقيق طموحه الذاتي. وهناك التقى بصديقه الفاتح النور الذي عرض عليه المشاركة في إصدار صحيفة إقليمية بمدينة الأبيض. ولما سافر إلى مصر للاستعداد لخوض هذه التجربة بالتدريب في دار «أخبار اليوم» حيث وافق الأستاذ مصطفى أمين قال إنه التقى في مساء ذلك اليوم بمجموعة من الشيوعيين السودانيين الموجودين بمصر. وذكر أن من بينهم عبده دهب، وعبدالمجيد أبو حسبو، ومحمد عثمان جودة، وصالح عرابي، وبعض الطلاب السودانيين الذين يدرسون بالجامعات المصرية. كان ذلك في مايو 1945. وقال إنه توجه إلى مكتبة «الميدان» التي يمتلكها هنري كورييل واقتنى مجموعة من الكتب الماركسية التي طبعت في موسكو ولندن واشترك في مجلة الأوقات الجديدة «الأزمة الحديثة» التي كانت تصدر في موسكو باسم «الحزب والطبقة العاملة». وجاء في مذكراته أن عبده دهب هاجم أصحاب دار «أخبار اليوم» والمحورين العاملين فيها وقال له «إن هؤلاء سيعلمونك الديماجوجية والتناق». فصرف النظر عن دار «أخبار اليوم» وزار مجلة «أم درمان» التي كان تصدرها مجموعة الشيوعيين بالقاهرة. وكان رئيس تحريرها المرحوم محمد أمين حسين المحامي. ويشارك في تحريرها الأديب الهادي العمرابي. وقال إن أبو حسبو شرح له البيان الشيوعي، إلا أنه لم يقتنع بالموضوع.

ويعمضي عبدالله رجب في مذكراته شارحاً أسباب مشاركة الأقلام اليسارية في صحيفته «الصراخة» التي أصدرها عام 1950 بأن الأمر لم يتعد الصداقة وبعض الأهداف المشتركة التي تلتخص في الخلاص من الاستعمار ومحاربة الطائفية. وأشار إلى أسماء هؤلاء الكتاب ومنهم عبدالرحمن عبدالرحيم الوسيلة وعبدالخالق محجوب، والتجاني الطيب، وقاسم أمين، وحسن الطاهر زروق، ثم

لَمْ يكن إبراهيم أحمد عبدالكريم مجرد مقدم لبرنامج ومديراً عاماً سابقاً للشرطة، ولكنه كان موسوعة فنية وكثراً للتراث.. يتندر برنامجه بسمت هادئ وفور خال من التنطع والتعمل والإدعاء والمحاولات الجوفاء لتضخيم الذات.. يشري الحديث ويشقق الكلام وينفذ إلى أعماق مشاركيه وضيوف حلقاته ويخرج بأفضل ما لديهم. ويصغي بكل مودة وانتباه لكل ما هو مدهش وجديد.. يقارن ويوازن وي طرح أفكاراً نقدية في منتهى الجدة والطرافة.

تميز إبراهيم بالتفوق والذكاء النادر وهو ضابط بالشرطة ولغت توقد ذهنه الأنظار خلال دوراته التدريبية في أوروبا.. وأخذ يترقى في مجاله حتى نال رتبة الفريق وغداً مديراً للشرطة.. وكان محباً للأدب وحافظاً للشعر.. يحيط نفسه دائماً بالأدباء والفنانين. وكان ناقداً فنياً وأديباً لودعياً حصيفاً تسعفه دائماً ذاكرة متقدة وبديهة حاضرة وواعية حافظة. وكان إهتمامه بالفن جزءاً من تكوينه الشخصي حيث كانت والدته المغفور لها الحاجة حليلة بنت الخفاجي امرأة جلييلة الشأن برزة لسنة، عارفة بالتاريخ والأدب الشعبي.

بدأ إبراهيم نشاطه الثقافي بالمشاركة في برنامج التلفزيون حيث عرفه الناس وظلوا يتابعون برنامج «فرسان في الميدان» الذي كان يعبه ويقدمه مع الشاعر الحسين الحسن والإعلامي حمدي بدر الدين. ثُمَّ لَمْ يلبث في السنوات الأخيرة أن أخذ يقدم برنامج «نسيم الليل» الذي إستضاف فيه عدداً من المبدعين القدامى والجدد وشخصيات إجتماعية وأدبية وفنية. ولا ريب أنه إستطاع أن يراكم تراثاً من المعلومات والأغاني وأن يوثق لتاريخ الفن الأصيل.

إلتقينا للمرة الأخيرة في منزل صديق العمر الطيب الأديب الدكتور نور الدين إبراهيم شلقامي بأم درمان في أغسطس عام 2000، وكنت في عطفتي السنوية، وذلك خلال حفل العشاء الذي ظل يقيمه الدكتور نور في كل عام احتفاءً بنا. كانت الأمسية خريفة عليلة النسيمات والدار الرحبية تموج بعدد من الضيوف،

أدباء وصحافيين ومثقفين وصفوة من متعلمي مدينة كوستي. وصل إبراهيم متأخراً فألقى الدار غارقة في صمت جليل تصغي لشدو الفنان التاج مصطفى بصوته الهامس لأغانيه المترعة بالحنين. ثم غنى صديقنا الفنان الأستاذ عباس تلودي بحنجرته النحاسية التي تضيف ألفاً وبعداً جديداً للأغاني النادرة العزيزة التي يتخيرها بحسه الفني الرفيع. كانت تلك الأمسية مشحونة بكثير من العواطف والشجن حيث تبادلنا الذكريات مع أصدقاء الطفولة والصبا الذين جاء بعضهم بكاميراتهم والتقطوا كثيراً من الصور وانفض السامر بعد تناول طعام العشاء، وقبل أن ننصرف اتفقت مع دكتور نور والأستاذ إبراهيم على أن نلتقي في دارنا في ميعاد حددناه. ولكن حالت دون ذلك ظروف طارئة.

لقد شقّ نعي إبراهيم على الكثيرين ممن عرفوه ولمسوا في شخصه لين العريكة ودمائة الخلق والبساطة وحب الآخرين.. نسأل الله له الرحمة وتعازينا الحارة لأسرته المكلمة في الخرطوم وكوستي.

7 مايو 2002

العصامية والمثابرة

عبدالله رجب



كنت أراه في سنواته الأخيرة يمشي في شوارع الخرطوم يطلع قليلاً وهو يحمل حقيبته الجلدية المكتنزة بما فيها من أوراق ومجلات وصحف وعصاه التي لا تفارقه. وأحياناً كنّا نراه جالساً في «البيون» أو «الإستقلال» أو «أبنييه».. دائماً تجده منكباً على القراءة أو الكتابة، يترجم في أغلب الأحوال. وفي أمسيات لاحقة صرت ألقاه في «مكتبة أفريقية» في أم درمان لصاحبها الزعيم الموسوعي يونس محمد الحسن الدسوقي.. أجدهما منهماكبين في لعب النرد.. يتبادلان الدعابات والعبارات الساخرة. وأحياناً أجد مجلسهما عامراً يضم بعضاً من مثقفينا المنحصرمين أمثال حسن أبو جيل، وعبدالله محمد فرح، وأحمد شامي وغيرهم.. يتحلقون أمام المكتبة بينما يتلوى صف طويل من رؤاد السينما المجاورة زاحفين نحو شباك التذاكر.. ويونس يغناظ ويتبرم من السلوك الفج الذي يبديه البعض منهم.

تفص بلادنا بشماذج من الشخصيات المتميزة التي تركت أثراً واضحاً في الحياة السودانية، فبلادنا لا شك منجبة - وبرز من بينهم من واجه الحياة بلا عذة ولا تأهيل .. أيام كان التعليم هو جواز المرور للوضع الاجتماعي المتميز والحظوة. كانت فرصه جد قليلة لا تمكن إلا صفوة من الناس من الحصول عليها. والأستاذ عبدالله رجب كان واحداً من هؤلاء الذين صنعوا ذواتهم وشقوا طريقاً معنياً في وعورته. فهو لم يستطع أن يتجاوز المرحلة الأولية في تعليمه - رغم نجاحه وتفوقه - فاضطر لأن يتخذ سبيلاً آخر لإعالة أسرته التي فقدت عائلها. ولعل أفضل ما حققه بعد النجاح المهني الباهر الذي أحرزه، حيث ارتفع بذاته من طفولة معذبة ومرهقة بالعمل إلى أحد أبرز الصحفيين والكتاب والمترجمين في السودان وهو أنه خلف ثروة أدبية زاخرة من أدب السيرة الذاتية. فقد ظل يكتب «مذكرات أغيش» منذ البدايات الأولى لسنوات الخمسين في جريدة «الصراحة» وحتى مطلع سنوات الثمانين في جريدة «الصحافة».. كتب بصراحة وعفوية وصدق واستطاع بشفاقة نادرة أن يؤرخ لمنطقة النيل الأزرق وسنجة وحركة التجارة والثقافة فيها. بث حرارة وحيوية في كل الشخصيات التي كتب عنها.. وشحن مواقفها بدلالات موحية أشبه بما يبدهه الروائيون المقتدرون. وتناول في مذكرات أغيش قراءته المبكرة وتنمية مهاراته في الإطلاع وتجربته في العمل التجاري وافتتاحه لمكتبة بمدينة سنجة.. وكيف استطاع أن يزودها بالكتب والمطبوعات التي تصل من القاهرة فيتلقفها الموظفون واثقفو المدينة. ولم تلبث هذه المكتبة أن باتت منتدى لتجمع هؤلاء المهتمين وحلقة للنقاش وتبادل المعارف على غرار ما كان يحدث في مدينة أم درمان.

كان عبدالله رجب يرأس الصحف المحلية والعربية.. وكان جريئاً مقداماً لا يتردد في فضح ممارسات الإدارة البريطانية واستبداد المفتشين والحكام الإنجليز وكثيراً ما كان يتعرض للمضايقات والاستجوابات.. ورغم تنقله في

أعظم المواقف وأجلها في صمت وسكون.

قال عنه الدكتور منصور خالد بداية صحبتي الأكثر عمقاً بإرحلنا الكريم كانت في العهد المايوي.. ألتقاء في دار بدر الدين ومنتجع حسن مالك فكان كخطرات النسيم في ذلك المجلس.. هو أقل من عرفت من الناس عبثاً على جلأسه، أو ثقلاً على مقاعديه، استهوتني فيه يومذاك رزانة الطبع ورجاحة العقل وسماحة الخلق فسميت وبدر الدين لإستدراجه للانخراط في ما كُنَّا فيه - غفر الله لنا - تأبى محمود في سماحة جمه وكأنه يقول الكم دينكم ولي دين تأبى الوزارة، وتأبى السفارة، وتأبى البرلمان، حتَّى كزعيم للمعارضة فيه. يومذاك كُنَّا نسميه الرقيب، ولا رقيب إلا رب العباد، ثم ذهبت مايو وجاء عهد جديد.. وظل محمود هو الاسم الذي يطابق مسماه.. إلتقينا على إتفاق في جنيف لينبئني بمسعى إخوته الذين توسموا فيه خيراً لتنصيبه وزيراً للعدل وحامياً للقصاص الشعبي.. ذلك اصطلاح آخر ينتمي للمهداوي أكثر مما ينتسب للديموقراطية. قال محمود إن كان القصاص هو سيادة حكم القانون فأنا معكم أما إن كان هو الانتقام فهذا ليس من شرعي*.

وقال الأستاذ محبوب محمد صالح، «يوم أن جاء إلى سلك المحاماة، جاء بحمل تلك الخبرات المتميزة والفريدة من ميدان الصحافة، ومن منصة القضاء ومن إرث الثقافة والوطنية، فكان محمود في خدمة المستضعفين - يفتح لهم قلبه ومكتبه وينتهي قضاياهم ويدود عن حقوقهم، - وما جعل العادة يوماً أساساً لقبول قضية أو الدفاع عن مظلوم، ما جاءني مظلوم يطلب عوناً قانونياً ولا يملك تكلفته إلا أحلته إليه ثقة في محمود ليتلقى شكواه ويتبنى مظلومته وينبري للدفاع عنه، لا يطلب جزاء ولا شكوراً. وكانت حقوق الإنسان شغله الشاغل، ولا يقبل الضيم لأحد، ولا يتساهل في إنتهاك يقع على فرد في أي مكان وقد حوّل قاعة مكتبه إلى مقر إجتماعات لكل الهيئات الدفاعية التي تكونت للدفاع في قضايا الرأي والفكر بحمل الهم كله ويفقد في تواضع جم ويسوق الحجج في صوت واثق لا يعلو

محمد سعيد معروف ومحمد الحسن أحمد في أوقات لاحقة. وكانت الصحيفة قد اتخذت خطاً يسارياً متشدداً وجد صدى عميقاً في أوساط الناس في تلك الفترة الملتهبة. وقد استمرت في الصدور منذ أول يناير 1950 وحتى 31 أغسطس 1961 صدر خلالها ألفا عدد وكتب فيها العشرات من الكتاب والصحافيين الشباب حيث رأى العديد من الأقلام النور لأول مرة فيها. وتخرج من مدرستها الكثيرون منهم جعفر حامد البشير. ومحمد الحسن أحمد، وعصمت يوسف، ومحجوب عبدالمالك، ومحمد عبدالرحمن شيبون، وصلاح أحمد إبراهيم، وعلي الملك. كشف عبدالله رجب في مذكراته عن تجربة تعاونه الإعلامي مع نظام نوفمبر العسكري الذي استمر حتى عشية ثورة أكتوبر الشعبية حيث سبب له كثيراً من المضايقات وأضعف من تاريخه المشرف. وقال إنه بعد الانقلاب اضطر سدنته على الصحف قيوداً كانت تيجتها توقف الصحف الحزبية الصريحة مثل «الاشقاء» و«الأمة» و«الميدان». وبقيت صحيفتا الطائفتين «النيل» و«صوت السودان» قبل أن تتوقفاً أخيراً بدواعي القيود العسكرية. وبقيت صحف الأفراد «الرأي العام» و«السودان الجديد» و«الصراحة» و«الأيام» و«الزمان» و«الأخبار» -رحمي سليمان- . وبينما أوقفت صحيفة «الأيام» لبعض الوقت. واصل الشركاء العمل بصحيفة «المورثج نيوز» وبأعمالهم التجارية، وهاجر بشير محمد سعيد إلى نيويورك فعمل بسكرتارية الأمم المتحدة. وفي أواخر عام 1961 قابل هناك الفريق إبراهيم عبود ومرافقيه. وكان من بينهم صديقه الوزيران أحمد خير وزيادة أرباب اللذان توسطاً لعودة الأيام في أوائل عام 1962.

وكان مكتب الاستعلامات قد أصدر صحيفة «الثورة» في أغسطس 1960 وكلف عبدالله رجب ومحمد الحسن أحمد بتحريرها إلى جانب قبلي أحمد عمر، ومحمد فضل الله، إلا أن عبدالله رجب انسحب من المهمة في ديسمبر من نفس العام.. وقال إن الصحف المستقلة تعاونت مع الحكم العسكري بلا

إستثناء وأن محمد سعيد معروف ومحمد الحسن أحمد صوتا إلى جانب محرري «الصراحة» الآخرين بالتعاون. ولم ينقذا قرار حزبهما برفض الحكم العسكري. وفي تلك الأثناء تسلم محمود أبو العزائم جريدة «الصراحة» من وزارة الاستعلامات وسماها «الصراحة الجديدة» وأخذ عبدالله رجب يتسلم خسين جنيها شهريا مقابل حق الإمتياز. لم يتكر الأستاذ عبدالله رجب تعاونه مع نظام الفريق عبود وقال إنه فعل ذلك «باعتباره نظاما سودانيا» وقال إن وقوفه معه كان أشرف من التهاق وإدعاء البطولات كما حاول أن يفعل آخرون.

وتعرض عبدالله رجب لتجربته في التعلم الذاتي والقراءة الحرة وأورد عناوين الكتب التي اطلع عليها والتي تحوي شتى أنواع المعرفة.. وربما يكون قد ساعده أيضا أنه أدار مكتبة في سنجة وارتبط بعلاقات واسعة مع المثقفين والمهنيين بالقراءة وتبادل الكتب والمعلومات. ولعل من أطرف تجاربه بداياته في اللغة الإنجليزية.. فقد روى أن الشباب من آل قوته الذين كانوا - يجاورونه في السكن - شرعوا في تعلم تلك اللغة وقام بتدريسهم الأستاذ بشرى عبدالرحمن المقبول. وفي الشارع وبجوار الموقع الذي إتخذه مكانا لبيع السجائر والكبروسين جاء بكرتونة بيضاء لأحد هؤلاء الشباب وطلب منه أن يكتب له الحروف الإنجليزية التي كتب إلى جانبها الحروف العربية المقابلة لمساعدته على نطقها والتعرف على مخارجها. ومن ثم أخذ يدرب نفسه على تعلم الهجاء ويتمرن بمفرده على قراءة عناوين السلع وإعادة كتابتها من صناديق السجائر والكبريت والحلويات وطرود الأقمشة وظروف الرسائل. وحينما تقدم قليلا أخذ يطلب مناهج اللغة الإنجليزية من المدارس المتخصصة في مصر. ثم واصل كدحه في التحصيل حتى تفوق في اللغة الإنجليزية وبات أحد القلائل الذين يترجمون في مستوى رفيع منها وإليها. وقد تم إختياره في سنواته الأخيرة كأحد كبار المترجمين في القصر الجمهوري. ونشرت له الصحف كثيرا من التراجم في شتى ضروب

المعرفة وخاصة في الشؤون العالمية وعلم النفس.. ويعتبر عبدالله رجب صاحب أول ترجمة عربية لوثيقة حقوق الإنسان. وقال عبدالله رجب إن «مذكراته ستصبح من كلاسيكات الشعب السوداني».. مثل «طبقات ود ضيف الله» وسوف تعيش في وجدان هذا الشعب تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل». وما ذهب الرجل بعيداً فيما قال. فما كتبه جدير بالاهتمام باعتباره سجلاً وافياً للحياة الاجتماعية التي عاشها وتفتحت عيناه عليها منذ سنوات العشرين في القرن المنصرم. وكانت تجاربه المختلفة وتنقله من مكان لآخر وجرأته في محاولة التعرف إلى الناس والأشياء والاستزادة من المعرفة سبباً في ثراء وتنوع وأهمية تلك المذكرات، وهي بعنوان «مذكرات أغيش».

توفي عبدالله رجب في عام 1986 وهو في السبعين من عمره أنفق منها حوالي خمسين عاماً في العمل الصحفي.

16 إبريل 2002 م

رجلٌ من حسنات هذا الزمان محمود حاج الشيخ عمر



«ما من خصلة تحمد في الرجال إلا وكانت في».

د. منصور خالد

ما كنت أحسب أن نقرأ من الناس القاعلين ذوي القيمة والأهلية في مجتمعنا السوداني تفوتنا معرفته لأننا نزعّم أننا نهتم بالأفذاذ من معاصرينا وأسلافنا، حتى فاجأني في العام الماضي أستاذنا الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه بنعي محمود حاج الشيخ عمر المحامي، فأتيت عليه وأطراه وبين مكانته ونوه بفضله إلا أنني لم أكن قد سمعت عنه رغم أنني لا اعتبر نفسي غريباً على مجال القانون، فقد تخرجت في إحدى كلياته. زال عجبى الآن من تفصيل توهّمته في نفسي حين أدركت أن إحدى سجايا محمود كانت النفور من الضوء والضوضاء، واتخاذ

ولد الشيخ القدال في كسلا في مطلع القرن العشرين لأحد كبار رجالات الطريقة الختمية.. فقد كان والده خليفة للخلفاء قرياً من السيد محمد عثمان بن السيد محمد الحسن الميرغني.. حتى لقد صحبه في منفاه إلى مصر حين خرج من السودان إبان الثورة المهدية.. فتشبعت روحه منذ ميلاده بذلك العبق الصوفي التليد الذي توشحت به مدينة كسلا.. ونشأ في كنف طاهر ساعد في تكوين شخصيته التي غدت نموذجاً في السلوك ومكارم الأخلاق.. بعد أن أكمل تعليمه الأولي في كسلا تم اختياره للدراسة في مدرسة العرفاء بكلية غردون.. وكانت تلك المدرسة تقوم بإعداد الطلاب ليصبحوا مدرسين في المدارس الأولية.. تخرج في هذه المدرسة معلمون أفذاذ تركوا أثراً واضحاً في تاريخ التعليم الزمني الحديث أمثال مصطفى أبو شرف وحسن نجيلة وود عيسى زيادة وإمام الخضر الإمام وعثمان هاشم وغيرهم.

عمل الشيخ القدال مدرساً في شرق السودان منذ تخرجه.. وكانت تلك المنطقة تحتاج لمعلمين موهوبين قادرين على تفهم أحوال وظروف القبائل التي تعيش فيها.. وتحتاج إلى صبر وتحمل وقدرة لتستمر المدارس وتؤدي مهمتها بنجاح.. وقد استطاع القدال أن يضرب مثلاً رائعاً لمثل هذا النوع من المعلمين الذين كانت تحتاج إليهم بلاده في تلك الفترة البكرة والحرجة من تاريخها.. وقد برز نجمه بالفعل في أواخر سنوات الثلاثين عندما بدأ شرق السودان يتحدث عن ذلك الفتى المدرس.. خريج كلية العرفاء..

وحين بدأ معهد بخت الرضا دوراته التدريبية المشهورة (الكورسات) للمعلمين كان القدال من أبرز النوابع الذين إلتفتوا بها.. حيث توطدت صلاته مع المعلمين الذين أنجزوا الثورة التعليمية في السودان.. عبدالرحمن علي طه (نائب العميد) ومكي عباس وغيرهم من أساتذة بحث الرضا الذين خبروا معدنه مما أدى إلى ترشيحه للسفر إلى حضرموت حيث استطاع أن يمثل بلاده بأروع

بالجلبة والصياح ولكنه يثبت الحق بالمنطق والحجة».

وقال علي محمود حسنين زميله في مهنة المحاماة. محمود كان فارس الحلبة في هذه المهنة، ومن ثم فإن همه الأساسي كان إشاعة الحريات، لم يكن يرى للحرية حزباً ولم ير لها لوناً ولكنه رآها قيمة ينبغي أن يستمتع بها الجميع. ومنذ عهد مايو وحتى في ظل هذا النظام ظل محمود هو قائد مسيرة الدفاع عن الحرية في جميع القضايا، وما اعتقل إنسان إلا وتقاطرنا نحو مكتبه وحوله. نحتمي فيه ونسترشد برأيه، ونستهدي بحكمته ونستغل إمكانياته من أجل العدالة، ومن أجل الديمقراطية.

أما تيسير مدثر فقد وصف محمود حاج الشيخ بأنه لم يكن مثقفاً طاووسياً متعالياً، وهو يتمتع بما لا يتمتع به جيش جرار من الصفوة النرجسية التي تنتمي لدائرة الثقافة والمعرفة وديدنها الضجيج والصخب والتهريج. كان غزير العلم في كافة العلوم الإنسانية ممتلئاً بالتقدير والاحترام للتقاليد الإسلامية، والسودانية الأصيلة، ولا غرو في ذلك فهو ابن الشيخ الجليل الورع حاج الشيخ عمر دفع الله أحد أبرز رموز الحركة الوطنية الحديثة في السودان.

كان أول من تبادر إلى ذهني حين أبلغني دكتور فيصل نعي محمود هو شخصية حاج الشيخ عمر أول من هتف بشعارات معادية للاستعمار البريطاني في مقابر أم درمان خلال تشييع جثمان المأمور المصري عبدالخالق حسن عام 1924م. وقد دفع ثمن ذلك حكماً بالسجن وبات أول سجين سياسي في معارك الحركة السياسية الحديثة. وقد أعجبني وصف منصور خالد لذلك الشيخ المناضل حين قال «ومن ذا الذي لا يفاخر بحاج الشيخ ودعمه، ذلك الشيخ شديد الفتل، منقطع القرين كان عالماً مبارزاً في باحات العلم وليثاً هداراً في ساحات النضال، أذكره لأنه أورت محموداً وإخوته ميراثاً خلقياً جسيماً سما بهم إلى حيث ينبغي أن يكون الرجال».

وذكر الطيب حسب الرسول قصة حدثت في أيام رمادية كابية أطلت فيها رؤوس الفتن وغابت روح التسامح والتسامي فقال «كان قد قبض على الأخ فاروق البربر بسبب خطاب جد خطير أرسله للإمام الهادي، رحمه الله، في الجزيرة أبا، فطلقنا نبحث عن أحد يتولى الدفاع عنه فأعيننا البحث حتى جئنا لمحمود وقلنا له، محمود هل تتولى الدفاع عن فاروق في المحكمة العسكرية التي شكلت على عجل؟ فقال بقوة نعم، ومن يدافع عنه إن لم أفعل أنا!.. وقال أحد الحاضرين: هذا مسلك وعرا فرد محمود: إن لم أفعل سأمزق هذه الوريقة، مشيراً إلى رخصة المحاماة المعلقة على حائط مكتبه. ذهب محمود ليدافع عن فاروق والآخرين على عجل فكان الحكم بالإعدام، ولكنه خفف وعاش فاروق ونشأت بينهما صداقة أبدية.

عمل معلماً في صباه الباكر، ثم اشتغل بالصحافة، وكان مراسلاً حربياً وسياسياً لصحيفة الرأي العام، من جبهة القتال في السويس إبان العدوان الثلاثي، على مصر عام 1956 ثم عاد وأكمل دراسته للقانون في جامعة القاهرة فرع الخرطوم، واشتغل بالقضاء ثم إستقال ليتفرغ للمحاماة التي نجح فيها وكرس حياته لإعانة المحتاجين وإغاثة الملهوفين ومناصرة الضعفاء.

وقع في يدي الكتاب الذي حمل عنوان «محمود حاج الشيخ عمر.. مواقف ومبادئ» والذي تضمن كلمات أصدقائه وعارفي فضله الذين أطنبوا وما تجاوزوا فأوفوا الرجل حقه في حفل تأبينه، فأردت أن أشرك القراء فيما قيل عن ذلك النبيل الذي عز أمثاله في هذا الزمان.

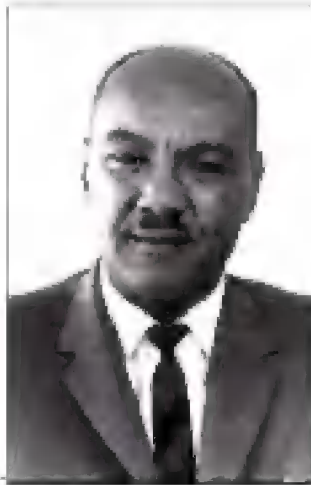
القذال رئيساً لحكومة حضر موت

لا أدري لماذا قفرت صور سيربالية إلى ذهني حين قرأت رثاء محمد عثمان ياسين للشيخ القذال بقوله: «ونحن إذ نودع القذال باشا سعيد القذال إلى مثواه الأخير نودع فيه آخر مثال لجبل العصاميين السودانيين الأوائل أمثال رابع الزبير في تشاد وسوركتي في أندونيسيا.. الذين تركوا بصماتهم في مصائر دول شقيقة ذهبوا إليها بمحض إرادتهم في ظروف قاسية فأدوا رسالتهم خير أداء». ورابع هو القائد المعروف الذي شق طريقه إلى غرب أفريقيا بعد أن رفض الإسلام لجسي الإيطالي في بحر الغزال واختلف مع سليمان الزبير. وهناك حارب الفرنسيين ورفع راية المهدية وقتل في معركة فوت لامي الشهيرة بعد أن أسس دولة لا تزال آثارها شاخصة. أما أحمد سوركتي فقد كان يعمل مدرساً لعلوم الدين في مكة حين استدعاه الحضارة العلويون المهاجرون في أندونيسيا ليقيم لهم مؤسسات تربية.. فأنشأ مدارس الإرشاد التي نالت شهرة واسعة امتدت من أندونيسيا إلى حضرموت عن طريق المهاجرين العائدين ومن خلال المدارس التي أنشأها على نمط مدارس الإرشاد التي أسسها سوركتي هناك.

جاء الشيخ القذال إلى حضرموت معاراً في عام 1939 ولا يزال شاباً في العقد الرابع من العمر ووصل إلى ميناء المكلا وحيداً لم يتعرف إليه أحد ولم يستقبله أحد.. غريباً عن تلك الديار التي لم تشاهد كثيراً من السودانيين بعد.. وبعد ثمانية عشر عاماً خرج ذلك الفتى من حضرموت بعد أن تجاوز الخمسين في وداعه سلطان البلاد وأعيانها بعد أن عاش بينهم معلماً ووزيراً للمعارف وسكرتيراً للدولة (رئيساً للحكومة).

التحطاسي البارع والعالم الموسوعي

التجاني الماحي



صديقنا الشاعر عبدالله إبراهيم موسى شابو، كان ريحانة أماسينا، يغيب عنا أحياناً فجأة فنجزع.. نعائبه حين يعود فيعتذر بأن هوى الكوة غلب عليه فهرع إليها، يمازحنا ويقول: «نسهر على شاطئ النيل بالكوة نتحدث في كل المعارف، نغازل النجوم والمجرات وحين يستشكل أمر نتلفت فنرى شبحاً من بعيد يضطاد في النيل، لانعرف من هو فندعوه، نحتكم إليه، نعرض عليه ما غمض علينا، يتفجر متكلماً في أكثر مسائل الفكر غموضاً فنجد ضالتنا ويعود هو إلى حيث كان، وكأنه لم يفعل شيئاً. يضحك شابو ملء رثبه ويؤكد أن شباب الكوة جميعهم هكذا علماء وفنانون ومبدعون منكبون على المعرفة والثقافة. وهذه هي روح التجاني التي لاتزال تصوع في فضاء البلدة ودروبها بأريجها الفواح. هذا المكان تناثرت على نراه دماء الشاعر الشيخ إسماعيل الدقلاشي. صاحب الرماية، قبل أكثر من أربعة قرون.

ما يكون ويقدم نموذج الشخصية السودانية بجميع أبعادها.

إستطاع الشيخ القدال بقدراته الفذة أن ينقل تجربة بخت الرضا في الثورة التعليمية بما يتناسب مع ظروف حضرموت.. وبدأ منذ عام 1940 في تنظيم المدارس.. وكان بالمكلا مجموعة من المدارس في حصن الشيبة فكُون منها ثلاثة فصول للمرحلة الابتدائية، وانتقى الطلاب المتميزين وشكّل منهم الصف الأول للمرحلة المتوسطة، وكُون من طلاب المدرسة الإنجليزية الصف الثاني. وفي أواخر عام 1941 إفتتحت المدرسة الوسطى في المكلا.. أو في الواقع تحولت المدرسة الإنجليزية القديمة إلى مدرسة وسطى حديثة، إنتظمت الدراسة فيها مع الإهتمام بالنشاط حيث تمّ تشكيل فرقة للتمثيل بالمدرسة قدمت مسرحيات متميزة.. بدأها الشيخ القدال بمسرحية «حرب البسوس». ثمّ توالى المسرحيات تحت إشراف الأستاذ عوض عثمان مثل «مجنون ليلي» و«الأمين والمأمون» وفي «سبيل التاج».. ويعتبر المعلم السوداني عوض عثمان مؤسساً للحركة المسرحية الحديثة في حضرموت.. كما يعتبر مؤسساً للفرقة الكشفية التي نظمها وأشرف عليها حتّى أن أحد أعضائها الطالب صالح بن همام (يعمل الآن طبيباً بالسعودية) شارك في معسكر كشفي أقيم في فرنسا.

كانت المدرسة الوسطى في غيل - باوزير نموذجية.. والوحيدة في حضرموت.. ويتم اختيار التلاميذ لها بعد إمتحانات تنافسية يجلس لها المئات. وقد وفّرت لها الدولة إمكانيات كبيرة.. كان منهجها الأكاديمي رقيقاً، حيث يمتزج النشاط الذهني باليدوي.. مما يرقّي بالعملية التربوية إلى ذرى عالية من التكامل، ويمارس الطلاب فيها نشاطاً ثقافياً واجتماعياً متشعباً.. الكشفية.. ونادي صغار المزارعين.. وجمعية التمثيل.. والجمعيات العلمية.. والصحف الحائطية ويسودها جو ديمقراطي راق يجعل تلاميذها في حالة مستمرة من التعليم والتعلم.. الأمر الذي يدفع بهم نحو الخلق والابتكار، فأصبحت ذات طابع

صفوي، معامل وفصول وداخليات. وكانت الجمعيات المدرسية تتنافس كجمعية النسيج بأنواعه وتجليد الكتب المدرسية ونادي صغار المزارعين.. الذي يقوم أعضاؤه بحرق الأرض وزراعتها وتعهدها بالري، ثم بيع المحصول، وكانت أعمال النادي تتوزع بنظام دقيق تحت إشراف إدارة من التلاميذ.. يجتمعون ويناقشون القرارات ويختلفون ثم يتفقون في جو تسوده الديمقراطية.

وعندما زار مستر قريفت - الذي كان عميداً لمعهد بخت الرضا - حضرموت بدعوة من المستشار البريطاني لتقويم ما تمّ انجازه من الخطة التي وضعها عام 1938 ومدى نجاح الشيخ القدال في تنفيذها، كتب عن التقدّم الحقيقي الذي لمسه وسرّ كثيراً وقال: ولكن لا غرابة إذا تذكرنا أن الشيخ القدال كان هنا.

لَمْ يقتصر دور الشيخ القدال على أن يكون رائداً لجيل السودانيّين الذين هاجروا لنشر التعليم في اليمن الجنوبي.. ولكن ارتفع به طموحه وذكاؤه إلى مرتبة الوزارة التي إرتقاها فصار وزيراً للمعارف.. وذلك بعد أن منحه السلطان رتبة الباشوية في عام 1945. ثمّ لم يلبث أن تمّ إختياره رئيساً للوزراء وذلك في أكثر المقاطعات تعليماً وثقافة.

لَمْ يكن القدال وحده حين نهض بالعملية التربوية في حضرموت بل كان إلى جانبه معلمون آخرون حضارمة وسودانيّين من بينهم الأساتذة عوض عثمان، خريج بخت الرضا، وحسين خوجلي معلم اللغة الإنجليزية الذي وصل إلى حضرموت عام 1944 وسعيد أيوب القدال، ومحجوب زيادة حمور، وإبراهيم مجذوب مالك وأحمد بابكر العمدة. والذين قال عنهم مستر قريفت «وما يشجع أيضاً أن الأساتذة السودانيّين الستة يوائمون أنفسهم مع احتياجات البلاد».

وفي عام 1951 قدّم المستشار البريطاني تقريراً شاملاً عن التطوّر الإداري

والزراعي في حضرموت.. وذلك بعد عام من تولي الشيخ القدال منصبه الجديد. فقال: «إن سكرتير الدولة الذي عُيِّن حديثاً يمتلك مقدرات إدارية حقيقية ويحظى بالاحترام على إمتداد البلاد.. وهو رجل حكيم وذكي وله شخصية قوية جداً.. ومعروف بنزاهته واستقامته.. ولقي تعيينه ترحيباً من الجميع. وقد إستطاع أن يقبض على زمام الأمور بحزم وأظهر بصماته الإدارية التي كانت الحاجة ماسة إليها لسنوات عديدة». وما زال معاصرو القدال يتحدثون عن استقامته وينحسرون على أيام حكمه النزيهة.

وعندما زار محمد عثمان ياسين حضرموت موفداً من قبل الأمم المتحدة في سبعينات القرن الماضي كتب عن النظام القضائي في حضرموت يقول «وقد أدهشني وعلاً خيالي أثناء دراستي الإدارية لتلك المنطقة النظام القضائي الإسلامي فيها الذي شارك في وضع أساسه المرحوم القدال». كان القدال أيضاً قد إتخذ خطوات نحو تطوير النظام الإداري وانتدب إداريين سودانيين متميزين من بينهم الفاضل الشفيع الذي وصل إلى حضرموت مساعداً للسكرتير للشؤون المالية. كما ابتكر نظام المؤتمرات الإدارية واهتم بتدريب الإداريين الحضارمة لتولي الوظائف العليا في بلادهم. وتم بالفعل إرسال الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف إلى مدرسة الإدارة بكلية الخروطوم الجامعية. وعاد ليعمل وزيراً للسلطنة. وفي أثناء تولي الشيخ القدال رئاسة الحكومة ظهرت بشائر النفط في حضرموت.. وحاول الإنجليز توقيع اتفاق على عجل بين حكومة حضرموت والشركات الإنجليزية. واستطاع القدال أن يقنع السلطان بأن توقيع مثل هذا الاتفاق سوف يطيل من بقاء الإنجليز في البلاد.. ونجح في عرقلة الأمر طوال فترة رئاسته للحكومة التي انتهت في عام 1957.

عاد القدال إلى السودان قبل إنتهاء عقده بعام وعمل في حقل التعليم مرّة أخرى وخاصة في كسلا في كامل حيويته وتدقيقه في كتابة الشعر الذي ظل

ملازماً له طيلة أيام حياته العامرة. وصفه صديقه أبو شرف بقوله: مسامر حلو النعمة، فكه اللسان، متقن في الحديث متخير للفظ، فأنت في مجلسه لا تجسر على الكلام ولو كنت تشتهييه لأن متعتك الحقة أن تصغي بكل جوارحك إلى هذا السرد، وكأنه أنغام البلابل. فهنا الشاعر الملهم، والمؤرخ المتمكن والخطيب المفوه، والمتحدث البارع، والسياسي الحاذق، وهو قبل ذلك كله المسلم الصافي النفس، الطيب السريرة المتسامح دائماً، فهو على نور من ربه». من المصادفات النادرة أن ينجب مثل هذا الرجل بحياته الشرية هذه وتجاربه المتعددة ابناً مؤرخاً هو الدكتور محمد سعيد القدال الذي استطاع أن يرسم لوحة لوالده في غاية الروعة والاعتدال. لم تجنح به عاطفة ولم يهزه هوى.. وكانت الوثيقة حاضرة في كل صفحات الكتاب الذي وضع له عنواناً هو «الشيخ القدال باشا» معلم سوداني في حضرموت.. ومضات من سيرته 1903 - 1975.

26 أكتوبر 2002

والطب النفسي بجنييف، كما استضافته كثير من الجامعات الأمريكية ليقدم العشرات من المحاضرات عن الطب النفسي. إنتقل التجاني الماحي إلى رحمة مولاه وهو في الخامسة والستين مختتماً حياة تجسد قدرة الإنسان اللا محدودة على نيل المعارف والتحصيل والسمو إلى أعلى القمم.

لَمْ يحظ التجاني الماحي بالتكريم الذي هو جدير به، شأن الكثير من العلماء والمبدعين في بلادنا، فهذه السيرة الأقرب إلى الأسطورة كان ينبغي أن تجد من يهتم بها حتى تلهم مثقفينا وعلماءنا الشباب. لانملك إلا أن نتقدم بالشكر والعرفان للمقائمين على مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي في أم درمان، الذين قاموا بنشر كتاب «التجاني الماحي، سادن المعرفة»، الذي صدر أخيراً لمؤلفه الدكتور حسن أبشر الطيب وتقديم الدكتور محمد إبراهيم الشوش اللذين حاولا بحب وحفاوة أن يقدموا طرفاً من السيرة العطرة للراحل التجاني ويضيفا للمكتبة السودانية التي تفتقر كثيراً لسير الأفذاذ من أعلامنا.

24 أبريل 2001م

حين إدلهمت الأفاق في النصف الثاني من سنوات الستين في القرن الأقل
وغامت الرؤية وانبهمت السبل وغاضت ينابيع الأمل بعد أن تصوحت أوراق
أكتوبر الأخضر وعصفت بها ريح الصغائر وأحلام العصفير، ساد القنوط وبلغ
اليأس مداه في أوساط المثقفين، فأعرب الكثير عن الضيق والتبرم من تلك
الحالة التي أفضت إلى الراهن الكئيب. سياسيون أفندية يتراكمون متهافتين
على السلطة والجاه تحكمهم روح العلاوات والترقيات والتمرغ في تراب الميري
دون جدارة واستحقاق. تعوزهم القدرات الفكرية والثقافية ويفتقرون إلى البرامج
ووضوح الرؤى. تلفت هؤلاء المثقفون لم يجدوا سوى التجاني نموذجاً يحتذى
وشخصاً تهفو إليه النفوس فاستغاث عبدالله علي إبراهيم ملئناً، في مقالته
الشهيرة تلك به «التجاني الماحي قارئ الألواح». رآه وحده الباحث عن الحقيقة
والسادن للمعرفة والمتعطف عن لعاعات الدنيا. يقضي ليله متقلباً في متون
الكتب والمخطوطات وسحابة نهاره في مواساة المرضى والنهوض بالواجبات
وقضاء الحاجات. احتفى به مبنذراً بقوله «إذ أجلس لأكتب عن العالم العلامة
والحبر الفهامة وقطب زمانه وغوث أوانه، سيدي وذخري التجاني الماحي أحس
بالقافية الشرود التي لم يسلك وعر دروبها إلا فحول الشعراء تطرق بابي طايعة
بأدب وامثال. السجع الذي ابتذله الركافة والإدعاء والزخرف والوشى الخلب
يسلس قياده ويمنحني نفسه مختاراً لأذيع فضل هذا الكاهن، سادن المعرفة
والقائم بسقاية طلابها المجتهدين المكدودين. وإذ أشرع في شكره أزيد طولاً
وانتشر عرضاً وأتسامى كالأنثر، كأفواف الزهر العطر، كزيفة مطلع الخريف كأريج
بهار القهوة في جلسة مكمال في ظل الضحى، أندغم في الوجود، يندغم في
الوجود، أنهر وأستهتر وأستكبر كفتى ينحني لشبال من هو بها كلف مغرم بعد
أن استحقه سيطاناً يزدان بها ظهره. بشكر سيدي التجاني الماحي أقرط آذان
السامعين الصماء، وأحلى جيد الزمان العاطل وأزين وجه الحياة المبتس، قال
«إن التجاني إذا تكلم تصاعد العلم من رأسه دخاخين دخاخين ونختم كل مقطع

من حديثه بلازمته «شيء غريب» فيعود للمعرفة بدهشتها القديمة التي ظلت تدفع بالمكتشفين من الحمام عراة كما ولدتهم أمهاتهم. وكان يتحدث عن الطبري وابن خلكان وابن خلدون والقلقشندي والمسعودي، وعن ابن طباطبا وابن طراوة وخلف الأحمر وحماد الرواية وعن عبد الحميد وابن العميد والقاضي الفاضل وابن الأثير وعن علقمة الفحل والجاحظ وسيبويه وابن ماسويه وابن شهيد، وعن بعانخي وزوسر وتحتمس واخناتون والكنداكفة، عن سوفكليس وشكسبير وويرزويرث وشوسر. كان يجيد اللغات الإنجليزية والقارسية واللاتينية والهوسا فضلاً عن العربية ويعتبر حجة في اللغة الهيروغليفية ومرجعاً في تفسير الفاظها. وفي أيامه الأخيرة كان يدرس الفرنسية والألمانية وبعد ذلك يجد وقتاً لعقد مجالسه الفكرية ينصت ويتحدث وسط مريديه وتلاميذه، كما يجد وقتاً لزيارة المرضى في منازلهم ومساعدة المحتاجين من المثقفين والسياسين. وبمحض عائلته كل عطفه. تخصص التجاني الماحي في الطب النفسي وبرع فيه حتى تجاوز صيته المنطقة العربية والأفريقية، حيث اختارته منظمة الصحة العالمية خبيراً إقليمياً لمنطقة شرق البحر المتوسط، وباتت أبحاثه ودراساته مراجع علمية موثوقة يتم تدريسها في أقسام الطب النفسي في كثير من أنحاء العالم. إلا أن التجاني كان مهتماً بالفلسفة والتاريخ والاجتماع والأدب والإدارة والحضارة الإسلامية. لقد كان موسوعياً، في جميع هذه العلوم ويؤمن إيماناً راسخاً بأن المعرفة الإنسانية بمختلف ضروبها تقود إلى غاية واحدة.

حينما زار المؤرخ والعالم الموسوعي المستشرق الفرنسي جاك بيرك الخرطوم توجه إليه ذات مساء وخرج منه تملؤه الدهشة والإعجاب. قيل إنه في مكتبة.. «أفريكانا»، كان يقدم إليه المشرف عليها آخر الكتب التي وصلت إليه عن الطيور. وقد بلغ ولعه بالمخطوطات القديمة أنه كان يسافر إليها في روسيا وأفغانستان والصين والهند وبلاد القوقاز وأسبانيا. وأنه حين كان عضواً في

أصوات

مجلس السيادة زارت السودان الملكة اليزابيث الثانية فأهداها مجموعة نادرة من الرسائل كان فيها ما يثبت أنَّ الجنرال غردون إسم بالشذوذ والفحش وسرقة أنواع نادرة من البلاط. كان يؤكد بذلك أنَّ أخلاق السودانيين لا تسمح لهم بالابتزاز. ذلك رغم ما كان يعلمه أنَّ بريطانيا لاتزال تنظر شزراً إلى السودانيين حين يأتي ذكر غردون الذي ظنوه قديساً إغتاله برابرة لثام.

كان الدكتور التجاني يمتلك أكبر مكتبة يمتلكها فرد في السودان، زاخرة بكتب التراث الإنساني بمختلف اللغات، كما احتوت على ستة آلاف مخطوط أثري نادر، وحينما عرض عليه بيعها بأموال طائلة رفض ذلك مستنكراً وأثر إهداها إلى جامعة الخرطوم.

لَمْ ينغمس التجاني في العمل السياسي كما فعل رصفاؤه الخريجون. كان لا يطلب مجداً. عندما أحسَّ بالضييق في مؤسسته الحزبية التي تكلمت عظامها واستعصت عليه وهو العالم النفسي، هجرها بإستقالة كانت حديث الناس.

كان ميلاد التجاني في بلدة الكوة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض في عام 1911 وتخرج في كلية كتشنر الطبية عام 1935 وعمل في معظم مدن السودان، وفي عام 1947 توجه إلى بريطانيا مبعوثاً للدراسات العليا في جامعة لندن، وبعد عامين قضاهما هناك عاد ليؤسس عيادة للصحة النفسية عرفت بمستشفى التجاني الماحي للأمراض النفسية، والعصبية بأم درمان، وبات أشهر أطباء علم النفس على المستوى الإقليمي حيث اختارته منظمة الصحة العالمية مستشاراً في عام 1959 وأقام في الاسكندرية حتى عام 1964 ومن ثم عاد إلى بلاده ليتمَّ إختياره عضواً بمجلس السيادة في حكومة أكتوبر. كان الدكتور التجاني يتميز بالحيوية والنشاط الجَمِّ. فقد شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والندوات وترأس أول مؤتمر عقد بإشراف الأمم المتحدة في التعليم

سقوط الخرطوم في يد الإمام المهدي وعدم معرفة مصير غردون.

واحتفظ الدكتور التجاني الماحي ببعض أوراق البردي، وهي من أقدم المواد التي استخدمت في الكتابة قبل اكتشاف صناعة الورق، وقد كتبت عليها نصوص عربية. كل هذه القائمة عبارة عن إشارات لتلك الأسفار المتراكمة والدوريات والكتب النادرة والمخطوطات التي لا تقدر الآن بثمن والخرائط القديمة التي رسمت قبل تطور علم الجغرافيا والرحلات الاستكشافية. حيث كانت معظم أجزاء أفريقيا ومناطق أخرى من العالم لم يتم التعرف عليها. كما أن هناك عدداً من التحف الأثرية النادرة واللوحات.

5 يونيو 2001م

مكتبة التجاني الماحي

لا بدّ أن الأمر سيكون طريفاً لو قدر لك أن ترى خريطة جغرافية للسودان القديم قد تعود إلى عام 1525 - كما هو مكتوب عليها - أو إلى ما هو قبل ذلك. فبدلاً من نهر عطبرة ستري نهر تاكازي وبدلاً من سهل البطانة ستجد جزيرة مروى. كما ستجد مدن قرى والحلفاية ومروى وشندي وسواكن والأبيض وسنار «وود حيدر» والعيلقون وقد كتبت «حيلقون»، إلى أنك لا تجد الخرطوم ولا أم درمان اللتين برزتا كمدينتين في القرن التاسع عشر. ويتضح في تلك الخريطة النيل الأزرق من منبعه في بحيرة تافا، التي ورد اسمها في الخريطة تزاناً أو دينبا، إلا أن منبع النيل الأبيض لم يكن معروفاً آنذاك لذا تراه ناتها في أواسط غرب أفريقيا من غير منبع. وقد كتب عليه النهر الأبيض، كما كتب على البحر الأحمر الخليج العربي. أما إمتداد الصحراء الذي يتأخم حدود السودان الغربية فقد كتب عليها بخط واضح «أماكن غير معروفة»، أما موقع بلدة الكوة الحالية فقد كتب عليها «أليس». هذه الخريطة النادرة من مخطوطات مكتبة الدكتور التجاني الماحي التي بلغت ألفين وثمانمائة وخمسين مخطوطاً في مختلف العلوم من بينها مصاحف وتفسير وكتب سيرة وأحاديث شريفة ومدائح.

بمجرد دخولك المكتبة - التي تمّ إهداؤها لجامعة الخرطوم في عام 1972 - يطالعك تمثال للتجاني وهو ممسك بالكتاب الذي أحبه وبات جزءاً من حياته حتّى النفس الأخير. تحتوي المكتبة على تسعة عشر ألف مجلد من الكتب والمخطوطات والخرائط من بينها ألف كتاب عن الطب وألف كتاب عن علم النفس وألف وثلاثمائة كتاب عن السودان وألفان وخمسمائة عن التراث العربي وخمسمائة عن التاريخ القديم وثمانمائة وخمسون عن التاريخ الحديث وسبعمائة

وستون خريطة. وبقية الكتب شملت جميع علوم المعرفة، كتاريخ العلم والفلسفة والرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الفلك وكتب الزراعة وعلم النبات وعلم الحيوان والتربية والعلوم الاجتماعية والعلوم السياسية والاقتصادية والفنون التطبيقية والموسيقى والأدب والموسوعات والفواميس وكتب بالعبرية وغيرها.

أما مجموعة كتب السودان فتعد الأكمل حيث شملت جميع الكتب التي تناولت السودان باللغتين العربية والإنجليزية وغيرهما. ففيها نسختان من مجلد يحتوي على رسائل غردون بخط يده - وقد صدر هذا الكتاب في عام 1885 - وهناك أيضاً إحدى عشرة نسخة من كتاب سلاطين «النار والسيوف في السودان»، منها نسختان باللغة الإيطالية طبعتا عام 1898 وأربع نسخ من طبعة إنجليزية صدرت عام 1898 أيضاً والطبعة التالية لها وتاريخها 1922، كما توجد نسخة باللغة الفرنسية طبعت بالقاهرة في عام 1898، ونسخة طبعت في لايبزج عام 1896 باللغة الألمانية.

وتضمنت مكتبة التجاني حوالي ثلاثين كتاباً مختلفاً عن غردون صيغ أحدها شعراً وصدر في لندن عام 1885. ووجدت نسختان من كتاب نعم شقير «جغرافية وتاريخ السودان القديم والحديث». كما توجد مجموعة كاملة من «السودان في رسائل ومدونات» منذ عام 1918، ووقائع مجلس الحاكم العام منذ 1910 حتى 1925. ويوجد أيضاً كتاب عن بعثة لسنار ودنقلا صدر عام 1822، ولا توجد منه سوى نسخة أخرى واحدة بمكتبة الجامعة. كما توجد كتب الرحالة الذين اخترقوا القارة مارين بالسودان أيام الكشوفات الجغرافية والتكالب على المستعمرات أمثال ستانلي وبركهارت وجونستون وبروس وغيرهم. وهناك أربعة مجلدات تضمنت صوراً قديمة عن السودان عند زيارة الرئيس الأمريكي روزفلت للخرطوم في عام 1910، وذلك بالإضافة إلى قصاصات للصحف الأمريكية التي

تابعت الرحلة. وهناك طبعة خاصة نادرة من بيليو جرافية السودان لإبراهيم حلمي تحمل توقيعها، ومجلدة تجليداً فاخراً مزركشاً ومذهباً ومبطناً.

ويوجد كتاب إحتوى على مطبوعات المملكة المتحدة فيما يتعلق بمصر والسودان تضمن مكاتبات خاصة عن العمليات الحربية البريطانية في السودان والتي تمّ تقديمها للبرلمان البريطاني عام 1885، كما يوجد مطبوع يوميات عباس بك سكرتير الجنرال هكس والذي قتل معه في معركة شيكان عام 1883، وقد طبعته دار المعارف بمصر.

تستعمل مكتبة التجاني الماحي أيضاً على كتب للتاريخ القديم تبلغ خمسمائة مجلد منها أكثر من 250 مجلداً عن تاريخ مصر الفرعونية من مؤلفات بدج وماسيرو وفلندر بترى. وعن التاريخ الأوروبي هناك ثمانمائة وخمسون مجلداً منها جزء كبير عن تاريخ بريطانيا والتاريخ الأفريقي وتاريخ الشرق الأوسط. ومن كتب التفاسير هناك تفسير الرازي وتفسير الدر المنثور للسيوطي والكشاف للزمخشري وتفسير الثعالبي وابن الخطيب وابن تيمية وتفسير أخرى. ومن كتب السيرة هناك ابن هشام وكتب أخرى بلغات غير العربية. ذلك بالإضافة إلى كتب الفلسفة الإسلامية كمؤلفات ابن رشد و«إحياء علوم الدين» للغزالي. وتوجد عدة طبعات من التوراة يعود تاريخ إحداها إلى عام 1549، كما توجد عدة نسخ من التوراة باللغة العربية يعود تاريخ بعضها إلى القرن التاسع عشر.

أما عن الأدب ففي المكتبة طبعتان من كتاب الأغاني ومختصر الأغاني، كما توجد طبعات من «ألف ليلة وليلة» بالإنجليزية. ولم تخل من دواوين الشعر كديوان المتنبي بشروحات العكبري والعلامة الواحدي والبرفوقي وسليم إبراهيم صادر وناصف البازجي ولجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر إحتفالاً بألفية ميلاد الشاعر. وهناك نسخ من شرح «إخوان الصفا» لإبراهيم القاضي وبه حاشية من تفسير

العكبري والواحدى. كما نجد «رباعيات الخيام» و«سقط الزند» للمعري وشروحه.. وبالمكتبة عدد من الكتب الخاصة بتاريخ العلم لمؤلفين أمثال جورج سارتون وألدو ميللي وكتب الفلك لعلماء أفذاذ مثل البيروني وأبي الحسن الرازي. أما كتب الطب -الذي هو مجاله- فهناك حوالي الألف كتاب، منها مائتان وسبعون باللغة العربية، مثل كتاب «القانون في الطب» لابن سينا والذي يعود تاريخ طبعه إلى عام 1593 -وهو يحتوي على ألف وثلاثين صفحة بالحروف الدقيقة- وكتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، وقد نشر في عام 1883 وكتاب «المعتمد في الأدوية المفردة» ليوسف ابن رسول العباسي المجوسي - وقد ألفه صاحبه للملك عضد الدولة بن بويه، وكتاب «الطب النبوي» لابن قيم الجوزية المتوفى عام 751هـ. أما علم النفس، الذي اشتهر به الدكتور التجاني الماحي وذاع صيته فقد وجدت مذكرة بخط يده على غلاف كتاب في علم النفس جاء فيها «هذا الكتاب أهده لي الصديق العزيز إسماعيل أفندي الأزهرى يوم 6/6/1935، وهو كتابه الذي قرأه في علم النفس بالجامعة الأمريكية، وهو أول كتاب في علم النفس أقرؤه». وقد بلغ عدد الكتب الخاصة بعلم النفس في مكتبة التجاني ألف كتاب، معظمها لمؤلفين من القرن العشرين إلا كتاب «تعطير الأنام في تعبير الأنام» لابن سيرين، وقد تمّ تأليفه في عام 1096هـ كما يوجد كتاب «الفراصة» للرازي.

تضمنت مكتبة التجاني الماحي أيضاً سبعة «ألبومات» احتوت على عدة خطابات لغردون ليفنجستون وصموئيل بيكر وونجت وغيرهم، من بينها آخر ما كتبه غردون في حياته بأم درمان يوم 14 ديسمبر 1884 عبر فيه عن سعادته لأنه أدى الواجب المنوط به. وهناك قصاصات صحف منها قصاصة من عدد صحيفة «التايمز» اللندنية الصادرة في السادس من فبراير 1885، نشرت فيها بريقة عن

للاحتجاجات وأساليب الرفض من قبل الأوساط المحافظة والمغلقة. لم تكن الإدارة البريطانية تبدي حماساً للتعليم بصورة عامة وتعليم الفتيات بصورة خاصة.. ولكن كانت تدرك خطورة الوعي الذي يمكن أن يتمخض عنه تعليم الأمهات. إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً حتى بدأت الأوساط المستنيرة تطالب الحكومة بالتوسع في التجربة فافتتحت خمس مدارس للبنات في مدن مختلفة.. وكان ذلك في عام 1911. استمر التوسع ببطء شديد حتى تم إنشاء كلية معلمات المدارس الأولية في عام 1921. وفي عام 1948 أنشأ الشيخ أبو بكر المليك أول مدرسة أهلية وسطى للبنات بأم درمان.. وذلك بعد أربعين عاماً من إنشاء أول مدرسة أولية. ومن ثم بدأ التعليم الأهلي في التوسع والانتشار بسبب الوعي الذي انتظم البلاد وخطا الاتحاد النسائي خطوات أزهجت الاستعمار حين أنشأ مدارس وسطى للبنات في عام 1953 بأم درمان، والخرطوم. وكان التعليم الثانوي قد بدأ بمدرسة أم درمان ومن ثم أتيح للفتاة السودانية دخول كلية الخرطوم الجامعية فتخرجن بأعداد قليلة لم تلبث أن ازدادت بمرور السنين.

طيلة هذه الفترة ساهمت المرأة السودانية في النضال جنباً إلى جنب الرجل منذ ثورة 1924، وحتى نيل الاستقلال. كما أخذت تتسلم الوظائف المهمة وتكتب في الصحافة منذ بداية سنوات الأربعين.. وكن أحياناً يكتبن بأسماء مستعارة. وقد صدرت أول مجلة نسائية في السودان عام 1947 قامت بإصدارها الأنسة تكوي سر كسيان- وهي سودانية من أصل أرمني- باسم «هنت الوادي». وشهدت منتصف الخمسينات صدور مجلة «صوت المرأة»، التي باتت تحررها أقلام سودانية برئاسة فاطمة أحمد إبراهيم، وكانت تمويلها بالإضافة إلى التحرير عضوات الاتحاد النسائي. والسيدة فاطمة أحمد إبراهيم تعتبر نموذجاً رفيع المستوى في الإهتمام بقضايا وطنها واكتسابها لاحترام جميع الاتجاهات السياسية لتمكسها بأخلاق وقيم بنات البلد السودانيات، وكانت إحدى

المرأة السودانية..

تاريخ طويل وتجربة خصبة



حاجة كاشف

«البنات تنجب الفارس .. تمنيت لو أن لي معتر بنت أفدي بين القبائل»

محمد أحمد المهدي

«الرجل عظيم والمرأة عظيمة .. وليس أعظم من والدته الرجال»

وولت ويتمان

لا أحد يستطيع أن يتصور تلك الحادثة التي كانت تتكرر يومياً في إحدى سنوات الأربعين من القرن الماضي حين التحقت فتاة سودانية بالعمل كموظفة في مصلحة الاقتصاد والتجارة. كانت تخرج من دارها بأمر درمان فتستقل الترام يرافقها أخوها حتى باب المكتب في الخرطوم ثم يعود بها بعد ساعات العمل بنفس الصورة.. كانت ترتدي ثوباً محتشماً وتغطي وجهها إلا العينين .. ومع ذلك كانت تتعرض للسباب والحصب بالحجارة من قبل

الدهماء الذين اعتبروا تجربتها تمرداً على الأعراف والتقاليد. وحتى في داخل المكتب لَمْ تسلم من تزمت زملائها الموظفين الذين رفض البعض منهم مجرد التعامل معها في إطار العمل، وأقسم بعضهم بالطلاق على ألا يجلس في غرفة واحدة مع «حرمة». ومع ذلك لَمْ يعض أكثر من عامين حتى بلغ عدد الموظفين تسع فتيات ممن أكملن تعليمهن الثانوي في المدارس الأجنبية والتحقت بمصلحة الاقتصاد والتجارة، ولَمْ تكن تلك تجربة الفتاة الأولى في العمل بالسلك الوظيفي.. فقد سبقت إلى ذلك فتاتان هما أسماء قرنفلي وأنيزي جمعة سعيد اللتان التحقتا بمصلحة التليفونات في عام 1920.

لَمْ يدرك هؤلاء الحمقى أن للمرأة السودانية تاريخاً طويلاً حافلاً بالمآثر والمواقف الجليلة، ولَمْ يعلموا أن الكنداكة، الملكة الني حمت مروي حتى عام 25 ق.م استطاعت أن تدحر الحامية الرومانية في كل من جزيرة الفيلة وأسوان. وأن قائمة أركل احتشدت بملكات أخريات إزدانت بهن حضارتا نبتة ومروي، وإن أمان رتس بنت الملك كاشتا (715-664 ق.م) حكمت الوجه القبلي من مصر على عهد أخيها، وقد وصفها نعوم شقير بقوله: «ولهذه الملكة في متحف الجيزة تمثال من حجر الجرانيت بقدر أهيف وقوام رشيق ووجه صبور جميل يزينه التاج على رأسها والأساور العريضة في معصميهما والحجول الكبيرة في رسغيهما على مثال أساور السودانيات وحجولهن هذه الأيام».

وفي المجتمعات الرعوية القديمة في السودان القديم برزت المرأة إلى جانب الرجل بمشاركتها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للقبيلة. وقد تولت قيادتها الفعلية في المعارك والمصادمات مثلما فعلت شغبة المرغومابية في البطانة وبكرة بنت مكابر الجعلية التي كانت مقاتلة شرسة حتى أنها تمنعت عن الزواج وارتضته بعد حين فانجبت علياً- ومازالت منطقة جبل أم علي تعرف باسمها. وفي مجال العلم برزت شيخات عالمات أدون الخلاوي وعلمن النساء، يذكر

التاريخ كثيراً منهن أمثال فاطمة بنت جابر التي علمت القرآن في خلوتها بقرية ترانج القريبة من كريمة -إلى جانب أخويها إبراهيم وعبدالرحمن- وهناك عائشة بنت ود قدال التي درست بخلوتها بجهة جبل الأولياء. كثيراً من النساء والرجال. وفي الشرق بمناطق البجا اعتمد التدريس في الخلاوي أساساً على النساء. وفي الغرب يفترض أن تكون زوجة شيخ الخلوة مثله تحفظ القرآن وتدرسه في الخلاوي وبرزت هناك شيخات متفقيات أنشأن الخلاوي بأنفسهن وأكثرهن من قبائل الفور والبرقو والمساليث.

وحين اندلعت الثورة المهدية أطلقت طاقات النساء فشاركن في المعارك منذ الوهلة الأولى.. وصحبن أزواجهن وإخوانهن يحمين ظهورهم ويضمدن جراحهم ويقاتلن خلف الجيش يحملن العصي الغليظة ويهزجن بالأناشيد الحماسية. ويذكر التاريخ رابعة بنت مرعي الكنانية التي سارت على قدميها ثلاثة أيام بلياليها فشقت الفيافي والوهاد والغابات الموحشة. لم تخش السباع ولا الضياع حتى وصلت إلى معسكر الإمام المهدي في قدير فأبلغته بتحريك قوات العدو من فشودة لقتاله.. فاستعد لذلك وأذاق القوة مرارة الهزيمة في أقل من ساعة. وكذلك الحاجة ست البنات أم سيف التي حملت أمر التسليم إلى صالح ود الملك في فداسي.. وواصلت مشاركتها في معارك الثورة حتى حصار الخرطوم حيث إستشهدت في أغسطس 1884 هي وعدد من إمائها المقاتلات. كما سقطت شهيدات أخريات أمثال خديجة بنت سوركتي، وفاطمة بنت أم الحسن، اللتين كانتا تعالجان الجرحى.

كان الإمام المهدي براً عطوفاً على النساء يحترمن ويقدرن ويمتلىء خطابه بتوفيرهن والعمل على حل مشاكلهن -وكان يتدخل حين يستشرنه في تفاصيل حياتهن. وكان يستبشر بميلاد البنات. وقد تمنى أن يتجب منه من الفتيات لبصاهر القبائل، وذلك في سعيه نحو صهر الأمة السودانية وتحقيق

أصوات

وحدثها الكبرى.

وفي المهدية تمّ إلغاء نظام التعليم المرتبط بثقافة الإحتلال التركي وتم تشجيع الخلاوي لتعليم الجنسين فانتشرت في أم درمان ومناطق الدامر، والمعراب بشندي والجزيرة إسلاج والجريف، وحلقاية الملوك، واستمر معظم هذه الخلاوي حتى الحكم الثنائي، وقد برزت نساء شيوخات مثقفات خلال سنوات المهدية كن يطفن بالبيوت لتعليم النساء.

في العهد التركي بدأ المبشرون المسيحيون نشاطهم في السودان عام 1846 وشمل مناطق مختلفة.. فأقاموا مدارس مختلفة للأطفال يعلمونهم القراءة والكتابة والحساب والنجارة والبناء والرسم والغناء والموسيقى. وأخذت المرأة بنصيب وافر من تلك التجربة فتعلمن اللغات الأجنبية وخاصة الإيطالية الأمر الذي مكن البارزات منهن من السفر إلى مصر وإيطاليا. وقد ذكر الأب اليأس.ف. طونيلوي في كتاب «دور الإرساليات الكاثوليكية في حركة الكشوفات الجغرافية وعلم الأجناس في السودان» أن من بين هؤلاء الفتيات طريفة أوديت «من الديشكا»، وبحر النيل حسن «من دارفور»، وبخيتة ربحان من «دار مساليت»، وقد تلقين تعليمهن بمدينة فيرونا الإيطالية، وعلمت المبشرات المسيحيات النساء والفتيات في بيوتهن فن الطبخ والخياطة والتطريز ومبادئ القراءة والكتابة، كما ساعدن على تعليم كثير من الإماء بعد تحريرهن فن التوليد والتمريض.. دون أسس حديثة، ولكن ذلك شكّل البدايات الأولى في هذا المجال.

كان الشيخ بابكر بدري طليعاً على مستوى القارة الأفريقية حين سعى في مطلع القرن العشرين لتعليم البنات في السودان، فأنشأ مدرسته الأولى عام 1907 وألحق فيها بناته وبنات الأسر القريبة من عائلته. ورغم ذلك ظلّ هدفاً

مؤسسة نموذجية في المجتمع المدني

الإتحاد النسائي السوداني



فاطمة أحمد إبراهيم

كتبت الدكتورة فاطمة بابكر محمود بروحها الطليقة الوثابة وجرأتها المشروعة وغضبها العادل المتسامح عن قضية المرأة فأوفت وزادت وأبدعت.. كتابة ما عهدنا مثلها في هذا المجال.. في الدقة والتنوع والثراء والتناول الصارم.. وهي الأكاديمية الحاذقة بلا ريب والأديبة الكاتبة المتمردة.. طرقت الدروب الوعرة لازاد لها سوى الإيمان بإنسانية الإنسان وقضية أختها المعذبة. أجبرتني أن أعود إليها.. وما كنت أظن أنني سأفعل بعد تقديم كتابها في الأسبوع الماضي.. عدت هكذا بخطى ربما لا تكون منتظمة لأن مؤلفها «المرأة الأفريقية بين الإرث والحداثة» يلح عليك أن تعود إليه بين لحظة وأخرى.. أتحمسه في كل وقت وهو على مكتبي.. أحاول أن اقتنص شيئاً.. إلا أنه يحتاج لقراءة متأنية عميقة.. تستمتع بما فيه وتستزيد فتجد المزيد.. فما يحتويه يلح عليك بشكل هاجس وفرحاً مخبوءاً. استوقفني تناولها لتجربة المنظمات التي إبتدعتها المرأة السودانية

قيادات الإتحاد النسائي البارزات، كما أصبحت رئيسة لإتحاد نساء العالم كأول عربية وأفريقية تشغل هذا المنصب الرفيع. كما كانت أول نائبة برلمانية في المحيطين العربي والأفريقي، وتقيم الآن في العاصمة البريطانية.

وقد خاضت المعلمة المقتدرة والأديبة البارة الأستاذة ملكة الدار محمد عبدالله مغامرة باكرة وجديرة بالثناء حين أصدرت روايتها «الفراخ العريض». وذلك بعد أن بانّت واحدة من كتاب القصة القصيرة المبدعين.

لقد استطاعت المرأة السودانية تحقيق ذاتها وأثبتت جدارتها وقدراتها في الاعتماد عليها.. وشغلت أرفع المناصب وتولت حقائب وزارية.. وظلت تزود عن أسرتها وتحمي أطفالها في كل الظروف القاسية التي مرّ بها الوطن. وفي هذه الأيام الصعبة التي فرضت الهجرة على الرجل وقفت المرأة السودانية سنداً له في غيابه وحضوره، كما اضطرت في كثير من الأحيان للهجرة أيضاً في سبيل تحسين ظروف العيش لها ولعائلتها. واستطاعت أن تصمد في المتاعف البعيدة وتكتسب خبرات جديدة وتتهل من المعارف في الجامعات ومجالات العمل المختلفة. وفي ظروف الحرب بالجنوب ظلت المرأة السودانية تدافع عن وجودها وتعمل على استمرار الحياة.

تعكف المثقفات السودانيات الآن على كتابة تاريخ المرأة السودانية.. فعقدن الندوات وقدمن المحاضرات، وأخذت مساهماتهن تترى في هذا الشأن. كما اتسعت حركة التوثيق لتضيف تجربة جديدة لنشاط المرأة وتنوع اتهاماتها، وقد قدمت الدكتورة حاجة كاشف بدري مؤلفاً في غاية التماسك والشراء بعنوان «الحركة النسائية في السودان». استطاعت من خلاله أن تنفذ إلى التجربة التاريخية للمرأة السودانية. وقدمت نماذج ساطعة للنساء السودانيات ودورهن في الحياة السياسية والثقافية.

والدكتورة حاجة كاشف جزء أصيل من معارك شعبنا الوطنية، وهي من أوائل الخريجات الجامعيات، وقد إنغمست في العمل الوطني والنشاط الثقافي والاجتماعي والنقابي. واكتسبت تجارب في غاية الأهمية، الأمر الذي انعكس بشكل واضح على مؤلفها النفيس الذي صدر في الخرطوم عام 1984.

2 أبريل 2002م



ملكة الدار محمد عبدالله

« المرأة الأفريقية بين الإرث والحدائق »

د. فاطمة بابكر محمود



صدر في العاصمة البريطانية أخيراً كتاب « المرأة الأفريقية بين الإرث والحدائق » للدكتورة فاطمة بابكر محمود كمساهمة بارزة في الكتابة حول هذه القضية الشائكة والمعقدة والتي تشغل حيزاً كبيراً من الاهتمام. واشتمل الكتاب برؤيته الشاملة العميقة على نماذج وروى حول التجربة الإنسانية للمرأة بصفة عامة. كما تناول تجارب النساء الأفريقيات في كينيا ومصر والسودان بصورة خاصة.

ويقول الدكتور محمد سليمان محمد مدير معهد البديل الأفريقي ومقره في لندن إن هذا الكتاب يلبي حاجة ملحة في نضال المرأة السودانية من أجل تحررها وإعلاء كرامتها الإنسانية، وهو يسد ثغرة في المكتبة العربية في مجال القضايا العلمية والنظرية لحركات النسائية الأفريقية عامة والسودانية خاصة. إنه حصيلة سنوات طويلة من العمل والدراسة والبحث.

والدكتورة فاطمة بابكر محمود ناشطة سياسية سودانية معروفة وعاملة في مجالات العمل العام والدفاع عن المرأة. وهي أيضاً أكاديمية بارزة حاضرت في جامعة الخرطوم والجامعات البريطانية. وقد تلقت تعليمها في شعبة العلوم السياسية كلية الاقتصاد والدراسات الإجتماعية بجامعة الخرطوم وجامعة «هل» بالمملكة المتحدة. منتخبة باللجنة المركزية للإتحاد النسائي السوداني منذ عام 1970 ورئيسة المنظمة النسائية لحركة «البان-أفريكان». كما أنها عضوة مؤسسة لكل من إتحاد الكتّاب السودانيين والمنظمة السودانية لحقوق الإنسان. لها عدة مؤلفات والعديد من الأوراق البحثية. من أهم مؤلفاتها «البرجوازية السودانية: هل هي طليعة للتنمية؟» ويتركز إهتمامها على قضايا المرأة والاقتصاد السوداني والإسكان. وهي تقيم حالياً في لندن مع زوجها الدكتور محمد سليمان وابنتهما عزة.

وقد تلقينا منها بكلّ امتنان نسخة من هذا الكتاب القيم المليء بالمعلومات والوثائق والذي قام بتحريره الدكتور صلاح آل بندر بلغة رفيعة زانت المحتوى العميق لهذا العمل الفكري المتميز. تمنى أن تتاح لنا فرصة أوسع حتى نتناول شيئاً يلقي ضوءاً على أهمية هذا العمل قبل توزيعه والذي سيتم بإذن الله خلال الأيام المقبلة.

1 أكتوبر 2002

كانت لمشاركة الدكتورة خالدة زاهر التي خرجت في أول مظاهرة ضد الاستعمار في عام 1946 والأستاذة فاطمة طالب اللتين سبق أن أسستا «رابطة الفتيات الثقافية» أثر بارز في دفع المبادرة لحشد المتعلقات لإنشاء تنظيم «الإتحاد النسائي»

ولا بد أن هؤلاء الرائدات قد تأثرن بالحركة النسوية المصرية وقائداتها مثل هدى شعراوي بالإضافة إلى حركة التحرير التي شملت المستعمرات الأفريقية والآسيوية خلال الحرب العالمية الثانية. كما كن قريباً من تطورات الحركة الوطنية السودانية.. ولن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا إن هذا الإتحاد نشأ في أحضان تلك الحركة. كما أنه تزامن مع بروز حركة اليسار السوداني - الذي كان أول تنظيم يفتح باب عضويته للنساء - وكانت خالدة زاهر من بين أعضائه البارزين. ولا شك في أن كثيراً من الأساليب التنظيمية التي إبتدعها اليسار نمت الاستفادة منها في بناء تنظيم الإتحاد.

في المرحلة ما بين 1952 و 1965 طرح «الإتحاد النسائي» برنامجاً يدعو للتقدم الاقتصادي والاجتماعي - كان متقدماً نسبياً على تقاليد المجتمع السوداني عهد ذاك وخاصة في الريف - حيث طالب بتعليم المرأة ومساواة الأجور وتغيير قوانين الأحوال الشخصية. كما دعا لمحاربة العادات الضارة مثل الشلوخ وغلاء المهور والإنفاق البذخي في المناسبات، وركز على مسألة نشر الوعي ومحاربة الأمية وأنشأ فصولاً مسائية لمحو الأمية في بعض مدارس العاصمة ومدن الأقاليم.. وبادر الإتحاد النسائي أيضاً بإنشاء مدرسة وسطى للبنات في حي الخرطوم جنوب.. كانت أول مدرسة للبنات يقوم بتأسيسها تنظيم غير حكومي. ومنذ ذلك الوقت بدأ التفكير في إضافة القسم الثانوي الذي صدرته سلطة نميري في عام 1969.

لتحرير ذاتها وتأكيد عزمها على تحديد مصيرها ومشاركتها في صنع مستقبل بلادها.

تحدثت عن تجربة المرأة السودانية منذ أن كانت شيخخة تؤسس الخلاوي لتعليم الصبية والصبيات.. حين نهضت معلمة مثابرة أو «حوارة» متألفة في كل العهود التي تواترت إلينا أخبارها حتى القرن العشرين الذي شهد طفرة الإنسان الكبرى. وحين بدأ التعليم الزماني استطاعت المرأة السودانية ولوج المؤسسات التعليمية العليا وتخرجت فيها فبرز دورها المشهود.

شدني ماكتبته عن الإتحاد النسائي والدور الذي لعبه في الحياة السودانية كإحدى المؤسسات البارزة في المجتمع المدني، رغم ما تردد عن ارتباطاته بتنظيم حزبي معين. وأوضحت ملابسات تلك العلاقة بكل جرأة وشفافية.. فهي عضوة قيادية منتخبة باللجنة المركزية لذلك الإتحاد منذ عام 1970. تلك المؤسسة ذات الصوت الجهوري والتي ماعدنا نسمع عن نشاط لها منذ زمان ليس بالقصير. ران عليها ماران على مؤسسات المجتمع المدني من سكون وموات ألحقته بها معاول الهدم والتخريب.

تناولت الكاتبة تجارب التجمعات النسوية الباكورة مثل «النادي النسائي» الذي نشأ بمدينة ودمدني في عام 1926 وجمع لفيفاً من زوجات كبار الموظفين بمشروع الجزيرة وبمبادرة من زوجات البريطانيين العاملين في خدمة الحكومة الاستعمارية عهد ذلك. وكان هدفه لا يعدو التسلية والترفيه. ولكن سرعان ما انفض سامره حين رأى فيه الوطنيون خروجاً عن التقاليد والعادات فأثرت النساء السودانيات عدم إرتياده وتوقف نشاطه. وفي عام 1928 تكونت أيضاً جمعية المرشدات الكشفية التي أسستها البريطانيات واقتصرت عضويتها عليهن بالإضافة إلى بنات الجاليات الأجنبية الأخرى كالأرمن والاعريق والشوام.

استمر كذلك حتى فتح باب عضويته للسودانيات في عام 1948.

نشأت «رابطة الفتيات الثقافية» في عام 1946 وضمت عدداً من بنات الموظفين والمتعلمين ممن كانت أعمارهن تتراوح ما بين 18 و 22 عاماً.. وذلك بقيادة مجموعة من متعلمات أم درمان برئاسة خالدة زاهر السادات التي أصبحت فيما بعد أول طبيبة سودانية وسكرتارية فاطمة طالب إسماعيل التي عملت حتى وفاتها بمجال التعليم. استمرت هذه الرابطة لمدة أربع سنوات أنشأت خلالها أول مدرسة مسائية لمحو أمية النساء وروضة للأطفال.

كان ذلك إلهاماً لتبلور وعي المرأة السودانية وإحساسها بضرورة إشاعة التعليم وسط النساء لتأكيد انتشار ذلك الوعي حتى يستطيعن الإساءة بقضايا تحررهن. تصاعدت الحركة الوطنية وبلغت ذروتها في سنوات الأربعين من القرن الماضي وساهمت المرأة السودانية بنصيب وافر في الأحداث السياسية والحركة المطالبة للعاملين وشاركت الممرضات لأول مرة في تنظيم تظاهرة مع زملائهن في نقابة عمال وعاملات وزارة الصحة. وفي عام 1955 فازت إحدى الممرضات بعضوية اللجنة المركزية للنقابة. أما «إتحاد المعلمات الثقافي» فقد تأسس في عام 1948 ثم لم يلبث أن تطور بقيادة الأستاذة نفيسة المليك وأخريات وتحوّل إلى تنظيم مطلبى في عام 1949 هو نقابة المعلمات فاعترفت به السلطات وتم تسجيله رسمياً في ديسمبر 1951.

سبق تكوين الإتحاد النسائي السوداني في مطلع عام 1952 نشؤ تنظيمات نسوية أخرى مثل نادي ودمدني النسائي الذي تأسس في عام 1944 والجمعية الخيرية النسائية بمدينة الأبيض في عام 1951 و«إتحاد النساء الناطقات بالإنجليزية» - الذي أسسته الإدارة البريطانية عام 1947 وجمعية «نهضة المرأة» التي أسستها السيدة رحمة عبدالله جادالله (والدة السيد الصادق المهدي) عام

1949، ثم جمعية الثقافة النسوية والتي تكونت بعد الإتحاد النسائي عام 1954.

جميع هذه المنظمات كانت محدودة العضوية والأهداف ولم تسع لقضايا مثل تحرير المرأة أو تبلور أهدافاً سياسية واقتصادية واجتماعية.

كانت صاحبة فكرة تكوين الإتحاد النسائي هي الأستاذة عزيزة مكي عثمان أزرق حين أشارت في بحث قدمته في كلية الآداب بجامعة الخرطوم إلى أن مشاركة المرأة السودانية في الحركة الوطنية لا يمكن أن تتم إلا في إطار تنظيم نسائي قومي جماهيري شامل. وبمبادرة مجموعة من المتعلقات ومن بينهن مؤسسات «رابطة الفتيات الثقافية» خالدة زاهر السادات وفاطمة طالب إسماعيل وعزيزة مكي أزرق بالإضافة إلى مجموعة أخرى بدأت المناقشات حول تنفيذ فكرة التنظيم.

وفي يناير 1952 انعقد الاجتماع الأول بأم درمان في منزل الأستاذة عزيزة مكي حضرته 28 من المتعلقات بالعاصمة المثلثة وكانت أغليبتهن من أم درمان.

وتشكّلت اللجنة التنفيذية الأولى للإتحاد النسائي السوداني من 15 عضوة هن: بتول أدهم (ممرضة)، وثريا أمبابي (معلمة)، وسعاد عبد الرحمن (معلمة)، وخالدة زاهر (طبيبة) وفاطمة طالب (معلمة)، وثريا الدرديري (طالبة جامعية)، ونفيسة المليك (معلمة)، وسعاد الفاتح البدوي (طالبة جامعية)، وحاجة كاشف (طالبة جامعية)، وعزيزة مكي (معلمة)، وخادم الله عثمان (ممرضة)، وفاطمة عبد الرحمن (معلمة) ومحاسن عبد العال (معلمة)، وفاطمة أحمد إبراهيم (معلمة)، وخديجة مصطفى (معلمة). وتم إختيار فاطمة طالب أول رئيسة للإتحاد.

كان من أبرز أهداف الإتحاد النسائي هي تحرر المرأة من حالة الإزدواج كإنثى في البيت وكمواطنة عاملة في المجتمع، والإهتمام بالطفولة والأمومة والدفاع عنها، والقضاء على الفقر ومحو الأمية بتحقيق التنمية الإجتماعية بالاعتماد على النفس.

كنت ألتقي بالعم ود القور أحياناً حين أكون جالساً في مكتب صديقنا وأستاذنا الراحل محمد ميرغني بركة عليه الرحمة. كان بركة قد تقاعد في أوائل سنوات الثمانين واتخذ مكتباً له في المنطقة الواقعة شمال السوق. كنّا نلتقي فيه أحياناً مع عدد من الأصدقاء. حين كان ود القور رئيساً للطباخين في داخلية مدرسة كوستي الأميرية الوسطى في أوائل سنوات الستين كنّا طلاباً فيها. كما كان الأستاذ بركة معلماً يدرسنا اللغة الإنجليزية. كنّا في القسم الخارجي إلا أننا نعرف وتصادق جميع عمال المدرسة بمن فيهم طاقم المطبخ.. ود القور ومحمد ويحيى.

كشف لنا ود القور ذلك النهار أنه عمل طاهياً للمملكة أمنة وروى لنا ما رآه وما أتاحت له معرفته. لم يكن حديثه ذاك جديداً عليّ أذني فقد سمعت أطرافاً من أخبار تلك السيدة العجيبة من بين القصص والحكايات وأحداث التاريخ التي كانت تروى لنا الوالدة التي كانت تتدفق ينبوعاً من الحديث في تلك الليالي السعيدة. وما زلنا مدينين لها -عليها الرحمة والمغفرة- فقد ظلت مصدراً أساسياً في تكويننا المعرفي والوجداني، وطاقمة ديناميكية شحذت ذواتنا وحددت توجهاتنا.

كانت قصة الملكة أمنة وما زالت جزءاً من تاريخ المدينة وما زالت الذاكرة تستعيدنا كلما ساقتنا الظروف قرب دار العمدة ود التوم في الطرف الجنوبي لحي المربع. كما كنت قد قرأت -ما لا أذكره الآن- ما كتبه الدكتور مصطفى مبارك مصطفى عن الملكة أمنة وما اشتجر بينه وبين الراحل الطيب محمد الطيب من سجال حول هذا الشأن. ومصطفى باحث وقاص ظل يبدي اهتماماً عظيماً بمدينة كوستي التي نشأ وترعرع بين ربوعها في حي المربع الذي استضاف الملكة يوماً، وإن كان ذلك قبل ميلاده بسنوات. ومعظم القصص القصيرة التي كتبها مصطفى مبارك تدور أحداثها في تلك المدينة التي أحبها.

وكان الإتحاد النسائي في معظم الأحيان يستخدم المدارس الحكومية بعد اليوم الدراسي حيث تبدأ حصص محو الأمية في الرابعة بعد الظهر حيث تكون النساء قد فرغن من شؤون منازلهن.

تعاقبت على رئاسة الإتحاد النسائي فاطمة طالب ثم خالدة زاهر وحاجة كاشف بدوي- لفترة وجيزة قبل الحكم العسكري الأول - ثم الأستاذة فاطمة أحمد إبراهيم التي ترأسته منذ عام 1965 وحتى الآن.

لقي الإتحاد النسائي معارضة سافرة من قبل السلفيين منذ إنشائه وهجوماً منظماً من قبل أئمة المساجد والعناصر المتشددة التي رأت في طرحه خروجاً عن الدين والعادات والتقاليد. ولكنه في نفس الوقت لقي تعاطفاً ومساندة من القطاعات المستنيرة والمثقفين الذين ظلوا سنداً دائماً له.

دأب الإتحاد في سنواته الأولى على إقامة «أسبوع المرأة» في 28 يناير. وكان حدثاً مشهوداً تتلقاه جميع النساء حتى الأميات منهن بكثير من الترحاب. وكان يوم «أسبوع المرأة» الذي يقام بام درمان كثير من النساء والرجال لحضور الندوات والمحاضرات والمشاركة في السوق الخيري. يمتد الاحتفال سبعة أيام: يوم للطقولة والأمومة ويوم للعائلات، ويوم للطالبات، ويوم للقضايا العامة، ويوم للمناشط الفنية، ويوم للمباريات الرياضية، والأخير لمحو الأمية. وفي ختام الأسبوع يقام حفل غنائي ساهر يشارك فيه كبار الفنانين.. يقدمون أحدث الأغاني إلى جانب الأناشيد الوطنية وتلك التي تتناول قضية تحرر المرأة مثل أغنية الفنان حسن عطية «هيا ياسعاد وانت يا ثريا.. نعلن الجهاد ننشد الحرية». وكان الأسبوع يشتمل على المعارض للأعمال اليدوية والصور والشعارات الخاصة بتحرر المرأة، إلى جانب معارض الرسم والتطريز والخياطة والنسيج.

وكان الأطفال يشاركون بتقديم فقرات شعرية بالإضافة إلى الأغاني والأناشيد.

أصوات

وكان الاتحاد النسائي أول من اهتم بالفنون الشعبية والرقص الشعبي بترويجه لرقصة الكمبلا المعروفة في جبال التوبة.

أصدر «الاتحاد النسائي» مجلته «صوت المرأة» التي شنت الحملات ضد الدجل والخرافة وعملت على تحرير النساء من كل أوجه التخلف. وقد لعبت دوراً سياسياً بارزاً إبان دكتاتورية الفريق عبود وكشفت سياساته بالمقال والصورة والكاريكاتور. وكان يتم توزيعها بصورة واسعة ويتابعها كثير من الناس.

صورتان للملكة آمنة



مكان دار العمدة ود القوم بحي المرایبع، جنوب كوستي.
وقد قام مبنى جديد على أنقاضها

إقترب الطاهي المكلف من الدار. كان حراس من الجند واقفين. حيا هامساً وأعرب عن هويته. أفسحوا له فدخل. قاده رجل من الفناء إلى غرفة كبيرة. دفع الرجل بباب الغرفة وتأخر. تقدّم الطاهي داخلاً. ولكنه لم يلبث أن أجفل. تماسك ثم تقدّم. كانت هناك سيدة مهيبة قد استوت جالسة على السرير النحاسي الضخم. بارعة الحسن ذات جلال وفخامة تبدو وقد تجاوزت الأربعين، ذهبية اللون، واسعة العينين، ذات صفائر غليظة ترتعي على كتفيها. كانت تتزين بكثير من الحلبي الذهبية.. أساور ضخمة وقرطين مستديرين يتدليان أسفل الخدين. ردت تحيته باقتضاب فهدأ روعه. وأخذت تتحدث معه في الشأن الذي جاء من أجله. وفي تلك الأثناء كانت هناك وصيفة تحمل مروحة من ريش النعام وتقف إلى جانب السرير الذي تتناثر فوقه المطارف والحشايا.

حين كان الطاهي المكلف يصف ذلك المشهد خلته يقرأ في صفحة منتزعة من كتاب ألف ليلة وليلة أو نص مكتوب عن إحدى الكنداكات في زمان مملكة مروي القديمة. أو كأنه يعيد على مسامعنا ما كتبه الرحالة بروس حين زار شندي في القرن الثامن عشر ووصف الملكة ستنا. ذلك الوصف الذي جسده الرسامان جحا وعلي عثمان حين رسما المرأة السودانية في ذروة أمجادها التاريخية. وكما عبر المجذوب: «المرأة التي تغنت الحقيبة بأوصافها ومحاسنها».

كانت تلك هي الملكة أمنة التي حلت ضيفة على منزل العمدة محمد التوم - عمدة مدينة كوستي - في عام 1929 بأمر من سلطات المركز. وقد تم إخلاء الدار وتهيتها بالصورة التي تليق بمقامها السامي الرفيع. كانت رهينة المحبس ويقوم على حواستها نفر من الشرطة ريثما تجري معها التحقيقات تمهيداً لمحاكمتها بالتهم الموجهة إليها.

عاش الطاهي المكلف العم أحمد ود القور حتى عام 1982 ليروي لنا ذلك المشهد الفريد ولولا تلك السانحة لذهبت به الأيام وانطوى إلى الأبد. حدثني العم ود القور كيف أن السلطات الحكومية أسندت إليه مهمة الطبخ لهذه الشخصية الأسطورية. كان لا يزال شاباً ممتلئاً بالحيوية والنفوان. فكان يحضر يومياً لإعداد الطعام الفاخر لجلالة الملكة. وكانت وجباتها في الغالب تشكون من الدجاج وأفراخ الحمام ولحم الضأن والحساء والخضروات. وبعد الفراغ من مهمته عصراً يستأذنها في الخروج فتمد يدها إلى كيس قريب من وسادتها وتناولته جنيهاً ذهبية دون أن تعدها فيأخذها وهو يتمتم بعبارات الشكر ويخرج ليعود في صبيحة اليوم التالي فيتكرر المشهد ثانية. وظل على هذا المنوال حوالي ثلاثين يوماً حتى تم ترحيلها إلى مكان سجنها. وتحدث ضاحكاً بأنه لم يضع تلك الثروة بل شيد بها داراً في الحلة القديمة بالطوب الأحمر وادخر ما تبقى حيث انتفع به خلال سنوات ماحلة.

كثير من الرجال والنساء من رتبة العبودية فخرج بعضهم من سلطان سادتهم وأقامت لهم الحكومة مستوطنات لإيوائهم.

وكانت الحكومة قد أنشأت لجنة عرفت بقلم تحرير الرقيق وأشدت رئاستها للمستتر أركل الذي جاء إدارياً ثم ما لبث أن تحول إلى عالم آثار قدم خدمات جليلة وفتح طريقاً للدراسات الأثرية في السودان.

شاهد الناس في تلك الفترة مستر أركل يزور القرى حاملاً أوراق الحرية متحدثاً عن ضرورة القضاء على استعباد الناس حيث لا فرق بين أسود وأحمر وأبيض. ولكن كثيراً من هؤلاء الأرقاء رفضوا إستلام تلك الأوراق باعتبارهم أحراراً يقيمون مع ساداتهم السابقين بكامل إرادتهم كأهل لهم. وأقامت الحكومة مستوطنات للأرقاء السابقين أو الأحرار الجدد مثل أسودا وأم هباب وبابنوسة. وتجمع غيرهم في قرى أطلقوا على بعضها أسماء بذية للإساءة لهؤلاء السادة. وقد أطلق الأهليون عليهم «رقيق أركن» يقصدون مستر أركل الذي أشرف على تحرير الكثيرين منهم.

وتم إعتقال عدد كبير من المالكين الذين ينتمون إلى ثلاث من القبائل التي تقيم في بادية النيل الأبيض. ولم يستطع البعض منهم تحمل ظروف السجن القاسية فماتوا وهم الذين اعتادوا على حياة الدعة. يتناولون كميات من الحليب والزبدة والقشدة بالإضافة إلى لحوم الطرند كالزراف والغزلان والأرانب ودجاج الوادي التي كانت تعج بها غابات المنطقة في ذلك الزمن البعيد.

وفي تقرير كتبه مدير مديرية النيل الأبيض في 15 مارس 1929 إلى السكرتير الإداري جاء أنه في وقت مبكر من عام 1928 تم في المركز الجنوبي للمديرية إكتشاف عدد من الأرقاء من قبائل البرقا المستوردين حديثاً من إثيوبيا ونج عن ذلك إستعادة 500 رأس رقيق وأطفالهم، وبينهم عدد كبير جرى إستيراده منذ

أصوات

وأذكر أن الطيب محمد الطيب أشار أيضاً إلى أن مصطفى لا بد أن يكون قد استقى كثيراً من المعلومات من عمه الإداري الشهير مكاوي سليمان أكرت الذي كان عليه الرحمة كنزاً من المعارف والمعلومات.

أما المستر جاكسون مفتش مركز حلفا فقد قدم صورة أخرى للمملكة آمنة. رآها في الحبس حين قدم منقولاً إلى المركز. كانت تقيم في دار مكونة من ثلاث غرف تقضي فيها عقوبتها بالسجن. كتب عنها انطباعات عابرة في كتابه «السودان.. أيام ومساكن» ثم يحاول أن يتناول قضيتها ويغوص في تفاصيلها. ذلك على الرغم من أنه أدرك أنها شخصية مختلفة لا تماثلها امرأة أخرى من نساء بلادها. امرأة تتميز بالجرأة والشجاعة ذات جبروت وسطوة. قال إنها كانت تخيف جميع سكان تلك المنطقة حتى أنها أمرت بطرد جميع سكان قرية أنيوبية كانت في الجوار. وصف حالها عند إعتقالها حين أطبق عليها مسر مكلازين وجنوده يحاصرون دارها ذات ليلة. ظلت رابطة الجأش رغم الاضطراب الذي ساد منزلها والخوف الذي اعتري أهوانها. أصرت على ارتداء حذاتها بكعبه العالي وجواربها الحريرية. لم تكنف بذلك بل رفضت التوجه مع مكلازين حتى وضعت شيئاً من البودرة على أنفها واعتمرت قبعتها. سلوك أوروبي، لا ريب أنها إكتسبته من أوساط أرستقراطية الأمهرة خلال إقامتها في أنيوبيا. فقد كانت قرينة خوجلي ود الحسن الذي هاجر أباه إلى الحبشة خلال أيام المهديّة. ويتحدر أسلافه من المتمّة. قال جاكسون إن خوجلي كان يتظاهر بالاستقامة في العمل التجاري ويبدى استعداداً للعامل الأنثوي بدفع ألف أوقية من الذهب إذا تم ضبطه في إحدى المخالفات. بعث خوجلي ود الحسن بزوجته لتقيم داخل الحدود السودانية. إتخذت إحدى القرى مقرّاً لها واعترفت الحكومة السودانية بوجودها حين عينتها عمدة يمتد سلطانها في رقعة واسعة تجاوزتها هي بنفوذها وسلطانها وأحكمت سيطرتها على الأهليين المساكين. وصف جاكسون إستقبالها

لمفتش المركز الإنجليزي حين كان يزورها فتحيطه بمظاهر الفخامة والترف وتقيم سرادقاً فاخراً تفرشه بأنواع من السجاد النادر تتناثر عليه أرائك أنيقة جاءت بها من أثيوبيا. وقال إنها كانت تتحدث العربية وتفهمها بشكل جيد إلا أنها كانت تصر على التحدث بالأمهرية حتى تتعرف على مضيفها بشكل وطيد. كانت تتظاهر بأنها ممثل للحكومة إلا أنها في الواقع كانت وكيلاً لأعمال زوجها الذي وصفه جاكسون بالوضاعة والمكر حيث استطاع تفادي الوقوع في يد السلطة لسنوات طويلة. ولما أحس أن الأرض باتت تميد تحت قدميه حتى بعث بزوجه إلى داخل الحدود السودانية للتوسع في تجارة الرقيق التي استطاع من خلالها أن يجمع ثروته الطائلة. لقبها بالمست ولَمْ ترد كلمة الملكة فيما كتب. لقب الملكة كان متداولاً في الأوساط السودانية أما الإنجليز في تقاريرهم فكانوا يكتبون المست آمنة. وصفها جاكسون بالمجرمة إلا أنه لَمْ يستطع تجاهل مظاهر العظمة الملوكية التي كانت تحيط بها نفسها ولا الضجر الأرستقراطي التي كانت تعبر عنه بضيقها وتبرمها من جفاف الطقس في حلفا.

كان جاكسون قد عمل إدارياً في حكومة السودان منذ أوائل القرن العشرين. وقد أحب هذه البلاد وكتب عنها بشغف وحماس. وقد تنقل ما بين أم درمان والحلفاية والكاملين وسنار ومناطق الشلك والنوير في جنوب السودان. وقد رسم صوراً قلمية نادرة. وفي عام 1929 تم نقله مفتشاً لمركز حلفا حيث وجد الملكة آمنة سجينة في تلك المدينة. وأفسح لها فيما بعد صفحتين في كتابه «سودان.. ديز أند ويز». وقد صدرت طبعته الأولى في أبريل عام 1954 ولَمْ يترجم حتى الآن. وقد صدرت له مؤلفات أخرى هي: «عثمان دفنة» «وسن النار» «والعاج الأسود والأبيض» «والنوير في أعالي النيل» «والسودانيون المقاتلون» «وغردون باشا» (وهو الوحيد الذي تمت ترجمته إلى العربية). ما زلت ألهج بالشكر لابن شقيقتي الأستاذ صديق مصطفى أبو قرجة الذي أتاح لي فرصة قراءة هذا

الكتاب من بين كتب أخرى عن السودان حملها إليّ عند حضوره من الولايات المتحدة في إجازته الأخيرة.

في أوائل عام 1928 وقع حادث قتل في منطقة تقع جنوب غرب مركز كوستي. أفشى ذلك الحادث إلى تطورات أدت إلى كشف أمور خطيرة كانت تجري في تلك المنطقة. فالرق كان قائماً كأن لم يمر أكثر من ربع قرن على إلغائه بموجب إتفاقية عام 1899. تلك الإتفاقية كانت قد ألغت الاتجار في البشر إلا أنها سمحت بتدرج تحرير الرقيق المنزلي لإعتبارات اجتماعية. وقد توقفت بالفعل تلك التجارة البغيضة ولم تبرز مشكلات بهذا الشأن حتى انكشف المستور في تلك المنطقة. دفعت سلطات مركز كوستي بشرطتها إلى مكان الحادث الذي كان ضحيته رقيقاً قتله سيده. فكشفت التحقيقات عن وجود عدد كبير من الرقيق كان يصل إلى ذلك المكان من داخل المناطق الحدودية. وقادت التحقيقات إلى أن هناك سيدة تدعي أمنة يلقبها الأهالي بالملكة تدير تجارة غير مشروعة من داخل مملكتها الصغيرة. كانت تبسط نفوذاً على الأهالي البسطاء وتستغل بؤسهم وسذاجتهم بالنصرف في أنبائهم ببيعهم إلى وسطاء أو مشترين قادمين من مناطق النيل الأبيض. إستمر الحال لسنوات عديدة حتى تمّ الكشف عن ذلك النشاط الخطير. كما كانت تمارس نشاطاً تجارياً آخر للتغطية على تجارتها الأثمة فتقوم بتمدين الذهب بعد الحصول على التبر من الوديان ومساقت المياه المتدفقة من الهضبة الأثيوبية. وتصنع جنيهاً من الذهب عليها ختمها تحاكي بها جنيهاً الذهب الإنجليزي.

نشطت سلطات مركز كوستي واندفعت شرطتها في البوادي الجنوبية والجنوبية الغربية للبحث عن ضحايا تجارة الرقيق. فاضطربت المنطقة وأخذ مالكو الرقيق في إخفائهم في الغابات والوديان وبمختلف الأساليب. وعلى الرغم من ذلك تمّ القبض على عدد من الأثمين فأودعوا السجن في مدينة كوستي. وتم تحرير عدد

بالموت حتّى أوقفوا تقدّمهم.. واحتدمت المعارك ثلاثة أيام تصدعت خلالها طوابي المحاصرين نتيجة القصف المدفعي وقتل صفوة الفرسان..

ولما حاول الأمير شيخ فضله أحمد نجدتهم من موقعه في النيل الأبيض تصدّت له قوة حكومية عرقلت تحركه. وعندما بلغته الشائعات بمقتل أبو قرجة لوى عنان فرسه وأراد أن يهاجم قوات العدو وحده لولا أن أمسك به الحاضرون ومنعوه من محاولة الهجوم الانتحاري.. كانت تلك المعركة أشبه بالملاحم الإغريقية خاضها شعبنا ضد الغزاة الأجانب.. فالحصار استمر رغم تلك الانتكاسة العسكرية وتم تعزيز قوات الثوار بالأمير عبد الرحمن النجومي وتحركت القوات الرئيسية بقيادة الإمام المهدي نفسه من كردفان لتحتل مواقعها بأم درمان.. ولم يلبث أن صدر القرار باقتحام العاصمة وتحريرها.. وقد تمّ ذلك في صبيحة الإثنين 26 يناير 1885.

المرأة السودانية ظلّت طوال تاريخها أختاً للرجال.. فالكنداكات ملكات مروي شيدن الحضارة وقاتلن الغزاة.. ومهيرة بنت عبود إمتطت هجينها في صباح يوم راعف بالدم تستنهض فرسان قبيلتها لمواجهة المعتدين.

وحفظ التاريخ لبنونة بنت الملك نمر حقها.. فقد كتبت شعرا يقور بالحماسة والمعاني الثورية.. مثلما فعلت شعبة المورغماية التي جسّدت قيم القبيلة في أشعار جميلة باثت جزءاً من التراث الذي يعكس واقعاً اجتماعياً رافضاً للاستكانة والضعف. وهناك شاعرات أخريات كتبن شعراً وطنياً خلال منعطفات تاريخية حادة.. وقد خاطبت بنت المكاوي الإمام المهدي بأبيات مدهشة بقولها:

طبل العز ضرب هوينه في البرزّه

وغير طبل أم كبان أنا ما بشوف عزّه

كان طال الوبر واسيه بالجـزّه

أصوات

الحرب. وصدرت أحكام بالسجن على بضع مئات من الضالعين في تجارة الرقيق. وجرى تبيان طرق قوافل الرقيق من الحبشة وكشف شعابها ومخابئها، وأرسلت المعلومات للمديريات الأخرى، خاصة مديرية الفونج. ولضمان تسجيل كل الأرقاء المسترقين حديثاً، تقرر تسجيل كل السود المنحدرين من صلب الرقيق. كما تقرر إصدار أوراق الحرية لكل من يتطلب وضعه نوعاً من الحماية ولكل شخص آخر يطلبها.

أما مدير مديرية الفونج فقد كتب إلى السكرتير الإداري في 24 فبراير 1929 يقول «يبدو أن الوطاويط على جانبي الحدود قد إستجابوا للأمر لكن ما هو جدير بالإشارة حقاً أن كل حالات الاسترقاق لم تشمل أشخاصاً يقيمون في السودان. كان كل الأرقاء من أثيوبيا إضافة إلى ذلك فتجارة الرقيق بجملتها كانت في أيدي عائلة خوجلي. ولّم تحدث أية حادثة ذات أهمية من «الشيخ تورا قور» أو الشيخ حمدان أبو قور؟ تمّ اعتقال الست أمنة وقدمت للمحاكمة وأدينّت وألغيت عموديتها، وانسحب أقاربها إلى أثيوبيا، كما تمّ اعتقال الوطاويط المتورطين وأرسلوا إلى كوستي للمحاكمة، وهرب آخرون إلى أثيوبيا وانتفضح أمر عمدة بلوارا وجرد من العمودية. وبشكل عام يمكن القول، دون مبالغة إن تجارة الرقيق قد إنقضت.

خرجت شرطة مركز كوستي إلى البادية الجنوبية للمركز حيث الرعاة يجوسون الفلوات بقطعان الماشية. كانوا يبحثون عن إفادات تعزز الاتهامات المتعلقة ببيع الرقيق. عثروا على شاهين برعيان قطعاً من الماشية. استجوباهما فقاد الحديث إلى الكشف عن جريمة ظلت غامضة لأكثر من اثني عشر عاماً. ففي حوالي عام 1916م خرج علوان وعساكر (من قبيلة سليم) يصحبهما الخنيم بانديه (وهو تعايشي) إلى المنطقة الحدودية بين السودان والحبشة لشراء أسلحة نارية. ولما كان علوان يملك من المال أكثر من صاحبيه فقد اشترى رقيقاً (صبيين وفتاة).

وفي الطريق تأمر الإثنان على علوان ققتلاه على مرأى من الأسرى الصغار. باع القاتلان الولدين لرجل من الجمع يدعي إبراهيم الشاهر والفتاة لأحد شيوخ العليقة. انتابت الشكوك ذوي القبيل علوان وذهبوا يقتفون أثر الرحلة الدامية. ولَمَّ يعثروا على دليل فأبلغوا سلطات مركز كومستي التي باشرت تحقيقاً مع عساكر وباندية. ولَمَّ تجد دليلاً قاطعاً فأطلقت سراحهما وظل البلاغ مفتوحاً حتى عام 1928 حين عثرت الشرطة على الغلامين يرعيان أبقار الشاهر. فاعترفا بما رأياه من جريمة. وجيء بالفتاة بخينة من قرية العليقة لتعزيز شهامة الغلامين والتعرف على المتهمين اللذين لَمَّ يلبثا أن أدينا ونفذ فيهما حكم الإعدام. وكان أحدهما قد عمل شرطياً في أعقاب ارتكاب الجريمة وحتى قبيل حدوث تلك التطورات الدرامية.

لَمَّ تشأ بخينة أن تتوجه إلى مكان آخر عقب إبلاغها بتحريرها ولَمَّ تأبه لذلك. بل توجهت عائدة إلى العليقة لتستأنف حياتها في تلك القرية. فقد ألفتها وألفت الشيوخ الطيبين الذين أولوها رعاية حسنة ومحضوها عطقاً وإحساناً. تميزت بخينة بجمال بارع وقوام لادن حتى أطلق عليها الناس في القرية لقب الفريع. تزوجت وأنجبت وعاشت طويلاً حتى شهدت أحفادها جزءاً من نسيج الأعراق السودانية بتمودجه الإنساني المدهش.

الحاجة ست البنات أم سيف

عندما خف ضجيج المعركة وتوقف دوي المدافع ولم يعد يسمع سوى ضرب الرصاص في أماكن متفرقة.. كان ميدان المعركة المعتد من مناطق بري وحتى أقصى جنوب الجريف يغص بجثث القتلى والجرحى المحتضرين والخيول النافقة. كانت مجموعات من قوات الأنصار تغطي انسحابها لنقل الجثث والجرحى بعيداً عن ساحة الموت.. حينذاك عثروا على جثة الحاجة ست البنات.. كانت لا تزال ممسكة بسيفها وإلى جانبها خمس جثث لغتيات بدا أنهن كنَّ يقاتلن إلى جانبها.. سقطن جميعهن بقذيفة مدفع واستشهدن.. كان ذلك في الرابع عشر من أغسطس عام 1884 أثناء حصار الخرطوم. انتصرت قوات الجنرال غردون مؤقتاً وكبدت المحاصرين أكثر من 2500 قتيل.

الحاجة ست البنات امرأة من أهالي بلدة القطنية وإحدى قريبات الأمير محمد عثمان أبو قرجة فيما سمعنا في طفولتنا من أمهاتنا وفيما روت السيدة رباع الصادق المهدي في دراسة قيمة كتبها عن نساء أم درمان في المهديّة نشرتها مجلة «كتابات» التي تصدر عن «مركز الدراسات السودانية» بالقاهرة.

حاولت جهدي أن أحصل على مزيد من المعلومات عن هذه الشخصية الغريفة التي امتلكت حسامها وانخرطت في النشاط العسكرية الثوري لتحرير السودان.. سيفها بات جزءاً من إسمها.. ست البنات أم سيف. كتب عنها المؤرخ محمد عبد الرحيم أسطرا قليلة في معرض تناوله لواقعة الجريف في مخطوطة عن المهديّة وقال «ومن الغريب وجدت بين القتلى امرأة تدعى الحاجة ست البنات دنقلاوية من

سكان القطينة وسيفها بيدها كانت تحارب إلى أن لفظت النفس الأخير فله در المتنبي حيث قال :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهِلال (انتهت رواية محمد عبد الرحيم). وقد علمت أيضاً أنها كانت امرأة ثرية ورعة استطاعت أن تحج البيت رغم مشقة السفر إلى الأراضي المقدسة في ذلك الزمن البعيد.. وعندما بلغتها دعوة الإمام المهدي هاجرت إليه لتقاتل في صفوف قواته. وعلمت أيضاً أنها كانت قد حملت رسالة الأمير أبو قرجة إلى صالح ود الملك في فداسي.. وقد نصبت لها خيمة بين الجيشين حتى تؤدي مهمتها المتعلقة بتسليم صالح للحامية التركية في فداسي.. ويبدو أن الاختيار قد وقع عليها لأن الأتراك بدأوا يقتلون رسل الإمام المهدي كما حدث في الأبيض. وتكريماً لها على الدور الكبير الذي لعبته في سبيل الثورة.

كان لبلدة القطينة حظها الوافر من الشهداء في ذلك اليوم - يوم معركة الجريف - تجاوز السبعين شهيداً.. قيل لم يعز أحد أحداً.. خرجت النساء أمام منازلهن يبكين قتلاهن ومن بينهم أشجع الفرسان وأعظمهم بلاء.. استشهد نصر ومصطفى شقيقا الأمير أبو قرجة.. نصر اقتحم بفرسه استحکامات الأتراك ليقتل بسيفه الجنود المدفعية فلقى مصرعه بين صفوف العدو بعد استشهاد شقيقه مصطفى.. صرعت رصاصة فرس الأمير أبو قرجة قائد قوات الحصار فانطلقت الشائعات بمقتله الأمر الذي أضعف معنويات جيش الثوار الذي لحق به الدمار بعد أن دكت المدفعية مواقعهم.. كانت معركة عنيفة شرسة استعد لها غردون جيداً ليرفع الحصار عن المدينة وحشد أكثر من خمسة آلاف جندي بقيادة الأميرالاي محمد علي بك حسين الشلالى والسر سوارى خشم الموس بك الشايقي.. تقدمت القوات فجراً نقلها خمس بواخر مدرعة بصفائح فولاذية تحمل المدافع.. وانتظمت على النيل قبالة كل معسكر من معسكرات قوات الحصار.. وأنزلت الجنود المشاة.. وبدأ قصف المدفعية لتعزيز هجومهم فواجههم الأنصار بشبائهم وجراتهم واستهانتهم

الخارج فجاء أبناء الأقاليم وصاروا هم البنّاءون والنجارون والميكانيكيون والكتاب. وبعد أن يستنبروا عن فوائد الهجرة أو حين يضايقهم «الأخشيديون» في أرواقهم فإنهم يحلقون بعيداً ويأتي من الأقاليم الأبعد من يأخذ مكانهم ولا نستطيع أن نهاجر كلنا.. ليس هناك مكان يتسع لثلاثين مليوناً من المهاجرين ولذلك سوف يظل السودان مأهولاً إلى قيام الساعة. ولكن بدل أن تسكنه قطعان من الذئاب وبعض المهاجرين من النيجر ونشاد نريد أن يسكنه أهله ويعرفوا فيه الحياة التي تليق بالأمميين. ماء نظيف ومدارس ومستشفيات واتصال مستمر مع العالم الخارجي» وتحدث محمد المكي عن تجربة له مع وزير الخارجية المغربي محمد بن عيسى حين كان سفيراً للرباط في واشنطن وتذكر قولاً أسره إليه بأن «الثقافة الأمريكية تحمل إقصاء المسيحية بكل وضوح». وأدرك بعد خمس سنوات صحة وعمق هذه المقولة حين اكتشف أنه «تحت أغلفة الثقافة التجارية وإنتاجها الإباحي والغرائبي هناك صخرة صلبة يرتكز عليها المجتمع الأمريكي هي صخرة المسيحية التي كانت السبب الرئيسي في نشوء أمريكا من العدم. كل هذا النتاج التجاري ليس له انعكاس في الكونجرس». ولاحظ محمد المكي بمتابعته الدقيقة «أن المدارس ترسخ قيم العائلة والتهديب على الطريقة القديمة نصف أمريكا ريف والنصف الآخر حضر.. صادراتها الأولى الكومبيوتر والحبوب. والريف متمسك بالقيم التقليدية وفي الحضر هناك من يتمسك بها.. وهذا ما يجعل الشقة بيننا وبينهم غير بعيدة كما يروج البعض. صحيح إن فكرتهم عن ديننا قد تشوشت كثيراً لما تركبه الأنظمة وجماعات التطرف من جرائم باسم الدين ولكن ما زال الأمريكيون يدخلون الإسلام. وجوه عديدة للاختلاف بيننا وبينهم أهمها أنهم لا يعرفون الفصل بين الفكر والعمل إذا اقتنع الأمريكي بفكرة ما فإنه ينفذها بلا تردد يهجر التدخين يناصر أطفال العراق يحافظ على البيئة بالعمل وليس بالكلام والآن أصعب شيء بأمريكا هو أن تجد مكاناً تدخن فيه. وعلى أيامنا كانت جزيرة مانهاتن كوماً من القمامة والآن الجزيرة وأمريكا كلها من آيات النظافة. استعادوا البيئة

موت رائع لامرأة شجاعة



د. إنعام البديوي

في ذلك النهار المطير من أغسطس الماضي غصت مقبرة هاتون كروس الإسلامية بالعاصمة البريطانية بعدد كبير من أفراد الجالية السودانية-علماء وأطباء ومهندسين وقانونيين وشعراء وكتاباً وصحافيين وسياسيين وطلاباً وسيدات محزونات دامعات. أحاطوا بقبر سيدة من طراز فريد حملت نبأ موتها طيلة ثلاث سنوات قبل وقوعه ما أبلغت أحداً سوى زوجها. عاشت بين الناس بصورة طبيعية لم تستجد عاطفة ولا رثاء. ظلت في موقع عملها وهي في قمة الحيوية والنشاط كما ظلت ترتب شؤون عائلتها الصغيرة لمرحلة ما بعد غيابها. جاءت بوالدتها من الخرطوم إلى لندن ليعتاد طفلاها عليها زارت أشقاءها المقيمين في أماكن متفرقة خارج السودان وودعتهم دون أن تشعرهم بفداحة الخطب وقرب رحيلها. وفي أسبوعها الأخير كانت تستقبل زوارها ببشاشتها المعهودة وروحها العذبة دون أن يدري أحدهم أنها قد أعدت كل ما يتعلق بمراسم دفنها ومكانه. تناقل أفراد الجالية السودانية نبأ وفاتها هاتفياً في ذلك المساء الحزين وحددوا المركز الإسلامي مكاناً

لإقامة الصلاة على جثمانها الطاهر. وهرعوا في صباح اليوم التالي إلى هناك فصحبت أصدقائي منهم إلى حيث التقيت بعدد كبير من الذين أعرفهم مقيمين وقادمين في عطلاتهم السنوية ومن هناك توجهنا إلى المقبرة الإسلامية حيث احتشد جمعهم حول القبر صامتين. وما أن فرغوا من الدعاء لها بالرحمة وقرأوا الفاتحة على روحها حتى تقدم زوجها الشاب متمسكاً رابط الجأش ليصافح المشعين فرداً فرداً شاكرًا ومقدراً ما تكبدوه في سبيل الوصول إلى ذلك المكان القصي للمشاركة في أداء واجب العزاء والمواساة. كانت الدكتور إنعام البدوي قد تخصصت في علم الأمراض - بعد أن تخرجت في كلية الطب بجامعة الجزيرة - مما أتاح لها فرصة الإطلاع على حقيقة مرضها ومدى خطورته وسرعة انتشاره. فلم تذهب بها الظنون للتعلق بالأوهام في حياة بات الاستمرار فيها مستحيلًا لذا شرعت رغم تعاطيها العلاج - في ترتيب أوضاعها في صمت وبشجاعة لا يتكرر نوعها كثيرًا.

علمت أنها نشأت يتيمة الأب وقامت بتربيتها هي وأخواتها أم مثابرة جسورة استطاعت بكدها الشريف أن تمكنهم من إكمال تعليمهم في أفضل الجامعات وأن تورثهم كل فضائل وسجايا أمتها. فكانت الفقيدة إنعام أسطع مثال وأفضل نموذج لتلك التربية المترعة بالمعاني.

وفي وقت لاحق إلتقيت بإبن عم الفقيدة صالح أحمد البدوي الجنيد. وهو شخص نادر يتميز بأريحية وحسن الخلق فأتحفني بمزيد من المعلومات عنها. قال إن جدها من ناحية والدها هو "الجنيد" صاحب إسم مصنع السكر المعروف. ووالدها المهندس السابق بالأشغال عبدالرحمن البدوي الجنيد وجدها من ناحية والدتها هو الشيخ محمد الطيب عمر الذي وهب جل حياته لترقية منطقة الحلاوين. أما أمها هي السيدة العثالية آسيا محمد الطيب عمر، التي لم يتخل عنها الأقربون عند رحيل زوجها. شاركوها في حمل العباء وأزروها ونحاسة والدها الذي كان

منزله مأوى لطلاب العلم. كما وجدت العون المتواصل أيضاً من عمها محمد البدوي الجنيد.

بات وجود الجاليات السودانية في المهاجر واضحاً جلياً لَم يعد أفرادها يتحدثون عن عودة وشيكة.. أدركوا ما تتعرض إليه بلادهم من تدهور في كل أوجه الحياة.. خافوا على مستقبل أبنائهم وما تحبته الأيام من محن.. وما جاؤوا بجديد فالعالم منذ أن درج فيه الإنسان شهد حراكه المستمر من دخل إلى سهل ومن بحر إلى نهر. وبلادنا بخصوصيتها الجغرافية كانت أكثر الأماكن التي شهدت هجرات الإنسان. وفي تنوع ثقافتها وتعدد أعراقها ما يؤكد ذلك. ما تجاوزنا الحقيقة فيما نقول. والإنسان السوداني ظل مقيماً في بلاده منذ الأزل جاءه من جاء وغادره من غادر إلا أن العقود القليلة الماضية لَم تشهد هجرات كثيفة -من الخارج أو إلى الداخل- سجلها التاريخ كان الحراك يجري داخلياً في إطار حدود السودان الجغرافية الحالية لذا كانت هجرة أو سفر بعض الأفراد القليلين إلى الخارج حتى قبل سنوات أمراً يثير القلق والأحزان.

ما قرأت أفضل مما كتب صديقنا وشاعر أمتنا الفذ محمد المكي إبراهيم المقيم حالياً بالولايات المتحدة عن هجرة السودانيين واغترابهم. لَم يكتب دراسة وإنما أجاب بحكمة وجرأة على أسئلة في لقاء له مع مجلة «كتابات سودانية» الصادرة في ديسمبر الماضي. ما رأي في الهجرة والامتيطان في المهاجر شراً مستظيراً بل رأي في ذلك مصلحة وطنية كبرى وتنبأ للجالية السودانية في الولايات المتحدة بأنها ستصبح ذات شأن بعد زوال العارض السياسي الراهن. وقال إن لكل شعوب الدنيا جاليات مقيمة بأميركا وأن السودانيين هناك عناصر نشطة مجتهدة يتقدمون ببطء ولكن بثقة إلى الأمام. وأشار الشاعر الحصيف الذي ينظر إلى الأشياء وينفذ إلى جوهرها بعيني الرجل الحكيم إلى أن «الطبيعة تمقت الفراغ. وإذا نشأ في السودان فراغ فسوف يأتي من يملأه ألا ترى ذلك يحدث الآن. هاجر أبناء المدن إلى

يزال يحتل منصبه القيادي فيه. أما عبد الخالق محجوب فقد سماه أبوه على الأمور المصري الذي اتصل بالحركة الوطنية السودانية واندلعت أول تظاهرة سياسية بأمر درمان أثناء تشييع جثمانه وكان والد عز الدين على عامر قد أطلق عليه اسم علي عبد اللطيف.

أما علي عبد اللطيف القائد الأول لتلك الحركة السياسية فقد ركز فكره السياسي على وحدة السودانين أولاً ثم وحدة وادي النيل.. والواضح أنه كان يمثل وقائع الثورة المصرية ويهتم بشكل خاص بنشاط الزعيم سعد زغلول. ولم تنتج تلك الحركة السياسية فكراً محدداً لأن نشاطها ركز على العمل اليومي الذي تجسد في الاحتجاجات والتظاهرات. وكانت قيم الشجاعة والثبات تلعب دوراً كبيراً في توجيه النشاط.

والواضح مما أسلفنا من قول إن هذه التجربة تحتاج لمزيد من الكتابة والتمحيص لأنها ارتبطت بشكل مباشر بالتطورات اللاحقة.. وإنشاء مؤتمر الخريجين وتشكيل الأحزاب السياسية.. التي قامت جميعها في منتصف سنوات الأربعين من القرن العشرين.. ولا تزال تلك الأحداث التي وقعت في تلك الفترة تلهب الخيال وتثير الشجون حيث حاول أبطالها البحث عن حقوقهم وتقرير المصير لشعبهم.. ودافعوا عن هويتهم.. وروى المؤرخون أنهم أثناء التحقيقات معهم كانوا يصرون على أنهم سودانيون.. ويرفض الضباط البريطانيون منهم ذلك ويعذبونهم مطالبين إياهم بذكر قبائلهم بدلاً من انتمائهم القومي.

لقد أرسى هؤلاء الرجال أسساً راسخة للقومية السودانية- على الرغم من سقوط البرنامج الذي طالما حلموا بتحقيقه، ورسموا طريقاً معبداً بدمائهم وتضحياتهم في محاولة للوصول إليه.

6 فبراير 2001

الطبيعية من برائن الموت. وإذا افتتح الأمريكي بفكرة فتح جيبه ليدعمها ولو بدولار واحد. وفي العام الماضي عقدوا قمة للرؤساء الأمريكيين الأحياء كان الهدف منها تشجيع العمل الطوعي. العطشعون في أي حارة هم الذين يرافقون الوضع الأمني ويجمعون أوراق الأشجار ويتولون حماية الأطفال والمعجزة. وإذا طلب شخص المساعدة فإنه يجد المئات مثل تلك المرأة السوداء التي أنجبت سبعة نوائم فتيعة عشرات الناس. واحد لغسل الملابس وآخر لغلي البزازات وتقديم اللبن وآخر لأشغال البيت وآخر للحفاضات... الخ.

لكل ذلك لم يخش الشاعر محمد المكي إبراهيم على الأطفال السودانيين من الحضارة الأمريكية التي تتسلل إلى الروح هوتشربك في الواحد*. لم ير في ولادتهم هناك يرطنون باللسان الأمريكي ويتشربون الثقافة الأمريكية ضيوا. وأشار إلى عدم جدوى اختلاق المعاذير التي يبرر بها المغتربون بقاءهم في أمريكا حيث أصبحت هذه الهجرة واقعا في سبيله لأن يكون أديبا.

أنفاس اليسار في أحداث ١٩٢٤



صالح عبد القادر

وقف المعتقل السياسي أبو زيد أحمد حسين- في مشهد لا يتكرر كثيراً- خطيباً باللغة الإنجليزية في الجنود البريطانيين الذين كانوا يحيطون بسجن كوبر فهزّ مشاعرهم وأجبرتهم كلماته المؤثرة على أن يرفعوا قبعاتهم من فوق رؤوسهم استحضاراً له وتعبيراً عن نوع من التضامن.. كان ذلك في نوفمبر 1924م في ذروة الأحداث التي تلاحقت خلال تلك الأيام وأثناء التمرد الذي قاده المعتقلون السياسيون داخل السجن.. لا شك أن مثل ذلك الموقف كان يجسّد وعياً سياسياً عميقاً وأسلوباً للعمل والدعاية والتحريض ما كان يمكن أن يتأتى لشخص عادي في مثل تلك الظروف.

كان للحركة الوطنية التي برزت في حوالي عام 1921م- ممثلة في «جمعية الاتحاد السوداني» ثم «اللواء الأبيض زخم شديد وثراء عريض».. تفجرت أحداث متسارعة وعنيفة كأنما أعد لها إعداداً.. وقد تميّزت بالدقة في التنظيم وروح التضحية.. إلا أنها تظل كما رأى المراقبون قفزة في المجهول.. قادت إلى ليل طويل لم يسفر صبحه إلا

بعد سنوات عجاف.. والغريب في أمر هذا النشاط السياسي أنه لم يكن جميعه من نصيب «جمعية اللواء الأبيض» وذلك باعتراف السلطات البريطانية أثناء المحاكمات.. حيث برأت الجمعية من مسؤولية المشاركة في التظاهرات بإستثناء ثلاث حالات فقط. وحتى تظاهرة أم درمان الشعبية الكبرى التي أزعجت البريطانيين لم تشارك اللواء الأبيض فيها.. فما الذي كان يجري ومن الذي كان يعين ويحشد لتلك التظاهرات الجريئة. ليس في العاصمة وحسب وإنما في عدد من المدن الإقليمية الأخرى؟.. على الرغم من بروز تيارين في الحركة الوطنية أحدهما التيار التقليدي الذي تزعمه زعماء الطائفية والمؤسسة القبلية وسانده البريطانيون والآخر الذي عبرت عنه جمعية «اللواء الأبيض» إلا أن التغيرات التي طرأت على الواقع السوداني - ولم يتمكن أحد من التعبير عنها- خلال عقدين من الزمن كانت سريعة وعميقة.. وكانت أهم العوامل لتلك التغيرات إقامة مشروع الجزيرة الذي صاحب إنشاءه وفود عناصر أجنبية- مهندسين وفنيين- من اليونان وإيطاليا وقبرص وجنوب أفريقيا حملت معها كثيراً من المفاهيم السياسية الجديدة التي سادت في أعقاب الحرب العالمية الأولى.. وخاصة بعد تأكيد انتصار الدولة السوفيتية ودحرها للحرسيين البيض والتدخلات الأجنبية.. وذلك بالإضافة إلى التأثيرات التي أحدثها المشروع على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.. فقد كان تحولاً كاملاً وعميقاً.

وأشار محجوب عمر باشري في كتابه «معالم الحركة الوطنية في السودان» إشارات ذات دلالة حين تعرض لأحد أعضاء جمعية «اللواء الأبيض» ويدعى علي أحمد صالح ووصفه بأنه كان شاباً نابهاً تخرج من المدرسة الوسطى وعُرف بأنافته وإطلاعه. وقال إنه أعجب بلينين ونعرف على رجل ماركسي يوناني اسمه اسفيكاس كان أستاذاً للفلسفة في جامعة أثينا وهرب إلى الخرطوم حيث أنشأ مكتبة. وأكد أن علي أحمد صالح كان يتردد عليه. وأشار باشري أيضاً إلى أن صالح عبد القادر- أحد الأعضاء القياديين البارزين في جمعية اللواء الأبيض- تعرف على القنصل السوفيتي بجده في

بورتسودان حيث زوده ببعض الكتب الماركسية.. ويقول باشري في كتابه أيضاً إن والده تسلم خطاباً من خلف الله خالد بتاريخ 27 يناير 1921 يدعو للاتصال بصالح عبد القادر الذي كان وكيلاً سفيرياً في مصلحة البريد والبرق وتسلم منه بعض الرسائل وسلمها لشخص يدعى أبو زيد.. وأغلب الظن أنه هو الرجل الذي شوهد يخطب في سجن كوبر بعد سنوات قليلة موضعاً قضيته للجنود البريطانيين.

أما الدكتور جعفر محمد علي بخيت فقد أورد في كتابه «النشاط الشيوعي في الشرق الأوسط.. مع إشارة خاصة لمصر والسودان» إن عطبرة في النصف الأول من عقد العشرينات كانت معقلاً للنشاط الشيوعي في السودان وأن الحزب الشيوعي المصري تغلغل إلى حد ما هناك حيث اكتشفت السلطات البريطانية في عام 1925 نسخة من برنامج الحزب المصري في الخرطوم وليس في القاهرة.

وجاء في كتاب «صدق أو لا تصدق» للرحالة أحمد حسن مضر أنه هرب في تلك السنوات من البلاد وكانت لديه صلة بالنشاط السياسي.. حيث ظلت تلاحقه مخابرات البريطانيين في السودان وتتبع أخباره ورسائله وحاولت أن تنصب له كميناً من خلال أحد أصدقائه. وقد روى هو كيف سافر إلى أوروبا واتصل بالكومنتيرن وشارك في مؤتمر للشبيبة الشيوعية.

مهما يكن من حال فإن هذه المشاهد المتفرقة لا تعني أن تياراً يسارياً ساد في تلك السنوات واستطاع أن يكون تنظيمياً وقف وراء تلك الأحداث.. إلا أنها تؤكد وصول بعض هذه الأفكار - وإن كانت بشكل مشوش - لبعض الزعامات التي كانت تبحث عن رؤية ومرجعية فكرية في نضالها لتحرير بلادها من الاحتلال الأجنبي.

وأظنه ليس غريباً أن نجد أبناء بعض زعماء تلك الأحداث قد شارك في النشاط السياسي اليساري الذي تبلور في عام 1946، مثل عبد الوهاب زين العابدين عبدالنار الذي أصبح أول سكرتير سياسي للحزب الشيوعي والتجاني الطيب بابكر الذي لا

إعدام قادتها وعن حملة قمعية شملت جميع الزعماء السياسيين بالسجن والنفي والتشريد.. فانتهت الثورة نهاية مأساوية فاجعة وسيطر على البلاد حزن كثيف ودخلت في ليل دجوجي فاحم وطويل أجبر فيه المثقفون على التراجع والانزواء والهجرة من الوطن وانصرف بعضهم إلى الأدب والفن كعرفات محمد عبد الله وتوفيق صالح جبريل.

لَمْ تذهب أصداء الثورة أدراج الرياح.. انعكس أثرها في الحركة الثقافية وبرزت أعمال أدبية لا تخلو من التجديد.. فالإنتاج الشعري لتوفيق صالح جبريل كان جديداً في شكله ومحتواه لا يمكن مقارنته بإنتاج أضرايه في معسكر المحافظين كعبدالله عمر البنا. وفي النشر كانت كتابات الناقد الأمين علي مدني تعتبر فتحاً إبداعياً جديداً لا مجال لمضاهاتها بما كان يكتبه حسين شريف- الصحفي الأول- في «الحضارة» رغم بلاغته وفخامة ألفاظه.. ولا يزال نقاد الشعر السوداني يرددون العبارة الشافية للأمين علي مدني «الشعر الجديد يتطلب ناقدًا جديداً» وفي مجال الغناء برزت الموهبة الفذة للشاعر الموسيقي الفنان خليل فرح الذي ابتدع الأغنية السياسية الحديثة وكتب قصيدة «عزة في هواك» وغيرها.. وعلى أنغام أغنية عبيد عبد النور.

يا أم صفائر قودي الرمن

وأهتني فليحيى الوطن

اندلعت تظاهرات الشعب واهتزت شوارع العاصمة تحت أقدام العسكرين السودانيين الواثقة ولعلع الرصاص في صدور ضباط وجنود الاحتلال البريطانيين في قلب الخرطوم.

لَمْ يقتصر تأثير الثورة على هذه الجوانب وحسب وإنما امتد إلى المسرح حيث شهد الناس عرفات -أحد قادة الثورة- ممثلاً بارعاً يشارك في عدد من

حيوية «الحزب المشاغب»

ورد في تقارير مدير مكتب المخابرات البريطانية بالخرطوم في عام 1924 أن جمعية اللواء الأبيض ضمت العناصر التي قد تشكل في المستقبل القريب «الحزب المشاغب» باعتبارها المنظمة الرئيسية المناوئة للإدارة البريطانية.. أي الحزب الوطني الحديث في السودان ورأى مدير ذلك المكتب- وهو المستر ولس- أن هذا التنظيم ما هو إلا واجهة لنشاط يمارسه المصريون الوطنيون من خلال تجمع للسودانيين متضامن مع مصر. وظن ولس أيضاً أن المصريين يمولون هذا النشاط وحدد وسيطين هما محمد توفيق القاضي بمحكمة أم درمان، وحسن عبد الوهاب الضابط بالجيش المصري. وحاول حصر عضوية التنظيم- خاصة بعد أن سفر نشاطه في التظاهرات التي أقضت مضجع الخرطوم في ذلك الصيف الرهيب - ورأى أن عضويته لا تزيد عن مائة وخمسين شخصاً.. موظفين صغار السن تتراوح أعمارهم ما بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين.. في أدنى السلم الوظيفي بالدرجتين السابعة والثامنة. وجاء في تقرير آخر للمخابرات كتب في يوليو 1924 أن هؤلاء المشاغبيين معظمهم من المواليد الذين تنحدر أصولهم من مصر.

والمستر ولس هذا هو الذي ورد ذكره في قصيدة للشاعر توفيق صالح جبريل- أحد مؤسسي الحركة- يهجو فيها سليمان كشة الذي اتهمه التنظيم بإفشاء أسرار له مدير مكتب المخابرات:

سليمان كان بديع الزمان
معانيه ساحرة ساخرة
هوى لا يعي ببساط الريح
وحطم مرآته الساحرة
فباع الضمير بفلس لولس
ألا أين ذمتك الطاهرة

كانت تقاريره قليلة النظر ضبابية الرؤية حين ظن أن معظم عضوية التنظيم من المواليد المنحدرين من أصول مصرية.. ومن أولئك الذين وصفتهم تلك التقارير بالمنبئين قلياً.. تعني أبناء الجنود والضباط السودانيين من سلالات الرقيق الذين اقتلعهم الحكم التركي من مواطنهم في القرن التاسع عشر وعادوا من مصر ليصبحوا جزءاً من الطبقة الوسطى الجديدة.. براعمها وطلاتها المتنوعة وهي تتوق لتلعب دوراً في تشكيل مستقبل بلادها بالتححرر من النفوذ الأجنبي.. أرادت السلطات في تقاريرها هذه أن تحلل الأحداث وفق منظورها القائم على بنوية مجتمع قبلي لا رابط قومي يجمعه.. فاتها أن تدرك أنه قبل عقدين من السنوات فقط واجهت جيشاً قومياً واحداً للأمة يحول دونها ودون فتح البلاد.. جيشاً تصدى لآلة الحربية الحديثة التي زحفت فوق أشلائه.. ربما يكون صحيحاً أن جزءاً من عناصر التنظيم كان من هؤلاء وأولئك.. ولكن ذلك كان يرتبط بحقيقة التركيبة السكانية لمدن العاصمة الثلاث.. وللخاصة الذين أدركوا ضرورة التعليم النظامي الحديث وتخرجوا في المدارس التي ترددت كثير من الأسر في إلحاق أبنائها بها انتقاء لشروطها المحتملة.. إلا أن ما أسفرت عنه الأيام أكد أن التمثيل العرقي في ذلك التنظيم الذي شمل مدناً أخرى كان متكافئاً، وإن تخلفت عن ذلك الأرياف القصية بحكم تدني مستوى وعيها مثلما توفر في التجمعات الحضرية.

وتقارير المخابرات هذه غفلت عما كان يدور في وجدان المثقفين وقتذاك من

بواخر ثورة عارمة بعد سكون إستمر أكثر من عقدين من الزمان.. كانت رأيهم خلالها غائمة وحلمهم عصي التحقيق.. عجزوا عن التعبير عنه إلا بالتمثل بالماضي والأمجاد السالفة.. كتبوا شعراً رومانسياً بعيداً عن الواقع وخطبوا في المناسبات الدينية.. ولكنهم سرعان ما أدركوا أن قشور الحضارة الغربية التي أدخلها المستعمرون رافقتها القبضة الأمنية الحديدية والملاحقات القمعية والسيطرة على كل الأمور.. كان البريطانيون خارجين لتوهم ظافرين من حرب كونية وجدوا خلالها تأييداً من زعماء البلاد التقليديين الذين كان وفدهم قد عاد من إنجلترا بعد أن قدم النهائي للملك جورج الخامس على النصر «المؤزر» مشفوعاً بسفر الولاء..

برزت الحركة الوطنية كالشهاب الساطع بدت وكأنها كانت بلا موعد ولا مقدمات إلا أنها عبرت عن آماني المثقفين وتطلعات الطبقة الوسطى وتجاوبت مع ما كان يعتمل في مصر خلال ثورة 1919. وما أعقب ذلك من مطالبات بالدستور وجلاء القوات الأجنبية لكنها لم تستطع أن تقدم نفسها كما ينبغي.. لم تلجأ لأساليب النضال الصبورة والدؤوبة.. وظل فكرها مشوشاً يتراوح ما بين وحدة وادي النيل تحت التاج المصري والبحث عن القومية السودانية والدفاع عنها. إلا أن الإجماع تلخص في رفض الاستعمار في كل الأحوال.. مع الاحتفاظ بضرورة قيام علاقة ما مع مصر.

فجأة تفجرت الأوضاع السياسية واتدلعت التظاهرات وتلاحقت الأحداث حتى بلغت منعطفاً عسكرياً خطيراً بالتظاهرة المسلحة لطلاب الكلية الحربية تضامناً مع الحركة الثورية الجديدة. تفاقمت الأحداث وأحسّت الإدارة البريطانية بخطورتها فقررت إخراج الجنود والموظفين المصريين من السودان.. فتحركت قوة عسكرية سودانية من أم درمان واصطدمت بقوات الجيش البريطاني في الخرطوم في معركة شرسة قتل فيها من الجانبين عدد كبير.. ولكنها أسفرت عن

منهم الآن سوى تسربهم الثقافي في مظاهر الأذكار الصوفية في الجزيرة، نقاير ومواكب وجيب مزركشة. ذهبوا ولكنهم تركوا آثارهم في الثقافة السودانية وأنماط سلوكها. ولا بد أنهم أو بعضهم كانوا قد تناسلوا من الحضارة المروية التي ازاحت شياً وتبعثت ثقافياً بفعل الصراع العسكري والغزو الأجنبي ولكنها بشت إشعاعها في كثير من مناطق القارة الأفريقية. وقد تكررت تلك التجربة مرات في بلاد السودان أكثر من غيره من البلدان بسبب موقعه وطبيعته الجغرافية. كما حدثت فيه إنقطاعات حضارية وثقافية منذ أن درج الإنسان على وجه الأرض.

رأى الأستاذ عبد الجبار في بحث البروفيسور حريز مدخلاً للتعميم النظري المختل أضرب بأصله واستنتاجاته النهائية التي تصب في خانة الدفاع النظري عن مفهوم المركزية وتكريس استراتيجية النفي، ونعى عليه الحديث المشبوه حول الأعراق في السودان، وذلك حين قسم الجعليين إلى خلص «أولاد عرمان» وغير ذلك الأمر الذي من شأنه أن يشير الحساسيات العرقية، ليس بين الجعليين وغيرهم من المجموعات العرقية، ولكن بين الجعليين أنفسهم.

ويرى الكاتب في دراسة حريز محاولة للتوفيق بين الثقافتين العربية والأفريقية معبراً عن الحنين إلى سنار كما تجلى ذلك في أعمال مدرسة الغابة والصحراء وأسقط عليها نظرية الغش الثقافي. كما رأى في مساهمات عبد الله بولا وحسن موسى وعبد الله علي إبراهيم جدارة فكرية وتنظيراً حاسماً لما يتعلق بالهوية وهم الذين انتصروا للأفريقية رافضين نسب الغول وأوغلوا في جلد العروبيين ودعاة التوفيقية. واضعين الصراع السياسي نصب أعينهم دون تمييز للمقاربات والمفارقات التي تميز الثقافي عن السياسي.

وامتدح الكاتب فرانسيس دينج في تحليله الأحاجي قبيلة الدينكا لتوظيفه فهماً مفتوح البصيرة والذهن للاجتماعي والثقافي دون أن يتجاهل علاقات

المسرحيات - كما شهدوا على عبد اللطيف زعيم الثورة - يساهم في الإخراج المسرحي.

منذ البداية الأولى أدرك تنظيم حركة اللواء الأبيض أهمية التعليم فتضمنت مذكرة علي عبد اللطيف التي صودرت قبل أن ترى النور ضرورة التوسع في التعليم.. إلا أنها - كما هو معروف لم تستمر لتشريع في رعاية مشروع للتعليم - الأمر الذي بات من أهم واجبات الحركة الوطنية في سنواتها التالية.. حيث أضطلع مؤتمر الخريجين بمهمة التعليم الأهلي فأنشأ المدارس وتطوعت عضويته للتدريس فيها.. كما أنشأ «معهد القرش» وغيره من المؤسسات التي ترافق قيامها مع النشاط الوطني - يرفدها حماس الشعب ورغبته في التحرر والانعتاق.

13 فبراير 2001م



التظاهرة المسلحة لطلبة الكلية الحربية

رؤى جديدة حول مسألة الهوية



عبد الجبار عبدالله

أعد صديقنا الأستاذ عبد الجبار عبد الله دراسة قيمة حول موضوع الهوية في السودان الذي إتخذ في معظم الأحيان كأحد العوامل المهمة في الصراع المدمر الذي هدد قواه وأقعدته عن التقدم، جاء البحث تحت عنوان: «السودان في مناهته.. من الهوية إلى الوحدة أو وضع العربية أمام الحصان» مساهمة ثرية في إطار السجال الفكري الذي استمر خلال السنوات الأخيرة بين تيارات العروبيين ودعاة الأفرقة والتوفيقيين المنادين بالأفرو عربية. استهله بالإشارة إلى مصير «الملك لير» المأساوي الفاجع في مسرحية الكاتب الإنجليزي الخالد ويليام شكسبير وكيف عصفت به الأهواء والصراعات الداخلية وأودت به إلى الجنون. تلك التراجيديا التي تتماهى مع ما آلت إليه الأحوال في بلاد السودان.

إستطاع الكاتب الحصيف أن يؤسس بحثه على رؤية نقدية ثاقبة تناول بها عملاً للبروفيسور سيد حامد حريز حول الحكاية الشعبية عند الجعليين وقد جاء العنوان للعمل المترجم إلى اللغة العربية هكذا «الحكاية الشعبية عند الجعليين..» تداخل العناصر الأفريقية والعربية الإسلامية، لم يفت الكاتب أن ينوه بقيمة

وسبق الكتاب وريادته العلمية الأكاديمية حيث نشر في عام 1991 إلا أنه أبدى ملاحظات مهمة حول المحصلة المعرفية، والاستنتاجات النهائية للبحث. لم يكن هو أول من يشير النقاش حوله إلا أنه أعاد النظر فيه مجدداً وأتخذ مدخلا لهذه المسألة التي وصفها بجرح الهوية والوحدة الوطنية، القديم المتجدد، جرح لا يغري بالتناسي فهذا هو أوان الكتابه والتحميص والمشاركة الحثيثة والمكثفة في ما يدور الآن والبلاد تقف في مفترق الطرق لا تدري ما سيؤول إليه المصير.

يرى الكاتب أن أبرز ممثلي التيار العروبي هم كتاب مجلة «الفجر» ومن بينهم قيادات سياسية نظرت إلى السودان من زاوية واحدة. اختزلته سياسياً وجغرافياً وعرقياً وثقافياً وأن هذه القيادات رسخت فكرة اندياح المركز على بقية أجزاء قطر الدائرة وهي فكرة توسعية استعمارية في الأساس، إلا أن تطبيقها على الواقع السوداني يقع في مستوى أدنى من مستويات التوسع والهيمنة، وتحدث عما وصفه بظاهرة «الإزاحة الثقافية، أي أن الثقافة المهيمنة تزج كتلة ثقافية أخرى مكافئة لوزنها كثافة مهيمنة وتحل محلها وتمحو شخصيتها بالكامل. تحدث السيد باقان أموم -أحد قادة الحركة الشعبية- في مجلس خاص يوماً متسائلاً عن اللغة التي كان يتحدث بها الناس بعد سقوط مملكة سوبا عام 1504 ولم يذكر لي محدثي كيف كانت الإجابة لكن السؤال أثار في تلك الرغبات الحارة في أن ينكب المثقفون على دراسة تاريخهم الثقافي والاجتماعي -لا السياسي وحده- لتعزيز معارفهم النظرية وتطوير آرائهم السياسية وفقاً لذلك.

كانت منطقة الجزيرة تقع ضمن مملكة علوة النوبية المسيحية وعاصمتها سوبا، لم تفتح ذراعيها للعناصر العربية إلا لمن استطاعوا التسلل في جماعات قليلة. كانت هناك لغة نوبية وثقافة ذات خصوصية ولكنها لم تلبث أن ذابت في خضم الوافدين الجدد والمقيمين القدامى. لا أحد يدري أين ذهب «العنوج» وهم أقوام وصفتهم بعض المصادر التاريخية بطول القامة وضخامة الجسم.. ولم يتبق

الدعاش.. حين قرأته حُجِّل إليّ أن كلَّ السحر قد غادر نسختك بالفاكس فعادت جسداً بلا روح.. فما في نسختي كثير، وليس بعده. الحق أنني لا أستطيع أن أتخيل أن النسخة التي تكرمت عليّ بها قد غادرت شيئاً من السحر احتواء غيرها لا أدري فربما اتضح في الزمن الآتي الذي تحدث عنه النور، وقال عنه إنه يتشكل الآن في رحم الغيب، إن الفاكس لا ينقل دوماً الحروف فحسب وإنما ينقل في بعض الأحيان روح التراكيب الفريدة المضيئة.

وجاء في الرسالة أيضاً «حامد جو لم أعرفه، بل لم أسمع به غير هذه الأسمية مما كتب النور، بيد أنني بت أشعر أنني صاحب مصيبة خاصة فيه، لا لأنني من طبيئته لأنه ممن وصفوا بأنهم ملح الأرض. أما بشير فأنني أعرفه وهو لفرط حيويته يصعب على المرء تخيل الموت فيه. حين لاقتني النور في زيارته الكريمة، لي في أخريات الألفية الماضية في البحرين، وهي الزيارة التي أشار إليها في قصته الأخرى، ربما لم نشأ أن نتذكر بشيراً، لعلني من أجل ذلك لم أعز النور فيه.. وبشير كانت تصادفه أحداث غريبة ونادرة، وليس أعرب من أن تضل بهم طائرة نهبط اضطرارياً على نحو أسهم فيما بعد في الوصول إلى إتفاقية أديس أبابا»

هذا عمل إبداعي مدهش بكلِّ المقاييس النقدية لا أستطيع أن استمتع به وحدي دون مشاركة الآخرين لم أستأذن النور بعد وأنا أحاول أن أقدم منه بعض المقتطفات.. علمت أنه عاد من الولايات المتحدة وأقام في الكويت.. ولا أعرف أكثر من ذلك.. فليغفر لي جرأتي ولا أظنه يمانع في ما ارتأيته.

قال النور حمد «إن الفنانين الراحلين كانا شخصين قلقين مسافرين لا يستقر لهما قرار، صوفيان فنانون بل درويشان مجذوبان. أرادوا عجن الزمان والمكان، والتهامهما في لقمة واحدة وفي دخيلة كل واحد منهما إحساس بدنو الأجل، عبث عن نفسه في حمى التنقل التي ما برحتهما أبداً. كان بشير مثل حامد تماماً، من حيث الرغبة في التنقل وكان كلاهما يبحث عن شيء ما بحثاً مضنياً. لا

التأثير والتبادل ما بين الدينكا وغيرها من القبائل ودون التعلُّق بالأوهام بتواشج ثقافة الدينكا وتأثيرها بالثقافة العربية.

توصل الأستاذ عبد الجبار شأن المثقف اللوذعي إلى أنَّ أزمة الهوية والثقافة في السودان هي جوهر الصراع السياسي والاجتماعي بمفهومه الحقوقي السيادي ودعا إلى التسوية السياسية عبر دستور ديمقراطي يقر الحقوق والحريات الأساسية والعامة لكافة المواطنين دون الارتهاق للانتماءات الدينية أو العرقية أو الثقافية.

اتحفنا عبد الجبار برؤية ثاقبة ومساهمة ذكية نحن في أشد الحاجة إليها في تلك الأجواء المدلهمة، وأتمنى أن تكون هذه الدراسة قد وجدت سبيلها للنشر لتعم فائدتها.

71 يونيو 3002م

«في كون الشلاقة عاقبة»
وفيض من أريج الكتابة



النور حمد

ما زلت أذكر الأستاذ بابكر أحمد موسى الشاعر والكاتب المسرحي - عليه
رحمة الله - حين كان يدرسنا تاريخ أوروبا في الصف الثالث (عمر) بالمؤتمر
الثانوية. كان يدخل حاملاً حقيبته الجلدية التي تحتوي على كتاب «المغفلين»
للجاحظ مع أغراضه الأخرى. كان إحساسه بالتاريخ عظيماً فيتحدث في تودة
جالساً على طرف المنضدة، لا الكرسي في أغلب الأحيان يشدنا بحديثه العذب
وصوته المديد. ولا يخطئك حماسه لما يقول رغم هدوئه وما زلت أذكر يوم أن
كان يتحدث عن الإصلاح الديني في أوروبا متناولاً شخصية مارتن لوتر، قال إن
كلماته كانت تخرج من فيه كشلال من نور، فأعجبنا ذلك التشبيه وما زال عالماً
بالذاكرة. وعندما وصف عبد الله علي إبراهيم الدكتور التجاني الماحي في مقالته
الشهيرة تلك «قارئ الألواح» قال إن العلم كان يتصاعد منه دخاخين دخاخين
إستعار التعبير من «الطبقات» في معرض الوصف لأحد رجال الصوفية العارفين.

حين التقيت بالأستاذ النور حمد لأول مرة في مطلع الثمانين من القرن الماضي بمنزل صديقنا الأستاذ الطاهر محمد حمد بمدينة كوستي ذكرني حين تحدث بمارتن لوتر أو ذلك الصوفي الملهم في تاريخنا العام بمآثر الرجال. وكان النور في تلك الأمسية الفكرية البعيدة يتحدث لغة صبية جديدة ومعافاة تتدفق مفرداته وتنب عفو الخاطر في عقد تضيد من الكلام المحكم. ما زال صداها يتردد في الأذن. لم أحظ بلفظه بعد ذلك إلا مرة واحدة غابرة بالمحطة الوسطى في الخرطوم. تبادلنا حديثاً قصيراً بقدر ما سمح لنا الوقت وفي العام الماضي بدأت أتلقى من أصدقائي بأبوظبي إصداراً غير دورية ينشرها الفنان التشكيلي والناقد المعروف حسن موسى المقيم بفرنسا سماها «جهنم» وتصدرتها هذه العبارة «جريدة الهدم النقاد والمعارضة»، توزع مجاناً لمن يهمه الأمر والمرسلة إليهم حتى استنساخها وتوزيعها بمعرفتهم ولا ينشر أي جزء منها في الصحف إلا بإذن ناشرها» والإصدار ناجحة بكل المقاييس وتؤكد إهتمام المثقفين والكتاب السودانيين وحديثهم على ثقافتهم الوطنية. وشاركت بالكتابة فيها أفلام جادة من بينهم النور حمد.. لحسن الصدف. فقرأت له مقالاً جيداً غير مسبوق لغة ومضموناً بعنوان «أهل الفترة».. فلم أجد فارقاً بين حديثه وكتابته.. نفس التألق النادر والفكر المشبوب والقدرة الفذة على استكناه التجربة ثم لم ألبث أن وقعت يدي على مقال بعنوان «في كون الشلاقة عاقبة» تناول فيه سيرة ثلاثة من الفنانين التشكيليين، ثلاثتهم رحلوا عن دنيانا. قسم المادة إلى قسمين.. الأول بعنوان «عمر خيرى عاقل وحيد في خضم المجانين» والثاني بعنوان «الراحلان: حامد جو وبشير حريشة».. نسمتان من وراء ما بعد الحداثة» أعجبتني هذا العمل وخاصة ما كتبه عن صديقه ابن عمي الأستاذ طه أبو قرجة المحامي.. الرجل المثقف والكااتب المطبوع، الذي احتفى بالعمل أيما احتفاء وبعث برسالة عن طريق الفاكس من البحرين حيث يقيم ويعمل. وجاء في رسالته «ما كتبه النور عن حامد جو وبشير حريشة أطيب من رائحة

توجهت ذات مساء راتق إلى مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي بأم درمان، لاحظت جمعا على سطح مبنى المركز فسلمنا أنا وصديقي الذي صحبته، وجدنا كرسيين فجلسنا. كانت فرقة صوصل تؤدي مسرحية ما أسعدنا ما صنع الشباب على المسرح فالنص كان مشحونا بالرمز والمباشرة.. هذا شعب لن يضيع ما دامت هذه طلائعه، بنين وبنات. انتهت الأمسية المسرحية التقيت بالأستاذ كمال عبد الكريم مدير المركز الذي أحسن إستقبالنا وأكرم وفادتنا وأتاح لنا فرصة التعرف على أقسام المركز ثم اتحفني بمجموعة من إصداراته، عكفت عليها أياماً. كما عثرت أيضاً على كتب جديدة في مكتبة مروي أروت كثيراً من الظلم، من بينها كتاب نقدي عن الطبيب صالح للأستاذ عثمان محمد الحسن الأكاديمي البارز والمثقف المرموق والأديب النشط غزير الإنتاج. ما تشرفت بلفائه ولكنني استمتعت وانتفعت بكثير مما كتب، وهو محب وليس نافذاً، يؤسس منهجاً مختلفاً في تناوله النص، يعجني كما هو صديق للطبيب وعارف لفضله. يندفع حين يكتب عنه ولكنه يصيب. والطبيب صالح كبتاع المسك يحذيك دائماً بشيء منه، كما تظفر بأريجه الفواح. تحدث عنه وأسهب وتنقل في إبداعه وتناول أشياء لم تكن نعرفها عن العالم الثري للكاتب. والحق يقال إنني لم أتمكن من متابعة مقاله في الصفحة الأخيرة لمجلة «المجلة» الذي استمر لسنوات. وكان الطبيب يكتب عن الشعر وما كان ذلك يجد هوى في نفسي إلا أنه يبدو أن هناك ما كان يستوجب النظر والقراءة، نشره وتناول ذكي. استوقفتني ما ساقه من وصف لأحدى جلسات الأمم المتحدة في عنفوان الحرب الباردة. كان وقتذاك مندوباً عن الإذاعة البريطانية يتابع الدورة. وكانت تلك الجلسة للرؤساء هارولد ماكميلان رئيس الوزراء البريطاني ونيكيتا خروتشوف الرئيس السوفييتي وغيرهم. وصف الأول فقال، بينما كان ماكميلان يقف خطيباً على المنصة بتلك النبرة المتعالية قليلاً، التي يغلب عليها ذلك السأم الأرستقراطي كان ينظر من حين لآخر إلى رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم،

أدري ما هو الأسباب التي كنا يقدمانها للسفر عادة وللحركة الكثيرة والتنقل الذي لا يهدأ لم تكن دائماً مقنعة لقد كانت في أغلب الأحيان عللاً أكثر منها أسباباً لم يكونا يملكان أمرهما في ذلك المنحى كنا مثل من حكم عليه بالتنقل. ولربما شاب تعلقهما بالتنقل بين الأمكنة بعضاً من حالات الإدمان وفي موتهما في حادثتي مرور إشارة، وربما تشابه المصائر. ويقول إن التشابه بينهما - في حالة تتبع القرائن - أفصى بكليهما إلى كلية الفنون. معرفتي ببشير حريشة، تمت بعد التحاقني بكلية الفنون فهو كردفاني قادم من خور طقت الثانوية، ويبدو أنه كان مشهوراً في خور طقت مثل شهرة حامد جو في حنتوب، وقد توطدت صلتني ببشير عقب تخرجه من كلية الفنون، وذلك بعد أن انضم إلى حركة الأخوان الجمهوريين. أما حامد جو فهو قريبي نشأنا سوياً وتقاسمنا حياة قروية مشتركة، وندرجنا في المراحل الدراسية من الابتدائية وحتى مدرسة حنتوب. كان حامد يأخذ حياته لحظة بلحظة.. ولا يتحسر على ما فاتته، ولا يدع التطلع لما سوف يأتي يذهله عن جمال لحظته الراهنة كانت له قدرة على نفخ الحياة في العدم. تصبح حلة حامد بالنسبة لي من غيره قاعاً صغصفاً، وخرائب ينق فيها اليوم. وجوده حولي كان يحل كبريات معضلاتي. لا أحتاج لأكثر من رؤيته أو وجوده من حولي لتذهب عني المخاوف الوجودية والحزن والوحشة. لقد كان متصلاً بالجواهر وممدوداً من الجواهر مدداً عجيباً، وأهم من ذلك كله كان قادراً على أن يُعدي بحالته غيره.

قال النور إنه حين التحق بكلية الفنون الجميلة في مطلع السبعينات كان حامد مدرساً بالمدارس الابتدائية وكان يزوره في الكلية فتعرف على أصدقائه وأعجبه المكان وقرّر فجأة الالتحاق به. أحسّ بأن ذلك المكان المسمى بكلية الفنون يناسبه، لقد كان يبني أموراً على الحدس فقلبه هو الذي يخبره.. وحين يخبره قلبه بشيء لا يلتفت إلى متعدي آخر قلت له إن فكرته جنونية بل وسريالية مثل

سائر أموره الأخرى، فهو لَمْ يكن يمارس الرسم أبداً، وَلَمْ أعرف له إهتماماً به غير أن حامداً أحب ذلك المكان وأولئك القوم، أصرُّ على خياره وعمل له اقتنى الألوان والأدوات وصار يعمل بجهد ويطلعني على أعماله وبالفعل التحق حامد بكلية الفنون رغم أنني -

بعد موته أحسست بأنه فعلاً غريباً على هذه الحياة، بدا لي مثل من جرى إرساله من المستقبل لرسم لنا بعضاً من صور... وليقدم نموذجاً لإنسان جديد، لا يزال يتمخض في رحم الغيب. إنسان تحرر من الانكسار أمام الاستعلاء باللون والجنس والطبقة وبالتحصيل المعرفي، ومن أي فھر يحاول به أي شخص التميز على الآخر، كان إنساناً لا يسلم للناس بالامتيازات التي يمنحونها لأنفسهم. يفرض على الغني نفسه حتّى يقبل الغني أن يشاركه ما عنده. ويفرض نفسه على صاحب الجاه، والسلطة حتّى ينسى صاحب الجاه والسلطة وضعيته ويقترب من الجميلات حتّى لا تبقى لسطوة جمالهن هبة، ويناقش من يزعم أنه ملم بموضوعه بندية تامة، وبغير شعور بالانكسار أو الدونية. كان حامد أعمى من أي النواحي أتيته، في رؤية الفروق. وكانت له قدرة قطرية، لا فلسفة فيها ولا تعقيد، تمكنه دائماً من التفاضل إلى جوهر الأمور.

رأى النور بشير حريشة لأول مرة عام 1971 بداخلية الحلة الجديدة التابعة لمعهد الكليات التكنولوجية.. وقد كان يسكنها بعض من طلاب كلية الفنون. «رأيت في غرفة مجاورة لغرفتي، يرقص رقصة «الجيرك» أو «الهورس» لَمْ أعد أذكر بالضبط واحدة من الرقصات الغربية التي كانت فاشية في الأوساط المدنية الخرطومية آنذاك. استرعى انتباهي منذ أول وهلة بقوامه القصير وأنفه الأقي، وحركات رقصه المتوافقة التي دلت على حس موسيقي سليم، وروح طليقة أيضاً.

انطبع مشهد رقصه في ذهني وظللت أرقبه من بعيد في الكلية بإعجاب، غير أنني لَمْ أتعرف عليه عن كثب. لقد كان هو في السنة الرابعة وكنت في السنة

الأولى. ثم ما لبث بشير بعد التخرج أن انضم للحركة الجمهورية، حيث تعارفنا عن قرب. ولا أزال أذكر يوم سفر بشير إلى جوبا، ومعه خلفه الله عيود ومحمد الحاج بعد أن تم نقلهم إلى مكتب النشر بجوبا. أذكر أنني كنت في وداعهم في مطار الخرطوم مع حسن موسى ومحمود عمر وربما آدم الصافي. أقلعت بهم طائرة «الفوكرز- فريندشيب» المروحية عند الظهر ولا أزال أذكر أن حسن موسى علّق على شكل الطائرة بقوله إنها «تشبه الكديسة الحامل» وفي المساء عرفنا أن الطائرة قد ضلت طريقها «ما أردت بهذا القول إن حسن موسى عينه حارة ولكن التشبيه استرعى انتباهي وظلّ عالماً بذهني قرابة الثلاثين عاماً الماضية». نجا بشير مع رفقاته من تلك الحادثة الفظيعة بكل تعقيداتها ثم مات لاحقاً في حادث سير بمدينة الأبيض. ونجا حامد جو رغم أسفاره الكثيرة على شاحنات وباصات وحافلات ويكاسي وكاروات السودان الهزلة وتوفي هو الآخر في حادث سير في الجماهيرية الليبية.

5 فبراير 2002م

رواج الثقافي وتلاشي السياسي



محمود صليح

عزف الناس عن السياسة في السودان.. قهرهم الخطاب الديماجوجي العاجز لسلطة مهترئه ما قدمت سوى الكلام والشعارات ومزيداً من الفشل، ولا يتطلع الناس كثيراً أيضاً لخطاب المعارضة العاطلة عن الإبداع، والمتميّزة بالمراوحة والاعترا ب الفكري فلاذوا بالأدب والثقافة وأخذوا يتدافعون للحصول على الملاحق الثقافية للمصحف وليس هذا بغريب ففي زمان الجزر السياسي والضمور الفكري يعتصم المثقفون بكل ما هو غير يومي يترفعون عن الأحداث التي لا تفتأ تتكرر ولا تأتي بجديد. ينتظرون أيام المد ورياح التغيير أنست ذلك خلال زيارتي الأخيرة للسودان في عطلتي السنوية، وأسعدني ما رأيت عليه الشباب ينهضون من كآبة الواقع السياسي وأقول الزمن الجميل.. يؤمون المكتبات فيقرأون، ويكونون الفرق المسرحية في المراكز الثقافية شباناً وشابات مفعمين بالأمل ومسلحين بالجرأة وعفوية المبادرة ونصاعة الوجدان.

حين تطرق للبعام في حديثه عن منطقة بحر الغزال، فقال « في هذه البلاد حيوان يسمى البعام أشبه شيء بالإنسان في صورته وقامته. ويستأنس كالقردة.. وله شعر مستمر خلف ظهره على جانبيه.. فاتق في طوله.. جميل في منظره.. يتغزل به السودانيون كما تتغزل العرب في عيون الجأذر والغزلان».

وكثير منا يكون قد سمع عن البعام في معرض وصف جداتنا وأمهاتنا لمن يتميز بالعمى وبلاهة السلوك. ولا أعتقد أن أحداً قد تغزل به كما ذكر مؤلف الكتاب وربما يكون البعام هو الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان ولا يفناً علماء الأنثروبولوجي مكوددين في سبيل حل ذلك اللغز.

حين تم تعيين غردون للعمل بالسودان اصطحب معه إبراهيم فوزي هذا وزار معه عدة مناطق وخاصة الاستوائية وبحر الغزال وقد أتناول تجربة ذلك الرجل من خلال كتابات أخرى محتملة.

وكان لقط الزباد حظه في شحذ فضولنا واستثارة إتيابنا أيضاً. فقد كان ذلك القط العطري النادر من بين السلع التجارية المهمة التي كان يصدرها السودان إلى البلاد الأخرى. تطرق إليه كثير من الأخباريين الذين كتبوا عن بلادنا ولكنهم ما وصفوه ويبدو أنه يعيش -ربما لا يزال- في بعض مناطق الجنوب والجنوب الشرقي. ويتميز ذلك القط العجيب بعطره النفاذ الذي كان يقول أهلنا إنه كان يفرزه إذا أحس بالخطر. يريد أن يشغل به عدوه المطارد ويلهيه بجمع العطر الذي يقذفه به كمادة هلامية يتم الاحتفاظ بها في قرون الغزلان والأبقار وتستخدمه النساء في مستحضرات التجميل. وإذا ما تم قتله فإن جلده يظل يوضع بالعطر فيغمر المكان كله. وكان يربط في يد الرضيع قطع صغيرة من جلده، وإذا ما تم صيده حياً يوضع في أقفاص بمنازل الأثرياء.

لم يقتصر تواجد الحيوانات الوحشية على مناطق محددة بالسودان وإنما

ليس حسن الهندام، هيئته مثل هيئة رئيس عمال شحن في ميناء، رجل لو خير ماكميلان لما اختار أن يدعوهُ إلى العشاء في داره في لندن مع صهره دوق دفنشاير.. إلا أن ذلك الرجل الذي يجلس متحفزاً مثل ذئب رابض، وهو نجم هذا المهرجان دون منازع ليكيثا خروتشوف، أمين عام الحزب الشيوعي وأقوى رجل في الإتحاد السوفيتي كان يصل قبل بدء الجلسة دائماً ولا يترك مقعده حتى نهاية الجلسة. عندما لاحظ مرة قلة الحضور هبّ واقفاً وصرخ غاضباً قبل أن يؤذن له، أين يذهب هؤلاء المندوبون؟ إن دولهم الفقيرة تدفع أموالاً طائلة لترسلهم إلى نيويورك، ليس للفسحة والتسكع، ولكن للعمل لَمْ يلبث المندوبون الذين كانوا يحشون القهوة في الصالة الفاخرة ويتسكعون بالفعل في الردهات أن جاءوا يتسابقون إلى قاعة الجمعية العمومية. لاحظ الطيب أن جلسات تلك الدورة تحولّت بمهارة إلى فصول مسرحية، البطل الذي يمثل قوى الخير والعدل والحرية، هو الإتحاد السوفيتي والشرير الذي يمثل قوى الظلام والباطل والقهر هو دول الغرب.

وعندما كتب الطيب صالح يصف الأم تيريزا التي رآها في مطار الخرطوم تهم بالمغادرة، قال «الآن ننتظر إقلاع الطائرة التي سوف تعود به إلى باريس»، يقصد أحمد مختار أمبو مدير اليونسكو وقتذاك، وكان الوقت أواخر الليل، فإذا ضوء سطع في أعيننا التفت إلى مصدره فإذا بتلك السيدة العجيبة تدخل بهدوء كما يسيل الماء في الجدول، عليها الثوب الأبيض الذي اشتهرت به وحولها فتيات في مثل زياها سمراوات هنديات أو أثيوبيات أو خليط من أجناس.. لَمْ يكن معها سوى مودع وحيد ربما من إحدى منظمات الأغاثة. ذهبت وسلمت عليها وعلمت منها أنها كانت في سنار وفي الجزيرة جنوب الخرطوم، وأنها قضت شهراً تحاول أن تساعد ضحايا المجاعة تهش لك كأنها تعرفك من زمن وتحدثك بصوت خافت فيه لكنة هندية مفعم بالمرح، وجهها مغضن مليء بالتجاعيد. وجه

جميل أجمل ما وقعت عليه عينك، يذكرك بوجوه كثيرة أحببتها وضاعت منك
في زحام الحياة، تملؤك بالحبور والحزن وتراها خفيفة جداً وهي صغيرة الحجم
أصلاً كأنك تستطيع أن تحملها في راحة يدك، تريد أن تحتضنها وتقبلها كما
تحتضن جدتك أو أمك أو ابنتك.

31 مايو 3002م

البيئة الأمازونية التي اندثرت البعام في مملكة الحيوان

كانت أسعد أوقات طفولتنا تلك الأماسي التي حفلت بالحكايات المشوقة والأخبار المثيرة والحكايات الغريبة عن مختلف مناطق السودان وخاصة الجنوب- الذي عمل فيه أجدادي تجاراً جواً من منتصف القرن التاسع عشر.. ثم والذي منذ أوائل القرن العشرين -حيث كان (عليه رحمة الله) مولعاً بالسفر والصيد.

كانت قصص الحيوانات وأنواعها تستأثر بجانب مهم من تلك الأحداث التي كانت تترجىها إلينا والدتنا فتثير الفضول وتلهب الخيال. وكانت حين تتحدث عن البعام تتملكنا رغبة عارمة في رؤيته وصحبته في طفولتنا السعيدة تلك والبعام الذي هو من فصيلة القروء لم أعد أسمع عنه منذ ذلك الزمن وإن كنت ما زلت أذكر وصف هيئته القريبة من شكل الإنسان وسلوكه الهادئ النبل وحبّه للناس ورضاه بالعيش معهم كفرد من أفراد العائلة. لا بد أن فصيلته قد انقرضت وما عادت تسعى على الأرض شأن الكثير من الكائنات التي كانت تكاد لا تحصى في السودان ولكنها ويا للحسرة اختفت إلى الأبد قبل أن يتم تصنيفها ضمن الكائنات التي درجت على ظهر هذا الكوكب. كان السودان حتى وقت قريب بمساحته الواسعة وغاباته الشاسعة ومياهه الوفيرة محمية مثالية لمملكة الحيوان.

وحين طالعت أخيراً كتاب «السودان بين يدي غردون وكثشيرة» لمؤلفه المصري إبراهيم فوزي باشا- الذي صدر مرة واحدة قبل مئة عام- قرأت عجباً

ولعل أطرف ما حدث في هذا الشأن إن غردون باشا حين عمل بمناطق الجنوب جلب أفيالاً هندية داجنة للاستعانة بها في الحركة داخل الغابات. وشيد لها جتوده زريبة واسعة تخرج منها لترعى في الخلاء المجاور. فكانت حينما تعود آخر النهار تعود معها بعض أفيالنا الأفريقية المتوحشة التي تصبح هدفاً لسهام الجنود الذين يأكلون لحمها وتستولي الحكومة على أنيابها الثمينة.

71 يوليو 1002م



إصطياد فيل في منقلا عام 1903م

تفاوتت في كثافتها. فمن دنقلا في أقصى شمال البلاد كانت غزلان التيتل تنجول في غابات السنط. وكان الزراف والجاموس والأسود والغزلان ترتع في المناطق الشمالية الشرقية. وقد ذكر الدكتور عبد الله الطيب أن عملاً له اصطاد أسداً في بركة الدامر، ولما أعياه حمله على دابته قطع إحدى رجله الأماميتين وأخذها ليراها الناس.

وفي إقليم عطبرة لفت نظر الرحالة الإنجليزي جورج ميللي أفراس النهر التي اعتادت أن تخرج من نهر عطبرة إلى حقول القمح والفول المجاورة ليلاً لترعى فيها وتدوسها بأقدامها الغليظة فتعيثُ فساداً. وذكر أن أهالي إحدى الجزر الواقعة جنوب بربر طلبوا من السلطات إمدادها بقوات لطرد أفراس النهر فأرسلت إليهم مئة جندي لإصطيادها.

وقال بوركهارت إن غابات التاكا كانت تغص بالحيوانات المفترسة كالأسود والنمور الرقط والغزلان والحيات والأفاعي. وإن الأهالي كانوا يحاولون حماية ماشيتهم بحفظها في زرايب من الشوك. وأنه كان من النادر أن يقتل أسد أو نمر إلا في حالة الدفاع عن النفس حيث إن الأهالي ما كانوا يمتلكون سوى السيوف والرماح التي لا تقوى على قهر ملك الوحوش.

وقال بوركهارت إن النمور كانت تكثر في الأودية الشرقية المتاخمة لمدينة شندي وفي مرتفعات الدندر. وعلى بعد مسافة قريبة جنوب شرقي شندي كان يوجد الزراف الذي يصطاده رجال الشكرية والكواهلة ويستفيدون من جلوده في صناعة الدرق «التروس». وتورد إلى شندي الماعز الجبلية الضخمة التي تتميز بقرونها الطويلة المنحنية حتى وسط الظهر ولحمها اللذيذ المذاق. ويسمى هذا النوع بالريل.. وهو الاسم الذي يطلق على الغزال الأحمر في سوريا. وبعد صيده يقودونه من أنفه مثلما يفعلون مع النعام الذي كان يكثر بتلك الجهات.. وريش النعام في شندي كان أقل جودة من النوع الموجود في الصحراء الغربية..

والأنواع الأكثر طلباً في أسواق مصر هي التي كانت ترد من أسواق كردفان ودارفور. وقال بوركهارت أن الفلاحين الجعليين كان يحملون ريش النعام إلى السوق مخلوطة بالنوعين الجيد والرديء ويستبدلونها بالذرة وكثير من الأهالي كان يربون النعام في منازلهم فيستأنس كما الطيور الداجنة.

وقد ذكر الرحالة الإنجليزي وليم جورج براون أن دارفور كانت تعج بالأسود والنمور والضباع والذئاب وابن أوى. وقال إن الضباع كانت تسير في هيئة قطع يتراوح عدد أفرادها من خمسة إلى عشرة وتزحف على القرى ليلاً فتنتزع ما تستطيع صيده، وتفتك بالكلاب والدواب حتى إذا كانت داخل المنازل. وهناك أيضاً غزلان التيتل ووحيد القرن والزراف وأفراس النهر التي كانت تعيش في النهريرات الصغيرة. أما الأفيال فقد كانت تسير في قطعان كبيرة يتراوح القطيع ما بين 400 و 500 فيل وأحياناً يبلغ الألفين.

وكان عرب البقارة يهتمون بصيد الفيل الذي يعتبر ضرباً من الشجاعة والجسارة وإبداء الفتوة قبل أن يكون كسباً للحصول على العاج أو اللحم يطاردونها بالخيول وينفردون بالفيل الواحد يوسعونه طعناً بالرماح حتى يسقط قتيلاً أو يصوبون نحوه السهام من فوق الأشجار.. وأحياناً يحفرون حفراً في طريقه ليسقط فيه.

وذكر الرحالة براون أن عرب السودان يصطادون الأسود والنمور لجلودها. وأحياناً يأكلون لحومها لإعتقادهم بأنها تكسبهم الشجاعة والجرأة والشباب في المعارك. وأحياناً يتمكنون من صيد الأشبال لبيعونها للتجار الجلابة الذين يصدرونها إلى مصر لتقدم كهدايا للسلاطين والكبراء.

وقد ذكر المؤرخون أنهم لاحظوا وجود الأسود في قصور ملوك الفونج في سنار. وتحدث براون عن الطيور في دارفور وكثرتها كالذجاج الغيني والبيغاء الأخضر.

الذي يستأنس في المنازل ويتعلم شيئاً من مفردات اللغة حتى يتم تصديره إلى مصر فيباع بأثمان مرتفعة.

أما الرحالة السويسري بوركهارت فقد كتب عن الأنهار التي تجري في بحر الغزال والتي تعج بالنماسيح وأفراس النهر كما تحدث عن حيوان عرف باسم «أم كرجي» قال إنه يتميز بحجم كبير مثل الخرتيت ورأس صغير إلا أنه غير مؤذ. ذلك بالإضافة إلى الأفيال ووحيد القرن والزراف وغزال «أبو عرف» وهو في حجم البقرة بقرون ضخمة يندفع بها نحو الصيد فيرديه فتيلاً أو يصيبه بجروح خطيرة وتحدث عن الجراد الذي وصفه بأنه في حجم العجل والتيتل الجبلي.

أما الرحالة الألماني فيرناند فيرن فقد شاهد الجزيرة أبا الواقعة على النيل الأبيض بوسط السودان في حوالي عام 1840 قبل سنوات من إستيطان الإمام محمد أحمد المهدي وأسرته فيها. وقد كان يسكنها بعض من قبيلة الشلك. وقد وصف فيرن الحياة النباتية فيها وأنواع الحيوانات والطيور ولاحظ وجود الأسود بكثرة وأفراس النهر. ولفت نظر فيرن في عادات قبيلة البارية بإقليم الاستوائية حرص الرجل منهم على أن يضع جلد الحيوان المفترس الذي يصطاده فوق ظهره كدليل على شجاعته وذكرى لإنتصاره وتغلبه على الشدائد التي واجهته في حياته. وكانوا يزينون رؤوس عصيهم بما يشبه قرون الثيران الصغيرة أو يكونها بقطع صغيرة من فرائه. ويشبه فيرن البارية في تمسكهم بهذه التقاليد بالجرمان القدماء حين يقول «وكما أن الأسر النبيلة كانت تتخذ من رأسي الخنزير البري والثور شعارات لها معاني التقدير والاحترام، كذلك فإن البارية ينظرون لجلود وأنياب الحيوانات كرمز للبطولة والشجاعة أو التقدير لبعض الصفات التي تمتاز بها من غيرها من الحيوانات». ويضيف فيرن بقوله «لو لم يكن المناخ حاراً لكان من المحتمل أن يضع البارية على رؤوسهم غطاء قبعات الحرب من ذات الفراء».

لعلمه ألا أحد في السودان يعرفها.

تناهت أخبار ذلك الأوروبي العجيب لطلاب الداخليات في الكلية نقلها إليهم عبد الرزاق العتباتي وعمر الريح. فجاؤوا به ذات مساء حيث أدى معهم صلاة العصر والمغرب. وأخذ يحدثهم ويتدفق في الحديث متناولاً شتى ضروب المعرفة ببساطة وتوسع ينمان عن عمق ثقافته وموسوعيته. وكان يتحدث باللغة الإنجليزية وكان من بين هؤلاء الطلاب الأستاذ حسن نجيلة في السنة النهائية في قسم العرفاء بكلية غردون عامذاك. وقد روى هذه الحادثة في مؤلفه «ملاحم من المجتمع السوداني» الجزء الثاني بعنوان «شخصية غامضة تمر بالسودان في الثلاثينيات». لم تطل إقامة هذا الرجل طويلاً بالسودان فقد غادر على عجل وفي ظروف غامضة ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً.

61 يوليو 2002م

صالح مؤمن

أوروبي لا تخطئه العين.

كان يراء ناس أم درمان من منطقة أبو روف يرتدي جلباباً فوقه جاكيت وعمامة وصندلاً. رجل أوروبي لا تخطئه العين. يتحدث العربية الفصحى والإنجليزية بطلاقة ويخوض في مختلف القضايا والمواضيع في المقاهي وأمام المتاجر ويختلط بجميع طبقات الناس كمن يريد التعرف على الأشياء. يقحم نفسه متحدثاً ومسائلاً وباحثاً. كان يحرص على حمل شهادة صادرة من المغرب تؤكد إسلامه واختياره اسم صالح مؤمن.. مكتوبة بالعربية والفرنسية.. يكتفي بذلك ويتحاشى التفاصيل حول حياته.. ويؤدي الصلاة في مواعيدها.

كان حي أبو روف معقلاً لشباب ذوي همم عالية.. يتطلعون إلى فجر جديد.. إنغمسوا في التعلم والتثقيف الذاتي. وكان عام 1930 الذي شهد ظهور صالح مؤمن ذروة تألقهم موظفين صغاراً وطلاباً في كلية غردون.. لا يكتفون وطنيتهم ولا بغضهم للاستعمار. ولم تكن السلطات غافلة عن نشاطهم تحصى أنفاسهم غادين ورائحين. لم تكن قد مضت سنوات طويلة على ثورة 1924 وما تمخض عن نتائجها وتجربتها المدمرة ودروسها المريرة التي أخذ يتجرعها هؤلاء الشباب منكبين على الكتب باحثين عن المعارف لرسم طريق الخلاص أو العثور على أمل يعبر بهم ذلك الواقع الكثيب.

وكانت سنوات ما بين الحربين من أكثر فترات التاريخ توتراً في العالم. كانت أوروبا تودع حرباً وتستقبل أخرى وتجربة الإتحاد السوفيتي بزعامة جوزيف

ستالين- باتت حقيقة راسخة والنازية تدق على الأبواب. تمثل ذروة الأنانية الرأسمالية وجنوح الفكر الغربي الحديث. وجاءت الأزمة الاقتصادية لتهتز كثير من المسلمات. وتثير كثيراً من التساؤلات حول مصير الإنسانية التي انقسمت إلى معسكرين على المستويين السياسي والاقتصادي. كانت فترة حرجة تواجه مفترق طرق وعرة.

كان لا بد لهؤلاء الشباب أن يتصلوا بمؤمن.. لم يكن بعيداً عنهم فقد اُكثرت داراً صغيرة في الحي إلى جوارهم يتحدث في مختلف المعارف والفلسفات خاصة في علمي الأجناس والاجتماع اللذين تخصص فيهما.. بهرهم بثقافته الواسعة وعلمه الغزير فالتفوا حوله يستمعون إليه فما كانت كلية غردون تروي تعطشهم للمعارف.. كانت تلقي إليهم بالفتات وتكتفي بتقديم القليل لهم بما يؤهلهم للوظائف الصغيرة.. ما كان تريد لهم ثواراً مثقفين يقلقون راحتها ويفضحون طبيعة الاستعمار.

كان صالح مؤمن يهاجم الاستعمار بلا هوادة في جرأة وعلانية. ولكن أنوف الشباب المتحفزة كانت تتشم.. فبدأ الهمس واستراب الناس في حقيقة وفي طبيعة المهمة التي لا بد أن يكون قد وفد من أجلها. ولماذا تغض سلطات المدينة الطرف عنه وهي التي يزعمها ما هو أقل من ذلك؟ وهل كان يكفي أن تكلف شيخ الحارة ويدعى عبد الحكيم لكي ينقل إليها ما كان يقوله صالح مؤمن الذي يلتفت إلى الشباب ساخراً يتحدث بالإنجليزية فيطلب منهم أن يترجموا لعبد الحكيم ما يستطيع أن ينقله للمفتش.. غير مكترث بما سيؤول إليه الحال.. رأت مجموعة شباب أبو روف في صالح مؤمن جاسوساً إنجليزياً مكلفاً بدراسة أفكار المثقفين السودانيين وتوجيهاتهم، مثنكراً في زي المستشرق المسلم القادم من المغرب.. وخاصة عندما حملت إليهم الصحف المصرية أنباء عن أن لورنس- الجاسوس الإنجليزي المعروف غادر المغرب في طريقه إلى

الصومال فالحبشة.

كان لورنس معروفاً على النطاق العالمي بعد أن اشتهر بالدور الخطير الذي لعبه خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918) حين عمل مستشاراً للشريف حسين ملك الحجاز.. وكيف تمكن من إقناع العرب بالوقوف إلى جانب بريطانيا وحلفائها في حربها ضد ألمانيا وجبهتها ومن بينهم الأتراك الذين ضاق العرب بسيطرتهم وفسادهم عقوداً من الزمن. وكانت بريطانيا قد أعلنت عودها المكتوبة والموثوقة بالسيادة للعرب على أوطانهم بعد القضاء على النفوذ التركي. ولكنها تنكرت لها وتقاسمت مع فرنسا تركيا ويات لورنس من خلال ما أضفي عليه من قدرات خارقة أسطورة تسعى على قدمين. وخاصة عندما أصدر كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» ثم ما لبث أن صدرت عنه مجموعة من الكتب عن حياته في البادية العربية ومغامراته ولا يزال القلم الذي حمل عنوان «لورنس العرب» يحتل مكانه بارزة في تاريخ السينما.

لاحظ شباب أبو روف أن صالح مؤمن بجيد معرفة القبائل العربية وخصوصية حياة الصحراء وتفصيلها الأمر الذي لا يتمكن منه إلا رجل عاش في تلك البيئة طويلاً وسبر أغوارها واهتم بدراستها كما لاحظوا معرفته العميقة بعلم الآثار وقدرته على حل الرموز الهيروغليفية وعلاقاته المستمرة مع متر أديسون مدير متحف الآثار بكلية غردون. وعلموا أنه كثيراً ما كان يساعده في فك طلاسم كثير من الحروف والمقاطع المحفورة على الآثار.

وكان صالح مؤمن بجيد لغة الأسيرانتو التي أراد من وضعوها أن تكون لغة عالمية يتخاطب بها الناس على اختلاف لغاتهم. وقد حاول مؤمن أن يعلمها لتلاميذه - شباب أبو روف - وبدأوا في طلب الكتب الخاصة بدراستها ووصلت بالفعل إلى البعض منهم إلا أن الرحيل المفاجئ للرجل الغريب حال دون ذلك. وكان الرجل يستخدم هذه اللغة في تدوين مذكراته في كراسات خاصة

يتطلعون خارج حدودهم. وإن فعلوا فإنهم يتطلعون إلى الشمال والشرق لأنهم لا يعتبرون أنفسهم أفارقة بل عرباً. أما حوادث مارس 1954 فقد استأثرت بتقرير موسع كتبه المحاكم العام سير روبرت هاو لوزارة الخارجية البريطانية جاء فيه أن المخاوف من المهدية قد تجددت ومن المحتمل أن يكون حزب الأمة قد أضعف فرصه في الحصول على السلطة عبر الوسائل الدستورية العادية. وإن سلاحهم الأكثر فاعلية الآن هو إثارة الاضطرابات. وقد حققوا هدفهم أثناء زيارة محمد نجيب إلا أن العلاقات بينهم وبين جهاز البوليس أصبحت مريرة للغاية. إن ما حدث يوم الإثنين الرابع من مارس كان من الممكن أن تتصاعد خطورته حيث كان الأنصار أقوياء وشجعان وثبتوا أمام إطلاق النار من جانب البوليس. وفي فترة معينة أثناء وقوع الاضطرابات وبعد مقتل القومندان البريطاني فقد رجال الشرطة الثقة بأنفسهم تماماً وإذا قدر للأنصار أن يندفعوا بقوة أكبر كان من الممكن أن يقتحموا القصر. وقد وصل بالفعل جماعة منهم إلى الحدائق القريبة من المنزل. أنهم هادئون الآن ويلعبون جراحهم، ولكن لا يمكن إستبعاد وقوع حوادث أخرى أكثر خطورة أو حتى مذبحه إذا ما قرّر حزب الأمة القيام بعمل ولو أن ذلك غير منظور في المستقبل القريب. وأشار التقرير إلى أن حتى المعتدلين أمثال المفكر إبراهيم أحمد هددوا بحمامات الدم بينما أبلغ ميرغني حمزة زواراً أجانب بأن الاضطرابات كانت بسبب عدم ولاء الخدمة المدنية في السودان - وهو يعني بذلك البريطانيين. ويعزو التقرير - الذي تم إرساله كبرقية - الاضطرابات للتدخل المصري حيث أن مؤيدي حزب «الأمة» تستفزهم رؤية مجموعات من السياسيين المصريين تروح وتجيء بالإضافة إلى خطب صلاح سالم والاختراق الذي يتخذ شكل أعمال الإحسان وتقديم السلاح وتسهيلات التدريب.

وعندما عاد السيد علي الميرغني من إحدى زيارته لمصر بعد إقامة طويلة

هودجكن في مشهد من التاريخ السوداني المعاصر



د. فيصل عبد الرحمن علي طه

عندما عاد توماس هودجكن إلى السودان بعد ستة أعوام من الغياب كتب في مجلة «الاسبكتير» في عددها الصادر في الثالث من سبتمبر 1954 يقول «أسعدني أنني وجدت السودانيين ودودين وموفوري الحيوية على النحو الذي أذكرهم به وكان من المبهج أن يرافقني في الباص الذي أقلني من المطار طالب عائد لوطنه من جامعة البنجاب. وقد أوضح لي هذا الطالب أن الحلول لكل المشكلات الأفريقية يمكن استنباطها من مبادئ أولية بيّنة. وابتهجت عندما التقطني من الخان الوضع الذي أنزلني فيه الباص مسلم جاد أبدى أسفه عندما علم أنني غير مؤمن. وقدم لي قبضة من «سعوط» حاد الرائحة. وكان مبهجاً أيضاً الجلوس تحت أشعة الشمس الساطعة في مقهى بالقرب من المسجد الإستماع للأغاني الغرامية المصرية التي كانت تدار بصوت عال على الحاكي .. «أنا سعيد في هذا الصباح الجميل .. أنت حياتي .. وأنا أحب الحياة».

«وخلال ست سنوات من التغيير السياسي السريع صار كثيرون ممن كانوا متواضعين نسبياً عظماء. فقادة أحزاب المعارضة الذين كانت الشرطة تراقبهم يحذروا أصبحوا وزراء كما أصبح الطلاب الواعدون موظفي خدمة مدنية بارزين ومحرري صحف ومحاضري جامعات.. غير أنهم لم يتسموا بالمعجزة أو الجفاف».

«وبينما أنا جالس في المساء في «دار الثقافة» وهي مكان مشير للإعجاب ابتكره دوقلاس نيو بولد حيث يحتسي المرء القهوة ويلتقي بأصدقائه، كنت أستمع إلى سودانيين من ذوي الآراء المتباينة تماماً. من أمة واتحاديين ويساريين ومحافظين وهم يناقشون الحركة النقابية. وقد تساءلت عما جعلهم شديدي العقلانية في توجهاتهم السياسية. ربما يعود هذا جزئياً إلى تقليد المساواة الاجتماعية الراسخ في القرية والأسرة.. وجزئياً إلى فضولهم العلمي الذي حفزه جيلان من المدرسين الجيدين».

هذه الصورة الزاهية التي رسمها هودجكن لسودان سنوات الخمسين من القرن الماضي - عشية الاستقلال - جزء من الوثائق التي ترجمها البروفيسور فيصل عبد الرحمن علي طه لمجموعته من تلك الوثائق البريطانية السرية 1940-1956. وذلك في إطار مساهمته المتميزة في إعدادها. وقد تفضل مشكوراً بإطلاعنا على نصوصها الأصلية بخط يده. حتى يتسنى للقراء الوقوف على مقتطفات منها ريثما تصل إلى أيديهم قريباً.

وجاء في تقرير سياسي بتاريخ السابع من يناير 1955 - غداة سودنة الوظائف - من فيليب أدامز المفوض التجاري للمملكة المتحدة بالخرطوم إلى وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن «ومع السودنة الكاملة للإدارة فقد إنقضى أكثر من نصف قرن من الحكم البريطاني لجزء من أفريقيا يعادل في مساحته كل أوروبا الغربية وآل تصريف عمل الحكومة إلى السودانيين أنفسهم. وقد تم هذا

التحول بسلاسة ملفتة للنظر باستثناء تظاهرة واحدة خطيرة حدثت بالخرطوم. إن السلك السياسي - والذي اعتبر لفترة طويلة كأداة نموذجية للإدارة الاستعمارية - قد صار تاريخاً. والإداريون السودانيون الذين تسلموا مقاليد الإدارة أقبلوا على عملهم بكل همة وحماس ودرجة من الكفاءة نادرة في دول شرق أوسطية.

سجل ديليو اتش لوس في تقرير سري أقوال لداؤود عبد اللطيف الذي كان مديراً لمديرية بحر الغزال يقول فيها إن هناك إشارات لتحول الرأي العام المتعلم نحو اليسار. وإن هذه النزعة ظهرت حتى في أوساط كبار الموظفين السودانيين ورجح أن يكون هذا التحول نحو روسيا كدولة عظمى وليس نحو الشيوعية كنظرية. أما توم برويلي بوزارة الخارجية البريطانية فقد كتب للمفوض التجاري للمملكة المتحدة بالخرطوم بتاريخ الثالث من فبراير 1955 حول أحاديث أدلى بها يحيى الفضلي لعدد من الناس في لندن. ونسب إليه عزم الحكومة على إصدار تشريعات لمكافحة الشيوعية في النقابات إلا أن الرسميين أبلغوه بعدم اقتناعهم بمحاربة الشيوعية عن طريق القوانين. وقد وصف التقرير يحيى الفضلي بأنه شخص مختل ليس من السهولة قبول آرائه بهذا الشأن لأنه قد يبرر ذلك عند الضرورة بأنه جاء كنصائح من بريطانيا. وجاء في التقرير أيضاً أن الحكومة البريطانية فكرت في توجيه الدعوة لفرق من النقابيين السودانيين لزيارتها في ذلك العام إلا أنها أدركت في وقت لاحق أن هذا الأمر لن يكون عملياً لأن رئيس اتحاد العمال وسكرتيره شيوعيان.

وتناولت إحدى الوثائق انتشار الشعور المعادي للغرب في الدول الأفريقية التي يحتلها الاستعمار الفرنسي، الأمر الذي دفع الفرنسيين لمناقشتها مع رصفائهم الإنجليز الذي عبّروا عن وجهة نظرهم للفرنسيين بأنه من غير المتوقع أن يتبنى السودان المستقل نزعات دعوية إسلامية يمكن أن تهدد حدوده الجنوبية والغربية ورأوا أن السودانيين الشماليين محدودو النظر للمقاييس ولا

إلى القاهرة فوصلتها بعد عشرة أيام فقط قبل وصول البريد الذي يستغرق عادة ضعف تلك المدة أو يزيد.. لا يدري أحد كيف حدث ذلك.. ولكن دواوين الحكومة المصرية وشوارع القاهرة أخذت تردّد ذلك الحدث بين التصديق والتكذيب حتّى بلغها رسمياً في 21 نوفمبر.

بعد إنتصاراته السريعة المفاجئة والمتلاحقة بلغ الإمام المهدي بالبلاد أقصى درجات مزاجها الثوري وحرك كيائها المتعطش للحق والعدل. وخلق ألبابها بمواقفه العميقة وطرحه الجديد.. يقف أمام الجموع متحدّثاً بصوته العالي العميق وهي مأخوذة بسمته الأسطوري المهيّب وقوامه الفارع. امتلك الوجدان وأتاح للقوى الحبيسة أن تنطلق لتتجاوز واقع الحياة البائس والرتابة التعيسة.

كانت كلماته البسيطة الموحية تتسرب إلى النفوس الغمأى فتفتح أمامها سوح الأمل.. أشتات الأمة السودانية وأثنياتها المتنوعة -التي تنافرت وفرقت بينها عصبية القبيلة- ها هي تتوحد خلال أشهر قليلة وتقف وراء هذا الإمام الشاب تنشّد مستقبلاً واحداً وترحف لتحقيقه بقيادته الفذة وروح الملهمة ورايانه الخفاقة التي لم تعرف الهزيمة والانكسار. انتصارات أشبه بالمعجزات في زمان تكالبت فيه قوى الإستعمار -وهي في ذروة إستكبارها- على المنطقتين العربية والإسلامية اللتين لفهما ليل دجوجي طويل.. ما ترى من خلاص سوى الفنديل الباهت الضوء الذي كان يتلمس به جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده طريقاً لا يعرفان له أولاً ولا آخر.

كان الإمام المهدي في الظروف التي سبقت حملة هكس في قمة حيويته ونشاطه الدافق -الفكري والسياسي والعسكري- فثابر على كتابة منشوراته التي غدت أدبا متكاملاً لثورته وتجسيدا لفكره المتجدد.. فكان يمارس عباداته الشاقة العميقة.. يعظ ويوجّه ويرشد ويترأس مجالس الحرب المتعاقبة ويخطط للعمليات العسكرية وما يسبقها من تدريبات وإهتمام بالأحوال التشريعية والإدارية - للدولة الجديدة

بالاسكندرية التقى به ديليو. اتش لوس من مكتب الحاكم العام بالخرطوم وقضى معه ساعة من الزمن إستمع خلالها لإنتباعاته عن مصر. وقال له إنه تجنب الحديث عن السياسة السودانية إلا أنه حاول إجراء مصالحة بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر.. إلا أنه من الواضح أن المحاولة قد فشلت ورأى السيد علي في عبد الناصر رجلاً ذكياً جداً ومعقولاً ووصفه بأنه نسخة محسنة من صلاح سالم. ولاحظ أن عواطف السيد علي كانت لا تزال مع محمد نجيب. كان ذلك في يوم 16 يونيو 1955 حيث قام لوس بتسجيل نص المحادثة في تقريره السري.

ويتضح من التقارير التي تناولت أحداث التمرد في جنوب السودان التي وقعت في أغسطس 1955 والبلاد لا تزال تحت الحكم الذاتي برئاسة إسماعيل الأزهرى أن الإداريين البريطانيين كانوا في غاية الإنزعاج وتوقعوا أن تنفقم الأحوال. وقد قدم سير همفري تريفيليان (السفير البريطاني في القاهرة) تقريراً عن إقتراح من صلاح سالم -وهو الوزير المصري المكلف بشؤون السودان- بشأن القيام بإجراء عسكري بريطاني مصري مشترك في جنوب السودان. وقال صلاح سالم إنه وفقاً لمعلومات الحكومة المصرية فإن الوضع في المديريات الجنوبية يتدهور بصورة مفرغة. وقد أظهرت التقارير أنه بعد الاضطرابات التي وقعت في جوبا قر المتوردون إلى الغابة ومعهم 1500 بندقية و80 مدفع برين 200 إستين ونصف مليون طلقة ذخيرة «303» وثلاثة مسدسات وعدد كبير من السيارات. ورد عليه تريفيليان أن معلومات الحكومة البريطانية على النقيض من ذلك وأن الأوضاع تتجه نحو الهدوء. ثم اقترح صلاح سالم أن تتدخل الحكومتان بوضع قوات مشتركة بين القوات الشمالية والمتمردين الجنوبيين. ورد عليه تريفيليان أن الحكومة السودانية قد تستطيع التصرف بدون مساعدة من قوات خارجية وينبغي مؤازرتها في جهودها لاستعادة سلطتها في الجنوب.

سادت المخاوف مكتب المفوض التجاري البريطاني بالخرطوم مع بداية سودة الوظائف فكتب خطاباً إلى وزارة التجارة والصناعة في لندن في 16 فبراير 1954 يعرب فيه عن فزعه للاستبدال الوشيك للموظفين البريطانيين بسودانيين في المصالح المسؤولة عن مشتريات الحكومة فيقول «بالأمس كان لنا نصيب الأسد في التجارة المتصلة بواردات حكومة السودان». ويقترح تقديم أسعار منافسة حيث أن بعض التحقيقات أسفرت عن أسعار غير منصفة فشركة ماكينات «سنجر» كانت تحقق أرباحاً تزيد على 50 في المائة.. وشركة جستنز المحدودة كانت تزود حكومة السودان بالآلات النسخة لسنوات عديدة بسعر- شمل أرباح وكيلها المحلي جلاتلي هانكي وشركاء- يتجاوز 100 في المائة. ويحذر التقرير من أن الأوضاع تمر بمرحلة تغيير لذا فيتمتع على الشركات أن تقدم أسعاراً معقولة وإلا فسوف يقتلون الإوزة التي تبيض ذهاباً.

وفي تقرير بتاريخ 21 نوفمبر 1954 ذكر أنتوني إيدن وزير الخارجية البريطاني أنه التقى برئيس الحكومة السودانية إسماعيل الأزهرى في لندن وأبلغه إهتمامه بأن ترسل شركة النفط الإنجليزية- الإيرانية ممثلين إلى السودان بعد أن تطورت تقنية التنقيب عن النفط. وقد أبلغه الأزهرى أن أفضل الآمال في العثور على النفط تكمن في ساحل البحر الأحمر ومناطق الغرب والجنوب.

شيكان.. المعركة الأسطورية



هكس



الإمام المهدي

وقف لورد فترز مورس أمام مجلس اللوردات البريطاني معرباً عن أساءه وحيرته حول الظروف التي أودت بجيش كامل العدد والعناد يقوده ضباط بريطانيون عظام ففقد عن آخره في براري كردفان في دقائق معدودة وكأنما ابتلعت الأرض أو لمسته عصا ساحر فأزالتة عن حيز الوجود. وقال إن التاريخ لم يشهد منذ أن ابتلع البحر الأحمر جيش فرعون كارثة مثل تلك التي حلت بجيش هكس فأنتى عن آخره وقضى عليه قضاءً مبرماً.

كان الجنرال هكس من النخبة العسكرية المتألقة في العصر الفيكتوري شارك في حملة نامير التي قهرت الهضبة الأنثوية لتأديب الأباطور المتمرد ثيودور. وحين استفحل أمر الثورة المهدية في السودان إنتخب لقيادة ذلك الجيش الذي شهد تلك «المأساة» التي لم تتكرر في التاريخ الإنساني.

كان لانتصار الإمام المهدي على جيش هكس في ضحى يوم الإثنين الخامس من نوفمبر 1883 دوي هائل ردّت أصداؤه السهول والوديان وحملت أنباءه الريح

وحذا حذوه مؤرخون آخرون كالآب أهرفلدر.. إلا أن الصدفة وحدها والتي كانت أشبه بالخيال الروائي - هي التي كشفت عن أهم تفاصيل المعركة، وذلك بالعثور على مفكرة عباس بك سكرتير حكم دار السودان في جيب أحد شهداء كرري بعد خمسة عشر عاماً من معركة شيكان فأزالت كثيراً من خفايا الأمور.

12 نوفمبر 2002م

التي انبثقت تحت ظلال السيوف وأسنة الرماح -والرعاية الشخصية المباشرة التي كان يوليها للآلاف من أنصاره.

وصفه الأب أهرفلدر في كتابه «عشر سنوات في الأسر». والذي تحدث إليه لساعات طويلة وسبر غور ثقافته ومعرفته في أمور اللاهوت بقوله «إن مظهره الخارجي أخاذ للغاية، فهو طويل، قوي البنية، ساحر الحديث، لا تفارق الابتسامة شفتيه، عميق في معارفه»، أما رودولف سلاطين فقد وصف مظهره الخارجي أيضاً بقوله «رجل قوي البنية، طويل القامة، عريض المنكبين، ضخيم الرأس، يلتفت النظر بعينين عسليتين براقنتين، تحف وجهه لحية حالكة السواد وتميَّزه ثلاثة فصوص مائلة في الخدين، دائم الابتسام». أما السودانيون الذين رأوه فكانوا يصفونه ويختمون حديثهم بقولهم «ما بتوصف».

رأت الحكومة الخديوية ومن ورائها لندن أن تحسم الأمور المتدهورة في السودان بجيش لجب يقوده كبار الضباط البريطانيين لوأد الثورة وإعادة الأمور إلى نصابها في السودان. ما أدركوا حجم ما آلت إليه الأمور ولا التأييد الواسع الذي لقيه الإمام المهدي حيث أخذت تهرع إلى مبايعته القبائل والأسر والأفراد بعد أن تخلوا عن ديارهم وأموالهم ليقدّموا أرواحهم فداء للوطن ولتلك الدعوة الجديدة.

إستخدم الإمام المهدي أساليب الحرب الشعبية في القرن التاسع عشر قبل أن تغدو نظريات وممارسات لجنرالات تلك الحروب في القرن العشرين أمثال الجنرال جياپ الفيتنامي ولين بياو الصيني وفيدل كاسترو وجيفارا وغيرهم.. إستخدم أساليب «الأرض المحروقة» و«الشملة تأكل القندول» و«رب شرارة أحرقت السهل كله».

عندما تحركت قوات هكس في تلك الحملة المهولة التي أطلقوا عليها اسم القلعة أعلن الجنرال البريطاني قوله الذي ظل يردده السودانيون إلى وقت قريب

«هذه الحملة يستطيع جنودها أن يسندوا السماء بأسننه البنادق إذا مالت إلى السقوط وتثبيت الأرض إذا مادت بأرجلهم».

تحركت تروس آلة المهدي العسكرية ليوّجه الأحداث حسب مخططه المدروس لمواجهة الحملة في إيقاع وتنسيق رائعين فقد عيّن المهدي قوة من أربع رايات على رأسها الأمير محمد عثمان أبو قرجة والأمير عبدالحليم مساعد والأمير شيخ فضله أحمد والأمير عمر الياس أميرير، وتم انتقاء ثلاثة آلاف فارس من الأبطال المعدودين ليكونوا قواماً لتلك القوة.

عندما أشرفت قوات هكس على التربة الخضراء أطلق المهدي لقواده العنان فانطلقوا بفرسانهم غرباً لينفذوا المرحلة الأولى من الخطة العسكرية على نحو مدهش فأخلوا المنطقة من سكانها وأحرقوا الأرض أمام الحملة بردم الآبار وبالمناوشات المستمرة دون الصدام المباشر الذي حذر المهدي من وقوعه. فأرغقوها وقتلوا من عضدها وافقدوها الروح القتالية لتصل لقمة سائغة فتتخطفها رماح المقاتلين المتعطشين لملاقاة العدو.

كان النشاط في معسكر المهدي بالجزارة - خارج مدينة الأبيض قد بلغ ذروته لرفع كفاءة القوات بالتدريب القتالي تحت الإشراف المباشر للإمام الذي ظل يشدد على الانضباط وروح العمل الجماعي حتى تذوب الروح الفردية والعمل العشوائي الذي يميز سلوك القبائل. ذلك بالإضافة إلى إهتمامه بعمل المخابرات حيث أكدت المصادر أنه في تاريخ المعارك العسكرية لم يتمكن قائد من الإحاطة بالأنباء المفصلة عن الخصم مثل تلك التي حصل عليها الإمام المهدي واستغلها بمهارة لأبعد الحدود.. ووصف المؤرخون ملابس تلك المعركة بأنها كانت أشبه بمباراة للشطرنج حامية الوطيس. كانت غابة شيكان أشبه بمصيدة أبدعت الطبيعة في تشكيلها، مدخل واسع يخزي بالدخول ويتسع لمواجهات الجيش. وعند التوغل فيها مسافة ثلاثة أميال أو أربعة تجد أن الباب قد أغلق من الإمام ما عدا

فتحة ضيقة تواجه طريق كازقيل إلى الشمال. فكأنما قيس الوادي وفصلت الغابة على رايات المهدي الثلاث لتحتله من الأمام واليسار واليمين مسترة بأشجار الغابة تاركة باب المصيدة مفتوحاً ليشقه طريق كازقيل وهو يحمل صفوف المربع المترنحة نحو قلب المصيدة. كان الركن الأساسي لخطة المهدي هو الاصطدام بجيش هكس وهو متحرك ليس قبل ذلك ولا بعده.

إن مجرد تحقيق ذلك النصر الساحق الحاسم على تلك القوة الضخمة في أقل من ساعة دون تفوق عددي يذكر - كما روج المؤرخون الأوروبيون - يؤكد أن الفضل يعود إلى التخطيط الذكي والاستخدام المحكم للإمكانات المتاحة للمهدي.

وصف الرائد (م) عصمت حسن زلفو في كتابه «شيكان» الذي غدا مرجعاً مهماً لتلك المعركة أحوال المقاتلين قبيل اللحظة الحاسمة من المصادر التي توفرت له فقال «كان منهم من يبكي متشوقاً للقاء ربه، ومنهم من ينم، ومنهم من يتكلم بالسريانية»، وجاء في أحد المشاهد الأقرب إلى الأساطير أن إدريس الخندقاوي أحد فرسان راية عمر اليباس كان يتمتع بقوة بدنية خارقة فداهم طاقم أحد المدافع الجبلية التي عادة ما تجرها البغال - وأزاحهم عن المدفع وتسربل بسلسله ولفها حول صدره وسحبه بعيداً خارج الميدان وعاد ليواصل خوض معركته. أما الأمير حمدان أبو عتجة أحد قادة الهجوم الأساسيين «فقد قتل لسنوات طويلة إذا استعاد ذكرياته عن معركة شيكان لا يذكر أنه كان يسمع شيئاً أو أنه قتل أو جرح جندياً من قوات هكس.. إلا أنه عند انتهاء المعركة وجد رمحه وثيابه ملطخة بالدماء، فقد مرت تلك اللحظات العنيفة، وكأنما احتكرت الأيدي القابضة على السيوف كل الأحاسيس فلم تترك لبقية الحواس شيئاً لتسجله في العقول والذاكرة».

وانفرد الجنرال ونجت بتقديم أول وصف للمعركة بعد استجوابه جنوداً أسرى قاتلوا في صفوف جيش هكس فحاول أن يبرر الهزيمة ويقلل من شأن الانتصار،

المندوب السامي البريطاني بمصر باستثناء الأمير عثمان دقنة الذي ظل مقبداً حتى يوم وفاته في عام 1926.

وجاء في التقرير السنوي للإدارة البريطانية في عام 1907 تبرير لاستمرار اعتقال الأسرى بأنهم قد يستجيبون للتعصب أو لجنوح اتباعهم فيعودون مرة أخرى إلى المهديّة ويزعجون بذور التمرد والخروج على الطاعة من جديد. والواقع أن هذه الإجراءات جاءت متسقة مع خطط الإدارة البريطانية في اجتثاث الحركة المهديّة وحرمان الأنصار من قياداتهم الشّعبية وإحباط روحهم المعنوية، الأمر الذي مكن الإنجليز من القضاء على الانتفاضات التي رفعت لواء الثورة المهديّة خلال العقدين الأولين من القرن العشرين. إلا أن الحكام الغزاة فشلوا في تحقيق الهدف الرئيسيّ بزراعة إيمان الأنصار الراسخ بعقيدتهم فعندما أرادوا منعهم من قراءة «راتب الإمام المهدي» وجدوا أنهم يحفظونه في صدورهم فلم يتمكنوا من انتزاعه منها. وفي هذا الإطار حاولت التأثير على أبنائهم بإلحاقهم بالمدارس النظامية الحديثة ومن ثمّ في وظائف حكومية تمكّنهم من الانخراط في الحياة العملية ونسيان الدعوة الدينية استعداداً لتلقي الثقافة الإنجليزيّة. وقد خصّصت لهم مدارس في رشيد وحلفا معزولين عن أقرانهم من أطفال المسلمين. وتلقّى بعضهم التدريب العملي في القلعة كسروجية وتجارين وأرسلت عدداً لدراسة الزراعة في مزرعة نموذجية في ميت الديبة قرب مدينة طنطا بإشراف أحد موظفي الجمعية الزراعيّة الخديوية. وهناك درسوا الزراعة والمساحة وبعض مبادئ الطب البيطري واللغة العربيّة والحساب. وفي خلال العطلات الرسميّة كانوا يتوجّهون إلى سجن دميّاط لزيارة قويعهم. وبعد إكمال دراستهم عمدت الحكومة إلى ترحيلهم إلى السودان حتّى لا يتأثروا بشعارات وأفكار الحركة الوطنيّة المصريّة. وشجعت الإدارة البريطانيّة آخرين من أبناء الأمراء على الدراسة المجانية بمدارس أم درمان وود مدني وكلية غردون وعملت على إشتغالهم في الوظائف الحكوميّة. كما درست

سجناء الضمير من أنصار الثورة المهدية

حين تحرك جيش الغزو البريطاني نحو السودان بقيادة الجنرال كشر كان رودولف سلاطين الذي عاد يصحبهم مستشاراً للمخابرات أكثرهم تحرقاً للثأر. فقد مكث في أسر الخليفة سنوات حتى تمكن من الفرار إلى مصر. كانت تملكه مشاعر الحقد وروح الانتقام. فكان يتفرس في وجوه الأسرى عقب كل معركة أثناء الزحف.. عله يتعرف إلى من يتمنى العثور عليهم. وكان موسى الكاظم تعيش الحظ حين وقع أسيراً عقب إحدى المعارك فسعد سلاطين وتهلل وجهه. فالكاظم كان قد أجرى له عملية الختان عقب إعلانه إسلامه، حيث وفد إلى المهدي في كردفان مستسلماً في حركة مسرحية.. باحثاً عن خلاصه الشخصي بعد أن أحس بأن دارفور، التي كان يديرها، لا شك في سقوطها. لم يتردد سلاطين لحظة في الأمر بتعذيبه فأشار بنسف لحية الرجل وشاربه شعرة فشعرة ثم قتله وأضرم النار في جثته. وبهذه الروح واصل الزحف إلى أم درمان. وبعد معركة كرري مباشرة أخذ يبحث بحثاً محموماً عن من تبقى من القيادات التي نجت من المذبحة. واقتاد الذين تم العثور عليهم في مساء نفس يوم المعركة إلى ساحة الإعدام غرب مدينة أم درمان - ميدان الربيع الحالي - وجرت عمليات تصفية جسدية شاملة - لم تشف غليله - ولم يستطع أن يخفي خيبة أمله من مغادرة الخليفة عبدالله، للمدينة فنصح بتعبه فوراً إلا أن الحملة فشلت في مسعاها وارتدت خالبة. وبعد عام تمكن ونجت من القضاء على الخليفة عبدالله، والخليفة علي ودخلوا، والصدیق بن الإمام المهدي، والأمير أحمد فضيل، وهارون محمد، أخي الخليفة، واثنين من أبناء الخليفة وأمرأه آخرين وعدد من الجنود. في ذلك المشهد الأسطوري الذي لم يملك الجنرال نفسه إلا أن يعترف بعظمته وجلاله. وفي الشكابة بالجزيرة تحرشت قوات الغزو

بمجموعة الخليفة شريف وأقامت لهم محاكمة ميدانية عاجلة قضت بإعدامه مع ابني المهدي . الفاضل والبشري . وأثقلت جثثهم بالحجارة وألقت بها في النيل . بينما دفنت جثث القتلى الآخرين . ومن لم يقتل أو يجرح من صغار أبناء المهدي - عبدالله، والطاهر، ونصر الدين، وعلي - فقد اقتيدوا للأسر بأمر درمان ومن ثم أضيف إليهم أسرى أم ديكرات . وقررت السلطات البريطانية ترحيل عائلات المهدي وخلفائه الثلاث وعدد من أمراء النعاشية إلى المعتقل في رشيد بمصر .

عُثرت على عدد لمجلة «الهلal» المصرية - صدر في ديسمبر 1899 - وصف فيها أحد الكتاب وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر . والمقال يمتلئ بالأخطاء التاريخية وينم عن جهل فاضح بما كان يجري في السودان من أحداث كانت مصر جزءاً أساسياً منها . ويقيني أن الكاتب استقى هذا الوصف من إحدى الصحف الصادرة في عام 1899 . فتحسّ اللغة - لم يتصرف فيها - تركها كما هي - لغة القرن التاسع عشر بضعفها وركاكتها . إلا أن بعض ملاحظاته جديرة بالنظر . فقال «وفي الساعة العاشرة من مساء 27 ديسمبر 1899 وصل إلى القاهرة أسرى الدارويش البالغ عددهم مائة وخمسون أسيراً ورحلوا فوراً إلى معتقل رشيد . وكان في مقدمتهم الأمراء الذين سلموا أنفسهم في واقعة 24 نوفمبر 1899 أحياء يوم قتل النعاشي وزالت دولته من الوجود . ومن الذين أحضروا الأمير شيخ الدين بن الخليفة عبدالله والأمير يونس الدكيم والأمير محمد زين والأمير محمد فرفار وعدد كبير من النساء والأطفال» . ولاحظ الكاتب أيضاً «أن الأمراء كلهم أصحاب شمم . وللتعاشي بنات أسيرات وهن على جانب عظيم من الجمال والاحتشام، ببشرة حبشية اللون والرجال يحتقرون من يحلقون لحاهم ولا يرتدون العمامة . وتمسكهم بالدين عظيم ولا يسبغون على المذاهب الأربعة» .

ويبدو أنهم وصلوا في الأيام الأخيرة لشهر رمضان فكانوا صائمين . فقال إنهم في فجر يوم عيد الفطر ارتدوا ثياباً بيضاء نظيفة ووقفوا للصلاة يؤمهم أحد كهول

الأمراء. فأخذوا يطيلون الركوع والسجود حتى استغرقت الركعتان أكثر من ساعة من الزمن. تزامنت تلك المشاهد مع وصول الأمير عثمان دقنة الذي أعقل في شرق السودان بعد أن بارح منطقة أم ديبكرات قبيل المعركة بقليل، فجيء به عن طريق البحر الأحمر إلى ميناء السويس. فوصفه الكاتب أيضاً بأنه كان طويل القامة، متوسط الحجم، أبيض اللون، عريض الوجه مستديره، تحيط به لحية عظيمة، تعبر ملامحه الواضحة عن سمات الذكاء والشجاعة. وكان يرتدي ثوباً التف به من كتفيه حتى قدميه - كمادة أهل السودان - وعمامة كبيرة على رأسه. وفي أثناء ترحيله من الباخرة إلى عربة السكة الحديد إحتشد جمع غفير من الأوروبيين الذين طالما تابعوا الصحف الإنجليزية التي نوهت ببطولاته واختراقه لمربع الفرسان البريطاني - فتدافعوا نحوه يسلمون عليه وامنت إليه عشرات الأيدي. فأخذ يصافحهم فرداً فرداً ويتحدث إليهم بكل بشاشة وترحاب.

لقي هؤلاء الأسرى معاملة قاسية من قبل السلطات البريطانية التي كبلتهم بالقيود الحديدية بدعوى أنهم يشكلون تهديداً خطيراً، إلا أن الصحافة الوطنية المصرية كشفت ظروف اعتقالهم واتهمت الإدارة البريطانية في مقالات عديدة نشرت في «الأهرام» و«المنبر» و«اللواء» و«المؤيد» بسوء معاملة الأسرى وأحدثت ضجة كبرى في هذا الشأن. واهتم النائب البرلماني البريطاني بريلز فورد بالقضية وكتب مقالات حادة اللهجة بصحيفتي «ديلي نيوز» و«نيشن»، وذلك عقب زيارته لسجن دمياط في 25 مارس 1908 حيث قابل بعض الأسرى من الأمراء، واستمر بريلز فورد مع عدد من رفاقه البرلمانيين الليبراليين في التحري عن أحوالهم والمطالبة بإخلاء سبيلهم.

وكان لمناخ البحر الأبيض المتوسط البارد تأثيره الضار على أحوال الأسرى الصحية فتوفي بعرض السل أبناء المهدي الصغار عبدالله والطاهر ونصر الدين. كما توفي الأمير محمود ود أحمد في عام 1906 ولحق به آخرون من بينهم بعض النساء. وظلوا يرسفون في قيودهم حتى عام 1909 حين أزيلت عنهم بتوجيهات من

إعادة افتتاحها بإشراف وتوجيه معلميه المصريين، أما التاتو، فقد كانت محاولة لمسرحية معركة كرري كعمل سياسي دعائي تم عرضه في عام 1899 للإشادة بانتصار الجيش الإنجليزي في تلك المعركة. وفي عام 1903 شهدت ساحة المولد النبوي الشريف في رفاعة مسرحية قصيرة ألفها الشيخ بابكر بدري وقدمتها مدرسة رفاعة. أما التجربة الرائدة فقد كانت مسرحية من تأليف مأمور المركز المصري بالقطية عبدالقادر مختار، كان ذلك في عام 1908 وكانت بعنوان «نكتوت». ولعلها أول مسرحية سودانية طويلة تعرض في السودان، باللهجة العامية وتدور أحداثها في «إنداية» لامرأة تدعى نكتوت وقام بالتمثيل تلاميذ المدرسة الابتدائية، وكانت تهدف إلى تهذيب الأخلاق ومحاربة بعض العادات السلبية. ويكون بذلك هذا الرجل المصري قد سبق جماعة المؤلفين السودانيين الذي قدموا في أوقات لاحقة مسرحيات مستقاة من البيئة السودانية، وفي الوقت نفسه كان النادي المصري بالخرطوم يمارس نشاطاً مسرحياً. فقد نشرت صحيفة السودان في أول خبر لها عن عرض مسرحي عربي بالسودان، في عام 1909 بعنوان «هزوات الملوك» وهي رواية أدبية أخلاقية وضعها الأديب عبدالعزيز أفندي حمدي من موظفي مالية السودان مثلت بالنادي المصري في الخرطوم. وما ألفت الساعة الثامنة مساء الخميس الماضي حتى أم جمهور غفير من كبار الضباط والموظفين الإنجليز والمصريين والسوريين دار النادي وأجاد الممثلون في تشخيص أدوارهم مما دعا إلى سرور الحاضرين، وانفرط عقد الجمهور وكلهم يشي على حضرة واضع الرواية وحضرات الممثلين. ويلاحظ أن الجمهور السوداني كان غائباً عن حضور أول مسرحية طويلة تعرض على مسرح في السودان. أما جمعية التمثيل والموسيقى السورية فقد تألقت من خلال أعمالها التي كانت تقدمها في مسرح السرور، بالخرطوم جنوب مبنى البريد والبرق. وكان يديره الخواجة لويزو، بجانب قهوته الشهيرة، وقد نقلت الجمعية نشاطها إلى أم درمان في عام 1912 على مسرح خشبي

مصلحة السكة الحديد مجموعة من أبناء هؤلاء الأمراء بورشها في حلقة بالإضافة إلى تدريبهم على النجارة وحلج القطن وغيرها من المهن. وقد تم نقلهم جميعاً إلى عطبرة عام 1908 عندما تأسست رئاسة السكة الحديد. وفي عام 1908 اقترح الجنرال ونجت ترحيل الأسرى سرّاً من دمياط إلى حلقة حتى يكونوا بمنأى عن ملاحقة الصحافة المصرية وعبّون البرلمانيين البريطانيين. إلا أنهم بناء على نصيحة سلاطين الذي تم تعيينه مؤقتاً عاماً على السودان منذ سبتمبر 1900، فقد تم ترحيلهم بصورة علنية بدعوى أنهم يشكون من رطوبة الطقس في مصر ويطالبون بالترحيل إلى منطقة أخرى.

أثمرت الحملات التي شنتها الصحافة الوطنية المصرية والصحافة الليبرالية البريطانية لتحسين أوضاع المعتقلين وإطلاق سراحهم في حمل سلطات الغزو على تحسين ظروف الاعتقال وتوفير الرعاية الصحية لهم، كما بدأت في الإفراج عنهم تدريجياً مع تحديد المناطق التي ينبغي أن يتواجدوا فيها. ولما رأت الحكومة أنه بات من المستحيل أن يتمكن هؤلاء الأسرى الملاحقون، وخاصة أفراد أسرني المهدي والخليفة من توفير العيش الكريم لأنفسهم بصورة عادية بسبب القيود التي فرضتها عليهم أحسّت أنها ملزمة أخلاقياً بمنحهم مخصصات شهرية. وكان سلاطين الذي بات مسؤولاً عن كل المسائل المتعلقة بالدين، قد حدّد في البداية حجم تلك المخصصات، ثم ما لبثت الحكومة أن قرّرت زيادتها.

وفي عام 1919 قسمت الحكومة سجناء الأنصار السياسيين إلى ثلاث مجموعات.. الأولى تكونت من 77 أميراً بينهم يونس الديكيم والختيم موسى ومساعد فيدوم وإبراهيم مخير، وقد أخلّى سبيلهم جميعاً ورفعت عنهم الرقابة الأمنية وسمح لهم بالعيش في أي بقعة يرغبون في البقاء عليها. أما المجموعة الثانية وتكونت من 19 شخصاً من أفراد عائلة المهدي وفي مقدمتهم السيد عبدالرحمن فقد فرضت عليها قيود خاصة واستمرت مراقبتها أمنياً. ذلك بالإضافة إلى المجموعة الثالثة التي

أطلق عليها لفظ المتطرفين، وقد ضمت خمسة أشخاص على رأسهم السيد علي عبدالكريم.

لقد بذل البروفيسور حسن أحمد إبراهيم مجهوداً مقدراً في كتابه «الإمام عبدالرحمن المهدي» وأفرد الفصل الأول منه لهؤلاء الأسرى بعنوان «سجناء الضمير من المهديين»، فبحث في كثير من الوثائق البريطانية والتقى منذ سنوات السبعين ببعض هؤلاء الأسرى الذين روى له أطرافاً من تجربتهم تلك التي لم يسلط التاريخ أضواءه عليها كثيراً.

9 يوليو 2002



الأمير عثمان دقنه في سجنه

بدايات الحركة المسرحية في السودان

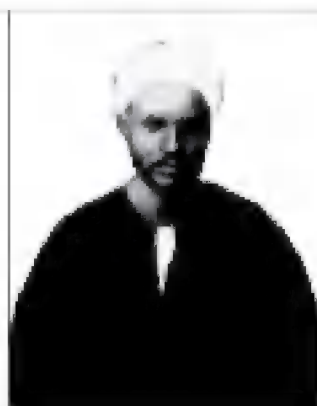
مما لا شك فيه أن المجتمعات السودانية عبر التاريخ كانت قد شهدت ضروباً من الفن المسرحي غير ذلك الذي يقوم الآن على الأسس المسرحية الغربية «أو المسرح الإغريقي إن شئنا القول، فالإحتفالات الطقسية في المعابد النوبية القديمة وإحتفالات مواسم الحصاد التي تحتشد بأنواع مختلفة من الرقص والأغاني هي مشاهد نستطيع أن نصفها بالمسرح الإحتفالي. ومازالت مناطق عديدة في الأرياف والبهادي السودانية تقدم نماذج إحتفالية ذات أنماط مسرحية جديدة بتأمل النقاد والمتابعين للفنون المسرحية. وفي العصر الحديث ارتبطت نشأة المسرح في السودان بنشأته في الشام ومصر.

كان مارون النقاش اللبناني أول من قدم مسرحية بصفة جادة في منزلة ببيروت في أواخر عام 1847 وهي مسرحية بعنوان «البخيل»، وقد يكون قد اقتبسها من «بخيل» موليير، ثم انتقل المسرح من بيروت إلى دمشق على يد أحمد أبو خليل القباني الذي اضطر للهجرة إلى القاهرة بعد أن أغلق الوالي التركي مسرحه. وكان فنه يجمع بين التمثيل والموسيقى والغناء الأمر الذي شكل بدايات للتشيخ سلامة حجازي وسيد درويش ومنيرة المهدية الذين أثروا المسرح الغنائي في مصر. وبعد القباني جاء يعقوب صنوع اليهودي المصري، ثم سليم النقاش وكانوا كثيراً ما يتعرضون لسخط الخديوي فيأمر بإغلاق مسارحهم.

وفي مدرسة الخرطوم الابتدائية التي أنشأها الخديوي عباس وأُسند إدارتها للمفكر المجدد رفاعة رافع الطهطاوي بدأت محاولات مسرحية جنينية. وتؤكد المصادر أن أول عرض مسرحي قدمه طلاب هذه المدرسة في عام 1880 - بعد

البدايات الأولى للصحافة السودانية

حسين شريف رائداً ومؤسساً ومفكراً



لا يتناول مؤرخ تاريخ الصحافة السودانية إلا ويستهلّه بالحديث عن الصحفي الأول حسين شريف.. فقد برز مهنيًا ناضجًا وكاتبًا ومفكرًا وسياسيًا ذا بصيرة نافذة حيث أصدر أول صحيفة سودانية لحماً ودماً في عام 1919، هي صحيفة «حضارة السودان». ظل حسين شريف مهتماً بالشأن السوداني منذ نعومة أظفاره، ولا غرو فهو أحد ورثة قيادة الثورة المهدية، فأبوه الخليفة محمد شريف حامد، الخليفة الثالث للإمام المهدي، وأمه السيدة زينب بنت الإمام المهدي.

وقد إشهد والده برصاص الإنجليز عقب الفتح عام 1899 في الشكابة، فنشأ يتيمًا إلا أنه ظل قريب الصلة بخاله السيد عبدالرحمن المهدي. وفي عام 1915 اتهمته السلطات البريطانية بممالأة الخلافة العثمانية وقامت بنفيه إلى منقلا بجنوب السودان لفترة من الزمن عاد بعدها إلى الخرطوم ليمارس نشاطه الصحفي الذي بدأ في صحيفة «رائد السودان». وعندما أصدر صحيفة «حضارة السودان» في عام 1919 دشن بها البداية الحقيقية للصحافة السودانية، وفي تلك الصحيفة كتب أربعة مقالات خطيرة حاول فيها تحديد مستقبل السودان، كانت تلك الأيام تشهد

في حوش منزل الخواجة فواز غرب مدرسة أم درمان الأميرية. وواصل هذا الخواجة تقديم المسرحيات في داره حتى نهاية الثلاثينات وربما بعدها. والمعروف أن صديق فريد كان يمثل على خشبة هذا المسرح مع جماعته أثناء سنوات العشرين وما بعدها. كما قدم فيه يوسف وهبي عروضه وكذلك بديعة مصابني مع فرقها للرقص والاستعراضات وما يصاحب ذلك من مولودجات. ومن بين ما قدمته الجمعية السورية مسرحية «آثار العرب»، لتجيب الحداد السوري الجنسية، وهو زعيم مدرسة التعريب ومؤلف مسرحية «صلاح الدين الأيوبي»، التي اشتهر بها صديق فريد في السودان، كما اشتهر بها سلامة حجازي في مصر. وكان فريق من الخريجين السودانيين قد تأثروا بهذه الفرق المسرحية الوافدة على الرغم من أن النادي المصري قد توقف نشاطه المسرحي بعد ثورة عام 1924 حيث تم إخلاء المصريين من السودان. فقد أنشأ الخريجون، جمعية التمثيل، التي ضمت صديق فريد وعبدالرحمن علي طه وحوض مباتي وطه صالح وإسماعيل فوزي وعلي بدري وأيوبكر عثمان وشوقي الأسد وعبدالرحمن شوقي. وقد شاركت جمعية التمثيل في الدعوة إلى الاكتاب لتأسيس المدرسة الأهلية بأم درمان وذلك من خلال العروض التي قدمتها في أقاليم السودان المختلفة. ففي عام 1931 قدمت الجمعية مسرحية «صلاح الدين الأيوبي»، بمسرح نادي الخريجين بالأبيض حيث أسندت البطولة لعبد الرحمن علي طه، وشارك في التمثيل مكاوي سليمان أكروت وإبراهيم يوسف سليمان ومكي عباس وخضر حمد ويوسف مصطفى التني وأمين بابكر وحسن زيادة، وفي معظم الأحوال يرتبط النشاط المسرحي بالعمل السياسي. وكان علي عبداللطيف وعرفات محمد عبدالله غير بعيدين عن هذا النشاط. أما صديق فريد فيعتبر الرائد الأول للمسرح السوداني الحديث حيث استطاع تكوين حركة مسرحية إلتف حولها الجمهور السوداني منذ حوالي عام 1918 وواصل نشاطه هذا حتى حوالي منتصف الثلاثينات.

وفي أواخر تلك الفترة عمل على توجيه الفرق الناشئة وإرشادها. أما جماعته التي أنشأها فكانت تتبدل وتتغير بسبب التنقلات أو الخلافات أو ظهور الوجوه الجديدة التي كان يرعاها ويصقل موهبتها. وقدم صديق فريد خلال نشاطه المسرحي عدداً من المسرحيات منها: الفارس الأسود، وتاجر البندقية، ووفاء الغانيات، والقبلة القتالة، والتوبة الصادقة، ويوليوس قيصر وفي سبيل التاج، وصلاح الدين الأيوبي، وقران البندقية، وعطيل، ومجنون ليلى، والعباسة، ووفاء العرب، والمرودة والوفاء، وعنترة. وكل هذه المسرحيات كان قد تمّ تقديمها في مصر والشام وأعاد هو إخراجها في السودان. وذلك قبل أن يبرز الكتاب المسرحيون الذين تناولوا الحياة السودانية في نصوصهم كإبراهيم العبادي وخالد أبو الروس و سيد عبدالعزيز وأحمد عباس، رؤاد المسرح السوداني الأصيل الذين ارتكزت أعمالهم على تراثنا وقوميتنا ولهجتنا ونقاليدنا.

تلقى صديق فريد، واسمه الكامل محمد صديق عثمان فريد، تعليمه في كلية غردون التذكارية في أول قسم فيها أنشئ للمعلمي اللغة الإنجليزية والعربية والعلوم الحديثة، أي أنه نال أعلى تعليم في زمانه، وتخرج منها عام 1912. وكان من بين الذين تخرجوا معه محمد الحسن دياب وعبدالكريم محمد وحمزة فتحي حسين. وكان شخصية صديق فريد المتعلم المثقف التي ولجت باب المسرح قد رفعت من شأن التمثيل خلافاً لما كان سائداً في العالم العربي من إزدراء للمثل ونعت له بالمشخصاتي. وصفه معاصروه بأنه كان طويل القامة، متكامل البنیان، ولاعب كرة ماهراً في شبابه، ذا ملامح واضحة معبرة أسمر اللون مرحاً وساحر الشخصية سريع البديهة، فلماً وقلباً شجاعاً جريئاً لا يكثرث كثيراً لما يرتكب من أخطاء. وقالوا إنه كان واضح النبرات، جهير الصوت، باختصار أنه كان ممثلاً من الطراز الأول، وكان ضليعاً في اللغة الإنجليزية، إلى الدرجة التي كان يعتقد رصفاءه أنه حفظ القاموس الإنجليزي عن ظهر قلب، وكان يجري التدريبات المسرحية في منزل

أسرته الواقع شمال مدرسة أم درمان الأميرية، ويتم عرض أعماله في مسارح نادي الخريجين أو الخواجة فواز أو مدرسة أم درمان الأميرية أو نادي الضباط الوطنيين بالموحدة. ولم تقتصر عروضه على العاصمة بل كانت الفرقة تنتقل أحياناً إلى عطبرة وبورتسودان والأبيض وغيرها من المدن الإقليمية.

ولد صديق فريد بأم درمان عام 1887 لأب عاصر ثلاث حقب من تاريخ السودان وهي التركية والمهدية والحكم الثنائي. وكان ذلك الأب قد نال قسطاً من التعليم أثناء الحكم التركي بمدرسة الخرطوم مما أهله لأن يتم اختياره معلماً لأبناء الخليفة عبدالله وغيرهم من أبناء الأمراء، يدرسه مبادئ الحساب وكتابة نصوص الرسائل. وعمل أثناء الحكم الثنائي موظفاً بالمالية إلى أن وافاه الأجل المحتوم بعد عمر مديد في عام 1921 إلا أنه كان قد تعرض للإعتقال في عام 1917 بتهمة تأييد دول المحور في الحرب العالمية الأولى. وربما يعود ذلك لأصوله التركية. وقد لعب عدد من أبنائه دوراً في الحياة السياسية والاجتماعية بالسودان.

وقد ذكر بعض المصادر أنه لأسباب غير معروفة قرّر صديق فريد فجأة الهجرة إلى أريتريا في بداية الحرب العالمية الثانية ومكث هناك إلى أن توفي متأثراً بالالتهاب الرئوي عام 1941 وهو في سن الرابعة والخمسين، وأشارت إلى أن مكان قبره مجهول، إلا أن الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه أكد أن صديق فريد كان قد التحق بقوة دفاع السودان منرجماً وعمل معها في جبهة أريتريا حيث توفي ودفن في المقبرة الحربية الإنجليزية بأسمره، وقد زار قبره وقرأ الفاتحة على روحه عند زيارة له لأسمره في عام 1963، ووجد مكتوباً على شاهد القبر بالإنجليزية «صديق فريد، مترجم».

10 أبريل 2001م

العادات الاجتماعية السلبية. لَمْ تلبث صحيفة «حضارة السودان» أَنْ انغمست في نشاط سياسي سافر لتقف ضد الداعين للوحدة مع مصر وتصدى حسين شريف في مقالته للصحافة المصرية والدعوة للإتحاد تحت التاج المصري.

في عام 1927 وبعد ثلاث سنوات من أحداث الثورة، تقدّم الشيخ عبدالرحمن أحمد، المعلم بمدرسة الخرطوم الابتدائية للتصديق له بإصدار مجلة أدبية إلا أن طلبه ووجه بالرفض. وفي نفس العام تقدّم سليمان داود مندبل صاحب مطابع «مندبل» بطلب لإصدار صحيفة باسم «الجريدة التجارية» فحصل على الموافقة وفي عام 1930 وضعت الحكومة قانوناً للصحافة وصدر رسمياً في سبتمبر من ذلك العام. وبعد صدوره مباشرة تقدّم محمد عباس أبو الريش بطلب لإصدار مجلة «النهضة السودانية» التي كانت تصدر مكتوبة بخط اليد تتناولها مجموعة من الأصدقاء وبعد صدورها في ثوبها الجديد أخذ يكتب فيها محمد أحمد محجوب وإسماعيل العتياني وعبدالحليم محمد ومحمد عسري الصديق وغيرهم من شباب الكتاب الذين برزوا في الثلاثينيات. ولَمْ تمض سوى أشهر قليلة حتّى مرض صاحبها أبو الريش وظلّ يشرف عليها محمد أحمد محجوب وعرفات محمد عبدالله. ولَمْ تعمر النهضة طويلاً بعد وفاة أبو الريش فتوقفت بعد أربعة عشر شهراً من صدورها.

بعد «النهضة» إنتقلت الصحافة السودانية إلى المعترك السياسي وصدرت مجلة «الفجر» لصاحبها عرفات محمد عبدالله واستطاعت أن تملأ الفراغ في الساحة الثقافية والفكرية واحتضنت عدداً من الأقلام وخاصة تلك التي شاركت في تحرير «النهضة».

بعد بروز الأحزاب السياسية في النصف الثاني من الأربعينيات أصدرت صحفها المعبرة عنها، كما صدر عدد من الصحف المستقلة، وأخذت الصحافة السودانية تنشق طريقها خلال السنوات الأخيرة للإستعمار مستشرفة العهد الوطني.

تطورات ثورة 1919 المصرية. وكانت تصريحات قادتها السياسيين حول السودان ومستقبله تستدعي حواراً تشارك فيه جميع الأطراف المعنية. إلا أن مستوى الوعي السياسي كان دون الطموحات المتعلقة بمثل هذا الحوار. كان القادة السياسيون المصريون يتحدثون عن استعادة السودان ووحدة البلدين تحت الناج المصري، وبعضهم كان يتحدث عن حق الفتح، فانقسم السودانيون بشأن تلك الروى وبرز تياران أحدهما رأى مستقبل السودان في وحدته مع مصر، والآخر دعا لانفصاض شراكة الحكم الثنائي وانفراد إنجلترا بالسلطة ريثما يشتد ساعد الوطنيين السودانيين فيتولون شؤون أنفسهم مع علاقة متميزة مع مصر. وكان حسين شريف منظرًا للفريق الثاني ومدافعاً شرساً عن ذلك المعسكر حتى وفاته المبكرة في 1928، إلا أن أفكاره باتت أساساً نظرياً لما عرف فيما بعد بمعسكر الاستقلاليين. ظن البعض أن حسين شريف من صنائع الاستعمار إلا أن سلطات الاحتلال كانت ناقمة عليه في الواقع حيث كانوا يحذرون السيد عبدالرحمن المهدي بأن «ابن أختك هذا سيقودك يوماً إلى حبل المشنقة» رأت فيه زعيماً وطنياً محتملاً يخشى جانبه.

أوعز اللورد كرومر لأصحاب صحيفة «المقطم» المصرية، وهم يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس بأن يصدروا صحيفة في السودان، وكان هؤلاء الثلاثة لبنانيين يمثلون «دار المقطف» التي بدأت نشاطها في بيروت ثم انتقلوا بالمجلة إلى القاهرة في عام 1885. كانوا قريبين من الإنجليز، إستمالهم اللورد كرومر لضرب الصحافة الوطنية في مصر مثل «الأهرام» لذا بدأت الصحيفة الأولى في السودان وثيقة الصلة بالإدارة البريطانية، أجنبية في كل ما يحيط بها من مظاهر. جاءت لخدمة النظام الجديد. ففي عام 1903 حين صدرت بالخرطوم كان السودانيون خارجين لشوهم من ظروف عصية مشخنين بالجراح بعد أن هزمت دولتهم، تحيط بهم الكوارث السياسية والاقتصادية والاجتماعية من كل جانب. كان تعدادهم لا يتجاوز المليون وثمانمائة ألف بكثير.. لا حظ لهم في التعليم

المدني الحديث ولا أساليب الحياة العصرية التي تسارعت خطواتها في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. جاء الشركاء الثلاثة بإمكاناتهم الصحفية فاستوردوا المطبعة وأسندوا مهمتها لعمال مصريين ورئاسة التحرير لشاهين مكاريوس ومن بعده لخليل ثابت. وصدرت صحيفة السودان بانتظام ابتداء من أكتوبر عام 1903 نصف أسبوعية ولم تلبث أن أصبحت أداة التعبير الوحيدة لحكومة الاحتلال. وأنشأت أول مكتبة للصحف الأجنبية والأدوات المكتبية والمطبوعات، وهي مكتبة «سودان بوكشوب».

بعد إنتعاش الأحوال الاقتصادية وتخرج عدد من السودانيين في كلية غردون والمدارس الحديثة الأخرى ليكونوا رأياً عاماً أنشأ اليونانيان المقيمان بالسودان ساولو وخريستو عام 1911 مطبعة تجارية في الخرطوم، هي مطبعة فكتوريا. ثم حصلوا على موافقة بإنشاء صحيفة باسم «سودان هيرالد» ناطقة باللغتين اليونانية والإنجليزية لتخاطب جاليتها والأجانب الآخرين. إلا أن بعض المهتمين بالأدب من سوريين ومصريين وسودانيين اتصلوا بصاحبها مقترحين إصدار ملحق باللغة العربية يعنى بالأدب العربي وقد كان. فصدرت صحيفة «رائد السودان» لتصبح ثانية صحيفة في تاريخ السودان ولتلعب دوراً بارزاً في النهضة الأدبية والفكرية. وتولى تحريرها الأديب والشاعر السوري عبد الرحيم مصطفى قليلات، الذي كان يعمل في مصلحة سكة الحديد السودانية. ووجد الجيل الذي قامت على أكتافه الحركة الأدبية والصحفية السودانية في بدايتها مجالاً لنشر أعماله الشعرية والنثرية والتقى على صفحاتها خريجو المدارس الحديثة بالجيل الذي عاصر الثورة المهدية حيث كتب فيها محمد عمر البنا مفتش المحاكم الشرعية، وأبو القاسم هاشم شيخ العلماء وبابكر بدري وعمر الأزهرى. أما جيل الكتاب من الخريجين فقد ضمَّ عبدالله محمد عمر البنا وعبدالله عبدالرحمن الأمين وأحمد محمد صالح، وتوفيق صالح جبريل. كان قليلات رجلاً جريئاً ذا مروءة وكان لا يخفى تعاطفه مع تركيا

ودول المحور بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، فوجدت عليه السلطات البريطانية. وعندما كتب مقالاً حول مجاعة كانت قد اجتاحت البلاد شن هجوماً على الحكومة وعقد مقارنة بين معاناة الأهلين من الفقر وسظف العيش وما يرفل فيه الحكام المستعمرون والأجانب من نعيم فتم اعتقاله وإبعاده عن السودان إلى مصر مخفوراً.

لَمْ تعمّر «الرائد» بعد إبعاد قليات طويلاً فقد توقفت عن الصدور في عام 1918، إلا أنها سجّلت انتصاراً للسودانيين قبل أن تتوقف، حيث ألت رئاسة تحريرها لأول صحفي سوداني هو السيد حسين شريف. وعندما أدرك حسين شريف أن رائد السودان ستتوقف عن الصدور نشر فيها مقالاً بعنوان «شعب بلا جريدة قلب بلا لسان»، ناشد فيه السودانيين بالاككتاب لشراء مطبعة وإصدار جريدة ناطقة باسمهم تنشر أفكارهم وإنتاجهم الأدبي، وقد تحققت دعونه بصدور حضارة السودان في 28 فبراير 1919 كأول صحيفة سودانية ملكية وتحريراً وقراء. في تلك الفترة صدرت أيضاً مجلة «السودان» في رسائل ومدونات، باللغة الإنجليزية لتعنى بنشر البحوث عن السودان وأهله وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم ليستفيد منها الإداري البريطاني خلال ممارسته لشؤون وظيفته.

كان الأعضاء المؤسسون لصحيفة «حضارة السودان» هم السادة عبدالرحمن المهدي وخلييل عكاشة ومحمد الخليفة شريف وحسين الخليفة شريف، وعثمان صالح، وحسن أبو، ومحجوب فضل المولى وعبدالرحمن جميل. كان من الواضح أن هذه المجموعة ذات صلة بطائفة الأنصار وتلتف حول السيد عبدالرحمن المهدي، أي ذات لون سياسي محدد.

في أول عهدها اهتمت الصحيفة بالقضايا الاجتماعية والمطلبية فدعت لإنارة الشوارع وإصلاح الطرق والتوسع في مجال التعليم والاهتمام بتعليم المرأة ومحاربة

البحر الأحمر والنيل بدار القنصلية وعند وصولهم رحب بهم على الطريقة السودانية. كما ذكر الرحالة بايارد تيلر أنه لدى وصوله إلى الخرطوم دعتة الأميرة نصرة بنت عدلان إلى مأدبة فخمة في دارها ووزعت هدايا على جميع المدعوين. ويبدو أن الأميرة نصرة قد انتقلت من قصرها في السوربية لسكن في العاصمة الجديدة الخرطوم.

وكانت العلاقات أقوى ما تكون بين السودانيين والجالية المصرية - موظفين وتجارا - وقد تزوج العمال المصريون من سودانيات وأنجبوا من عرقوا في أوقات لاحقة بالمولدين.

وكان هؤلاء العمال يعملون كمديرين للمقاهي والحمامات العامة وخبازين وصانعي أحذية وخياطيين وحلاقين وفي إصلاح أسلحة الجيش. أما الأقباط فقد كانوا قليلي العدد إلا أنهم كانوا يسعون للإرتباط بالموظفين السودانيين ويتبادلون معهم الدعوات إلى الموائد وخاصة في المناسبات الدينية. والسوريون كانوا أكثر الجاليات عدداً بعد المصريين والمغاربة وكانوا يعملون موظفين في الحكومة ويسكنون في الأحياء الراقية إلا أنهم لم يعقدوا صلات عميقة مع الآخرين.

وقد نشأت مننديات ثقافية كانت تستقطب النخب من أعيان المدينة، كمنتدى المفكر المستنير رفاعة رافع الطههطاوي الذي جاء إلى السودان ناظراً للمدرسة الأميرية ومنتدى إبراهيم بك مرزوق رئيس القلم الأفرنجي بالحكممدارية ومنتديات الحكمداريين.

ويؤم هذه المنتديات مثقفون أجنب ووطنيون وبعض كبار التجار الذين يتحدثون عن تجاربهم بالبلاد وخاصة الجنوب الذي كان قد ارتبط بحركة التجارة منذ أوائل النصف الثاني من القرن. وفي أخبارات الحكم التركي في

وظلّ الحكم الشمولي هو العقبة الكؤود التي تصطدم بها الصحافة حيث المصادرة والرقابة المستمرة مما أثر سلباً على مستواها ودفع بالكثير من الصحفيين لمغادرة الوطن والعمل بعيداً في الصحافة العربية شرقاً وغرباً.

15 مايو 2001م

الخرطوم في القرن التاسع عشر

استبد الإنبهار بالرحالة الفرنسي شابييه لونغ الذي زار الخرطوم في منتصف القرن التاسع عشر، فلم يستطع إخفاء إعجابه بالمدينة.. وربما أفرط في وصفها حين قال إنها تذكره بباريس بمحالتها التي تشبه «الباليه رويال» الزاخرة بكل ما يحتاجه الإنسان العصري من ملابس جاهزة وأنواع العطور والدخان.. بالإضافة إلى حدائقها الفناء بشمارها المتنوعة التي وصفها بحدائق الشاترليزيه. أما الرحالة الإيطالي بايارد تيلر فتبنى أن تكون شوارع روما وفلورنسه في مثل نظافة شوارع الخرطوم. ومهما يكن من حال فتظل هذه الصورة نسبية لأن رحالة أجنب آخرين إنتقدوا مظاهر كثيرة في تلك الخرطوم القديمة ما راقى لهم. ربما كانوا قد زاروها في زمن الأمطار والفيضانات التي كانت تخلف مستنقعات صغيرة تكون سبباً في تشويه المدينة وانتشار الأمراض. إلا أن عشاق الخرطوم - من الأجنب الذين زاروها - كانوا هم الأغلبية. ففي صحيفة «الأهرام» كتب أحد الأدباء المصريين يصفها فقال «مدينة الخرطوم جامعة إلى جمال الموقع الطبيعي محاسن النظام المدني والرونق الحضري. وأكثر أبنيتها من الحجر واللبن الأحمر مزدانة بالجبس والأجر، وقصورها في غاية البهجة والرونق وشوارعها منتظمة جداً. وفيها شارع يمتدئ من شاطئ النيل الأزرق وينتهي في جنوب المدينة يسمى السكة الجديدة استعارة من اسم السكة الجديدة في القاهرة. وجميع سكانها محافظون على عاداتهم الأصلية ثم نشأ فيها التقليد الغربي وعادات المدنية الأوروبية، حتى أن هناك نحو ألف شاب يتكلم باللغتين الفرنسية والإيطالية. وتحيط بها بساتين خصبة نظيرة يبلغ عددها حوالي مائتي بستان. ولسكانها ميل شديد إلى تزيين منازلهم بالرياش الفاخر ولديهم من

الملاهي وأماكن الرقص والمقاهي ما يزيد على الخمسمائة. وأشار إلى أن عدد سكانها يبلغ نحو 250 ألف نسمة حوالي خمسهم من السودانيين والآخرين من الأتراك والمصريين والسوريين والأوروبيين والمغاربة. وفيها نحو عشرين عائلة فرنسية أشهرها عائلة الدكتور بتيه وحوالي 15 عائلة إيطالية وأربعين عائلة نمساوية ومثلها ألمانية. وأشهر العائلات النمساوية عائلة الخواجة ديفيد النقاش. ومن العائلات النمساوية عائلة الخواجة هاك ماخبر. وبها مائة عائلة يونانية وحوالي عشرين عائلة من الأرمن أشهرها عائلة بطرس بك سركيس».

واتخذ كثير من الأوروبيين الخرطوم وطناً ثانياً مثل كلين الخياط الألماني وهنزل نائب القنصل اللذين عاشا فيها لسنوات طويلة حتى قُتلا في معركة سقوطها عام 1885. كما كانت الخرطوم نقطة التقاء بين جميع الرحالة وطلاب السياحة والصيد والمغامرين الباحثين عن الثراء السريع والمكتشفين الساعين لمعرفة منابع النيل. سواء كانوا في طريقهم إلى داخل القارة أو في طريق العودة إلى بلادهم مبحرين في النيل أو البحر الأحمر. وقد وصفها الرحالة ليجان بقوله: «فقد كانت هي الجنة عند نقطة الانتقال بين المدنية والهمجية، إلا أنه رأى الجالية الأوروبية تكوّن فيها «أوروبا صغيرة غير فاضلة». فقد كانت الجماعات الأولى التي وصلت إلى الخرطوم بعد الفتح تجارا مفلسين ومجرمين عثاة وشذاذ أفاق مغامرين وغدوا ليَجربوا حظوظهم في جمع الثروة أو ليحضرُوا قبورهم غير عابئين فانزلقوا إلى كل ما هو بعيد عن الفضيلة وأمعنوا في الفساد.. وتاجروا في الرقيق وأساءوا إليه. وكانت دار الإرسالية الكاثوليكية منتداهم ومكان حفلاتهم باختلاف مذاهبهم.. وكانوا كثيراً ما يحتفلون بمناسبات الزواج ووصول أوروبيين جدد إلى المدينة ليتعرفوا من خلالهم على أخبار العالم الخارجي. وكان لهؤلاء الأوروبيين علاقات بالسودانيين أيضاً. وقد حدث أن استضاف قنصل النمسا الدكتور ريتز مشايخ قبائل مناطق ما بين

الثقافة في مواجهة التسلط والقهر السياسي



عبد الكريم ميرغني

لما أراد الملك بادي بن رباط ملك سنار إقطاع الشيخ إدريس ود الأرباب أرضاً واسعة رفض وقال له «هذه الدار دار النوبة وأنتم غصبتموها منهم وأنا لا أقبلها»، وجاء في كتاب الطبقات أيضاً أن الملك بادي ولد أونسه أعلن توبته عن كل ما نهاه عنه الشيخ خليل الرومي - الذي كان شيخاً صوفياً فقيراً خلق القميص.

ظلت المؤسسة الثقافية السودانية طوال عهودها تريباً ضد الظلم والتسلط وقهر الإنسان، وكان بروزها ساطعاً في عهد الفونج الذي شهد بعض الملوك الطغاة فتصدى لهم شيوخ الصوفية والزموهم حدودهم.. منعوهم من انتهاك حقوق الإنسان. ولما غزا الأتراك السودان وقاوم أهله ذلك الغزو ببسالة نادرة كان لتلك المؤسسة مواقفها الجهيرة. فالشيخ إبراهيم عبدالدافع الفقيه الصوفي كتب قصيدة حرض فيها على المقاومة ودفع الثمن نقياً وسجناً في ليمان طرة بالقاهرة رزح تحت وطأته طويلاً.

السودان كان هناك منتدى أحمد أفندي العوام المصري العربي النزعة والمنفي إلى الخرطوم بعد الاحتلال الإنجليزي والذي أدى تأييده للثورة المهدية إلى إعدامه قبيل تحرير المدينة.

كان التعليم الديني راسخ القدم حين دخل الأتراك إلى السودان واستمر على هذا المنوال حتى دخلت الجماعات التبشيرية وأهمها البعثة الكاثوليكية التي باشرت نشاطها في عام 1843. وافتتحت مدرسة داخلية للأطفال الذين تبنتهم، وضمت إليهم بعض البيض والمولدين. وقد استطاع تلاميذها بسهولة وبسر إجادة اللغة الإيطالية بالإضافة إلى العربية.. كما تعلموا قدرًا من مبادئ الحساب والرياضة البدنية والرسم والغناء. كما ألحق بها قسم تجاري كان يعد المصالح الحكومية في الخرطوم بخريجه. واهتمت المدرسة بالتعليم المهني فافتتحت بها أقسام للتجارة والحداثة والحياكة وصناعة الأحذية والميكانيكا يشرف عليها خبراء إيطاليون. وفي السنوات التالية لعام 1859 بدأ التوسع في المدرسة حتى بلغ عدد تلاميذها ثلاثمائة من الأولاد ومائتين من البنات بحلول عام 1878. وكان من أشهر خريجيها القس الدينكاوي الأب دانيال سرور الذي ألف أكثر من عشرين كتاباً عن عادات وتاريخ قبيلته ثم بيق منها سوى كتاب واحد موجود الآن بمكتبة المخطوطات بمجمع آباء فيرونا.

وكانت بالخرطوم مدارس أهلية للبنات تقام في البيوت وتديرها نساء مصريات ومولدات متعلّقات يدرسن التطريز والطبخ والشؤون المنزلية. كما كانت بالخرطوم أيضاً نساء حافظات للقرآن الكريم يعلمن بنات عليّة القوم القرآن والدروس الدينية والخط في منازلهن. وبافتتاح المدرسة الحكومية بالخرطوم التي أسندت نظارتها لرفاعة رافع الطهطاوي تم قبول مائتين وخمسين تلميذاً. وقد سارت المدرسة على نسق المبتدیان بمصر من حيث النظام والمقررات وطريقة التدريس. وعلى الرغم من أن المدرسة لم تستمر طويلاً إلا أن تلاميذها

عرفوا بمستوى رفيع وأجادوا اللغتين العربية والتركية. وقد وصف الجنرال غردون سكرتيره الذي كان أحد تلاميذها بقوله: «إنه تعلم في مدرسة الخرطوم ووصل إلى مستوى يجعله على قدر المساواة مع التعليم في أرقى المعاهد الأوروبية.. فقلما يوجد موضوع لا يمكنه الحديث فيه بطلاقة.. كما أن في إمكانه الكتابة بعدة رموز دون أن ينظر إلى مفاتيحها».

وأفاض الرحالة والمكتشفون من زوار الخرطوم في القرن التاسع عشر في وصف لياليها التي كانت تحييها جماعة من المغنيات والراقصات «الموالم» كان قد طردهن الخديوي عباس من القاهرة.. فوجدن سوقاً في الخرطوم.. وكن يدعين إلى حفلات الزواج والولادة والختان والترحيب بضيوف قادمين. وكان إلى جانبهن أيضاً راقصات سودانيات كن يرتدين «الرحط». وكن جميعهن يرقصن على أنغام آلات موسيقية ويؤدين أنواعاً من الرقص منها المصري والتركي والسوداني، ويغنين الأغاني المصرية والسودانية وأحياناً الحبشية.

الخرطوم في القرن التاسع عشر كانت عاصمة للترك بلا شك.. انشأوها في أوائل سنوات غزوهم للسودان وازدهرت نتيجة للحبوة الاقتصادية التي اكتسبتها البلاد.. وفي بداية عهدها كان العنصر الوطني فيها قليلاً يتمثل في من وفد إليها من عناصر كانت تسكن في المناطق المجاورة لها. ثم ما لبثت الهجرات إليها أن تكثفت فهرعت إليها جماعات من الدناقلة والجعلبين والشايقية.. وخاصة عندما انفتحت الملاحة النيلية إلى الجنوب.. وسكنوا في أحياء خاصة بهم. وبعد أكثر من ستين عاماً هي عصر الاحتلال التركي للبلاد اندلعت الثورة المهدية وسقطت الخرطوم واتخذ الإمام المهدي أم درمان عاصمة لدولته الوليدة.

وتوجه الكثير من سكان الخرطوم إلى المدينة الجديدة وأقاموا فيها. وحين استعادت القوات البريطانية السودان باسم مصر أعادت عمارة الخرطوم

المهجورة واتخذتها عاصمة لها.. وهكذا انبثقت خرطوم القرن العشرين ليتركز الاهتمام عليها أكثر من سابقتها.. التي لم تحظ بكثير اهتمام من المؤرخين وخاصة فيما يتعلق بتاريخها الاجتماعي.

2 أكتوبر 2001م



قصر الحكمدارية بالخرطوم عام 1880

ولما بلغ استبداد الترك مداه وضاق السودانيون به ذرعاً خرج من عباءة تلك المؤسسة المفكر الثوري والقائد السياسي العسكري محمد أحمد المهدي الذي هزّ سكون المنطقة وتردّد دوي انتصاراته العسكرية الأسطورية في جنبات العالم وانتصر وأقام دولة وطنية حدّدت قسّات القومية السودانية وكرست خصوصية ثقافتها. ودفعت تلك المؤسسة إلى جانبه شيوخاً ثواراً كالشيخ العبيد ود بدر والشيخ محمد الخير الغبشاوي والشيخ الطاهر المجذوب والشيخ الحسين الزمراء والحسن سعد العبادي والسيد المكي الشيخ إسماعيل الولي وعامر وأحمد المكاشفي وغيرهم.. امتشقوا الحسام واجتروا المعجزات.

وبعد أحداث ثورة 1924 وإخمادها بدموية وصرامة ضيقّت الإدارة البريطانية على المثقفين الخناق وتكلّت بالمشاركين فيها وقللت فرص الوظائف وساد البلاد جو «خناق من الحصار. لم يجد الخريجون مناصاً سوى اللجوء إلى المعرفة والثقافة.. جمعيات تنعقد في المنازل للقراءة والنقاش وتبادل ما يتيسر من كتب ومجلات وصحف عربية وإنجليزية.. فقرأوا لطف حسين، ومحمد حسين هيكل في صحيفة «السياسة» وقرأوا في صحيفة «البلاغ» لعباس محمود العقاد وزكي مبارك وإبراهيم عبد القادر المازني. وكان الملحق الثقافي للمصحيفتين يفيض بالدراسات والأبحاث العلمية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية، وبعض الخريجين إهتموا بمتابعة نشرات الجمعية الغابية البريطانية من كتيبات وأوراق تروج للفكر الديمقراطي الاشتراكي، كما تابعوا كتابات زعماء الجمعية كبرنارد شو وهـ.ج. ويلز. وقد ظلّت برامج بعض الأحزاب في أوقات لاحقة تلك التوجّهات الاشتراكية الديمقراطية.

وفي مذكراته ذكر أحمد خير أنّه كان من المؤلف أن تزدهم غرفة الشاب بأكداس من المؤلفات العربية والإنجليزية والصحف الأجنبية، كما لاحظت مجلة «الفجر» أن الشباب كانوا يقرأون حتّى في الترام.

كانت البدايات لجمعية القراءة المشتركة وحلقات النقاش قد تشكلت بمدينة أم درمان في الهاشميات وأبوروف، وقد بادر بإنشاء جمعية أبوروف الشقيقان حسن وحسين أحمد عثمان «الكذ»، وكان من بين أعضائها مكايي سليمان أكرت، والنور عثمان، وإبراهيم يوسف سليمان، والهادي أبوبكر اسحاق، وإبراهيم عثمان اسحاق، وإبراهيم أنيس، وإسماعيل العتيابي، وعبدالله ميرغني، ومحمد محجوب لقمان، وحامد توفيق، وعبدالحليم أبوشمة وخضر حمد، والتجاني أبو قرون، وحسن زيادة. جاهرت هذه المجموعة بعداء سافر للطائفية وللإدارة البريطانية، أما جمعية الهاشميات فقد ضمت الشقيقين عبدالله ومحمد عشري الصديق، ومحمد أحمد محجوب، وأحمد يوسف هاشم، وعبدالحليم محمد، ويوسف مصطفى التني، ويوسف المأمون والسيد الفيل. إهتمت جمعية الهاشميات بالكتابة وبرز منها شعراء وكتاب متميزون لعبوا دوراً كبيراً إبان الحركة الوطنية وبعيد الإستقلال. وساهم معظم هؤلاء في تحرير مجلة «النهضة». ولما عاد عرفات محمد عبدالله من السعودية عام 1931 وأصدر مجلة «الفجر» في يونيو 1934 أصبحت جمعية الهاشميات تعرف باسم جماعة «الفجر» ذات نزعة إستقلالية وترفع شعار «السودان للسودانيين»، وقد تحدث السكرتير الإداري لحكومة السودان جيمس روبرتسون عن هذا الشعار في عام 1945 وقال «إنه بوفاة حسين الخليفة شريف في عام 1928 تفرق شمل جماعة «السودان للسودانيين» إلا أن شعارهم ظل حياً وسط عدد من الموظفين والضباط. وأشار روبرتسون إلى أن هذا الشعار عاد مجدداً للظهور بعد بضع سنوات كمصدر إلهام لجماعة من الشبان المثقفين عرفوا باسم جماعة الفجر، وكان يقودهم عرفات محمد عبدالله. وفي حوالي عام 1931 أنشأ يحيى الفضلي جمعية أدبية ضمت عدداً من أصدقائه وزملائه في الدراسة منهم إبراهيم جبريل وعلي حامد، ومحمود الفضلي واليسع خليفة وبشير محمود ومحمد نور حسين وبدوي مصطفى والحاج عوض الله،

أصوات

وأحمد السيد حمد. وتعتبر هذه الجمعية نواة لما عرف في وقت لاحق بجماعة الأشقاء.

أما في الأقاليم فقد أنشئت جمعية أدبية بالنادي السوداني في عطبرة وأخرى بنادي الموظفين في ودمدني في عام 1935. وكان من المقرر تكوين جمعية أدبية بنادي الأبيض.

أنشأ جمعية ودمدني الأدبية بعض أعضاء جمعية أبوروف من الموظفين الذين تم نقلهم إلى تلك المدينة، وكان من بينهم طه صالح وإسماعيل العثباني وإبراهيم عثمان إسحاق وإبراهيم أنيس وأحمد خير وعبدالله عبدالرحمن نقد الله وعلي نور والطاهر النيل وعمر عبدالغني ومصطفى الصاوي وأحمد مختار وميرغني دفع الله. وكانت تلك الجمعية قد تميزت بالحيوية والنشاط فتبلورت منها فكرة مؤتمر الخريجين في عام 1937 وقامت بتنظيم أنجح وأضخم مهرجان أدبي يقيمه مؤتمر الخريجين في تاريخه.

هذه هي المؤسسات الثقافية والفكرية التي نشأت صغيرة متواضعة في منازل الأعضاء، ولكنها ما لبثت أن اشتدت سواعدها واستطاعت تحمل عبء القضايا الوطنية في مؤتمر الخريجين حتى اثبتت منها الأحزاب السياسية.

وتشهد العاصمة السودانية الآن نشوء مؤسسات ثقافية وأدبية في محاولة لإحياء تلك التجارب التي ساهمت في تشكيل الوعي الاجتماعي والفكري للأمة السودانية، ومن بين هذه المؤسسات مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي بأم درمان.

وعبدالكريم ميرغني يعتبر واحداً من المثقفين الطليعيين الذين شاركوا في الحركة الوطنية. كان شغوقاً بالثقافة والمعرفة الموسوعية ذا نزعة اشتراكية وإن لم ينتم إلى حزب بعينه. وقبل رحيله بسنوات تحول صالون منزله إلى ندوة فكرية

وثقافية تتناول شتى ضروب المعرفة، وقد ولد بمدينة أم درمان في عام 1923- تلك الفترة المليئة بالأحداث والتحوّلات منذ أحداث ثورة 1924- بعد سنوات من نهاية الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من متغيرات سياسية. وبعد تخرجه في كلية غردون -قسم الإدارة- بدأ حياته موظفاً بمكتب السكرتير الإداري، ولم يلبث أن تمّ نقله مأموراً بمركز نيالا ليكون بعيداً عن أجواء العاصمة الملتهبة بالنشاط الوطني، ولما كان إهتمام الحركة الوطنية عميقاً بالتعليم إستقال عبدالكريم ميرغني من الوظيفة الحكومية واتجه للعمل بالتدريس في مدرستي الأحفاد وأم درمان الأهلية.

وبعد فترة قصيرة التحق بجامعة بريستول في بريطانيا لدراسة الاقتصاد والعلوم السياسية وتخرج فيها بدرجة الامتياز في عام 1955 والبلاد على أعقاب إستقلالها، فوقع عليه الاختيار ليكون قائماً بالأعمال في السفارة السودانية الوليدة بلندن، وانتظم في السلك الدبلوماسي فأصبح سفيراً للسودان في الهند في الفترة التي شهدت عنفوان حركة عدم الانحياز. كما عمل سفيراً لبلاده في اليابان وإيطاليا واليونان ومصر مما أفاد في إثراء ثقافته ومعرفته حيث ظلت داره في تلك العواصم مشرعة الأبواب وملتقى السفراء والكتاب والأدباء. وبعد ثورة أكتوبر 1964 الشعبية اجتمعت القوى السياسية على إختياره وزيراً للتجارة في الفترة الانتقالية - وهي الوزارة التي عاد إليها في عام 1969 عقب انقلاب مايو وتولى أعباءها فترة قصيرة انتهت عام 1970.

وفي أيامه الأخيرة وقبل وفاته عام 1995 إهتم كثيراً بعلم التداوي بالأعشاب وأنشأ صيدلية عشبية إنتفع بها كثير من المرضى. وكان يعد الدواء بنفسه ويوزعه بلا مقابل، وهذا المركز الذي أنشئه بمبادرة من أسرته يستكمل العطاء الجزيل الذي قدمه لأمته بلا من ولا أذى.

8 مايو 2001 م

غربة الروح والتمرد الخلاق معاوية نور.. صورة وخبر

إعادة طالب سوداني بالقاهرة إلى ذويه بالخرطوم بالقوة!

القاهرة - 18 سبتمبر 1928
إسعاد الطالب السوداني
معاوية محمد نور إلى
الخرطوم من أسبوع لإكمال
دراسة طبها بعد أن كان طالباً
في كلية الطب بالخرطوم.
لكن الطالب فوجئ بعد بضعة
أيام بوصول خاله من
الخرطوم والوقوف في
مكتبة السودان وإسماعيل
فرحاً بطفه إلى الخرطوم.
وقال صديقه: «معاوية
معاوية»، بالقاهرة أمس إن
الطالب السوداني معاوية
محمد نور رفض هو والدة
القوية من خاله لفرار الكثير
إسماعيل بالخرطوم وسعد
الخرطوم إلى كونه في السودان



صورة معاوية

يشعر المرء بكثير من اللوعة والأسى كلما جاء ذكر أحد مبدعينا العظام الذين
قضوا وهم في شرح الشباب، بعد أن خلفوا ما هو جدير بالخلود. ومن بين هؤلاء
على وجه الخصوص خليل فرح والتجاني ومعاوية والناصر قريب الله وعرفات..
فقد كانوا والحق يقال تعبيراً صادقاً عن الروح السودانية المبدعة. قبل أيام كنت
أطالع إحدى الصحف المحلية حين عثرت على خبر قديم لصحيفة «اللطائف
المصورة» المصرية في عددها الصادر في 28 سبتمبر 1928. وقد جاء فيه أن
الطالب السوداني معاوية محمد نور وصل إلى القاهرة قبل أسبوع لإكمال دراسته
فيها بعد أن هجر كلية الطب بالخرطوم. إلا أنه فوجئ بعد بضعة أيام بوصول خاله
من السودان. ولما رفض دعوته له بالعودة إستعان عليه بالشرطة وعاد به. كان
خاله ذاك هو الدرديري محمد عثمان القاضي وعضو مجلس السيادة في وقت
لاحق. وكان قد وقف على تربيته بعد وفاة والده وهو لا يزال صغيراً.

كان الخبر مصحوباً بصورة معاوية وهو في التاسعة عشرة، إلا أنه يبدو حدثاً في الرابعة عشرة، كان قد أنفق عامين في كلية الطب «مدرسة كتشنر» قبل أن يحسم أمره ويقرر التسلل خفية إلى مصر. كانت عائلته من المائلات المستنيرة وقتذاك، وكانت تقدر نبوغه حيث كان المقبولون في تلك الكلية لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين. وكانت ترغب في أن تراه طبيباً ملء السمع والبصر.

ما كان معاوية متمرداً على مستوى السلوك بل كان هادئ الطبع ودوداً هذبة المعارف التي أخذ ينهل من فيضها وهو لا يزال في طور البفاعه وبلغت ذروتها بعد أن اتهم مكتبة كلية غردون الزاخرة. إلا أن هاجساً قوياً كان يلح عليه لدراسة الآداب في الجامعات الأجنبية.

ما كانت الصحافة المصرية تدرك أن ذلك الفتى الهارب أديب مرموق مثاقف تحتفي بكتاباته صحافة الخرطوم ويوقع باسم «مطالع». وما كانت تدرك أنه سيعود من بيروت بعد سنوات قلائل ليفتحهم الأوساط الأدبية في القاهرة ويصبح نداً لعمالقة الفكر.. يتجرأ على نقد عميد الأدب العربي ويجد مكاناً رحيباً في صالون العقاد.

أحس بغربته الروحية إدوارد عطية حين أدرك قيمة عبقرية وتناول تجربته في كتابه «عربي يروي قصته» ورسم صورة كئيبة للواقع الاجتماعي الذي أحاط بمعاوية في مدينة أم درمان خلال سنوات العشرين من القرن الماضي. ووصفه وهو يقرأ لكبار الكتاب والمفكرين الأوروبيين أمثال جين أوستن والدوس هكسلي في جو من التعاسة والإملاق الثقافي.

كان إدوارد عطية المدرس بكلية غردون صديقاً له وقد ساندته كثيراً في محاولاته إقناع أسرته بالسماح له بترك دراسة الطب والتحول لدراسة الآداب في الجامعات بالخارج.

وعزيمة ومثابرة وممارسة شتى أنواع الضغوط نجح معاوية أخيراً في انتزاع

موافقة عائلته بالسفر إلى لبنان للإلتحاق بالجامعة الأمريكية في بيروت على نفقته الخاصة. ومنذ بداياته الأولى أظهر نضجاً ونبوغاً وبرز اسمه داوياً في المحافل الأدبية والثقافية وأخذ يستخدم أساليب ومناهج لم يعرفها الأدب العربي من قبل. وساعدته قراءاته الموسوعية وارتيازه الدروب الوعرة والمسالنك والاتجاهات النقدية الجديدة لأن يقف ندأ لعمالقة العصر ويقتحم عربن طه حسين نفسه حين كشف أن فكرة كتابه «الشعر الجاهلي» الأساسية منقولة عن المستشرقين. وأعاد كل محاولات التجديد إلى مظانها في الأدب الغربي. وحتى الشعراء الرومانسيين الذين تربعوا على عرش الذوق الأدبي عهد ذلك.. علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، وأخضرايهما.. أوسعهم نقداً ووصفهم بمحدودية الفكر وغياب الوعي الشامل بتطورات العصر ومتطلباته والافتقار للحساسية الشعرية والركاكة والتهالك.

نبغ سريعاً وانبثق كالشهاب ثم لم يلبث أن خبا بعد أن افترسه الداء.. كان في الثالثة والعشرين حين التقى بأندرية مارلو وأجرى معه لقاءً صحفياً في القاهرة. تحاشى الموقف كبار الأدباء والمثقفين وتهيئوا الجلوس أمام وزير الثقافة الفرنسي الذي وصفه ديجول بأنه الرجل الوحيد الذي لا يشعر بأي ابتذال لدى لقائه. لم تكن جرأة معاوية جوفاء خالية من محتواها فقد استطاع في ذلك الزمن القياسي أن يستوعب التيارات الفكرية والأدبية والإجتماعية والسياسية في العالم. لفت الأنظار باكراً للحركة العمالية وفكر الاشتراكيين الفاييين بزعامة بيرنارد شو و هـ.ج. ويلز. وكان الناقد العربي الأول الذي أشار لأسماء مثل ت. أس. ايليوت ود. هـ. لورنس وإديث سينويل.

كنت كثيراً ما استمع لذكريات عمنا الأستاذ مبارك بابكر البشير -عليه رحمة الله- وهو أحد كبار رجال التربية بأم درمان - يحدثني عن التطورات الإجتماعية والأحداث التي شهدتها المدينة منذ سنوات العشرين حين تفتح وعيه طفلاً

بحي الموردة.. وكان أكثر ما يشير حزني حين يتعرّض لمأساة معاوية.. قال إنّ الفضول كان يدفعهم وهم صبية أغرار إلى التطلع من خلال نافذة الغرفة التي حُبس فيها معاوية بمنزل «مرفعين الفقراء».. كان قد تمكن منه الداء وهو ينخضع للعلاج بالرقى والتعاويد.. مقيداً بالسلاسل.. محروماً من الطعام يتعرّض للضرب بالسياط من وقت لآخر.. كان ذلك خلال النصف الثاني من سنوات الثلاثين.. كان شائخاً ولم يبلغ الثلاثين بعد.. مهزولاً شاحب اللون.. وقد تساقطت أسنانه وشعر رأسه.. ما كان العلاج النفسي قد وجد طريقه إلى السودان شأن كثير من دول العالم.. وكان الخيار الوحيد أمام أهل المريض أنّ يدفعوا به للتعرّض لمثل هذه التجربة.

كثير من الناس يرى أنّ العبقرية الفذة والقدرات الاستثنائية للإنسان قد تقود إلى الجنون.. هذا المفهوم شائع لدى كثير من الثقافات ولم ينكره علم النفس الحديث.. ولا يزال هناك من يتحدث عن مأساة معاوية ويعزوها لذكائه المفرط، إلا أنّ هناك من يشير إلى أنّ حساد نبوغه دسوا له سمّاً غريباً قتلك به وأودى بحياته.

أتردد كثيراً على حي الموردة.. وهو مهد للعبقرية لا ريب.. فقد درج فيه عدد من المبدعين شعراء وفنانين ومفكرين.. يشرد ذهني وأنا أمام دورهم وأتوقف كثيراً أمام المكان الذي شهد غلوات وروحات معاوية.. مثلما يحدث لي حين أزور منزل عمنا المرحوم عباس محمد نور -شقيق معاوية- بالحلة الجديدة في كومستى.. وأحياناً إذا قادتنى خطاي إلى مقابر الشيخ حمد النيل.. التي لا تبعد عن داري - أتطلع باحثاً عن ذلك المكان الذي ضمّ حدث تلك العبقرية المؤودة.. وحين قرأت مرة مقالة للشاعر والكاتب المغربي محمد بئيس عن مقبرة للعظماء والمبدعين الألمان رأها بمدينة برلين خلال زيارة له كلفت عن الأمل بالظفر بروية ذلك القبر الذي وقف عليه العقاد طويلاً وانتحب..

الاستعماري النبيل وضمير المثقف



دوجلاس نيبولد

قبل ستين عاماً كتب السير دوجلاس نيبولد السكرتير الإداري لحكومة السودان مقالاً نشرته صحيفه «سودان ستار» قال فيه: «إنني لن أدخل في تكهنات حول مستقبل السودان عدا القول إن التاريخ لا يقف ساكناً وإن أي امرئ يزعم أنه بمقدوره التكهن بمستقبل السودان لا بد أن يكون نبياً أو غيبياً. إنني أعلم أنني لست نبياً وأمل ألا أكون غيبياً. إن قصارى ما تستطيع أي حكومة أو أمة أن تفعله حيال المستقبل الذي هو بيد الله، هو أن تهين نفسها ذهنياً ومادياً ومعنوياً لأي شيء يمكن أن يحدث.. وكالسفينة المبحرة في رحلة طويلة، فإن عليها أن تعد نفسها لمواجهة أي رياح قد تهب عليها».

لَمْ تنطو هذه الكلمات على روح التشاؤم والقنوط كما يبدو في ظاهرها، وإنما عبرت بشكل واضح عن إستقراء عميق لواقع كان ولا يزال معقداً في وعورته.. يصعب التكهن بمآلاته. لَمْ تصدر عن حاكم استعماري يهدد بمصائر غير محمودة بعد خروجه، وإنما عن رجل مشفق حدث أن توجه إلى الله متضرعاً

ومبتهاً يقول: «يا أيها الإله القدير منيع كل حكمة يا من تصرف عنايته الإلهية كل الأشياء على الأرض، ندعوك في رحمتك اللانهائية أن تحفظ أهل هذه الأرض وقبائلها، وأن تشملهم بظل حمايتك في المدينة والريف وفي الجبال والغابة والصحراء. تتضرع إليك أن تقيهم من كل مصائب المجاعة والمرض وسفك الدماء.. أفرغ في قلوبهم وعقولهم أئمن حياتك ألا وهي التقاهم ليستبدلوا العداوة بالسلام ويحكموا العدل في مجالسهم ويشيعوا المرحمة في بيوتهم وينبذوا من حياتهم أفعال الشر».

توجه نيوبولد بهذه الكلمات لأهل كردفان فتعنى لهم كل الخير من صميم فؤاده «المسيحي»!! كردفان التي شهدت ما شهدت في تاريخها القريب - بعد أكثر من نصف قرن من ابتهالات مديرتها الإنجليزي هذه - حتى بات يحرسها الأجانب لتنعم بشيء من الأمن والاستقرار. أما دارفور فدع عنها الحديث «الحرزن الأكبر ليس يقال» كما عبر الفيتوري يوماً.

أحب نيوبولد بسطاء الناس - أهل الريف - حيث عمل وتفقد الأحوال وأراد لهم صوتاً مسموعاً يجلجل مفصلاً عن قضاياهم حتى لا تضيق حقوقهم وحتى لا يتم «ذبحهم من أجل إسعاد الأفندية». واستخف بمعارضة بعض الخريجين لتوسيع تمثيل هؤلاء البسطاء في المؤسسات الدستورية الوليدة. وحذر من اتساع الخرق بين الريف والمدينة ودعا للانسجام القومي وطرد أعداء التقدم في السودان: الجهل والفقر والمرض والخلاف.

لم تكن ابتهالات نيوبولد كلمات حاكم أجنبي مستبد قابع في قصره بنظر إلى رعاياه السود التعساء المساكين بقرور واستعلاء. وإنما كانت كلمات مترعة بالإنسانية والحكمة والنظرة الشاملة للبشر. أليس هو الذي وصف المثقف في محاضراته «الجانب الإنساني للثقافة» - التي ابتدر بها نشاط «دار الثقافة» في الخرطوم - وقال إنه ذلك الشخص الذي يتميز بإنسانيته قبل كل شيء ولا

يسمح لأحماله المعرفية والفكرية بأن تجفف ينابيع تلك الإنسانية وهي البساطة وسعة الخيال وروح التسامح والشفاهة. ونصح نيوبولد المتعلمين السودانيين أن يتعرفوا على بلادهم من خلال المشاهدة الميدانية والطواف على مناطقها حتى يتمكنوا من حبها لأن الحب الحقيقي لا ينشأ إلا بالمشاهدة. ودعاهم إلى التحلي بالتسامح وتقبل الرأي الآخر لأن الحقيقة دائماً نسبية.

لا بد أن نيوبولد كان ينظر للمتعلمين السودانيين بعين الريبة والتشكك. وربما يكون قد أنس فيهم ترفعاً عن قضايا أهلهم البسطاء وميلاً للشعور بالذات أكثر من التحلي بالروح الوطنية. ولا بد من الوقوف إزاء رد فعله من مذكرة الخريجين، وما إذا كان يتناسب مع سعيه لخير السودان. فالمذكرة التي رفعها إبراهيم أحمد رئيس مؤتمر الخريجين العام في الثالث من أبريل عام 1942 كانت تعبر عن آماني السودانيين في الإعتاق بالإعلان عن حقهم في تقرير المصير عقب الحرب العظمى مباشرة. غاظ نيوبولد أن يدعي المؤتمر حقه في تمثيل الشعب السوداني، رأى فيه حفنة من الأفندية لا يحق لها أن تتحدث باسمهم كان قاسياً وفظاً في التعبير عن ذلك ورد المذكرة لمقدميها. وربما لا يشفع له حذبه وحنوه على أهل الريف -الذين يشكلون غالبية أهل السودان. وكانت الإدارة البريطانية تسمى إليهم من خلال زعاماتهم التي كان المتعلمون يرونها المعقل الثاني للرجعية بعد الطائفية. تلك الأفكار التي دفعت بخليفته جيمس روبرتسون لأن يعمل على إنشاء الحزب الجمهوري الاشتراكي في ديسمبر 1951. ربما كان في ذلك نوع من الوصاية إلا أن نيوبولد لم يلبث أن اجتمع مع قادة الخريجين وأجزل وعوداً بتوسيع المشاركة في الحكم في إطار نظم دستورية متدرجة.

وصف روبرتسون نيوبولد بأنه كان رجلاً خصب الخيال مرحاً موحياً بالمحبة وافر النشاط متعاطفاً مع الآخرين يفيض بأفكار التقدم والعمل لخير الناس.. يقرأ كثيراً ويهتم بالأدب والتاريخ، سريع التفكير يتميز بعقل منقب وتطلع لمعرفة

الأشياء والتحقق منها.. يكون دائماً القدوة الحسنة لمن هم حوله. رآه في كردفان مديراً لمديريتها في سنوات الثلاثين ثم أصبح نائباً له كسكرتير إداري في الأربعينات. وقال إنه كان محظوظاً أن بقي قريباً منه لسنوات واستطاع أن يقتبس بعضاً من روحه في العمل من أجل أفريقيا. وبعد أن خلفه في وظيفته كان يدرك أنه لا يستطيع أن تكون له تلك المزايا الشخصية الرفيعة فلم يشأ أن يحتل مقعده الأكاديمي كرئيس لمجلس إدارة كلية غردون.

وقد كان نيوبولد هو الأب الشرعي للكلية الجديدة التي افتتحت في فبراير 1945 والتي تعد من أهم إنجازاته بإعتبارها طفرة في التعليم العالي.. ففي إطار توصيات لجنة لورد دي لاوير تمّ تجميع المدارس العليا السبع -وهي الآداب والهندسة والعلوم والطب والبيطرة والزراعة والقانون- في كلية غردون وتم تعيين توتهيل مدير مصلحة الزراعة كأول عميد لها. وبعد أن أصبح نيوبولد رئيساً لمجلسها -الذي ضمّ سودانيين ومصريين وبريطانيين- رُشح عباس محمود العقاد لعضوية المجلس إلا أن المكائد السياسية في مصر لم تسمح بالموافقة على ذلك.

منذ سنوات بعيدة ظلت شخصية نيوبولد تتردد في خاطري.. صورة الإداري الإنجليزي المثقف الذي أهدى ثلاثة آلاف كتاب لتصبح نواة لمكتبة جامعة الخرطوم الحالية.. والرجل الذي كان يتردد على داره عباس محمود العقاد أثناء لجوئه للسودان إبان الحرب الثانية.. والديمقراطي المشاهر الذي أنشأ «دار الثقافة» بالخرطوم لتبقى مكاناً مفتوحاً للحوار.

توفي نيوبولد وهو في الحادية والخمسين إثر إصابته بتسمم في الدم ودفن بالخرطوم حسب وصيته، وتحسر على وفاته كثير من المتعلمين وغيرهم من مختلف الطبقات، حتى الأستاذ أحمد خير -الوطني المتطرف في عدااته للإنجليز- وصفه بـ «السياسي الموهوب والأديب المصقول والكاتب المطبوع

والعالم المثقف المجد الذؤوب»، وقال إنه «بتلك الخلال والمؤهلات وثق وشائج الصداقة مع عدد لا حصر له من الوطنيين من مختلف الميول والثقافات وظل حريصاً على الإتصال بهم أو مراسلتهم بدرجة كانت مثار الدهشة والتأمل».

لقاء في بحر المانش



الإمام عبدالرحمن المهدي

«باللغة والسرو، لقد انتهت المهديّة إلى الأبد».

في برقية من ونجت لزوجته في 24 نوفمبر 1899

في الثامن والعشرين من يوليو 1919 شهد قصر باكنجهام في العاصمة البريطانية وصول أول وفد سوداني يزور المملكة المتحدة.. كانت تقلهم عربات ملوكية ويرافقهم السير ونجت حاكم عام السودان واللورد جرانفيل وغيرهم.

وعندما وقف الوفد أمام الملك ألقى رئيسه السيد علي الميرغني كلمة يهنئه فيها بإحراز النصر في الحرب العالمية الأولى وذلك باسم السودان. ثمّ أُنعم عليهم بالنياشين.. فمُنح السيد علي الميرغني نيشان فيكتوريا من درجة فارس مع لقب «سير»، وبالنيشان نفسه من درجة رفيق لكل من الشريف يوسف الهندي والسيد عبدالرحمن المهدي والشيخ إبراهيم موسى ناظر الهندوة والشيخ علي التوم ناظر الكيابيش والشيخ إبراهيم محمد فرح ناظر الجعليين

والشيخ عوض الكريم أبوسن وكيل ناظر الشكرية. كان الوفد الذي وُجّهت إليه الحكومة البريطانية الدعوة لحضور إحتفالات النصر يضم أيضاً الشيخ الطيب أحمد هاشم مفتى السودان والسيد إسماعيل الأزهري قاضي شرعي مديرية دارفور، الذي صاحب حفيده الأستاذ إسماعيل الأزهري المدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية (رئيس أول حكومة سودانية) ليرافقه كمترجم. كما صاحب السيد عبدالرحمن المهدي ابن أخته حسن الخليفة شريف والشيخ جعفر أحمد شرفي التاجر بأم درمان. واختار الشيخان الطيب وأبو القاسم أحمد هاشم الأستاذ محمد حاج الأمين المدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية أيضاً ليرافقهما.

لَمْ يكن ذلك الوفد السوداني يحمل قضايا سياسية أو رؤية محددة لمستقبل السودان غير ذلك النظام الذي فرض نفسه بالحديد والنار، ويكاد أفرادهم يجتمعون، أنهم ينعمون بظروف أفضل وبحالة من الاستقرار بعد السنوات العجاف التي شهدتها البلاد في أعريات القرن التاسع عشر. كان جميع أفراد الوفد من زعماء دينيين إلى نظار قبائل منسجمين مع الإدارة البريطانية ويتوقون إلى المزيد من التعاون معها إلا السيد عبدالرحمن المهدي الذي مازالت تنظر إليه بعيون التشكك والريبة. كانت ترى فيه زعيماً محتملاً لاضطرابات جديدة باسم الثورة المهدية. لَمْ تكتف بما فعلته بعد انتصارها في معركة كرري وحملات الملاحقة والتصفية التي كانت مستمرة حتى ذلك العام الذي زار فيه الوفد لندن. وحين قدّم السيف الذي ذكرت المصادر أنه يعود لوالده الإمام المهدي لا بد أن صوراً مأساوية كانت تلاحق ذاكرته بلا توقف.. معركة كرري الرهيبة التي قتل فيها حوالي عشرة آلاف رجل.. دمروا ولَمْ يقهروا كما عبّر ونستون تشرشل في كتابه «حرب النهر».. والمعارك المتصلة لتصفية بقية رجال الدولة المهزومة.. أم دبيكرات التي إستشهد فيها الخليفة عبدالله والخليفة علي ودخلوا وأخوه الصديق ابن المهدي.. ثُمّ المجزرة التي شهدتها هو شخصياً في الشكابة حيث

اغتيال أخواه الفاضل والبشري والخليفة شريف وأصيب هو نفسه بطلق ناري في كتفه.. كانوا مجموعة صغيرة تهيم في الفلوات ونقعات من ورق الشجر.. ثم سنوات المنفى الداخلي من الشكاية إلى جزيرة الفيل فأم درمان تحت الرقابة المباشرة لروودولف سلاطين المفتش العام الذي عاد ليشار من سنوات الأسر.

استقبلته الصحافة البريطانية بروح عدائية لم تعرف المهادنة وكتبت في عناوينها الرئيسية في الصفحات الأولى «وصول ابن المهدي.. قاتل غردون». كانت عمياء في حقدتها وإحساسها بمرارة مقتل غردون أثناء فتح الخرطوم.. لم تثبت من الأمور وما طرأ من تغيرات في موقف الرجل الذي أراد أن يقول للإنجليز بتقديمه السيف لملكهم أن الحرب التي مضت عليها سنوات تجاوزت العشرين قد انتهت.. وها أنذا اختط طريقاً يختلف عن الأساليب الثورية.. التي ما عادت تجدي لفهر الآلة الحربية الجديدة والامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

كان أعضاء الوفد قد بحثوا قبل مقابلتهم للملك جورج الخامس فكرة تقديم هدية له. ولكنهم صرفوا النظر عن هذه الفكرة لضيق الوقت الذي لم يمكنهم من إختيار هدية مناسبة. ولكن السيد عبدالرحمن المهدي فاجأهم بتقديمه هديته التي استشار فيها الحاكم العام ونجت باشا ونالت موافقته. لم تكن تلك المفاجأة لتسر السيد علي الميرغني رئيس الوفد والذي تعتبره الإدارة البريطانية رجل السودان الأول، فعبّر عن استيائه لهذه المفاجأة للمدرجة التي أعلن رغبته في العودة فوراً إلى السودان احتجاجاً على هذه المبادرة التي قد تسحب بساط الرعامة من تحت قدميه كما أورد البرفيسور حسن أحمد إبراهيم في كتابه «الإمام عبدالرحمن المهدي». وقد أمضى صمويل عطية ضابط المخابرات الذي رافق الوفد ليلة بأكملها محاولاً إقناعه بالبقاء في لندن وعدم العودة إلى الخرطوم.

في زيارة للخرطوم في نوفمبر 1926 -بعد تركه الخدمة في حكومة السودان-

انتقد سلاطين قرار الحكومة بالسماح للسيد عبدالرحمن بالتوجه إلى لندن قائلاً إنه لا يمثل إلا المهديّة المتعصبة التي تشكّل خطراً حقيقياً على الحكومة. ووصف سلاطين تقديم السيف للملك بأنه «خطأ بين وعرض مسرحي».

وقد أعلن السيد عبدالرحمن أنّ دعوة الحكومة البريطانية سرته «لأنّها تنطوي على نوع من الاعتراف الذي كان خصومي يعملون جاهدين على إنكاره» واعتبر الزيارة سانحة لتوضيح موقفه بأن الحرب التي كانت قائمة قد انتهت ورغم ذلك مازالت الإدارة البريطانية في الخرطوم تعامله وكأنّها مازالت ناشبة. وفي كتابه «دور السيد عبدالرحمن المهدي في الحركة الوطنية» قال البرفيسور حسن أحمد إبراهيم إنّ موالاة السيد عبدالرحمن للحكم البريطاني لم تنشأ عن قناعة صادقة أو يقين يتماشي مع مبادئه بل فرضها الواقع السياسي. ويؤكد الدكتور محمد سعيد القدال في كتابه «تاريخ السودان الحديث» أنّ مشاركة السيد عبدالرحمن الحكم البريطاني إتخذت طابعاً سياسياً أكثر من كونها تأييداً أدبياً معنوياً.

وفي مذكراته اعتبر السيد عبدالرحمن أنّ الرحلة كانت فاشلة من الناحية السياسية، إلا أنّها كانت مفيدة من الناحية الإجتماعية والثقافية، حيث سمحت لهم برؤية عالم مدهش رأوا فيه الإنجليز يمارسون مهناً وضيعة عكس تلك الصورة التي تحيط بهم في المستعمرات حكاماً يصولون ويجولون. وقد تسنى له أن يركب الطائرة فوق سماء لندن يصحبه الشيخان علي التوم وإبراهيم محمد فرح.

شنت الصحافة المصرية حملة عنيفة ضد زيارة الوفد السوداني لبريطانيا حيث كان الشعور الوطني في حالة من الغليان في مصر ضد الإنجليز بعد إعتقالهم سعد زغلول ورفاقه الذين طالبوا بالحرية وبدستور للأمة. إلا أنّ تلك الصحافة كانت مدفوعة بعواطفها فتكبت الموضوعية في رؤيتها لتلك الزيارة. كان السودان قد خرج لتوه من تجربة مريرة جسّدتّها دولة الخليفة عبدالله بحروباتها

المتواصلة التي خلفت كثيراً من الجراح والمرارات وأضعفت اقتصاد البلاد التي اجتاحتها المجاعات التي مات فيها خلق كثير.. فتناقصت أعداد السكان وضممرت قدراتهم.. فرأى من تبقى حالة من الإستقرار والهدوء تعم البلاد. كما رأوا في السياسة البريطانية المخاتلة عدلاً وأملاً جديداً في حياة أفضل.

في ختام الزيارة وفي رحلة قصيرة لم يتجاوز زمنها الساعة ونصف الساعة في بحر المانش التقى فقيه مغربي يدعى محمد الحسن الحجوي بالوفد السوداني فتعرف على أعضائه. وأعجبه حسن إستقبالهم له وبشاشتهم وفصاحة ألسنتهم وتأديبهم ورأهم أقرب شياً بالمصريين والتونسيين. ويبدو أنه لم يكن قد رأى سودانيين من قبل. وأخذ يتحدث معهم حول أحوال بلادهم وعن أوجه التقدم الذي طرأ عليها في السنوات الأخيرة والتعليم الذي أخذ في الانتشار وصدور الصحف التي بلغت أربعاً. هي «رائد السودان» و«حضارة السودان» و«السودان»، والرسمية «غازيتة السودان». وحدثوه عن القوانين التي تحكم البلاد والمنتجات الزراعية والنشاط الاقتصادي. وطلبوا منه أن ينقل ما حدثوه عنه إلى بلاده. وقد أظري هو الإحتلال الفرنسي كثيراً وما رأى أنه قد قدمه للشعب المغربي من أسباب الطمأنينة والعيش في سلام. وأجاب عن تساؤلاتهم حول مشاركة الجنود المغاربة في الحرب إلى جانب الحلفاء وحول إحترام فرنسا للدين الإسلامي وإهتمامها بالمساجد وصيانتها.

كان ذلك الرجل قد قام برحلة رسمية إلى أوروبا بتكليف من السلطان المغربي مولاي يوسف لحضور عيد الجمهورية الفرنسية وإحتفالات الإنتصار على الحلفاء وقد وجد الفرصة سانحة للعبور إلى بريطانيا حيث زار لندن ومانشستر وقادته الصدفة ليستقل تلك العبارة التي أقلت الوفد السوداني. وكان الفقيه الحجوي هذا على قدر من الوعي والإستتارة حيث تخرج في جامعة القرويين وشغل منصب نائب الملك في منطقة المغرب الشرقي. ويعتبر حسب الدراسات

المغربية المعاصرة فقيهاً مجتهداً ومفكراً إصلاحياً تجديدياً دعا إلى الانفتاح والإستنارة والأخذ بمقومات التمدن لاكتساب القدرة على التقدم واللاحاق بركب الحضارة الغربية.

وقد استطاع تلميذي الباحث السوداني عبدالله صالح سفيان المقيم بالرباط العثور على هذه الوثيقة النادرة أو النص الذي كتبه الحجوي حول لقائه الوفد السوداني الذي وصفه بصورة طريفة وأورد أسماء أفراده باختلافات طفيفة أضافت كثيراً لطرافة النص الذي نشره بمجلة «كتابات سودانية» في عددها الثامن الصادر في يونيو 1999.

من بولون توجه الوفد إلى باريس ومنها إلى مارسيليا لركوب البحر مرة أخرى إلى مصر ثم إلى السودان عن طريق السكة الحديد.. فوصل إلى محطة الخرطوم في مساء السابع عشر من أغسطس. وكان في مقدمة المستقبلين نائب الحاكم العام واليوزباشي أحمد عبدالله سعد ياور الحاكم العام وممثلو الجاليات الأجنبية والأعيان وجماهير الشعب. وظلت الدور الخاصة بأعضاء الوفد تغص بالمهنيين لعدة أيام.

ووقف الشاعر المهندس عبدالرحمن شوقي في دار السيد علي الميرغني المحتشدة بالناس وألقى قصيدة مادحة.. كما وقف نظيره الشاب الأستاذ أحمد محمد صالح وألقى قصيدة رائعة في إستقبال السيد عبدالرحمن حتى أوشك الناس أن يحملوه على الأعناق.

4 يونيو 2002

